الطبعة الثانية

أسوة للعالمين

صلى الله عليه وسلم





دكتور



أسوة للعالمين

دكتور

راغب السرجاني



١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٩٥٣٢/ ٢٠١١

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السرجاني، راغب

أسوة للعالمين / راغب السرجاني

القاهرة: أقلام للنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١١

٤٤٨، ٢٤ سم تدمك: ٢ -٠١- ٥١٣٧- ٩٧٧- ٩٧٨

١ - السيرة النبوية

أ. العنوان ٢٣٩

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٦٢٦٤٧



للنشر والتوزيع والترجمة (ش.م.م)

المقدمة

قال ربان الشقفي (شاعر سوري) :

أَنْتَ الأَمِينُ وَهَدْيُهُ ... ذِكْرٌ يَطِيبُ وَيَخْـلُدُ

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل الله فلا هادي له.

أمّا بعد؛ فقد أكرم الله البشرية جميعًا بالرسالة الخاتمة التي بعث الله بها نبيَّه ﷺ بشيرًا ونذيرًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[1]﴾؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فاستحقَّ بحقٍّ أن يكون ﷺ منقذًا للبشرية، وأسوة للعالمين.

فقد جاء رسول الله محمد ﷺ بمنهج شامل كامل للحياة يسعد من يعيش في ظلاله، وينعم بالراحة والأمان؛ لأنه منهج رباني يخاطب الفطرة السليمة، ويوازن بين متطلباتها الرُّوحية والجسدية، فتعامل رسول الله ﷺ مع كل الأمور التي واجهته بطريقة فذَّة، وبسُنَّة مطهَّرة أخرجت لنا كنوزًا هائلة من فنون التعامل، ومن آداب العلاقات، فلا يخلو - حقيقةً - أيُّ قول أو فعل له ﷺ من خُلقٍ كريم، وأدب رفيع، بلغ فيه الذروة، ووصل - بلا مبالغة - إلى قمة الكمال البشري، حتى في المواقف التي يصعب فيها تصوُّر الأخلاق كعاملٍ مؤثِّر؛ وذلك كأمور الحرب والسياسة، والتعامل مع الظالمين والفاسقين والمحاربين للمسلمين والمتربصين بهم، وكذلك في تواضعه، وقيادته، وإعطائه الحقوق لأصحابها، وفي حلّهِ للمشكلات، كما كان -أيضًا- نِعْمَ الأب والزوج والصاحب.. الأمر الذي نستطيع أن نفهم منه قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[2].

---

(١) (سبأ: ٢٨).

(٢) الحاكم (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والبيهقي في سننه الكبرى عن أبي هريرة (٢٠٥٧١) واللفظ له، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٥).

فالعظمة في سيرته ﷺ لا حدود لها.. لقد أثبت رسول الله ﷺ أن القواعد المثالية الراقية التي جاءت في كتاب الله ﷻ ما هي إلاَّ قواعد عملية قابلة للتطبيق، وأنها صالحة لتنظيم حياة البشر أجمعين، وأنها الدليل الواضح لمن أراد الهداية بصدق، كما كانت حياته ﷺ ترجمة صادقة لكل أمر إلهي، وقد صَدَقَت ووُفِّقت أم المؤمنين عائشة[١] رضي الله عنها في وصف أخلاقه ﷺ عندما قالت: خُلق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن[٢]، فكان كل ذلك دليل على صدق نبوته وكمال رسالته!

وكان محمد رسول الله ﷺ خير قدوة وخير مَثَل لأصحابه؛ لذلك تعمَّق حبُّه في قلوبهم؛ حتى كان يتمنَّى أحدهم أن يفدي رسول الله ﷺ برُوحه ولا يصاب ﷺ بشوكةٍ تؤذيه[٣]. هكذا عاش محمدٌ النبي ﷺ في وجدانهم وضمائرهم، فكان حب صحابته له دليلاً أكيدًا على صدقه، ونحن الآن ما أحوجنا إلى هديه وسنته في عالمٍ يموج بالمشكلات المعقدة والمتنوعة!

ونحن في هذا الكتاب نقدم من الأدلة ما يؤكد نبوته ﷺ وكمال رسالته وعظمة سخصيته، وما أروع ما كتب المستشرق الفرنسي إميل درمنجم[٤]: «ولا بُدَّ لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بُدَّ له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد (ﷺ) الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد (ﷺ) يتحدَّى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله،

---

(١) هي أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة. كانت أحب زوجاته ﷺ إلى قلبه، وكانت من علماء الصحابة، توفيت سنة ٥٨هـ. انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة الترجمة (١١٤٤٩)، وابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٩١.

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل... (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (١٦٠١)، وأحمد (٢٤٦٤٥). وزاد مسلم: يغضب لغضبه ويرضى لرضاه.

(٣) قال زيد بن الدثنة لأبي سفيان: والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو في يصيبه شوكة تؤذيه. انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٧٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ١٢٨، والصالحي: سبل الهدى والرشاد ٦/ ٤٢، ١١/ ٤٣١.

(٤) إميل درمنجم (Emile Dermenghem): مستشرق فرنسي، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) (١٩٢٩م) وهو من أدقِّ ما صنَّفه مستشرق عن النبي ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية) (١٩٥٥م)، ونشر عددًا من الأبحاث في مجلات مثل: (المجلة الأفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ١/ ٣٤٨.

وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد (ﷺ) على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه»[١].

هذا هو محمد ﷺ رسول الله للعالمين، الذي قاد الإنسانية إلى الخير والأمان والطمأنينة والسكن، فهيا بنا ننطلق لنعرف العالم به شرقًا وغربًا، بفكرٍ واعٍ ووسيلة مبتكرة، ورغبةٍ أكيدة في هداية البشرية.

❊ ❊ ❊

(١) إميل درمنجم: حياة محمد، ص١٩٥.

منهج البحث

قال نور الدين السالمي (شاعر عُماني) :

وَأَيُّ طَرِيقٍ أَقْتَفِي فِي سُلُوكِهِ ... سَبِيلُ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنُ الْمَنَاقِبِ

منهج البحث

هذا البحث الذي بين أيدينا يتناول موضوعًا من أهمِّ الموضوعات التي نحتاج إليها في زماننا هذا، بل وفي كل الأزمنة؛ فرسولنا ﷺ قد تَعَرَّض للكثير من التشويه والتزييف في سيرته، فاختلط الحقُّ بالباطلِ، وأصبح الحليم حيرانًا، وخاصة مَنْ لم يسمع عنه من قَبْلُ من أبناء الغرب والشرق.

ومن هنا فإنَّ دور هذا البحث لا يقتصر على تعريف المسلمين بنبيِّهم ﷺ وإثبات نبوتهِ، وإنما يتخطَّى ذلك إلى نفع البشرية كلها؛ لأن سيرته ضربت كأسوة للعالمين في نقائها وكمالها.

وكنت أرجو عند الشروع في هذا البحث أن أُحصي كل المواقف التي تُثبت صدقه وإنسانيته ﷺ، إلاَّ أن هذا الحصر والاستقصاء يبدو مستحيلاً؛ إذ إن هذا الحصر بمعناه الدقيق يعني - تقريبًا - الحديثَ عن كل مواقف حياته ﷺ؛ من أول يوم في بعثته وإلى آخر يوم في حياته ﷺ، فنبوته واضحة جلية في كل مواقفه وتعاملاته.

ومن ثم فقد سدَّدْتُ وقاربْتُ، بأن قمتُ بجمع كل ما له علاقة مباشرة بفكرة البحث، واكتفيتُ ببعض النماذج التي تعطي انطباعًا أكيدًا على صدقه وعظمة رسالته.

وغنيٌّ عن البيان أن الغرض من البحث ليس عرض سيرته ﷺ، ولكن الغرض هو الوقوف على بعض جوانب العظمة في حياته، وإبراز جوانب الرحمة والتسامح، وبيان الأدلة العقلية والكونية على نبوته ﷺ وربطها بالأدلَّة الشرعية، وتناول الشبهات المثارة في الإعلام الغربي عن النبي محمد ﷺ.

وعلى عكس ما يكون في كثير من الأبحاث من صعوبة نتيجة قلَّة المصادر التي لها علاقة بالموضوع، فإن هذا البحث كانت صعوبته لأمر مخالف تمامًا! لقد كان من التحديات الكبرى التي واجهتني في هذا البحث وفرة المصادر والمعلومات بشكل لافت



للنظر.. فهناك المئات والآلاف من المجلدات التي كُتبت بأيدي علماء المسلمين - بل وبأيدي غير المسلمين - والتي تصف حياته ﷺ وصفًا دقيقًا، شملت كل دقيقة من دقائق حياته، وهو ما لم يحدث قبل ذلك - ولن يحدث أبدًا - مع أي شخصية أخرى غيره ﷺ.

ولأجل هذه الوفرة في الكتب والمصادر فقد جعلتُ لنفسي منهجًا في الاعتماد على هذه المصادر، ويتلخَّص ذلك المنهج فيما يلي:

أولاً: الاعتماد بشكلٍ رئيسي على ما جاء في القرآن الكريم من جوانب العظمة في حياته وإثبات نبوته وصدق رسالته، والاعتماد في شرح هذه الآيات وفهم معانيها على كتب التفسير الموثَّقة، مثل التفاسير التي كتبها الطبري، وابن كثير، والقرطبي ، رحمهم الله جميعًا، وغير ذلك من التفاسير القيِّمة حسب الحاجة.

ثانيًا: الاعتماد بشكلٍ رئيسي - قدر الإمكان - على ما صحَّ من مروياتٍ في كتب السُّنَّة المعتمدة، وأوَّلها بلا جدال صحيح البخاري ثم صحيح مسلم، وبعد ذلك كتب السُّنَّة العظيمة؛ كسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه والبيهقي.. وغيرهم، وكذلك كتب المسانيد وفي مقدمتها مسند أحمد بن حنبل.

ولم يكن النقل عن هذه المصادر مجرَّدًا من التوثيق والتصحيح؛ فقد حرصت على البحث عن تقييم علماء الحديث الثقات - سواء من الأقدمين أو المعاصرين - لهذه المرويات، ولم أُثبِتْ في هذا البحث إلاَّ ما قرأت تصحيحًا له - أو قبولاً على الأقلِّ - من عالم معتبرٍ، أو محدِّثٍ ثقة.

ثالثًا: يأتي بعد كتب السُّنَّة الموثَّقة كتب المغازي والسير والدلائل والشمائل، وهي كتب كثيرة، وبها أحداث متوافرة، ولكن يعيبها أن بها الكثير من الضعيف، بل والكثير مما لا أصل له؛ ومن ثم كان حرصي في هذا البحث - قدر المستطاع - على عدم النقل عن أحد هذه الكتب إلاَّ بعد رؤية تصحيح للرواية في الكتب التي اهتمَّت بذكر صحيح السيرة، أو كتب السيرة التي حرص فيها أصحابها على نقد الروايات، وعلى تقديم الصحيح على الضعيف، بالإضافة إلى كتب السيرة التي علَّق عليها، وخرَّج مواقفها علماء الحديث المعتبرون.

رابعًا: أعرضت في هذا البحث عن كل موقف أو حديث لم أقف على تخريجٍ له.

خامسًا: بعد ذكر الموقف أو الحديث كنت أُعلِّق عليه وأذكر المستفاد منه، وما أضافه لفِقْهنا عن حياة رسولنا الأكرم ﷺ، وهذا التعليق على الحديث كان أحيانًا نتيجة استنباط مني، أو رؤية خاصَّة بي، وأحيانًا أخرى كان نقلاً عن أحد العلماء الذين أَلَّفوا في هذا الموضوع، وفي الحالة الأخيرة كنت أُثبِتُ الكتاب الذي نقلت عنه هذه الرؤية.

وبعد أن قمتُ بجمع مادَّة البحث قمتُ بصياغتها في ثلاثة أبواب على النحو التالي:

في الباب الأول: تحدَّثت عن رسول الله ﷺ، الإنسان الذي قدَّم للبشرية جميعًا الأُسوة في كل مظاهر الحياة، وقد قسَّمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول، كان الأول منها يصف أخلاق رسول الله ﷺ وكمالها، قبل نبوته وبعدها، أمَّا الفصل الثاني فقد تناولت فيه معاملاته ﷺ مع زوجاته وأولاده وأصحابه وجنوده، وفي الفصل الثالث والأخير ذكرت بإيجاز طرفًا من نظرته ﷺ للحقوق؛ حقوق الإنسان والمرأة والطفل، ووصولاً إلى حقوق الحيوان؛ ليدرك الجميع مدى العظمة النبوية، والتي تميَّزت بالتعامل الراقي مع كل الوجود.

أمَّا الباب الثاني فباب رئيس في البحث، وقد خصَّصته للحديث عن أدلة نبوته ﷺ، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها، ولكنني استعنت بالله وقسَّمتُ هذا الباب المهمَّ إلى فصول ستة:

أمَّا الفصل الأول فذكرت معجزة النبي محمد ﷺ الخالدة القرآن، والتي تثبت كل يوم أنها وحي من رب العالمين؛ حيث تناولتُ فيه - بإيجاز شديد - مظاهر الإعجاز القرآني المتنوِّعة؛ اللغوية، والبيانية، والعلمية، والتاريخية، والغيبية.

وفي الفصل الثاني ذكرت الإعجاز في كلماته ﷺ متناولاً هذا الإعجاز من مظاهر ثلاثة؛ هي: الإعجاز الغيبي، والعلمي، والبياني.

وفي الفصل الثالث ذكرت فيه حَلَّه ﷺ لأصعب المشكلات التي واجهته ﷺ، وكيف تغلَّب عليها بتطبيق منهج الله ﷻ.

أمَّا الفصل الرابع فتحدَّثت فيه عن دليل مهمٍّ من أدلة نبوته، ألا وهو حياته ونقائها.

وفي الفصل الخامس تناولت ذِكْرَه ﷺ في الكتب السابقة رغم تحريفها.

وفي الفصل السادس والأخير ذكرتُ شهادات على صدق نبوته؛ أوَّلها شهادة رب العالمين، مرورًا بشهادة المقرَّبين منه، بل وشهادة أعدائه، وانتهاءً بشهادة الواقع.

وأمَّا الباب الثالث فتحدَّثت فيه عن تعامل النبي مع غير المسلمين من خلال خمسة فصول؛ الفصل الأول يحمل عنوان (النبي ﷺ والرسالات السابقة)، وفيه عرضت نظرة القرآن والرسول ﷺ للرسالات السابقة.

أمَّا الفصل الثاني فتحدَّثْتُ فيه عن تعاملاته ﷺ مع غير المسلمين في حال السلم؛ سواء كان هذا التعامل في مكة، وهو ﷺ في حال الضعف، أو بعد هجرته للمدينة ورئاسته للدولة الإسلامية.

أمَّا الفصل الثالث فتحدثت فيه عن معاهداته ﷺ مع غير المسلمين سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو مشركين.

والفصل الرابع تحدثت فيه عن حروبه مع غير المسلمين والتي اضْطُرَّ إليها النبي ﷺ اضطرارًا، ورغم ذلك فقد تحلَّتْ كلها بالأخلاق الكريمة من عفو وحلم، وغير ذلك.

وفي الفصل الخامس والأخير ذكرتُ أبرز الشبهات المثارة حول النبي ﷺ والردَّ عليها.

وقد أثْبَتُّ بعد الانتهاء من كتابة البحث كل المراجع والمصادر التي عُدْتُ إليها، وذلك بعد أن صنَّفتها إلى مجموعات بحسب المادَّة، وقد رتَّبت المصادر أبجديًّا على اسم المؤلف، متجاهلاً أداة التعريف «ال»؛ وذلك لتسهيل الوصول إلى المرجع المطلوب، وقد أثْبَتُّ كذلك لكل مرجع الاسم الكامل له ولمؤلفه، وكذلك - قدر الإمكان - دار الطباعة والنشر، وبلدها، وسنة الطبع، ورقم الطبعة، كما حرصت على ذكر أسماء المحققين أو المترجمين إن وُجدت.

هذا، وقد اجتهدتُ أن أُطَعِّمَ هذا البحث ببعض الأمور التي ترفع من قيمته، وتُثري مادَّته، وتُسهِّل فهمه، وتُيسِّر الطلب فيه، فزوَّدته ببعض الخرائط والصور والأشكال البيانية، كما قمت بشرح غريب الكلمات، وكذلك ضمَّنته بعض التراجم المهمة.

كما حاولت أن أُثْري هذا البحث عن طريق إضافة مجموعة كبيرة من أقوال المستشرقين وعلماء الغرب والشرق غير المسلمين؛ ففي هذا حُجةٌ بالغةٌ على الناس أجمعين، كذلك زوَّدت البحث ببعض الأبيات الشعرية التي ألَّفها شعراء مسلمون في حقِّ نبينا ﷺ، كما زوَّدت البحث، بملحق خاص يحتوي على بعض شهادات المنصفين من علماء الغرب في حقِّ نبيِّنا ﷺ.

وفي نهاية البحث قمت بعمل عدة فهارس لتسهيل البحث عن أي معلومة، فبالإضافة إلى فهرس الموضوعات التقليدي، أضفت فهارس للآيات القرآنية، وللأحاديث النبوية، وكذلك للأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث والصفحات التي تَرَدَّد فيها اسم هذا العلم، كما فهرست -أيضًا- للأعلام الذين تُرجم لهم، كما أضفت فهرسًا للأماكن والمدن، وفهرسًا للخرائط والصور والأشكال.

وأخيرًا، فإنني أعتذر عمَّا سقط مني سهوًا دون تعمُّدٍ من مواقف عظيمة لرسولنا الكريم ﷺ، أو من أقوال حكيمة له، أو من أحكام فقهية مهمة لم يخطر على بالي أن أسجِّلها؛ فإن النقص من طبيعة البشر، والكمال على إطلاقه لا يكون إلاَّ لله ﷻ.

وعزائي في القول الموفَّق للعماد الأصبهاني[1]: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلاَّ قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل.. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) العماد الأصبهاني: هو العماد الأصبهاني أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد، ولد بأصبهان، وتعلم ببغداد، وعمل في «ديوان الإنشاء» زمن السلطان نور الدين، ثم لحق بصلاح الدين، له تصانيف عديدة منها «خريدة القصر» و«الفتح القسي القدسي» وقد استوطن دمشق وتوفي بها سنة ٥٩٧ هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١٤.

(٢) أبجد العلوم ١/ ٧٠.

الرسول ﷺ الإنسان

الفصل الأول: وإنك لعلى خلق عظيم
الفصل الثاني: معاملاته ﷺ
الفصل الثالث: النبي ﷺ والحقوق

قال أبو تمام (شاعر إسلامي شامي):

لكَ في رَسُولِ اللهِ أعْظَمُ أُسْوةٍ وَأَجَلُّهَا في سُنَّةٍ وَكِتَابِ

الباب الأول:

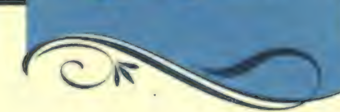
الرسول ﷺ الإنسان

تسمو أخلاق النبي ﷺ سموًّا لا يدانيه سموٌّ، فكان بحقٍّ إنسانًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ وظلال، فالله ﷻ يصطفي لنبوَّتِه ورسالاته خير البشر، وأكملهم عقلاً، وأقواهم نفسًا، وأنورهم قلبًا، وأقدرهم على تحمُّل المسئولية؛ لأنهم - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا - قدوة لبني البشر، ورسولنا ﷺ كان المنارة التي يهتدي بها السائرون في ظلمات الجهل، فكانت أخلاقه قمَّة سامية، ومعاملاته نبعًا صافيًا، وهذا ما سنتناوله من خلال الفصول التالية:

الفصل الأول: وإنك لعلى خلق عظيم

الفصل الثاني: معاملاته ﷺ

الفصل الثالث: النبي ﷺ والحقوق



وإنك لعلى خلق عظيم

قال ابن معصوم المدني (شاعر أندلسي):

نبيُّ الهُدى بحرُ النّدى أشرفُ الوَرى ... وأكرمُ خلْقِ اللّه جـاهًا وأعظمُ

الفصل الأول:

وإنك لعلى خلق عظيم

إن المتأمِّل في سيرة النبي ﷺ يجدها نبعًا سخيًّا، ومصدرًا ثريًّا لكل أنواع العظمة الإنسانيَّة، وكيف لا يكون كذلك وقد اصطفاه الله على بني آدم، وختم به أنبياءه ورسله، فكانت حياته أنصع حياة عرفتها الإنسانيَّة منذ نشأتها، فاستحقَّ ﷺ وصفَ الله تبارك وتعالى له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[1]﴾، وكان كمال أخلاقه دليلاً على نبوَّته ﷺ؛ لذلك آمن الكثير بنُبُوَّته بعد أن شاهدوا هذه الأخلاق بأعينهم، أو قرءوا عنها بعد وفاته ﷺ وهي أخلاق عملية ظهرت في أروع صورها في كل باب من أبواب الأخلاق المعروفة، وهذا ما سوف ندركه عند تناولنا لبعضٍ من جوانب عظمته ﷺ من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: كمال أخلاقه

المبحث الثاني: صدقه

المبحث الثالث: رحمته

المبحث الرابع: عدله

المبحث الخامس: كرمه

المبحث السادس: شجاعته

(١) (القلم: ٤).

المبحث الأول:
كمال أخلاقه

لقد كان رسول الله ﷺ أُسوة حسنة، ومثالاً يُحتذى به في كل شيء، فكانت أخلاقه مثالاً للفرد والجماعة، ودليلاً أكيدًا على نُبُوَّته ﷺ؛ فقد استطاع بالمنهج الربَّاني الذي أُوحي إليه أن يبني أُمَّةً من لا شيء، وأن يُقيم حضارة استحال على الزمان أن يجود بمثلها، هذه الحضارة بُنِيَتْ دعائمها على الأخلاق؛ لذلك قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1].

ويكفي النبي محمد ﷺ شرفًا أن الله ﷻ قد شهد له بعظمة الأخلاق فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[2]﴾، وهذه الشهادة الكبرى من الله ﷻ في حقِّ نَبِيِّه ﷺ دليل على أن أخلاقه ﷺ كانت عظيمة منذ خلقه الله ﷻ؛ ولذلك اشتهر بين قومه بالصادق الأمين، ولم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب أو الخيانة، بل افتروا وسائل أخرى لصدِّ الناس عنه؛ كالجنون والسحر.. وغير ذلك، ولم يكن وصف الله تعالى لنبيِّه ﷺ بعظمة الأخلاق وصفًا لحاله ﷺ فقط، بل إشارة منه ﷻ إلى أن الأخلاق الحسنة لا تجامع الجنون أو السحر أو غير ذلك مما افتروه على النبي ﷺ، وأنه كلَّما كان الإنسان أحسن خُلُقًا كان أبعد ما يكون عن الجنون[3].

ولقد انبهر الكثيرون - أعداؤه قبل أصحابه - بأخلاقه ﷺ، فكانت سببًا في إسلام بعضهم، فلننظر إلى ملك عُمان المعاصر لرسول الله ﷺ وهو الجُلَنْدى[4]؛ الذي انبهر بأخلاقه ﷺ، فقال: «والله لقد دلَّني على هذا النبيِّ الأُمِّيِّ أنه لا يأْمُرُ بخير إلاَّ كان أوَّل

---

(١) الحاكم عن أبي هريرة (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٥٧١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٢) (القلم: ٤).

(٣) انظر: شهاب الدين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٩/ ٢٥. بتصرف.

(٤) الجُلُنْدَى: مَلِكُ عُمان بعث إليه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام، انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة ١/ ٥٣٨ ترجمة رقم (١٢٩٨).

آخذ به، ولا يَنْهى عن شيء إلاَّ كان أوَّل تارك له، وأنه يَغْلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي»[١].

ومن عظمة أخلاقه ﷺ أنها متكاملة ومتكافئة؛ بحيث لا يطغى جانب على جانب آخر من أخلاقه ﷺ، فكان صبره ﷺ مثل شجاعته، وأمانته مثل كرمه، وصدقه مثل حلمه.. وهكذا لا نجد له ﷺ خُلُقًا في موضعه من الحياة يزيد وينقص على خُلُق آخر في موضعه، وهذا التكافؤ الخُلُقِيّ لم تعرفه الحياة الواقعية لإنسان غير محمد ﷺ[٢]؛ لذلك قال الشاعر الألماني جوته: «بحثتُ في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي العربي محمد ﷺ»[٣].

وكان القرآن الكريم هو المنبع الرئيسي الذي استمدَّ منه رسول الله محمد ﷺ أخلاقه، فأضفى على كماله الخلقي كمالاً، وعلى جميل أدبه جمالاً، وذلك بتوجيهه لكل خير، وإرشاده لكل معروف، حتى أصبح ﷺ كأنه قرآنًا يمشي على الأرض في أفعاله وأقواله؛ لذلك قالت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سألها سعد بن هشام بن عامر رضي الله عنه عن خُلُق رسول الله ﷺ: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى. قالت: فإنَّ خُلق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن[٤]. وفي رواية أخرى قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنين اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[٥]﴾. حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ»[٦]. فما أدقّ وصف أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأخلاق النبي ﷺ.

كما كانت رؤية النبي محمد ﷺ لطبيعة الإسلام رؤية مبنيَّة على مكارم الأخلاق، وهذا ما فهمه العرب منذ بداية دعوته ﷺ إلى الإسلام، فعندما عرض محمد ﷺ نفسه - مثلًا - على وفد بني شيبان بن ثعلبة - وكان في القوم مفروق بن عمرو، والمثنى بن

---

(١) القاضي عياض: الشفا ١/ ٢٤٨.
(٢) محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ١/ ٢١١، ٢١٢.
(٣) زغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٦٥.
(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل... (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (١٦٠١)، وأحمد (٢٤٦٤٥).
(٥) (المؤمنون: ١).
(٦) الحاكم (٣٤٨١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

حارثة، وهانئ بن قبيصة، والنعمان بن شَريك - فتلا عليهم رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[1]﴾، فقال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه. فتلا رسول الله ﷺ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[2]﴾، فقال مفروق: دعوتَ والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، ولقد أُفِكَ[3] قومٌ كذبوك وظاهروا عليك[4].

ولقد ظهر تعظيمه ﷺ للأخلاق في كثير من كلماته وأحاديثه، فها هو رسول الله محمد ﷺ يقول معلِّمًا لأصحابه: «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ»[5].

ولم تكن هذه الأخلاق مقصورة على قوم دون آخرين أو طائفة دون طائفة، بل ظهرت واضحة جلية في كل تعاملاته؛ فقد كان كثير المخالطة لأصحابه، لم يعتزل عنهم أبدًا، كان يُجالس الفقراء، ويرحم المساكين، وتسير به الأَمَة في شوارع المدينة أينما شاءت، وكان يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويزور أصحابه في بيوتهم، ويزورونه في بيته، وهو في كل ذلك دائم الابتسامة، منبسط الأسارير، متهلِّل الوجه، وكان رحيمًا بأُمَّته تمام الرحمة، ما خُيِّر بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس عنه، وكان كثير العفو حتى عَمَّن ظلمه وبالغ في ظلمه.

---

(1) (الأنعام: 151).

(2) (النحل: 90).

(3) أُفِكَ قوم كَذَّبوك: أي صُرفوا عن الحق ومُنعوا منه. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر 1/ 136، وابن منظور: لسان العرب، مادة أفك 10/ 390.

(4) انظر: البيهقي: دلائل النبوة (695)، وابن الأثير: أسد الغابة 5/ 264، وأبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة 5/ 2642، وابن كثير: السيرة النبوية 2/ 167، والسهيلي: الروض الأنف 4/ 37، وابن سيد الناس: عيون الأثر 1/ 202، 203.

(5) الترمذي عن عائشة رضي الله عنها (2612)، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وأحمد (24250، 24721)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح لغيره.



كما كانت أخلاقه ﷺ عظيمة في بيته، وفي تعامله مع غير المسلمين في مجتمعه، بل وتميز -أيضًا- ﷺ بمعامله أعدائه ومبغضيه بكل رفق وأناة، وقد شهد بحسن خلقه أبو سفيان قبل أن يُسلم وهو زعيم المشركين، فقال عند إسلامه: «والله إنك لكريم، ولقد حاربتك فنعم محاربي كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، فجزاك الله خيرًا»(١).

وبعدُ، فإننا لن نستطيع أن نستقصي أخلاق الرسول ﷺ في صفحات قليلة، فقد كانت أخلاق رسول الله ﷺ محطَّ إعجاب كثير من المسلمين وغير المسلمين، فها هو ذا المستشرق البريطاني وليم موير(٢) (١٨١٩-١٩٠٥م)، يصف حياته ﷺ قائلاً: «كانت السهولة صورة من حياته كلها، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقلِّ تابعيه، فالتواضع، والشفقة، والصبر، والإيثار، والجُود صفات ملازمة لشخصه، وجالبة لمحبَّة جميع مَنْ حوله، فلم يُعرَف عنه أنه رفض دعوة أقلِّ الناس شأنًا، ولا هديةً مهما صغرت، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصُّه بإقبال وإن كان حقيرًا، وكان إذا لقي مَنْ يفرح بنجاحٍ أصابه أمسك يده وشاركه سروره، وكان مع المصاب والحزين شريكًا شديدَ العطف، حَسَنَ المواساة، وكان في أوقات العسر يقتسم قُوتَهُ مع الناس، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحةِ مَنْ حوله وهناءتهم»(٣).

هذا هو رسولنا ﷺ الذي نفخر به، وتفخر معنا البشريَّة كلها؛ فقد كان حقًّا خُلُقه القرآن.

***

(١) أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة ٣/ ١٥٠٩.
(٢) السير وليم موير (William Muir): مؤرِّخ ومستشرق إنجليزي، وكان يبحث في الإسلام ويدرس أخلاق نبي الإسلام منذ بداية وجوده في الهند عام ١٨٣٧م، ودرس الحقوق في جامعتي أدنبره وجلاسجو، ووصل إلى منصب رئيس جامعة أدنبره، وتُوُفِّيَ عام ١٩٠٥م.
(٣) انظر: وليم موير: حياة محمد نقلًا عن سعيد حوى: الرسول ص١٤٧.

المبحث الثاني:
صدقـــــه ﷺ

الصدق من أعظم الأخلاق التي يتَّصف بها إنسان؛ لذا كان محلَّ عناية القرآن؛ فقال تعالى موجِّهًا نداءه لكل مَنْ آمن به ربًّا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[1]﴾؛ للدلالة على أن المجتمع المسلم يجب أن يتَّصف بهذه الصفة الرائعة صفة الصدقِ؛ لأنها مفتاحُ كلِّ خيرٍ.

وكان رسول الله ﷺ مثالاً قدوة في هذه الصفة؛ فقَبْل بعثته لُقِّب من قِبَل قريش بالصادق الأمين؛ فقد كانوا يستودعونه حوائجهم، ويأتمنونه على أشيائهم وأسرارهم، وحينما بُعِث ﷺ وأظهر له بنو جلدته وعشيرته العداوة والبغض والكره والحرب؛ ظلَّ ﷺ على حُسْنِ خُلُقه، وظهر ذلك في ردِّ الأمانات إلى قوم جعلوا أنفسهم أعدى أعدائه[2].

وعندما أمره الله ﷻ بإنذار عشيرته الأقربين صعِد على جبل الصفا، وقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا...[3].

كما شهد بصدقه أكثر الناس عداء له وهو النضر بن الحارث الذي قام خطيبًا في سادة قريش قائلاً لهم: «يا معشر قريشٍ، إنه والله قد نَزَلَ بكم أمرٌ ما أَتَيْتُم له بحيلةٍ بَعْدُ، قد كان محمدٌ فيكم غلامًا حدثًا[4]، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صُدْغَيْهِ الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر؛ لقد

---

(١) (التوبة: ١١٩).

(٢) البيهقي: السنن الكبرى (١٢٤٧٧)، وابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢١٨، ٢١٩، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٦٩.

(٣) البخاري عن عبد الله بن عباس: كتاب التفسير، تفسير سورة الشعراء (٤٧٧٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٥٠٨).

(٤) غلامًا حدثًا: أي فَتِيُّ السِّنِّ، ورجلٌ حَدَثٌ أي شابٌّ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حدث ٢/ ١٣١.

رأينا السَّحَرَة ونَفْثَهُم وعقدهم، وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتَخَالُجَهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر. لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها؛ هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون. لا والله ما هو بمجنون... فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيمٌ»(١).

وأكبر من هذا كله شهادة رب العالمين على صدقه ﷺ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(٢)﴾، والذي جاء بالصدق هو نبينا محمد ﷺ، والذي شهد لما جاء به هو الله ﷻ في قرآنه المنزَّل من فوق سبع سماوات، ويقول ابن عاشور معلقًا على هذه الآية: «الذي جاء بالصدق هو محمد رسول الله ﷺ، والصدق هو القرآن»(٣).

وكان رسول الله ﷺ دائمًا ما يحثُّ المسلمين على الصدق في أقوالهم وأفعالهم فيقول ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(٤).

بل ويُوَجِّه رسول الله ﷺ خطابه للمسلين قائلاً لهم: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ؛ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»(٥).

ومن عظمة رسول الله ﷺ التربوية ما تركه في نفوس أحفاده والمسلمين من حُبِّ

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٩٩، ٣٠٠، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٦٨، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٤٢٧.

(٢) (الزمر: ٣٣).

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٦.

(٤) مسلم عن عبد الله بن مسعود: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي (١٩٧١)، وابن ماجه (٣٨٤٩).

(٥) أحمد بن حنبل عن عبادة بن الصامت: باقي مسند الأنصار، حديث عبادة بن الصامت ﷺ (٢٢٨٠٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات. وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٨٠٦٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (١٠١٨).

الصدق، وأكبر دليل على ذلك ما رواه أبو الحوراء السعدي حيث قال: قلتُ للحسن بن علي ﷺ: ما حفظت من رسول الله ﷺ؟ قال: حفظت من رسول الله ﷺ «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ»(١).

ولم ينشأ هذا الحبُّ من فراغ، ولكن النبي ﷺ كان مُتَّصِفًا بهذه الصفة في كل أفعاله وأقواله؛ حتى في وقت المرح والفكاهة التي يظنُّ البعض أن الكذب فيها مباح، فعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمله، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ» . قال: يا رسول الله، ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلاَّ النُّوقُ؟!»(٢). فكانت هذه الفكاهة من النبي ﷺ مع رجل من عامَّة المسلمين من باب تقارب النفوس، وزيادة المحبة، ولكنه ﷺ لم يستعمل فيها إلاَّ الصدق.

وكذلك كان حاله ﷺ في وقت الحرب، الذي أجاز فيها النبي ﷺ الكذب على الأعداء اتِّقاءَ لشرِّهم ودفعًا لضررهم(٣)، ولكنه ﷺ لم يقل -أيضًا- إلاَّ صدقًا، ولننظر إلى موقفه قُبيل غزوة بدر، التي خرجت فيها قريش لتستأصل المسلمين، فخرج ﷺ ومعه أبو بكر الصديق ﷺ؛ ليتعرَّفَا أخبار قريش فوقفا على شيخٍ من العرب، فسأله ﷺ عن قريشٍ، وعن محمدٍ وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَخْبَرْتَنَا أَخْبَرْنَاكَ» . قال: أذاك بذاك؟ قال: «نَعَمْ». قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به رسول الله ﷺ - وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا. للمكان الذي فيه قريشٌ. فلمَّا فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ مِنْ مَاءٍ». ثم انصرف

---

(١) الترمذي: كتاب صفة القيامة (٢٥١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (١٧٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح، والنسائي (٧٢٧٥)، وأبو يعلى (٦٧٦٢)، والحاكم (٧٠٤٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع (٣٣٧٨).

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (٤٩٩٨)، وأحمد (١٣٨٤٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين... وأبو يعلى (٣٧٧٦)، وقال حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح.

(٣) ما يباح من الكذب، انظر: النووي: رياض الصالحين ص٥٦٥، ٥٦٦.

عنه، قال يقول الشيخ: ما من ماءٍ؛ أمن ماء العراق؟[١].

وما أجمل أن نختتم مبحثنا هذا بقصة رسول الله ﷺ مع وفد هوازن الذي عَلَّمَه فيه قيمة الصدق في أول يوم لهم في الإسلام، فقال له ﷺ: «أَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ...»[٢].

هكذا كانت حياته ﷺ حياة يملؤها الصدق في كل شيء، وهذا ما دعا كارليل إلى أن يقول: «... هل رأيتم قط أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دِينًا عجبًا؟ إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب! فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجصّ والتراب وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه ببيت؛ وإنما هو تلٌّ من الأنقاض وكثيب من أخلاط الموادّ، وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس[٣]، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن، وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته. كذبٌ ما يذيعه أولئك الكفار، وإن زخرفوه حتى تخيَّلُوه حقًّا... ومحنةٌ أن ينخدع الناسُ شعوبًا وأممًا بهذه الأضاليل...»[٤].

***

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٩٦، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦١٥، والسهيلي: الروض الأنف ٥/ ٧٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٢٩.

(٢) البخاري عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة: كتاب الوكالة، باب إذا وهب شيئا لوكيل أو شفيع قوم جاز (٢٣٠٧)، وأبو داود (٢٦٩٣)، وأحمد (١٨٩٣٤).

(٣) هذا التعداد الذي ذكره كارليل كان وقت إصداره لكتابه (الأبطال)، أما الآن عام ٢٠٠٨م فقد تجاوز عدد المسلمين في العالم ١,٣ مليار نسمة. انظر: جريدة الشرق الأوسط: www.asharqalawsat.com.

(٤) كارليل: الأبطال ص٤٣.



المبحث الثالث:

رحمتـــه ﷺ

إن الرحمة صفة من صفات الله تبارك وتعالى، ومن عظيم رحمته ﷻ أنه أرسل محمدًا ﷺ رحمةً للبشريَّة كلها؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو ما أخبر به تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[1]﴾.

ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[2]. فكانت رحمته ﷺ عامَّة للناس جميعًا، وخاصَّة كذلك لأُمَّته، ولننظر إلى حديثه ﷺ الذي قال فيه: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ[3] عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ[4] فِيهَا»[5]. فهذه رحمة غير مسبوقة، لا يماثلها أو يقترب منها رحمة في العالم.

ولقد شملت رحمته ﷺ الكبار والصغار، والرجال والنساء، والقريب والبعيد، بل الصديق والعدوَّ، كما أنها كذلك ليست محدودة بمكان أو زمان، وإنما هي لكل العالمين منذ بعثته ﷺ إلى يوم الدين؛ لذلك نجده ﷺ يُعَلِّم أُمَّته خُلُق الرحمة قائلاً: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ

---

(١) (الأنبياء: ١٠٧).

(٢) الدارمي: المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ (١٥)، وقال سليم أسد: إسناده صحيح. والحاكم (١٠٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما..، والطبراني: المعجم الكبير (٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٣٤٥).

(٣) بحجزكم: جمع حجزة، وهي معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة، والمراد أنه يمنعهم من الوقوع في المعاصي التي تكون سببا لولوج النار. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١١/٣١٨.

(٤) يقحمون: الأصل تتقحمون، فحُذفت إحدى التاءين، والقحم هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت، ويطلق على رمي الشيء بغتة، واقتحم الدار هجم عليها. المصدر السابق.

(٥) البخاري: كتاب الرقائق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته على أمته... (٦٠٩٥).

عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[١].

فالرحمة التي ظهرت في كل أقوال وأعمال رسول الله ﷺ لم تكن رحمة مُتكلَّفة، تَحْدُث في بعض المواقف من قبيل التجمُّل أو الاصطناع، إنما كانت رحمة طبيعيَّة تلقائيَّة مُشاهَدة في كل الأحوال، برغم اختلاف الظروف وتعدُّد المناسبات، حتى إن هذه الرحمة غلبت على كل أخلاقه فصارت أبرزها، وليس هذا عجيبًا؛ فإن المتدبِّر في القرآن الكريم يجد أن أبرز الصفات الأخلاقية التي وردت فيه كان خلق الرحمة (شكل رقم ١).

فلننظر إلى رحمته بكبار السنِّ والأطفال؛ فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[٢]. فما أعظم هذا المجتمع الذي ربَّاه النبي ليتراحم الجميع فيما بينهم امتثالاً لأقواله ﷺ!

ونجده ﷺ رءوفًا رحيمًا بالمخطئين، الذين جاءوا ليعترفوا بذنوبهم، فقد لا يستطيع أحدهم أن يرفع عن نفسه حرج الذنب، فيأتي لرسول الله ﷺ لعلَّه يرفع عنه ما أسرفه على نفسه، وسيرته مليئة بالشواهد الدالَّة على ذلك، ومن أمثلة ذلك ما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: بينما نحن جلوسٌ عند النبيِّ ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكْتُ. قَالَ: «مَا لَكَ؟» قال: وقعتُ على امرأتي وأنا صائمٌ. فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟» قال: لا. قال: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟» قال: لا فقال: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟» قال: لا. قال: فمكث النَّبيُّ ﷺ فبينا نحن على ذلك أُتِيَ النبيُّ ﷺ بِعَرَقٍ[٣] فيها تمر، قال: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فقال: أنا. قال: «خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ». فقال الرَّجل: أعلى أفقر منِّي يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابَتَيْهَا[٤] - يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ - أهل بيتٍ

---

(١) البخاري عن أسامة بن زيد: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يُعَذَّبُ المَيتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ». (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٣).

(٢) الترمذي عن أنس بن مالك: كتاب البر والصلة، باب رحمة الصبيان (١٩١٩)، وأحمد (٦٧٣٣) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. والحاكم (٢٠٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨)، والطبراني في الكبير (١٢٢٧٦)، وأبو يعلى (٤٢٤٢)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٥٤٤٥).

(٣) العَرَق: المكتل والجراب والوعاء المنسوج من الخوص، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرق ١٠/ ٢٤٠.

(٤) لابتيها: مثنى لابَة، وهي الأرض التي بها حجارة سُودٌ، والرجل يقصد المدينة المنورة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لوب ١/ ٧٤٥.



الخلق	العدد
الرحمة	315
الصدق	145
الصبر	90
العفو	43
الكرم	42
الأمانة	40
الوفاء	29
العدل	24
الحلم	15

شكل رقم (١) الأخلاق في القرآن الكريم

أفقر من أهل بيتي. فضحك النبيُّ ﷺ حتى بَدَتْ أنيابُهُ، ثمَّ قال: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[١]. فما أرحم هذا التعامل من رسول الله ﷺ! فقد ظلَّ ﷺ يُعَدِّد عليه وسائل الكفَّارة بلا انفعال أو غضب، بل قابل الأمر بالابتسامة التي تعطي المخطئ نوعًا من الاطمئنان النفسي، وعندما أبدى الرجل عجزه عن فعل أيٍّ منها لم ينزعج رسول الله ﷺ؛ بل جاء له بتمر صدقةٍ أتاه، وقال له: خذ هذا التمر وكفِّر به عن ذنبك.

وظهرت رحمته ﷺ كذلك في مجال العبادة؛ فقد شكا إليه رجل، فقال: والله يا رسول الله، إني لأتأخَّر عن صلاة الغداة[٢] من أجل فلان ممَّا يُطيل بنا. فما رأيتُ رسول الله ﷺ في موعظة أشدَّ غضبًا منه يومئذ، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ، وَالْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ»[٣].

كما تجلَّت مظاهر الرحمة في تعامله ﷺ مع الأسرى؛ فها هي ابنة حاتم الطائي[٤] التي أُسِرت في حرب مع قبيلة طيِّئ، فجُعِلَت في حظيرة بباب المسجد، فمرَّ بها الرسول ﷺ؛ فقامت إليه، وكانت امرأةً جَزْلة[٥]؛ فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد[٦]، فامْنُنْ عليَّ مَنَّ الله عليك... فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ فَعَلْتُ[٧]، فَلا تَعْجَلِي بِخُرُوجٍ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكِ مَنْ يَكُونُ لَهُ ثِقَةً حَتَّى يُبَلِّغَكِ إِلَى بِلادِكِ، ثُمَّ آذِنِينِي». تقول ابنة حاتم الطائي: وأقمْتُ حتى قَدِمَ رَكْبٌ من بَلِيٍّ أو قضاعة، وإنما أُريد أن آتي أخي بالشام، فجئتُ فقلتُ: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقةٌ وبلاغ. قالت: فكساني، وحَمَلَني،

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتُصُدِّقَ عليه فليُكفِّر (١٩٣٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان (١١١١).

(٢) صلاة الغداة: أي صلاة الصبح، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٢/ ١٩٨.

(٣) البخاري عن أبي مسعود: كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طوَّل (٧٠٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٤٦٦).

(٤) سفانة بنت حاتم الطائي: والدها جواد العرب المشهور حاتم الطائي. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٤٦، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ترجمة رقم (١١٢٩١).

(٥) امرأة جزلة: أي عاقلة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جزل ١١/ ١٠٩.

(٦) غاب الوافد: تعني به أخاها عديًّا، وكان من المفترض أن يَفِدَ عليها بالخدمة؛ فلا هو حمى قومه، ولا هو رعاها، ولا هو جاء إلى الرسول ﷺ ليفكَّ أسرها، أو هو من غاب الوافدان أي هَرِمَتْ، والوافدان هما الناشزان من الخدين. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة وفد ٣/ ٤٦٤.

(٧) المقصود هنا أن الرسول مَنَّ عليها وأعتقها بلا مقابل.

وأعطاني نفقة، فخرجتُ معهم حتى قَدِمْتُ الشام(١).

وهنا وقفة مع هذا الموقف العظيم؛ نرى فيه بوضوح هذا التعامل الإنساني الرحيم من رسول الله ﷺ مع هذه الأسيرة؛ حيث لم يَرْضَ الرسول الكريم ﷺ لها أن تخرج منفردة وحيدة، بل طلب منها ألاَّ تتعجَّل بالخروج حتى تجد من قومها مَنْ يكون ثقة فتسير معه.

بل إن رحمته تجاوزت البشر لتصل إلى الدوابِّ والأنعام، وإلى الطير والحشرات، فنرى في سيرته أنه يخبر عن زانية غفر الله لها لتَحرُّك الرحمة في قلبها لكلب(٢)! وتتجاوز رحمته البهائم إلى الطيور الصغيرة التي لا ينتفع بها الإنسان كنفعه بالبهائم، ولننظر إلى رحمته بعصفور! حيث يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللهِ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلاَنًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ»(٣).

إنها الرحمة المتجرِّدة عن أي هوًى، والتي ليس من ورائها نفع دنيوي ولا هدف شخصي، فما أروعها من رحمة تمسح الآلام وتخفِّف الأحزان!

* * *

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٨٨، وابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ٢٧٦، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١٢٣، ١٢٤.

(٢) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم... (٣٣٢١)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

(٣) النسائي عن الشريد بن سويد (٤٤٤٦)، وأحمد (١٩٤٨٨)، وابن حبان (٥٨٩٣)، والطبراني: المعجم الكبير ٦/ ٤٧٩، وقال الشوكاني: هو حديث مروي من طرق قد صحح الأئمة بعضها. انظر: الشوكاني: السيل الجرار ٤/ ٣٨٠.

المبحث الرابع:
عدلــــــه ﷺ

العدل خُلُق كريم وصفة عظيمة جليلة، محبَّبة إلى النفوس، تبعث الأمل لدى المظلومين؛ لذلك جاء أمر الله صريحًا في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ[1]﴾، كما أمر الإسلام بالعدل مع العدوِّ رغم شدَّة كراهيتنا لأفعاله، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى[2]﴾؛ فالعدل يُعيد الأمور إلى نصابها، وبه تؤدَّى الحقوق لأصحابها، وما وُجِد في قوم إلاَّ سعدوا، وما فُقِد عند آخرين إلاَّ شقُوا.

لذلك حرص ﷺ على تعليم صحابته قيمة العدل مبيِّنًا لهم عظيم أجره يوم القيامة، فقال ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ بِمَا أَقْسَطُوا فِي الدُّنْيَا»[3].

هكذا غرس النبي ﷺ صفة العدل في قلوب أصحابه، ثم كان المثل الأعلى في تنفيذ تلك الأوامر، فكان خُلُقُ العدل غريزة فُطر عليها ﷺ منذ حداثة سنِّه؛ فقد شهد حِلف الفضول[4] الذي عقده نفر من قريش لنصرة المظلوم في دار عبد الله بن جُدْعان، وذلك قبل بَعثته، وكذلك لَمَّا اختلفت قريش على رفع الحجر الأسود عند بناء الكعبة رضيتْ به حكمًا عادلاً؛ مع أن قبيلته قبيلة بني هاشم طرف في القضية، إلاَّ أنهم من فرط ثقتهم في

(١) (النحل:٩٠).
(٢) (المائدة:٨).
(٣) مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٧)، والنسائي (١٨٢٧)، وأحمد عن عبد الله بن عمرو (٦٤٨٥) واللفظ له، والحاكم (٧٠٠٦).
(٤) حِلْف الفُضُول: سمِّي بذلك لأنهم تحالفوا ألاَّ يتركوا عند أحدٍ فضلاً يظلمه أحدًا إلاَّ أخذوه له منه. وقيل: سمِّي بذلك تشبيهًا بحلف كان قديمًا بمكة أيام جُرْهُم على التناصف والأخذ للضعيف من القويِّ، وللغريب من القاطن، وسمِّي حِلْف الفُضُول لأنه قام به رجال من جُرْهُم كلهم يسمَّى الفَضْل، فقيل: حِلْف الفُضُول، جمعًا لأسماء هؤلاء، انظر: الزبيدي: تاج العروس مادة فضل ٣٠/١٧٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة فضل ١١/٥٢٤.



عدله قبلوا به حكمًا.

وبعدما أرسله الله ﷻ للعالمين أقام ﷺ العدل بين أصحابه، وجعله شِرعة ومنهاجًا في كل موقف وكل لحظة، ولعلَّ من أشهر مواقف النبي ﷺ التي ظهر فيها عدله وقوَّته في الحقِّ، ما روته السيدة عائشة ؓ بقولها: إن قريشًا أهمَّهم شأن المرأة المخزوميَّة التي سرقت، فقالوا: ومن يكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومَنْ يجترئ عليه إلاَّ أسامة بن زيد حِبّ ﷺ رسول الله ﷺ. فكلَّمه أسامة ؓ فقال رسول الله ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟!». ثم قام فاختطب، ثم قال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

ونجده ﷺ دائم الخوف من وقوع أي ظلم أو إجحاف بالناس، فعن سويد بن قيس ؓ قال: جلبتُ أنا ومخرفة العبدي بزًّا[2] من هجر، فجاءنا رسول الله ﷺ، فساومنا سراويل، وعندنا وزانٌ يزن بالأجر، فقال له النبي ﷺ: «يَا وَزَّانُ، زِنْ وَأَرْجِحْ»[3].

لقد التزم رسول الله ﷺ بالعدل والقسط منهجًا له طيلة حياته، وامتلأت كتب السيرة بمواقف نبويَّة يتعجَّب لها القارئ من قوَّة رسول الله ﷺ في تمسُّكه بالعدل والقضاء الحقِّ على نفسه وأهل بيته، وعلى المحيطين به، سواء كان هذا العدل في حدٍّ من حدود الله، أو في الأمور السلميَّة أو الحربيَّة، وغيرها من الأحوال العامَّة، وقد أراد أحد المنافقين أن ينتقص من عدل رسول الله ﷺ، فردَّ عليه ﷺ مستنكرًا بقوله: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ..»[4].

---

(١) البخاري: كتاب الحدود، باب كراهة الشفاعة في الحد (٦٧٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف... (١٦٨٨).

(٢) البَزّ: الثياب، وهي أيضًا أمتعة البَزّاز، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بزز ٥/ ٣١١.

(٣) أبو داود (٣٣٣٦)، والترمذي (١٣٠٥) وقال أبو عيسى: حديث سويد حديث حسن صحيح، وأهل العلم يستحبون الرجحان في الوزن. وابن ماجه (٢٢٢٠)، وأحمد (١٩١٢١) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن..، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٣٥٧٤).

(٤) البخاري عن جابر بن عبد الله: كتاب فرض الخمس (١١٣٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٣)، وابن ماجه (١٧٢)، ومسند أحمد (١٤١٥١).

كما التزم النبي ﷺ - أيضًا - بالعدل مع زوجاته حتى في أبسط الأمور؛ فعن أنسٍ ﵁ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلتْ إحدى أُمَّهات المؤمنين بصحفةٍ[1] فيها طعامٌ، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصَّحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فِلَقي الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطَّعام الذي كان في الصَّحفة ويقول: «غَارَتْ أُمُّكُمْ». ثمَّ حبس الخادم حتى أُتِيَ بصحفةٍ من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرَتْ صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَتْ[2].

وامتدَّ قضاؤه العادل ﷺ إلى غير المسلمين فعن عبد الله بن مسعود ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ؛ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ». وقال الأشعث بن قيس[3] ﵁: كان بيني وبين رجلٍ من اليهود أرضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟» قلتُ: لا. فقال لليهوديِّ: «احْلِفْ». قال: قلتُ: يا رسول الله، إذًا يَحْلف ويذهب بمالي. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً[4]﴾، إلى آخر الآية[5].

إنه لموقف نادر حقًّا! إنه اختصام بين رجلين؛ أحدهما من صحابة الرسول ﷺ والآخر يهودي، فيأتيان إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، فلا يجد ﷺ أمامه إلاَّ أن يطبِّق الشرع فيهما دون محاباة ولا تحيُّز، والشرع يُلزم المدَّعِي - وهو الأشعث بن قيس ﵁ - بالبيِّنة أو الدليل، فإن فشل في الإتيان بالدليل فيكفي أن يحلف المدَّعَى عليه - وهو اليهودي - على أنه لم يفعل ما يتَّهمه به المدَّعِي، فيُصَدَّقُ في ذلك، وذلك مصداقًا لقول

---

(١) الصحفة: إناء كالقصعة المبسوطة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صحف ٩/ ١٨٦.

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة (٥٢٢٥)، وأبو داود (٣٥٦٧)، وأحمد (١٢٠٤٦).

(٣) الأشعث بن قيس الكندي، وفد على النبي ﷺ سنة عشر، وكان من ملوك كندة، فلما مات النبي ﷺ ارتدَّ، ثم عاد إلى الإسلام، فزوَّجَهُ أبو بكر ﵁ أخته، وشهد القادسية، وشهد مع عليٍّ ﵁ صفين، تُوُفِّيَ بعد قتل عليٍّ ﵁ بأربعين ليلة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٩٧، وابن حجر العسقلاني: الإصابة، الترجمة رقم (٢٠٥).

(٤) (آل عمران: ٧٧).

(٥) البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٣٥٧)، (٢٤١٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (٢٩٩٦)، وابن ماجه (٢٣٢٣).

رسول الله ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»(١).

فبِعَدْلِهِ ﷺ ضرب المثل والقدوة لكل من ولي أمر الناس؛ حتى تسير الحياة كما يريدها الله، فتهنأ فيها النفوسُ، وتستريح الأفئدة، وتسعد البشرية.

المبحث الخامس:

كرمــــــه ﷺ

الإسلام دين يقوم على الكرم والعطاء؛ لذلك وصف الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالكرم والجود، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٢)﴾، فكان وصف الله تعالى له ﷺ بالكرم دون غيره من أخلاقه العظيمة؛ لأن كل تلك الأخلاق مندرجة فيه، فأخلاقه كلها عظيمة كريمة، قائمة على الكرم والبذل والسخاء، وهو ما كان معروفًا به من قَبل أن يأتيه وحيُ السماء.

فها هي خديجة ﵂ تصفه بقولها: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ(٣)، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»(٤). فهذه الأخلاق كلها ناشئة عن بالغ الكرم وعظيم الجود؛ إذ هي كلها تعني البذل والعطاء.

كما وصفه عبد الله بن عباس ﵄ فقال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ

---

(١) مسلم: كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه (١٧١١)، والموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني (٨٤٤) واللفظ له، والبيهقي (٢٠٩٩٠)، وفي شرح النووي لصحيح مسلم أنه قال: وجاء في رواية البيهقي بإسناد حسن أو صحيح زيادة عن ابن عباس مرفوعًا: «لَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ». انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ٣.

(٢) (الحاقة: ٤٠، ٤١).

(٣) الكَلّ: هو مَنْ لا يستقلّ بأمره، أي تحمل الثِّقْل من كل ما يُتكلَّف، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٢٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة كلل ١١/ ٥٩٠.

(٤) البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»(١).

ولـو تأمّلنـا سـيرته ﷺ بعـد البعثـة لوجدنـاه ﷺ دائـمًا يحـثُّ الصحابـة عـلى الإنفـاق والكرم، فالكرم طريق السعة، والسخاء سبب النماء؛ لذلك قال النبي ﷺ لصحابته ومِنْ بعدهم أُمّتَه تعليمًا لهم وتربية لنفوسهم: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا. وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(٢).

وكانت حياته ﷺ كلها كذلك تطبيقًا عمليًّا لما يؤمن به ويقوله، فنَعِمَ المسلمون في ظلِّ تعاليمه ﷺ بالأمن والأمان، فيُروى عن سهل بن سعد ، أنه قال: جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ بِبُرْدَةٍ، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه. فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فَلَبِسَهَا، فرآها عليه رجلٌ من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فَاكْسُنِيهَا. فقال: «نَعَمْ». فلمّا قام النبي ﷺ لاَمَهُ أصحابه، قالوا: ما أحسنْتَ حين رأيتَ النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إيَّاها، وقد عرفتَ أنَّه لا يُسْأَلُ شيئًا فيمنعه. فقال: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حين لبسها النبي ﷺ لعلِّي أُكَفَّن فيها. وفي رواية قال سهل: فكانت كفنَه(٣).

ومن خلال هذا الموقف ندرك معنى حديث جابر :« مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لاَ»(٤). إذ هو برهان عملي على عدم ردِّ رسول الله ﷺ للسائلين، وإن كان ﷺ في أشدِّ الحاجة إلى ما يُطْلَبُ منه.

وضرب لنا رسول الله ﷺ القدوة والمثل في الكرم والعطاء فقد جاءه ﷺ مالُ البحرين - وكان أكثر ما أُتي به رسول الله ﷺ- فقال ﷺ: «انْثُرُوهُ(٥) فِي الْمَسْجِدِ»(٦). فكان

---

(١) البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٢٣٠٨).

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى...﴾ [الليل: ٥-١٠] (١٤٤٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك (١٠١٠)، ومسند أحمد (٢٧٢٩٤).

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٨٩)، وكتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (١٩٨٧)، وابن ماجه (٣٥٥٥)، وأحمد (٢٢٨٧٦).

(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: «لا». وكثرة عطائه (٢٣١١)، والدارمي (٧٠).

(٥) انثروه أي: صُبُّوه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٥١٧.

(٦) البخاري عن أنس: أبواب المساجد، باب القسمة وتعليق القِنو في المسجد (٤١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٨٠٧).

رسول الله دائمًا ما يبدأ بالعطاء قبل السؤال، وكان يسعدُ غاية السعادة بهذا الكرم والعطاء؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلاَّ شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلاَّ أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللهِ: هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَهَكَذَا. عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...»[1].

فكان جوده وكرمه سببًا من أسباب إسلام الكثيرين؛ لأنه ﷺ كان يُعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفقر، فعن أنس ﷺ قال: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ. قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ»[2].

وصور كرمه ﷺ كثيرة، فعن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء رضي الله عنها أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ بِقِنَاعٍ[3] من رُطَبٍ، وَأَجْرٍ من قثَّاءٍ زُغْبٍ[4]، فأعطاني ملء كفه حليًّا. أو قالت: ذهبًا. وَقَالَ: «تَحَلَّيْ بِهَذَا»[5]. وهذا دليل على مبلغ كرمه ﷺ؛ حيث يجود النبي ﷺ بكل ما أتى إليه من مال على المؤمنين رغم كونه ﷺ فقيرًا لا يملك شيئًا من المال، بل إنه ﷺ يقبل هذه الهدية المتواضعة من امرأة مسلمة ويكافئها عليها تلك المكافأة العظيمة.

كما كان رسول الله ﷺ حريصًا كل الحرص على الكرم والعطاء، حتى قبل وفاته وهو على فراش الموت! فقد بلغ بهذا الفعل درجةً من الكرم لا يدانيها كرم أحد في العالمين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: اشتدَّ وجع رسول الله ﷺ وعنده سبعة دنانير أو تسعة، فقال: «يَا عَائِشَةُ، مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ؟» فقلتُ: هي عندي. قال: «تَصَدَّقِي بِهَا». قالت: فشُغِلْتُ به،

---

(١) البخاري عن أبي ذرٍّ: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا» (٦٠٧٩).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. وكثرة عطائه (٢٣١٢)، وأحمد (١٢٨١٣)، وابن حبان (٦٣٧٣)، والفاقة: الفقر والحاجة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة فوق ١٠/ ٣١٥.

(٣) القناع: الطبق الذي يؤكل عليه الطعام، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة قنع ٨/ ٢٩٧.

(٤) الأجر: جمع جرو الصغير من القثاء، والزغب جمع أزغب وهو صغار الريش أول ما يطلع، شبه به ما على القثاء من زغب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة زغب ١/ ٤٥٠.

(٥) أحمد: (٢٧٠٦٥)، والترمذي: الشمائل المحمدية (٢٠١)، وإسحاق بن راهويه (٢٠٣٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني واللفظ له وأحمد بنحوه وزاد فقال: «تحلى بهذا». وإسنادهما حسن. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤/ ٥٩.

ثم قال: «يَا عَائِشَةُ، مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ؟» فقلت: هي عندي. فقال: «ائْتِينِي بِهَا». قالت: فجئتُ بها، فوضعها في كفِّه، ثم قال: «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟»[١]. ثم ها هي أمُّ سلمة[٢] رضي الله عنها تدخل عليه فتجده ﷺ وهو ساهم الوجه، فقالت: فحسبت أن ذلك من وجع، فقلت: يا رسول الله، ما لك ساهم الوجه؟ فقال: «مِنْ أَجْلِ الدَّنَانِيرِ السَّبْعَةِ الَّتِي أُتِينَا بِهَا أَمْسِ، أَمْسَيْنَا وَهِيَ فِي خُصْمِ[٣] الْفِرَاشِ»[٤]. وفي رواية: «أَتَتْنَا وَلَمْ نُنْفِقْهَا»[٥].

ومن أجمل المواقف التي نختم بها مواقفه في الكرم ﷺ هو يوم حُنين، والذي يدلُّ دلالة واضحة على عظيم كرم رسول الله ﷺ؛ فقد غنِم ﷺ هو وأصحابه مغانم - في هذا اليوم - فاقت الوصف، حتى إن جُبير بن مطعم رضي الله عنه الذي رافق النبي ﷺ أثناء عودته من حُنين قال: عَلِقَتْ[٦] رسولَ الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتَّى اضطرُّوه إلى سَمُرَةٍ[٧]، فَخَطِفَتْ رداءه، فوقف رسول الله ﷺ، فقال: «أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً، وَلاَ كَذُوبًا، وَلاَ جَبَانًا»[٨]. فلم يكتنز رسول الله هذه الأموال لنفسه، ويوزع الفتات القليل منها على جنوده، ولكنه ﷺ يعلم جيدًا أن المال وسيلة وليست غاية، فاستخدمه في تأليف قلوب زعماء مكة كأبي سفيان، وحكيم بن حِزام، والحارث بن هشام أخو أبي جهل، والنضير بن الحارث أخو النضر بن الحارث شيطان قريش المعروف، والذي كان من ألدِّ أعداء الرسول ﷺ، وكما أعطى زعماء القبائل

---

(١) ابن حبان: كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة (٧١٥)، وأحمد (٢٤٦٠٤) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٣٤، ١٣٥، والطبري: تهذيب الآثار (٢٤٨٥).

(٢) أم سلمة: هي هند بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشية، المخزومية، أم المؤمنين، انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة ٨/ ١٥٠ ترجمة رقم (١١٨٤٥).

(٣) خُصْمُ الفراش: طرفه وجانبه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة خصم ١٢/ ١٨٠.

(٤) أحمد (٢٦٥٥٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وابن حبان (٥١٦٠)، وأبو يعلى (٧٠١٧).

(٥) أحمد (٢٦٧١٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٦) عَلِقَتْ به الأعراب أي: لزموه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٥٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة علق ١٠/ ٢٦١.

(٧) السمرة: شجرة طويلة متفرقة الرأس قليلة الظل صغيرة الورق والشوك، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٢٥٤.

(٨) البخاري عن عمرو بن شعيب: كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٢٩٧٩)، والنسائي (٣٦٨٨)، وابن حبان (٤٨٢٠)، والموطأ برواية يحيى الليثي (٩٧٧).



من الأعراب كعُيينة بن حصن زعيم قبيلة بني فزارة، والأقرع بن حابس زعيم بني تميم[١]؛ فكان جوده وكرمه سببًا من أسباب رسوخ الإسلام في قلوب هؤلاء، وغدت كلمة أنس ﷺ خير دليل على حالهم: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلاَّ الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[٢].

* * *

(١) انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٢٨٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٢٢، ١٨٢٣، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٦٠.

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: «لا»... (٢٣١٢)، وأبو يعلى (٣٧٥٠).

المبحث السادس:

شـــــجاعته ﷺ

لقد ربَّى القرآنُ الكريم المؤمنين على الشجاعة، فكانت آياته المنبع الذي شربت منه الأُمَّة معنى وقيمة الشجاعة، فقال الله ﷻ مخاطبًا الأمَّة ورسولها ﷺ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[(١)]﴾.

وحياة النبي ﷺ القوليَّة والعمليَّة كانت نموذجًا عاليًا في الشجاعة، فعند التأمُّل في سيرته نجده ﷺ يتعامل مع كل المواقف والمصاعب بقلب ثابت، وإيمان راسخ، وشجاعة نادرة؛ لذلك خاطبه الله ﷻ قائلاً: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ[(٢)]﴾.

وقد كانت هذه الشجاعة خُلقًا فطريًّا مزروعًا في قلبه منذ نشأته الأولى ﷺ؛ فها هو ذا يشارك أعمامه في حرب الْفِجَار وهو لم يبلغ الخامسة عشر من عمره[(٣)]، كما أنه ﷺ كان يعتكف وحده في غار حراء ووسط الصحراء[(٤)]؛ لذلك لم يكن غريبًا أن تظهر الشجاعة في كلِّ لمحةٍ من لمحات حياته بعد بعثته، ولم يكن هذا كلامًا نظريًّا دون تطبيق، بل مارس الرسول ﷺ الشجاعة دون تردُّد أو جبن أو خور؛ فنجده ﷺ في أوَّل أيام دعوته يُواجه المشركين بأمر تُنكره عقولهم، ولا تدركه في أوَّل الأمر تصوُّراتهم، ولم يمنعه من الجهر بالدعوة الخوفُ من مواجهتهم، فضرب بذلك ﷺ لأُمَّته أروع الأمثلة في الجهر بالحقِّ أمام أهل الباطل، وإن تحزَّبوا ضدَّ الحقِّ، وجنَّدوا لحربه كل ما في وسعهم.

---

(١) (النساء: ٧٤).

(٢) (النساء: ٨٤).

(٣) الفجار: حرب وقعت بين قريش وحلفائها وبين هوازن قبل البعثة بعشرين سنة تقريبًا، وكانت في الأشهر الحرم، فلمَّا قاتلوا فيها قالوا: قد فَجَرْنا. فسُمِّيَتْ فِجارًا، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢٨٩-٢٩١، وابن منظور: لسان العرب، مادة فجر ٥/ ٤٥.

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٣٨٥.

وتتجلَّى شجاعته ﷺ في مواقف عديدة من أهمها اعتراضه على الظلم، ووقوفه في وجه الظالم دون تردُّد أو خوف، فها هو رسول الله ﷺ يقف بجوار المظلوم ويأخذ حقَّه من الظالم؛ فيروي ابن هشام أن رجلاً من إراشٍ[1] قدِم مكة بإبل له، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادٍ من قريشٍ، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالسٌ، فقال: يا معشر قريشٍ، من رجلٌ يؤدِّيني[2] على أبي الحكم بن هشام؛ فإني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقِّي؟ قال: فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله ﷺ وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهلٍ من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤدِّيك عليه. فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشامٍ قد غلبني على حقٍّ لي قِبَلَه، وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألتُ هؤلاء القوم عن رجلٍ يؤدِّيني عليه، يأخذ لي حقِّي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقِّي منه يرحمك الله. قال: «انْطَلِقْ إِلَيْهِ». وقام معه رسول الله ﷺ فلمَّا رأوه قام معه، قالوا لرجل ممَّن معهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع. قال: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: «مُحَمَّدٌ، فَاخْرُجْ إِلَيَّ». فخرج إليه وما في وجهه من رائحةٍ[3]، قد انتُقِع[4] لونه، فقال: «أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ». قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له. قال: فدخل فخرج إليه بحقِّه فدفعه إليه. قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للإراشي: «الْحَقْ بِشَأْنِكَ». فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرًا، فقد - والله - أخذ لي حقِّي.

قال: وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك ماذا رأيتَ؟ قال: عجبًا من العجب، والله ما هو إلاَّ أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه رُوحه، فقال له: «أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ». فقال: نعم، لا تبرح حتى أُخْرِجَ إليه حقَّه. فدخل فخرج إليه بحقِّه، فأعطاه إيَّاه. قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعتَ قطُّ. قال: ويحكم والله ما هو إلاَّ أن

---

(١) إراش: بالكسر والشين معجمة موضع. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ١٣٤.

(٢) مَنْ يُؤْدِينِي على فلان أي: من يُعِينني عليه وينصفني، وهو من الأداة التي توصل الإنسان إلى ما يريد؛ كأداة الحرب وأداة الصانع، فالحاكم يؤدي الخصم أي: يوصله إلى مطلبه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أدا ١٤/ ٢٤، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٢٣٧.

(٣) وما في وجهه رائحة أي: رائحة دم، وبقية روح، فكان معناه روح باقية. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة روح ٢/ ٤٥٥، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٢٣٧.

(٤) انتقع لونه: تَغَيَّرَ من هَم أو فزع، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نقع ٨/ ٣٥٩.

ضرب عَلَيَّ بابي، وسمعتُ صوته فملئت رعبًا، ثم خرجتُ إليه وإنَّ فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامَته[١]، ولا قَصَرَته[٢]، ولا أنيابه لفحل قطُّ، والله لو أَبَيْتُ لأَكَلَني[٣].

كما تظهر شجاعته ﷺ واضحة جليلة عندما يتعرَّض أهله وصحابته لخطر ما، فها هو أنس بن مالك ﷺ يصف شجاعة النبي ﷺ بقوله: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ. قال: وَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً؛ سَمِعُوا صَوْتًا. قال: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ ﷺ عُرْيٍ[٤]، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا». ثم قال رسول الله ﷺ: «وَجَدْتُهُ بَحْرًا[٥]». يعني الفرس[٦].

ويضرب النبي ﷺ المثل والقدوة في ميدان القتال فكانت شجاعته النبراس الذي سار عليه الصحابة فيما بعدُ، فيُروى عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ[٧]، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ»[٨].

وفي أحلك لحظات المسلمين شدَّة وانهزامهم أمام عدوِّهم في غزوة أُحُد نراه ﷺ متماسكًا شجاعًا، مقاتلاً لزعماء الشرك، فقد أدركه أُبَيُّ بن خلف وهو يقول: أي محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ. فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منَّا؟ فقال رسول الله: «دَعُوهُ». فلمَّا دنا، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة ﷺ فلمَّا أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشَّعْراءَ[٩] عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في

---

(١) الهامة الرأس، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة هوم ١٢/ ٦٢٤.
(٢) القصرة: العنق وأصل الرقبة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قصر ٥/ ٩٥.
(٣) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٨٩-٣٩١.
(٤) فرس عُرْيٍ: لا سرج عليه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرا ١٥/ ٤٤.
(٥) وجدته بحرًا: أي سريع الجري؛ لأنه كان به أول الناس تحركًا في مواجهة الخطر، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٣٥.
(٦) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الشجاعة في الحرب والجبن (٢٨٢٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب (٢٣٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٨)، والترمذي (١٦٨٧).
(٧) احْمَرَّ البأسُ: أي صار في الشدة والهول مبلغًا كبيرًا، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حمر ٤/ ٢٠٨.
(٨) أحمد (١٣٤٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وأبو يعلى (٣٠٢)، والحاكم (٢٦٣٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٩) الشَّعْراء: نوع من الذباب يكون على ظهر الإبل والخيل، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شعر ٤/ ٤١٠.

عنقه طعنة تدأدأ[١] منها عن فرسه مرارًا، فمات وهُمْ راجعون به إلى مكة[٢]؛ ولذلك يقول المقداد بن عمرو ﷺ عن ثبات النبي ﷺ وشجاعته في غزوة أُحُد، قوله: «لا والذي بعثه بالحقِّ إن زال رسول الله ﷺ شبرًا واحدًا، إنه لفي وجه العدوِّ، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرَّة، وتُصرف عنه مرَّة، فربما رأيته قائمًا يرمي على قوسيه، ويرمي بالحجر، حتى تحاجزوا، وثبت رسول الله ﷺ كما هو في عصابة[٣] صبروا معه»[٤].

أمَّا يوم حُنين فقد ضرب النبي ﷺ أروع مَثَلٍ عرفَته البشريَّة في الشجاعة (خريطة رقم ١)؛ وذلك حينما فرَّ الجيش من ساحة القتال، فنزل النبي ﷺ من على بغلته ودعا واستنصر، وهو يُرَدِّد: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب، اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ»[٥].

فما رُئِي أَحد يومئذ كان أثبت منه، ولا أقرب للعدوِّ[٦]، فقد وقف في وجههم أجمعين متحدِّيًا لهم، وأخذ كفًّا من حصًى وضرب وجوههم، وقال ﷺ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»[٧]. فما استطاع أحد أن يمسَّه بسوء[٨].

---

(١) تدأدأ: تدحرج وسقط، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دأدأ ١/ ٦٩.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٨٣.
(٣) العصابة: المجموعة والجماعة من الناس، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عصب ١/ ٦٠٢.
(٤) البيهقي: دلائل النبوة ٣/ ٢٤٦.
(٥) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من صف أصحابه عند الهزيمة... (٢٨٦٤)، ومسلم عن البراء بن عازب: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (١٧٧٦) واللفظ له ، والترمذي (١٦٨٨)، ومسند أحمد (١٨٠٦٩).
(٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٤٢٢، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٣/ ٩٠.
(٧) مسلم عن سلمة بن الأكوع: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (١٧٧٧)، وأحمد (٢٧٦٢)، والدارمي (٢٤٥٢)، وشاهت الوجوه أي: قبحت. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ١٢٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة شوه ١٣/ ٥٠٨.
(٨) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٨، والسهيلي: الروض الأنف ١/ ٢٢٨، ٢٢٩.



خريطة رقم (١)

غزوة حنين

كما نجد النبي ﷺ يُعَلِّم أُمَّته الاستعاذة من أي خور وجبن؛ لأن الآجال والأرزاق وكل الكون بيد الله ﷻ يصرفها كيف يشاء، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ...»[١].

ويستمرُّ ﷺ في تعليم أُمَّته الشجاعة في كل الميادين، بدايةً من ميدان الكلمة وانتهاءً بميدان الجهاد في سبيل الله، ومن أعظم هذه الميادين التي يُؤَكِّد عليها النبي ﷺ ميدان مواجهة الظلم، فيقول ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٢]. وهو ﷺ القائل -أيضًا- في فضل الجهاد والإقدام بالنفس والمال: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ[٣] خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٤].

ومع هذه الشجاعة التي كان يتحلَّى بها رسول الله ﷺ إلاَّ أنها لم تكن شجاعة تهوُّر، إنما كانت مضبوطة بالعقل؛ فلننظر إلى حصاره ﷺ لحصن الطائف الذي استمرَّ أكثر من أربعين يومًا، عَلِمَ - خلالها - ﷺ أن الطعام والشراب اللذين بداخل حصن الطائف يكفيانه سنة على الأقلِّ أو عِدَّة سنوات، وعندها وازن ﷺ القائدُ الشجاع بين مضارِّ الحصار وفوائده، فوجد أن بقاءه في هذه البقعة - أكثر من ذلك - سيوقع الدولة الإسلاميَّة في مشاكل ضخمة؛ لأن القوَّات الإسلامية ليست مجرَّد فرقة من الجيش الإسلامي؛ بل هي المجتمع المسلم بكامله، كما أن النبي ﷺ لم يترك في المدينة إلاَّ القليل من الرجال لحراسة الديار والنساء، فهي إذن معرَّضة للمهاجمة من المشركين واليهود؛ لذلك

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل (٦٣٦٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره (٢٧٠٦)، والنسائي عن عمر بن الخطاب (٥٤٨١) واللفظ له.

(٢) أبو داود عن أبي سعيد الخدري: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤) وقال أبو عيسى:... وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وابن ماجه (٤٠١١) وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٩١).

(٣) الغَدْوَة: المرة الواحدة من الغدو، وهو الخروج في أي وقت كان من أول النهار إلى انتصافه، والروحة: المرة الواحدة من الرواح، وهو الخروج في أي وقت كان من زوال الشمس إلى غروبها. وسبيل الله: الجهاد. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ١٤، والنووي: المنهاج ١٣/ ٢٦.

(٤) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٧٩٢)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله (١٨٨٠).

أخذ ﷺ قراره الشجاع بفكِّ الحصار[1].

وهذه الشجاعة -أيضًا- كانت مضبوطة بالرحمة؛ فلذلك لم يستعملها إلاَّ في مواطن الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله خفَّاقة، ومن ثَمَّ لم ينتقم رسول الله ﷺ لنفسه، ولم يضرب بيده إلاَّ في سبيل الله، فقالت عائشة رضي الله عنها: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً، وَلاَ خَادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله فَيَنْتَقِمَ لله ﷻ»[2].

هكذا كانت شجاعة النبي ﷺ شجاعة قائمة على يقين وثبات وأخلاق ومبادئ؛ لذلك كانت مضرب الأمثال للأجيال على مرِّ العصور.. فما أروعها من شجاعة !

* * *

(١) السهيلي: الروض الأنف ص٢٥٥-٢٦٦، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٦٥٢-٧٠٩.
(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ واختياره من المباح أسهله (٢٣٢٨). انظر: أحمد بن عبد العزيز الحداد: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة ٣/ ١٣٤٣.



معاملاته ﷺ

قال أبو الهدى الصيادي (شاعر سوري):

مُحَمَّدٌ الْخَيرِ بِمَحْمُودِ الْخِصَالِ أَحَيْدُ ... الْخَلْقِ أَعْلَى الْوَرَى خُلُقًا وَآثَــــارا

الفصل الثاني:

معاملاتـــــه ﷺ

سَمَتْ معاملات النبي ﷺ سموًّا لا يدانيه أحد؛ فكان ﷺ النموذج والمثل في تعاملاته مع زوجاته وأولاده وأحفاده، كما كانت معاملاته مع أصحابه مضرِب الأمثال؛ فكان يخاطب كل صحابي بلغةٍ تصل إلى قلبه قبل عقله وذهنه؛ لذلك أحبَّ الصحابةُ النبي حبًّا ملك عليهم أفئدتهم، وكذلك كانت تعاملاته ﷺ مع جنوده؛ فكان معلِّمًا ومربيًّا غرس في نفوسهم وعقولهم المبادئ السامية التي تَفُوق كل المبادئ التي عرفتها الإنسانيَّة؛ فكانت معاملاته دليلاً على نبوَّته ﷺ وهذا ما سوف نتناوله في هذا الفصل من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: معاملاته ﷺ مع زوجاته

المبحث الثاني: معاملاته ﷺ مع أولاده وأحفاده

المبحث الثالث: معاملاته ﷺ مع أصحابه

المبحث الرابع: معاملاته ﷺ مع جنوده

المبحث الخامس: معاملاته ﷺ مع من لا يعرف



المبحث الأول:
معاملاته ﷺ مع زوجاته

شاء الله ﷻ أن يخلق الإنسان من ذكرٍ وأنثى، وأن تكون إحدى سُنَنِه وآياته التزاوجَ بين هذين الجنسين، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1]﴾ ، فالسكينة والرحمة والمودَّة من أعظم آيات الله في الزواج.

وكانت حياة رسول الله ﷺ الزوجيَّة تطبيقًا لهذه المعاني القرآنيَّة؛ لذلك نجده ﷺ يُكثر من وصية أصحابه بالمرأة، ويحثُّ الأزواج أن يعاملوا أزواجهم معاملة حسنة مستمدَّة من آية الزواج القائمة على المودَّة والرحمة، فيقول ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[2].

وقد ضرب أمثلة رائعة من خلال عَلاقته مع زوجه؛ فتجده أوَّل مَنْ يواسيها، يُكَفْكف دموعها، يُقَدِّر مشاعرها، لا يهزأ بكلماتها، يسمع شكواها، ويخفِّف أحزانها؛ فكان مثالاً يُحتذى، وقدوة حسنة يستفيد منها البيت المسلم على مرِّ القرون والأزمان، فعن أنس ﷺ أنه قال: بلغ صفية ﵂ أن حفصة ﵂ قالت: بنت يهودي. فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال لها: «مَا يُبْكِيكِ؟» فقالت: قالت لي حفصة ﵂: إني بنت يهودي.

فقال النبي ﷺ: «إِنَّكِ لابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ[3] نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ

---

(١) (الروم: ٢١).

(٢) ابن ماجه (١٩٧٧)، والترمذي (٣٨٩٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثوري. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

(٣) يعني: هي عنده في صحبته وعصمته ليلاً ونهارًا، يؤاكلها ويضاجعها ويعاشرها أشد العشرة والاختلاط، انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٧١، والألوسي: روح المعاني ٢٨/ ١٦٢.

عَلَيْكِ؟» ثم قال: «اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ»[(١)].

كما وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها حال النبي ﷺ كزوج داخل بيته، فقد كان ﷺ «يَخْصِفُ نَعْلَهُ[(٢)] وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ[(٣)]»[(٤)]. فكان تعامله مع زوجاته من منطلق الرحمة والحب، كما أنه تعامل -أيضًا- من منطلق أنه بشر مثل باقي البشر الأسوياء، الذين لا يَرَوْنَ غضاضة في مساعدة أزواجهم.

ومن عظيم محبَّته لهن - رضي الله عنهن- أنه ﷺ كان يشاركهن المأكل والمشرب من الإناء نفسه، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كُنْتُ أَشْرَبُ فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ[(٥)] فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ»[(٦)]. وكان يخرج معهن للتنزُّه لزيادة أواصر المحبَّة، فيروي البخاري: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ»[(٧)].

وكان كثيرًا ما يمتدح زوجاته، فها هو ذا ﷺ يمتدح عائشة رضي الله عنها قائلاً: «إِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ[(٨)] عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ[(٩)]»[(١٠)].

كما تجلَّت رحمته ورأفته ﷺ على زوجاته حينما دخل على زينب بنت جحش رضي الله عنها

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وأحمد (١٢٤١٥) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان (٧٢١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٦١٨٣).

(٢) الخصف: إصلاح النعل وخياطته، انظر: الحربي: غريب الحديث ٣/ ١٠٣٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة خصف ٩/ ٧١.

(٣) يرَقِّع الثوب: أي يصل ويسدّ خرقه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رقع ٨/ ١٣١.

(٤) أحمد (٢٤٧٩٣)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (٥٧٦٩).

(٥) العَرْق: العظم، وعَرَقْتُ العظمَ وتَعَرَّقْتُه: أخذتُ اللحم عنه بأسناني نهشًا، انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣/ ٢١١، وابن منظور: لسان العرب، مادة عرق ١٠/ ٢٤٠.

(٦) مسلم: كتاب الحيض، باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله... (٣٠٠)، والنسائي (٧٠) واللفظ له، والطيالسي (١٦٠٦).

(٧) البخاري عن عائشة: كتاب النكاح، باب القرعة بين النساء إذا أراد سفرًا (٥٢١١) تامًّا، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٥).

(٨) الثريد: هو أن يثرد الخبز بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٩/ ٥٥١، وابن منظور: لسان العرب، مادة ثرد ٣/ ١٠٢.

(٩) فضل الثريد على غيره من الطعام إنما هو لما فيه من تيسير المؤنة وسهولة الإساغة، وكان أَجَلَّ أطعمتهم يومئذ، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٤٤٧.

(١٠) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب الأنبياء (٣٧٧٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٦).

فوجد حبلاً ممدودًا بين الساريتين، فقال: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟». قالوا: هذا حبل لزينب[(١)] رضي الله عنها فإذا فترت[(٢)] تعلَّقت[(٣)]. فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[(٤)].

وكثيرًا ما يحلُم رسول الله ﷺ على زوجاته، ويقابل جفوتهن بصدر رحب، وبشاشة وحُبٍّ، فقد استأذن أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة رضي الله عنها عاليًا، فلمَّا دخل تناولها ليلطمها، وقال: لا أراكِ ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ. فجعل النبي ﷺ يحجزه[(٥)]، وخرج أبو بكر رضي الله عنه مُغضبًا، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر رضي الله عنه: «كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟!» فمكث أبو بكر رضي الله عنه أيامًا، ثم استأذن على رسول الله ﷺ، فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما. فقال النبي ﷺ: «قَدْ فَعَلْنَا، قَدْ فَعَلْنَا»[(٦)].

كما كان رسول الله ﷺ يقابل غَيرة زوجاته مقابلة فيها كثير من الحلم والأناة، وإعطاء كل زوجة حقَّها من التقدير والاحترام، فها هي عائشة رضي الله عنها تغار من كثرة ذكر الرسول لخديجة رضي الله عنها وشدَّة حُبِّه لها، رغم وفاتها قبل أن يتزوَّج رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها، فتقول رضي الله عنها في ذلك: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبيِّ ﷺ ما غِرْتُ على خديجة قطُّ، وما رأيتُها قطُّ، ولكن كان يُكثِر ذِكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يُقطِّعها أعضاءً، ثم يَبْعثُها في صدائق[(٧)] خديجة رضي الله عنها، وربما قلتُ له:

كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلاَّ خديجة رضي الله عنها. فيقول: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ»[(٨)]،

---

(١) هي السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين (رضي الله عنها).
(٢) فترت أي: كسلت عن القيام في الصلاة. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ٣٦.
(٣) تعلَّقت: أي استمسكت به. وفي رواية مسلم: «أمسكت به».
(٤) البخاري: كتاب أبواب التهجد، باب ما يُكره من التشديد في العبادة (١١٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته... (٧٨٤).
(٥) يحجزه: أي يمنع أبا بكر من ضربها ولطمها، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ١٣/ ٢٣٤.
(٦) أبو داود (٤٩٩٩)، وأحمد (١٨٤١٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٧) صدائق خديجة: أي أصدقائها، جمع صديقة وهي المحبوبة. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ١٥٩.
(٨) إنها كانت وكانت: أي كانت فاضلة وكانت عاقلة، ونحو ذلك. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ١٣٧.

وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ »[١].

ورغم ما كان يجد النبيﷺ في بعض الأوقات من نسائه، إلاَّ أنه لم يضرب امرأة له قطُّ كما قالت عائشة رضي الله عنها : «مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ... »[٢]. بل كان يواسيها عند بكائها لأي سبب من الأسباب، فيُروى «أن صفية رضي الله عنها خرجت مع رسول اللهﷺ في سفر، فأبطأت في المسير، فاستقبلها رسول اللهﷺ وهي تبكي، وتقول: حملتني على بعير بطيء. فجعل رسول الله يمسح بيديه عينيها ويسكِّتها...»[٣].

كما أشرك النبيﷺ زوجاته في مواقف عظيمة كثيرة، وأحداث تهمُّ الأُمَّة بأجمعها، ففي يوم الحديبية[٤] أمر رسول اللهﷺ أصحابه أن ينحروا الهدي ثم يحلقوا، فلم يفعل ذلك منهم أَحد، وردَّد ذلكﷺ ثلاث مرَّات دون أن يستجيب أَحدٌ إلى أمره، ولمَّا لم يستجب أَحد إلى أمره، دخل رسول اللهﷺ على زوجه أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا نبي الله، أتحبُّ ذلك، اخرج لا تكلِّم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلِّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلمَّا رأَوْا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل غمًّا[٥]، ورغم خطورة هذا الموقف إلاَّ أن رسول اللهﷺ استحسن رأي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، فكان خيرًا وبركة على الأُمَّة كلها.

والناظر إلى سيرتهﷺ يجد أن رسول اللهﷺ كان يُقَدِّر أزواجه حقَّ التقدير، ويُولِيهم

---

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبيﷺ خديجة وفضلها (٣٦٠٧) واللفظ له، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين (٢٤٣٦).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدتهﷺ للآثام... (٢٣٢٨)، وأبو داود (٤٧٨٦)، وأحمد (٢٤٠٨٠) واللفظ له، وابن حبان (٤٨٨)، وأبو يعلى (٤٣٧٥).

(٣) أحمد (٢٦٩٠٨)، والنسائي عن أنس بن مالك: السنن الكبرى ٥/ ٣٦٩ (٩١٦٢)، واللفظ له، وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه سمية روى لها أبو داود وغيره ولم يضعفها أحد، وبقية رجاله ثقات. انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤/ ٥٨٩.

(٤) الحديبية: قرية سمِّيت ببئر بها، بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، اعتمر النبيﷺ عمرة الحديبية، ووادع فيها المشركين لمضي خمس سنين وعشرة أشهر للهجرة النبوية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٥) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٧٢)، وغمًّا: أي حزنًا على عدم المبادرة للامتثال.

عنايةً فائقةً ومحبَّةً لائقةً، فكان نِعْمَ الزوج ﷺ.

المبحث الثاني:
معاملاته ﷺ مع أولاده وأحفاده

جاء الإسلام بمعيارٍ حقيقي للعَلاقة بين الأب وأبنائه، هذا المعيار قائم على الرحمة، والرأفة، والشفقة، والتوجيه، والرعاية الصحيحة لهؤلاء الأبناء في كل شئون حياتهم، فالأب هو الحصن الذي يأوي إليه الأبناء في كل وقت؛ ولذلك فإن القرآن قد خلَّد هذه العَلاقة عندما ذكر نداء لقمان عليه السلام لابنه، والذي يفيض بكل معاني التربية، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[1]﴾.

ولننظر معًا إلى خصوصيَّة العَلاقة الرائعة بين الأب وابنته في موقف الرسول ﷺ الذي ترويه عائشة رضي الله عنها قائلة: أقبلَتْ فاطمة رضي الله عنها تمشي كأن مشيتها مَشْيُ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي». ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثًا فبكت، فقلتُ لها: لِمَ تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكت، فقلتُ: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عمَّا قال، فقالت: ما كنتُ لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، حتى قُبِضَ النبي ﷺ فسألْتُها، فقالت: أسرَّ إليَّ: «إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلا أُرَاهُ إِلاَّ حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي». فبكيتُ، فقال: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ». فضحكتُ لذلك[2].

هكذا كانت تربية الرسول ﷺ لابنته، تربية قائمة على الحبِّ والعطف والحنان.

أمَّا عند وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ فقد تجلَّت عظمته ﷺ وظهرت مشاعر الأب الجياشة تجاه ولده حين خاطبه قائلاً: «يَا إِبْرَاهِيمُ، لَوْلا أَنَّهُ أَمْرُ حَقٍّ، وَوَعْدُ صِدْقٍ، وَيَوْمٌ

(١) (لقمان: ١٣).
(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٢٣).

جَامِعٌ، لَوْلا أَنَّهُ أَجَلٌ مَحْدُودٌ، وَوَقْتٌ صَادِقٌ، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْنًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ، تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ». وحينما قُبض إبراهيم ابن النبي ﷺ قال لهم: «لا تُدْرِجُوهُ فِي أَكْفَانِهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ». فأتاه فانكبَّ عليه وبكى[1].

كما اهتمَّ رسول الله ﷺ بأحفاده، وعنى ﷺ باختيار أجمل الأسماء لهم، فعن عليٍّ ﷺ قال: لَمَّا وُلِدَ الحسن ﷺ سمَّيته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قال: قلتُ: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ حَسَنٌ». فلمَّا وُلِدَ الحسين ﷺ سمَّيته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قال: قلتُ: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ». فلما وُلِدَ الثالث سمَّيته حربًا، فجاء النبي ﷺ فقال: «أَرُونِي ابْنِي، مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟» قلتُ: حربًا. قال: «بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ». قال: «سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلَدِ هَارُونَ شَبَرٍ وَشُبَيْرٍ وَمُشَبِّرٍ»[2].

وكان من شدَّة حُبِّه ولهفته على أحفاده ما رواه عبد الله بن بُرَيْدة ﷺ عن أبيه، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يخطب، فأقبل حسن وحسين ﷺ، عليهما قميصان أحمران، يعثران ويقومان، فنزل النبي ﷺ فأخذهما فوضعهما في حجره، فقال: «صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ[3]﴾، رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ». ثم أخذ في خطبته[4]. وكذا كان حُبُّه لبقيَّة أحفاده، فقد كان ﷺ يُصَلِّي وهو حامل أمامة بنت ابنته زينب ﷺ فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[5].

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥)، وانظر: العصامي: سمط النجوم ١/ ٢١٠، ٢١١.

(٢) أحمد (٧٦٩) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير هانئ بن هانئ. والموطأ - رواية محمد بن الحسن (٦٦٠)، والحاكم (٤٧٧٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) (التغابن: ١٥).

(٤) أبو داود (١١٠٩)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، والحاكم (٧٣٩٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (١٧٠٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح أبي داود (٩٨١).

(٥) البخاري عن أبي قتادة: كتاب أبواب سترة المصلي، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٥١٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (٥٤٣).

وها هو ذا ﷺ يخرج على المسلمين في إحدى صلاتي الْعَشِيِّ -الظهر أو العصر- وهو حاملٌ أحدَ ابنيه: الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، فتقدَّم رسول الله ﷺ فوضعه عند قدمه اليمنى، فسجد رسول الله ﷺ سجدةً أطالها، قال أَبِي[1]: فرفعتُ رأسي من بين الناس، فإذا رسول الله ﷺ ساجد، وإذا الغلام راكب على ظهره فعُدْتُ فَسَجَدْتُ، فلمَّا انصرف رسول الله ﷺ، قال الناس: يا رسول الله، لقد سجدْتَ في صلاتك هذه سجدةً ما كنتَ تسجدها، أفشيء أُمِرْتَ به؟ أو كان يُوحى إليكَ؟ قال: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»[2].

ولم تكن هذه المواقف مواقف عابرة في حياته ﷺ، ولكنها كانت صفة أصيلة من صفاته ﷺ؛ لذلك يُرْوَى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَبَّل الحسن بن علي رضي الله عنه والأقرعُ بن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحدًا قطُّ. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[3].

ومع ذلك فلم يكن هذا الحبُّ العظيم من النبي محمد ﷺ لأولاده وأحفاده يدفعه إلى الجور على المسلمين من أجلهم، فيُروى أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أتى فاطمة رضي الله عنها فقال: إني أشتكي صدري ممَّا أجد بالقرب. قالت: وأنا والله، إني لأشتكي يدي ممَّا أطحن الرحا. فقال لها: ائتي النبي ﷺ؛ فقد أتاه سبي؛ ائتيه لعله يخدمك خادمًا. فانطلقت إلى النبي ﷺ فأتاهما فقال: «إِنَّكُمَا جِئْتُمَانِي لأُخْدِمَكُمَا خَادِمًا، وَإِنِّي سَأُخْبِرُكُمَا بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنَ الْخَادِمِ، فَإِنْ شِئْتُمَا أَخْبَرْتُكُمَا بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنَ الْخَادِمِ: تُسَبِّحَانِهِ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَتَحْمَدَانِهِ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَتُكَبِّرَانِهِ أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ. وَإِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا مِنَ اللَّيْلِ، فَتِلْكَ مِائَةٌ»[4]. هكذا كان يُعَلِّمُ النبي ﷺ أولاده، يُعَلِّمهم أنه لن يحابيهم - رغم محبته الشديدة

---

(١) هو شداد بن الهاد الليثي رضي الله عنه، وهو راوي الحديث، ورواه عنه ابنه عبد الله بن شداد.

(٢) النسائي: كتاب صفة الصلاة، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (١١٤١)، وأحمد (١٦٠٧٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين... والحاكم عن شداد بن الهاد (٤٧٧٥) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٧)، وأبو داود (٥٢١٨).

(٤) ابن حبان (٥٥٢٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن أبي شيبة: المصنف ٧/٣٨، واللفظ له.

لهم - على حساب المسلمين، بل ويعلمهم - كذلك - أن يرتبطوا بالله ﷻ فهو خير مُعين على كل أعمالهم، فالاستعانة به وحده ﷻ تُسْعِد الإنسان في حياته وآخرته.

هكذا كانت عَلاقة الأب ﷺ بأبنائه وأحفاده.. عَلاقة قائمة على المحبَّة والحنان تَشعر الأسرةُ في ظلِّها بالأُلْفة، فما أعظمك يا رسول الله مِنْ أبٍ وَجَدٍّ!

المبحث الثالث:

معاملاته ﷺ مع أصحابه

مِنْ نِعَمِ الله على الأُمَّة الإسلاميَّة نعمة الحُبِّ في الله ﷻ، التي بها توثَّقت العَلاقة بين المسلمين منذ بداية الدعوة، فبعدما كانوا في جاهليتهم متباغضين متقاتلين، انقلبوا بفضلٍ من الله إلى إخوة متحابِّين، قال تعالى في شأنهم: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا[1]﴾، ثم جعل الله الأُخُوَّة الصادقة دليلاً على إيمان العبد بربِّه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ[2]﴾.

كما مدح رسول الله ﷺ المتحابِّين في الله، وكشف عن عظيم ثمار هذا الحبِّ في الآخرة، فقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ...» فذكر منهم: «... رَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ...»[3].

كما ذمَّ ﷺ التناحر والتخاصم بين الأصحاب، فقال ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ»[4].

وفي سيرته ﷺ نجده يعامل أصحابه معاملة تدلُّ على حُبِّه لهم جميعًا؛ وكأنه ﷺ يخصُّ كلَّ صحابي بحبٍّ خاصٍّ يختلف عن باقي أصحابه؛ حيث نجده ﷺ يصف أصحابه

---

(١) (آل عمران: ١٠٣).

(٢) (الحجرات: ١٠).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٦٠).

(٤) البخاري عن أبي أيوب: كتاب الأدب، باب الهجرة (٦٠٧٧).

بصفات تُعَزِّز من الألفة والتقارب بينه وبينهم، فيصف الزُّبير بن العوام ﷺ بأنه حواريه[١]، ويصفُ أبا بكر وعمر ﷺ بأنهما وزيراه[٢]، وجعل حذيفة بن اليمان ﷺ كاتم سرِّه[٣]، ولقَّب أبا عبيدة عامر بن الجرَّاح ﷺ بأنه أمين الأُمَّة[٤].

كما نجده يشارك أصحابه في مأكلهم ومشربهم؛ تقوية لأواصر الصحبة والمحبَّة، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنت جالسًا في داري فمرَّ بي رسول الله ﷺ فأشار إليَّ، فقمتُ إليه، فأخذ بيدي فانطلقنا، حتى أتى بعض حُجَرِ نسائه فدخل، ثم أذن لي فدخلتُ والحجاب عليها، فقال: «هَلْ مِنْ غَدَاءٍ؟» فقالوا: نعم. فأتي بثلاثة أَقْرِصَةٍ[٥] فوضعن على نَبِيٍّ[٦]، فأخذ رسول الله ﷺ قرصًا فوضعه بين يديه، وأخذ قرصًا آخر فوضعه بين يديَّ، ثم أخذ الثالث فكسره باثنين، فجعل نصفه بين يديه ونصفه بين يدي، ثم قال: «هَلْ مِنْ أُدُمٍ[٧]؟» قالوا: لا، إلاَّ شيء من خلٍّ. قال: «هَاتُوهُ، فَنِعْمَ الأُدُمُ هُوَ»[٨].

كما يشارك النبي ﷺ أصحابه كذلك في مزاحهم ولهوهم -ولم يكن مزاحه ﷺ إلاَّ حقًّا- فمزاح الأصحاب سبب من الأسباب الرئيسة في التلاحم والقرب، ومن هذه المواقف الرائعة التي أُثرت عن رسول الله ﷺ ما رواه أنس ﷺ أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، كان يُهدي للنبي ﷺ الهديَّة من البادية فيجهِّزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ». وكان النبي ﷺ يحبُّه، وكان رجلاً دميمًا، فأتاه النبي ﷺ يومًا، وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الطليعة (٢٨٤٦).

(٢) الترمذي عن أبي سعيد الخدري (٣٦٨٠) قال النبي ﷺ: «... وَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. والحاكم (٣٠٤٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ومسند ابن الجعد (٢٠٢٦).

(٣) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمار وحذيفة ﷺ (٣٧٤٢)، والكتاني، تحقيق منير الغضبان: التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية ص٨٢.

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران (٤٣٨٠).

(٥) الأقرِصَة: جمع قُرْص وهو الرغيف، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قرص ٧/ ٧٠.

(٦) نَبِيٌّ: كل ما ارتفع من الأرض، وفسَّروه بمائدة من الخوص، انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٤/ ٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة نبا ١٥/ ٣٠١.

(٧) الأُدُم: جمع الأُدْم وهو ما يؤكل بالخبز أيَّ شيء كان، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أدم ١٢/ ٨.

(٨) مسلم: كتاب الأشربة، باب فضيلة الخل والتأدم به (٢٠٥٢).

الرجل: أرسلني، مَن هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ... وجعل النبي ﷺ يقول: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟» فقال: يا رسول الله، إذًا والله تجدني كاسدًا. فقال النبي ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ الله لَسْتَ بِكَاسِدٍ». أو قال: «لَكِنْ عِنْدَ الله أَنْتَ غَالٍ»(1). هكذا كان يتعامل النبي ﷺ مع نفسيَّة أصحابه فيُعلي من شأنهم، فيسعد لسعادتهم ويحزن لحزنهم.

وفي أحلك لحظات المسلمين شدَّة وجدنا رسول الله ﷺ مع أصحابه كواحد منهم، يعاني ممَّا يعانون، ويتألَّم ممَّا يتألَّمون، ويلتمس أي شيء يكون سببًا في إشباعهم من الجوع، وإسعادهم من الحزن، فرغم جوع المسلمين في الخندق، ورغم قلَّة الطعام الذي أعدَّه جابر بن عبد الله ﷺ إلاَّ أنَّ رسول الله ﷺ لم يأكل دون إشراك أصحابه معه؛ حيث نادى في أصحابه قائلاً: «يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا(2)، فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ(3)»(4).

كما نجده ﷺ يشارك أصحابه في أزماتهم ومصائبهم مشاركة فعَّالة بتبشيرهم تارة بثواب ونعيم الله في الآخرة، وبحلِّ مشاكلهم حلاًّ عمليًّا تارة أخرى؛ فها هو ذا يبشِّر عبد الله بن جحش ﷺ عندما شكا له أن أبا سفيان قد أخذ دارَهُم في مكة بعد الهجرة وباعها، فقال له: «أَلا تَرْضَى يَا عَبْدَ الله أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ بِهَا دَارًا خَيْرًا مِنْهَا فِي الجَنَّةِ؟» قال: بلى. قال: «فَذَلِكَ لَكَ»(5).

ويأتي صحابي آخر قد أُصيب في عهد الرسول ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فيقول ﷺ لأصحابه: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ». فَتَصَدَّقَ الناس عليه، فلم يَبْلُغْ ذلك وفاء دَيْنِهِ، فقال رسول الله ﷺ لِغُرَمَائِهِ: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلاَّ ذَلِكَ»(6).

---

(1) أحمد (١٢٦٦٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (١١٧٢٤).

(2) صَنَعَ سُورًا: أي طعامًا دعا الناس إليه، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ٣٩٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة سور ٤/ ٣٨٤.

(3) حَيَّ هَلاً بكم: أي ابْدَأ بكم وعَجِّلْ، وهي كلمة استدعاء فيها حثٌّ، أي هلمُّوا مسرعين، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ٣٩٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة حيا ١٤/ ٢١١.

(4) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من تكلم بالفارسية والرطانة (٢٩٠٥)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار... (٢٠٣٩).

(5) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٢٨، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٦٦.

(6) مسلم كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (١٥٥٦)، والترمذي (٦٥٥)، والنسائي (٤٥٣٠)، وأبو داود (٣٤٦٩)، وقد كفل الإسلام حق الدائنين كما أقرّ التشريع الإسلامي، انظر: الحطاب الرعيني: مواهب الجليل ٥/ ٧.



فقد كان رسول الله ﷺ نِعْمَ الصاحب لأصحابه؛ يقف معهم في أفراحهم وأتراحهم، وفي قوَّتهم وضعفهم، فلم يتميَّز ﷺ عنهم بمزيَّة، بل كان كواحد منهم في المأكل والمشرب والملبس، وهو ما جعل كثيرًا من المشركين يتعجَّبون لهذه الرابطة القويَّة التي جمعته بأصحابه، فقال أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه: «ما رأيتُ من الناس أحدًا يحبُّ أحدًا كحُبِّ أصحاب محمد محمدًا!!»(١).

المبحث الرابع:
معاملاته ﷺ مع جنوده

الشخصيَّة القياديَّة فِطرةٌ حَبَا اللهُ بها أشخاصًا معيَّنِين، فكانوا قادةً أفذاذًا، وعلى رأسِ هؤلاء القادةِ الأفذاذِ يأتي أنبياءُ الله، الذين قادوا الأممَ والشعوبَ إلى طاعةِ الله ﷻ، وقد تناول القرآن قَصصهم مع شعوبهم؛ لتكون نموذجًا ومثالاً يحتذي به كلُّ قائدٍ؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ(٢)﴾، ثم سار النبي ﷺ على خطى هؤلاء الأنبياء، فكان أعظمَ قائدٍ عرفته البشريَّة.

وإذ نظرنا إلى سيرته ﷺ نجده قائدًا محنَّكًا - في كل أمورِ الحياة؛ إداريَّة، واجتماعيَّة، واقتصاديَّة، وسياسيَّة، وعسكريَّة - يعرف جيِّدًا قيمة جنوده وقدراتهم، فعمل ﷺ على غرس المبادئ الإسلاميَّة الراسخة في قلوبهم، فكان أوَّلها - وأهمُّها كذلك - غرس الثقة في الهدف الذي يعملون من أجله؛ وهو إخراج العِبَاد من عبادة العِبَاد إلى عبادة الله وحده؛ وكان ﷺ القدوة والمثل في ذلك فنجده ﷺ يقول لزعماء قريش عندما عرضوا عليه الدنيا: «مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُم بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلا المُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٧٢.
(٢) (يوسف: ١١١).

تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لأَمْرِ اللهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»(١). فالهدف واضح في ذهنه ﷺ، وثقته كبيرة بنصر الله له رغم التكذيب والعناد الذي يلاقيه.

ثم نجده ﷺ ينقل ثقته إلى أتباعه فيقول لخبَّاب بن الأرتِّ ﷺ بعدما اشتكى من قسوة تعذيب قريش له: «... وَاللهِ! لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(٢).

ثم نجده ﷺ يضع كل رجل مناسب في مكانه المناسب فقد كان الرسول يعرف جيِّدًا قدرات رجاله، فهم - في نظره - العناصر الرئيسة التي يعتمد عليها القائد، ومعرفتُه بهم تصنع بينهم وبينه انسجامًا متبادَلاً، وتدفعهم لتقديم الجهود؛ بل والإبداع في عملهم، فلننظر إلى سيرته ﷺ سنجدها خيرَ شاهدٍ على ذلك، ففي غزوة بدر يُشير الحُبَاب بن المنذر ﷺ - وهو الخبير بالأمور العسكريَّة - على رسول الله ﷺ بقوله: يا رسول الله، إنْ هذا ليس بمنزلٍ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب(٣)، ثم تبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، فنشرب ولا يشربون. فيقول رسول الله ﷺ له: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ»(٤).

ونجده ﷺ يعرف بوضوح إمكانات كل صاحب له ﷺ؛ حتى لا يتردَّد في وصف كل واحدٍ منهم بوصفٍ يوضِّح تفوُّقه على أقرانه في مجالٍ معيَّن، فأبو بكر ﷺ أرحم الأُمَّة، وعمر بن الخطاب ﷺ الفاروق، وعثمان بن عفان ﷺ أصدقهم حياءً، وعلي بن أبي طالب ﷺ أقضى الصحابة، وجعفر بن أبي طالب ﷺ أخير الناس للمسكين، وخالد بن الوليد ﷺ سيفٌ من سيوف الله، ومعاذ بن جبل ﷺ أعلمهم بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت ﷺ أعلمهم بالفرائض، وأُبَيّ بن كعب ﷺ أقرأ الأُمَّة،

---

(١) البخاري: خلق أفعال العباد ص١٨٦ حديث رقم (٤٠٨)، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٤٧٩.
(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٦)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأحمد (٢١٠٩٥).
(٣) القُلُب: جمع قليب، وهو البئر، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قلب ١/ ٦٨٥.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٠٢، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٦٢، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٩.

وحمزة بن عبد المطلب ﷺ أسد الله(١).

وكان رسول الله ﷺ قائدًا فذًّا في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة، ومن أبرز هذه المجالات المجال العسكري، وما حدث في غزوة بدر خير شاهدٍ على هذه العبقرية في القيادة، فقَبْل المعركة بدأ النبي ﷺ في تنظيم صفوف جنوده؛ ليكونوا على استعدادٍ تامٍّ في مواجهة مشركي قريش، ولمَّا ابتدأت المعركة بالمبارزة، اختار رسول الله ﷺ ثلاثةً من جنده الأشدَّاء في مواجهة خصومهم، وقد كان اختياره موفَّقًا لأبعد حدٍّ؛ لِعِلْمِه - وهو القائد - بحقيقة جنده وحالهم، فقال ﷺ: «قُمْ يَا عُبَيْدَة بْنَ الحَارِثِ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ». فقَتَل اللهُ عتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، والوليدَ بن عتبة ﷺ، وجُرِحَ عبيدةُ، فسبَّب ذلك هزيمة نفسيَّة للمشركين قبل لقائهم الفعلي مع المسلمين، فقتل المسلمون منهم سبعين، وأسروا سبعين آخرين(٢).

كما غرس فيهم -أيضًا- مبدأ (المبادرة والإبداع)، وتظهر هذه الصفة جليَّة واضحة في الأمور التي تحتاج إلى قرار سريع حاسم، ونظر ثاقب، وقدَّم ﷺ القدوة والمثل في ذلك، فلننظر إلى صُلحه ﷺ مع مشركي قريش في الحديبية، فهو يدلُّ - ولا شكَّ - على حُنْكَة وحسن سياسة من الرسول القائد؛ إذ كانت من النتائج المترتِّبة على هذا الصلح أن اعْتُبِر المسلمون في درجة مساوية لقريش، وهو أوَّل اعتراف بالدولة الإسلاميَّة من أشدِّ أعدائها وأقواهم في الجزيرة العربية، بل وأدَّى -أيضًا- إلى محالفة مجموعة من القبائل لرسول الله ﷺ، ثم أدَّى كذلك إلى الاستقرار الأمني الذي أعان المسلمين على نشر دعوتهم ودينهم في القبائل والقرى المجاورة؛ فكان هذا الصلح دليلاً على عمق نظرته ﷺ(٣).

ولننظر إلى إبداعه ﷺ وهو يخطِّط للهجرة؛ بداية من اختياره للرفيق وهو خير أصحابه أبو بكر الصديق ﷺ، ثم للطريق الذي يسلكه؛ حيث اختار ﷺ طريقًا غير

---

(١) البخاري: مناقب الصحابة ﷺ، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، والترمذي: المناقب، وابن ماجه (١٥٤)، وأحمد (١٢٩٢٧).

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٢٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٧١، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٢.

(٣) محمود شيت خطاب: الرسول القائد ص٢٨٨.

معهود لقريش، وهو طريق السواحل، وكذلك مُكْثه في غارٍ بجبل ثور ثلاث ليالٍ؛ حتى تهدأ الأمور، ثم اختيار عبد الله بن أُرَيْقِط المشرك دليلاً، وإرساله عبد الله بن أبي بكر ﷺ ليأتي بخبر قريش، وانتهاءً برعي عامر بن فهيرة للغنم حول الغار حتى يوفِّر الأمان، ثم تتجلَّى عظمته القيادية في توكُّله بعد ذلك على الله، واطمئنانه إلى معيَّته[1]، فيقول لأبي بكر ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»[2].

ولم يعمل ﷺ على غرس هذه القيم والمبادئ بالكلمات الجوفاء والأحاديث الرنَّانة، ولكنه كان قدوة ومثلاً في كل شيء، فكان ﷺ يؤثِّر في الآخرين بأقواله وأفعاله في تواضعه وحلمه، ورحمته وصبره.. ففي غزوة الأحزاب نجده ﷺ يرفع معنويَّات جنوده، ويُدخل السرور عليهم عندما يشاركهم بنفسه ﷺ في حفر الخندق (خريطة رقم ٢)، وهو يرتجز بكلمات ابن رواحة - أثناء نقله ﷺ للتراب، وقد وارى التُّراب بياض بطنه ﷺ[3]، فكان لهذا التبسُّط والمرح منه ﷺ أثره في التخفيف عن الصحابة ممَّا يعانونه أثناء هذه الغزوة، كما كان له أثره في بعث الهمَّة والنشاط، وإنجاز المهمَّة قبل وصول عدوِّهم، فكان بذلك خير قائد ﷺ.

---

(١) السهيلي: الروض الأنف ٢/ ٣١٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٧٩-١٨٢، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٣/ ٤٥.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة (٣٦٥٣)، (٣٩٢٢)، والترمذي (٣٠٩٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨١).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٤٩٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٠٦، والسهيلي: الروض الأنف ٢/ ٣٣٦.



خريطة رقم (٢)

غزوة الخندق

كما غرس فيهم ﷺ مبدأ الحزم، وكان النبي ﷺ قمّة في هذه الصفة أيضًا؛ فلننظر إلى حزمه ﷺ عندما نادى في صحابته بعد انتهاء غزوة الأحزاب: «أَنْ لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[١]. فكان قرارًا حازمًا من القائد ﷺ لجنوده، فخرج الجميع لمواجهة مَنْ خان العهد وتعاون مع الأعداء.

أمّا عدله مع جنوده فقد ضرب فيه ﷺ المثل الذي لا يُضاهَى؛ ففي غزوة بدر كان رسول الله ﷺ ينظِّم صفوف أصحابه وفي يده قدح يعدل به القوم، فمرَّ بسواد بن غزيَّة[٢] ﷺ وهو مُسْتَنْتِل[٣] من الصفِّ، فطعنه في بطنه بالقدح، وقال: «اسْتَوِ يَا سَوَادُ». فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحقِّ والعدل. وقال: فأَقِدْنِي[٤]. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه. وقال: «اسْتَقِدْ»[٥]. فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال ﷺ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ؟» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردتُ أن يكون آخرُ العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير[٦].

هكذا كانت تعاملات رسول الله ﷺ مع جنوده، فكان بحقٍّ قائدًا إنسانًا في كل موقف من مواقف حياته، وفي كل غزوة من غزواته؛ فكانت تعاملاته هذه سمة قياديَّة جديدة تستمدُّ عونها وتوفيقها من الله؛ حتى يتأسَّى بها مَنْ يأتي بعده من القادة إلى يوم الدين.

---

(١) البخاري: أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء (٩٤٦) واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهمِّ الأمرين المتعارضين (١٧٧٠)، وابن حبان (١٤٨٤).

(٢) هو سواد بن غزية الأنصاري: شهد بدرًا والمشاهد بعدها، وهو الذي أسر خالد بن هشام المخزومي يوم بدر، وكان عامل رسول الله ﷺ على خيبر، انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٥٦١، وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٦٧٣.

(٣) استنتل: تقدَّم، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نتل ١١/ ٦٤٤.

(٤) أقدني: أي مكِّنِّي من القصاص لنفسي، والقَوَدُ: القصاص، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قود ٣/ ٣٧٠.

(٥) استقد: أي اقتصَّ منِّي، انظر المرجع السابق.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٦، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤١٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٤٥٣. وقال الألباني: وهذا إسناد حسن إن شاء الله تعالى. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٣٥).

المبحث الخامس:

معاملاته ﷺ مع من لا يعرف

من أبرز الدلائل على نبوة رسول الله محمد ﷺ تعاملاته الراقية مع من لا يعرف؛ لأننا قد نتجمَّل أمام بعضنا البعض، ونتعامل بجفاء مع من لا يعرفنا، لكن الله ﷻ قد مَنَّ على نبيه برقَّة القلب مع مَنْ يعرف، ومَنْ لا يعرف، فقال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ[١]﴾.

وسيرته خير شاهد على تعاملاته الرائعة مع من لا يعرف؛ ولننظر إلى موقفه مع أم معبد ،فعن حبيش بن خالد - وهو أخو أم معبد - أن رسول الله ﷺ حين أُخْرج من مكة خرج مهاجرًا إلى المدينة هو وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة ودليلهما عبد الله الليثي، مروا على خيمة أم معبد، فسألوها لحمًا وتمرًا؛ ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مُرْمِلِينَ[٢] مُسْنِتِينَ[٣]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟» قالت: شاة خلَّفها الجهد عن الغنم. قال: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟»قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: «أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا؟»قالت: بأبي أنت وأمي! إن رأيت بها حلبًا فاحلبها. فدعا رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها، وسمَّى الله تعالى، ودعا لها في شاتها، فتفاجت[٤] عليه ودرَّت، واجترَّت[٥]، فدعا بإناء يُرْبِضُ الرَّهْط[٦]، فحلب فيه ثجًا[٧] حتى علاه

(١) (آل عمران: ١٥٩).
(٢) المرملين جمع المُرْمِلُ: وهو الذي نَفِدَ زاده. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رمل ١١/ ٢٩٤.
(٣) مستين أي: مجدبين، أصبتهم السنة، وهي القحط والجدب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سنت ٢/ ٤٧.
(٤) فتفاجت يريد فتحت ما بين رجليها للحلب. انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث ١/ ١٩٢.
(٥) اجترت: أخرج البعير الطعام من بطنِهِ ليَمضُغَه ثم يَبْلَعه. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٧٢٩.
(٦) يربض الرهط: أي يُرْوِيهم ويثقلهم حتى يناموا، ويَمْتَدُّوا على الأرض. انظر السابق ٢/ ٤٦٠.
(٧) ثَجًا: أي لبنًا سائلًا كثيرًا. انظر السابق ١/ ٥٨٥.

البهاء[١]، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها، وارتحلوا عنها[٢].

ففي هذا الموقف تتجلَّى عظمة النبي ﷺ فقد تعامل معها تعاملاً عادلاً، رغم أنه خرج مهاجرًا؛ لا يملك مالاً ولا طعامًا، وهي لا تعرفه حتى يسقط من نظرها، ولكنه ﷺ يتعامل من منطق النبوة وليس من منطق قطَّاع الطرق، الذين يغتصبون حقوق الآخرين.

وكانت معاملاته الراقية هذه مع من لا يعرف سببًا في ثبات إسلام العديد منهم؛ فعن المنذر بن جرير رضي الله عنهما، عن أبيه، قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ في صدر النَّهار، قال: فجاءه قومٌ حفاةٌ عراةٌ، مجتابي النِّمار[٣]، أو العباء، متقلِّدي السُّيوف، عامَّتهم من مضر، بل كلُّهم من مضر، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً، فأذَّن وأقام، فصلَّى ثمَّ خطب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٤]، والآية التي في الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ[٥]﴾، تَصَدَّقَ رَجُلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّهِ، من صاع تمره - حتَّى قال - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ. قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرَّة[٦]، كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثمَّ تتابع النَّاس حتَّى رأيت كومين من طعامٍ وثيابٍ حتَّى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلَّل كأنَّه مذهبةٌ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا

---

(١) بَهاءَ اللبن: هو وَبيصُ رغوته. انظر السابق ١/ ٤٤٣.
(٢) الحاكم (٤٢٧٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٣) مجتابي النِّمار: أي لابسيها، والنمار: جمع نَمِرة وهي كلُّ شملةٍ مخطَّطة من مآزر الأعراب، كأنها أخذت من لون النَّمر لما فيها من السَّواد والبياض. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٨٣٢، ٥/ ٢٤٩.
(٤) (النساء: ١).
(٥) (الحشر: ١٨).
(٦) الصُّرَّة: ما يُجْمَعُ فيه الشيء ويُشَدُّ، انظر: المعجم الوسيط، مادة صرر ١/ ٥١٢.

وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

بل وكانت سببًا في إسلام البعض الآخر فها هو ذا زيد بن سعنة، وكان من أحبار اليهود، يقول: إنه لم يبقَ من علامات النبوة شيء إلاَّ وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلاَّ اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلاَّ حِلمًا، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

قال: فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب ﷺ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت أخبرتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، وقد أصابهم شدَّة وقحط من الغيث، وأنا أخشى - يا رسول الله - أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن تُرسِل إليهم من يُغيثهم به فعلت. قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل جانبه - أراه عمر ﷺ - فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله.

قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرًا معلومًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: «لا يَا يَهُودِيُّ، وَلَكِنِّي أَبِيعُكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا، وَلا تُسَمِّي حَائِطَ بني فُلانٍ». قلت: نعم. فبايَعَنِي ﷺ، فأطلقت هِمياني، فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، قال: فأعطاها الرجلَ[2].

وما أجمل أن نختم مبحثنا بموقف رسول الله ﷺ مع رجل لا يعرفه ﷺ، وكان ﷺ شديد الحرص على ضيافته، ولكن لفقره ﷺ لم يجد ما يضيفه به، فنزل هذا الرجل ضيفًا على أحد الأنصار، فعن أبى هريرة ﷺ أنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهودٌ. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والَّذى بعثك بالحقِّ ما عندى إلاَّ ماءٌ. ثمَّ أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتَّى قلن كلُّهنَّ مثل ذلك: لا والَّذى بعثك بالحقِّ ما عندى

---

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصَّدقة ولو بشقّ تمرة أو كلمة طيبة (٢٣٩٨)، والنسائي (٢٥٥٤)، وأحمد (١٩٢٢٥).

(٢) ابن حبان: كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٨٨)، والحاكم (٦٥٤٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والبيهقي (١١٠٦٦)، والطبراني: المعجم الكبير ٥/ ١٦٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: روى ابن ماجة منه طرفًا، ورواه الطبراني ورجاله ثقات.

إلاَّ ماءٌ. فقال: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟». فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله...»[1].

هكذا كان النبي محمد ﷺ يتعامل مع من لا يعرف، وفي ذلك دلالة على نبوته ﷺ؛ لأنه كان واضحًا وشفافًا في كلِّ أمرٍ من أمورِ حياته.

❊ ❊ ❊

(١) مسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٤)، وابن حبان (٥٢٨٦)، وأبو يعلى (٦١٦٨).

النبي ﷺ والحقوق

قال عبد الله البردوني (شاعر يمني):

يا رسول الحق خلّدت الهدى   وتركت الظلم والبغي حطاما

الفصل الثالث:

النبي ﷺ والحقوق

أنعم الله على البشريَّة بدين الإسلام، الذي جعل قضية الحقوق أصلاً ثابتًا من أصول الدين، بل وجعلها منهجًا إلهيًّا يُثاب الإنسان على فعله، ويأثم إن تركه، وليست منحة من مخلوق مهما كان قدره، كما جعلها كذلك عامَّة تشمل الإنسان - مهما كان دينه أو لونه أو جنسه - والحيوان والبيئة، وكان رسول الله ﷺ نِعْمَ المطبِّق لهذه الحقوق؛ فعاش الجميع في ظلِّ هديه وسُنَّته حياة حُرَّة كريمة.

ولذلك فإننا في هذا الفصل سنتناول بعض الحقوق التي أقرَّها الإسلام كنموذج على عظمة التشريعات الربَّانيَّة، ودقَّة التطبيق النبوي لها من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: النبي ﷺ وحقوق الإنسان

المبحث الثاني: النبي ﷺ وحقوق المرأة

المبحث الثالث: النبي ﷺ وحقوق الطفل

المبحث الرابع: النبي ﷺ وحقوق الخدم والعمال

المبحث الخامس: النبي ﷺ وحقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصَّة

المبحث السادس: النبي ﷺ وحقوق اليتيم والمسكين والأرملة

المبحث السابع: النبي ﷺ وحقوق الحيوان

المبحث الثامن: النبي ﷺ وحقوق البيئة

المبحث الأول:

النبي ﷺ وحقوق الإنسان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة راقية فيها تكريم وتعظيم، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا[(١)]﴾. وهذه النظرة جعلت لحقوق الإنسان في الإسلام خصائص ومميزات معينة؛ مِن أهمِّها شموليَّة هذه الحقوق، فهي سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية... كما أنها عامَّة لكل الأفراد؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين، دون تمييز بين لون أو جنس أو لغة أو دين، وهي كذلك غير قابلة للإلغاء أو التبديل؛ لأنها مرتبطة بتعاليم ربِّ العالمين (صورة للمقارنة رقم ١).

وجاءت كلماتُه وأفعالُه ﷺ خير شاهد على ذلك، ففي خطبة الوداع - التي كانت بمثابة تقرير شامل لحقوق الإنسان - قال ﷺ: «.. فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ...»[(٢)]. فأكَّدت هذه الخطبة النبويَّة جملة من الحقوق؛ أهمُّها: حرمة الدماء، والأموال، والأعراض، وغيرها.

كما نجده ﷺ يُعَظِّم من شأن النفس الإنسانيَّة عامَّة؛ فيحفظ لها أعظم حقوقها وهو حقُّ الحياة، فيقول ﷺ عندما سُئِل عن الكبائر: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ... وَقَتْلُ النَّفْسِ...»[(٣)]. فجاءت كلمة النفس عامَّة لتشمل أيَّ نَفْسٍ تُقتل دون وجه حقٍّ.

---

(١) (الإسراء: ٧٠).

(٢) البخاري عن أبي بكرة: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (٤٤٠٦)، (٤٦٦٢)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، وأبو داود (١٩٤٧) ، ومسند أحمد (١٩٨٧٣).

(٣) البخاري عن أنس بن مالك: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٣)، والنسائي (٤٠٠٩)، وأحمد (٦٨٨٤).

صورة للمقارنة



أزمة حقوق الإنسان
في العالم



صورة رقم (١)

وقد ذهب الرسول ﷺ إلى أكثر من ذلك حين حمى حياة الإنسان من نفسه، وذلك بتحريم الانتحار، فقال ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»(١).

كما حرَّم الإسلام كل عمل ينتقص من حقِّ الحياة، سواء أكان هذا العمل تخويفًا، أو إهانة، أو ضربًا.. فعن هشام بن حكيم ﷺ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»(٢).

ويأتي النبي ﷺ بعد ذلك ليؤكِّد على حقِّ المساواة بين الناس جميعًا؛ بين الأفراد والجماعات، وبين الأجناس والشعوب، وبين الحكَّام والمحكومين، وبين الولاة والرعيَّة، فلا قيود ولا استثناءات، ولا فَرْقَ في التشريع بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حاكم ومحكوم، وإنما التفاضل بين الناس بالتقوى، فقال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ(٣)، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى»(٤). ولننظر إلى تعامله ﷺ مع مبدأ المساواة؛ لندرك عظمته ﷺ، فعن أبي أُمامة ﷺ أنه قال: عَيَّرَ أبو ذرٍّ بلالاً بأُمِّه، فقال: يابن السوداء. وأنَّ بلالاً ﷺ أتى رسول الله ﷺ، فأخبره فغضب، فجاء أبو ذرٍّ ﷺ ولم يشعر، فأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ، فقال: ما أعرضكَ عنِّي إلاَّ شيءٌ بلغكَ يا رسول الله. قال: «أَنْتَ الَّذِي تُعَيِّرُ بِلالاً بِأُمِّهِ؟» وقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ - أَوْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَحْلِفَ -

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (١٠٩).

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق (٢٦١٣)، وأبو داود (٣٠٤٥)، وأحمد (١٥٣٦٦).

(٣) كلكم لآدم: كل الناس جميعًا يرجعون إلى أب واحد هو آدم ﷺ.

(٤) أحمد (٢٣٥٣٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٤٤)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

مَا لأَحَدٍ عَلَيَّ فَضْلٌ إِلاَّ بِعَمَلٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ كَطَفِّ الصَّاعِ(١)»(٢).

ويرتبط بحقِّ المساواة حقٌّ آخر وهو العدل، وهذا ما علمه رسول الله لصحابته وأُمّته، فيقول ﷺ: «الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ؛ فَأَمَّا الَّذِي فِي الجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَجَارَ فِي الحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ»(٣).

وكان ﷺ ينهى كذلك عن مصادرة حقِّ الفرد في الدفاع عن نفسه تحرِّيًا للعدالة، فيقول: «... فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً...»(٤). ويقول لمن يتولَّى الحُكْم والقضاء بين الناس: «... فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الخَصْمَانِ فَلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ»(٥).

ومن حقوق الإنسان -أيضًا- التي شرعها الرسول ﷺ: حقُّ حرية العقيدة والاعتقاد، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ(٦)﴾، فلا إكراه لأحد على اعتناق عقيدة معيَّنة، ففي فتح مكة لم يُجْبِر الرسول ﷺ قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»(٧).

وتمتدُّ قائمة حقوق الإنسان مع الرسول ﷺ لتشمل -أيضًا- حُرِّيَّة الرأي والتفكير، فكان الرسول ﷺ يحترم رأي الآخرين ويشجِّعه، وكان حين يرى رأيًا ويرى بعض أصحابه خلافه وفيه المصلحة يرجع عن رأيه إلى رأى مَن يخالفه، وما حدث في أُحُدٍ خير

---

(١) طفُّ الصاع: أي كلكم قريبٌ بعضُكم من بعض فليس لأحد فضْلٌ على أحد إلا بالتقوى لأنَّ طَفَّ الصاع قريبٌ من ملئه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طفف ٩/ ٢٢١.

(٢) البيهقي: شعب الإيمان (٥١٣٥).

(٣) أبو داود: كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣) وقال: هذا أصح شيء فيه. والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٤٤٤٦).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون (٢٣٠٦)، (٢٣٩٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب من استلف شيئًا فقضى خيرًا منه... (١٦٠١)، والترمذي (١٣١٧)، والنسائي (٤٦١٨).

(٥) أبو داود عن عليٍّ ﷺ: كتاب الأقضية، باب كيف القضاء (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١)، وأحمد (٨٨٢) وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٠٠).

(٦) (البقرة: ٢٥٦).

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٠١.



شاهد على ذلك؛ حيث نزل النبي ﷺ على رأي الشباب - وكانوا الأغلبية - الذي فضَّل الخروج لملاقاة قريش خارج المدينة، وكان هذا الرأي مخالفًا لرأيه ﷺ(١).

وفي حقٍّ فريد يختصُّ بتشريعه ﷺ - ولم يتطرَّق إليه نظام وضعي ولا ميثاق من مواثيق حقوق الإنسان - يأتي حقُّ الكفاية، ومعناه أن يحصل كل فرد يعيش في كنف الدولة الإسلاميَّة على كفايته من مقوِّمات الحياة؛ بحيث يحيا حياة كريمة، ويتحقَّق له المستوى اللائق للمعيشة، وهو يختلف عن حدِّ الكفاف الذي تحدَّثت عنه النُّظُم الوضعيَّة، والذي يعني الحدَّ الأدنى لمعيشة الإنسان(٢).

وحقُّ الكفاية هذا يتحقَّق بالعمل، فإذا عجز الفرد فالزكاة تسدُّ هذا العجز، فإذا عجزت الزكاة عن سدِّ كفاية المحتاجين تأتي ميزانية الدولة لسداد هذه الكفاية، ولقد قال ﷺ مؤكِّدًا على هذا الحقِّ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا(٣) وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»(٤). وقال مادحًا: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»(٥).

هكذا كان رسول الله ﷺ الرائد الأوَّل والراعي الأعظم لحقوق الإنسان، ورسالته التي حملها للعالمين جميعًا رسالة إنسانيَّة، شملت برعايتها جميع الحقوق التي تتعلَّق بالإنسان كإنسان.

فما أعظم إنسانيتك يا رسول الله!

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى (١٣٠٦١)، والسهيلي: الروض الأنف ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤١٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٤.

(٢) انظر: خديجة النبراوي: موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام ص٥٠٥-٥٠٩.

(٣) هكذا وردت في الحديث مصروفة.

(٤) الحاكم (٧٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني عن أنس بن مالك: المعجم الكبير (٧٥٠) واللفظ له، والبيهقي: شعب الإيمان (٣٢٣٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩).

(٥) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٢٤٨٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل الأشعريين ﷺ (٢٥٠٠).

المبحث الثاني:
النبي ﷺ وحقوق المرأة

أحاط الإسلام المرأة بسياج من الرعاية والعناية، وارتفع بها وقدَّرها، وخصَّها بالتكريم وحُسْن المعاملة ابنةً وزوجةً وأختًا وأمًّا، فقرَّر الإسلام أوَّلاً أنَّ المرأة والرجل خُلِقَا من أصلٍ واحد؛ ولهذا فالنساء والرجال في الإنسانيَّة سَوَاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً...[1]﴾، وهناك آيات أخرى كثيرة تُبيِّن قضاء الإسلام على مبدأ التَّفْرِقَة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانيَّة المشتَرَكة.

وانطلاقًا من هذه المبادئ، وإنكارًا لعادات الجاهليَّة والأمم السابقة فيما يخصُّ وضع المرأة، قام الرسول ﷺ يدافع عن المرأة ويُنزلها المكانة التي لم تبلغها في حضارة ماضية، ولم تُدْرِكْها في أُمَّة تالية؛ حيث سنَّ لها - كأمٍّ وأخت وزوجة وابنة - من الحقوق منذ أربعةَ عَشَرَ قرنًا ما تزال المرأة الغربيَّة تُصارع الآن للحصول عليه، ولكن هيهات!

ففي جملة بلاغيَّة رائعة أصَّل الرسول ﷺ لقاعدة مهمَّة؛ وهي أن النساء يُماثِلن الرجال في القَدْر والمكانة، ولا ينتقص منهن أبدًا بكونهنَّ نساء، فقال: «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»[2]. أي: نُظراؤهم وأمثالُهم، وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان دائم الوصيَّة بالنساء، وكان يقول لأصحابه: «... اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[3]. وتكرَّرت منه هذه النصيحة في حجَّة الوداع وهو يخاطب الآلاف من أُمَّته.

وإذا ما أردنا أن نتبيَّن ما أرساه الرسول ﷺ من دعائم رِفْعَتِها وتكريمها، فيهمُّنا أن ندرك أوَّلاً وضع المرأة في الجاهليَّات القديمة والمعاصرة؛ لنرى الظلام الحقيقي الذي

---

(١) (النساء: ١).

(٢) الترمذي عن عائشة: أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً... (١١٣)، وأبو داود (٢٣٦)، وأحمد (٢٦٢٣٨)، وأبو يعلى (٤٦٩٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (١٩٨٣).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء (٣٣٣١)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨)، والترمذي (١١٨٨)، ومسند أحمد (١٠٤٧٥)، والدارمي (٢٢٢٢).

عانته، والذي ما زالت تعانيه، ومن ثَمَّ يتبيَّن لنا حقيقة وضع ومكانة المرأة في ظلِّ تعاليم رسول الإسلام ﷺ.

فلمَّا كانت عادة العرب في الجاهلية وَأْد البنات؛ إذا به ﷺ يُجرِّم ويُحرِّم ذلك الفعل، وذلك انطلاقًا من تشنيع القرآن الكريم على أهل الجاهليَّة بسبب وَأْدِهم البنات ومهانتها عندهم؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[1]﴾، بل وجعله النبي من أعظم الذنوب؛ فعن ابن مسعودٍ ﷺ أنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الذَّنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ». قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[2].

ولم يَقِفْ رسول الله ﷺ في الحفاظ على حقِّها في الحياة عند هذا الحدِّ، وإنما رغَّب في الإحسانِ إليها صغيرةً؛ فقال: «مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[3].

ثم أمر الرسول ﷺ بتعليمها فقال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا... فَلَهُ أَجْرَانِ»[4]. وكان ﷺ يجعل للنساء يومًا ليعظَهُنَّ، ويذكِّرَهُنَّ، ويأمرَهُنَّ بطاعة الله تعالى.

وما أن تشبَّ البنت وتصير فتاة بالغة؛ حتى يعطِيَها الرسول ﷺ الحقَّ في الموافقة على الخاطب أو رفضه، ولا يجوِّز إجبارها على الاقتران برجل لا تريده، وقد قال في ذلك ﷺ: «الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا»[5]. وقال -أيضًا- ﷺ: «لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ». قالوا: يا رسول الله،

---

(١) (التكوير: ٨، ٩).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه (٦٠٠١)، والترمذي (٣١٨٢)، وأحمد (٤١٣١).

(٣) البخاري عن عائشة: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

(٤) البخاري عن أبي موسى الأشعري: كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (٤٧٩٥).

(٥) مسلم عن عبد الله بن عباس: كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤٢١).

وكيف إذنها؟ قال: «أَنْ تَسْكُتَ»[١].

ولمَّا تصير زوجة يحثُّ الرسول ﷺ على حُسْن معاملتها وعشرتها؛ مبيِّنًا أن حُسْن عِشْرَة النساء دليل على نُبْل نفس الرجل وكريم طباعه، فيقول – مثلاً – مرغِّبًا: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ المَاءِ أُجِرَ»[٢]. ويقول مُرَهبًا: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أُحَرِّجُ[٣] حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْـمَرْأَةِ»[٤].

وإذا ما كرهت الزوجة زوجها ولم تُطِق الحياة معه، فقد سنَّ لها الرسول ﷺ حقَّ مفارَقة الزوج، وذلك عن طريق الخُلْع؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما أَنْقِم على ثابت في دِينٍ ولا خُلُق، إلاَّ أنِّي أخاف الكفر. فقال رسول الله ﷺ: «فَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟» فقالت: نعم. فردَّتْ عليه حديقته، وأمره ففارقها[٥].

في حين أنه ﷺ أثبت للمرأة ذِمَّة ماليَّة مستقلَّة تمامًا كالرجل؛ فلها أن تبيع وتشتري، وتستأجر وتؤجِّر، وتوكل وتهب، ولا حِجْر عليها في ذلك ما دامت عاقلة رشيدة، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ[٦]﴾.

ولما أَجَارَتْ أُمُّ هانئ بنت أبي طالب رجلين من المشركين، وأَبَى أخوها عليٌّ رضي الله عنه إلاَّ أنْ يقتلهما، كان قضاء الرسول ﷺ في هذه الحادثة قوله: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[٧]. فأعطاها الحقَّ في أن تُعْطِيَ الأمان والجوار في الحرب أو السلم لغير المسلمين.

وهكذا تعيش المرأة المسلمة عزيزة أبيَّة كريمة في ظلِّ تعاليم رسول الله ﷺ.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (٥١٣٦).

(٢) أحمد عن العرباض بن سارية (١٧١٩٥) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بشواهده..، والطبراني: المعجم الكبير (١٥٣٥٦)، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٩٦٣).

(٣) أحرِّج: أي ألحق الحرج والإثم بمن ضيعهما، فأحذره من ذلك تحذيرًا بليغًا، وأزجره زجرًا أكيدًا، انظر: المناوي: فيض القدير ٣/ ٢٧.

(٤) ابن ماجه عن أبي هريرة (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٦٦٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي، والحاكم (٢١١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي (٢٠٢٣٩)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

(٥) البخاري: كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه (٥٢٧٦).

(٦) (النساء: ٦).

(٧) البخاري عن أم هانئ بنت أبي طالب: كتاب الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن (٣١٧٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٣٣٦).



المبحث الثالث:
النبي ﷺ وحقوق الطفل

الأطفال في الإسلام هم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وهم بهجة النفوس وقرَّة الأعين، وقد نالت هذه المرحلة من عناية الرسول ﷺ النصيب الأوفى (صورة للمقارنة رقم ٢)، فأوجب ﷺ حقوقًا عظيمة للطفل، أعظم ما فيها أنها اهتمَّت به قبل ولادته، وقبل أن يصير جنينًا؛ فأمر النبي ﷺ الرجلَ المُقْدِم على الزواج باختيار الزوجة الصالحة ذات الدين، فقال: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»(١).

كما أمر ﷺ الزوجة باختيار زوجها على المعيار والأساس نفسه، فقال: «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»(٢). وقد اعتُبر اختيار الزوجة الصالحة (الأمّ) من حقوق الطفل على أبيه.

ولا ريب في أن هذا الاختيار وذاك الأساس من شأنه أن يعود بالنفع التامِّ والمصلحة المباشرة على الطفل، الذي يكون ثمرة هذين الزوجين الصالحين؛ لينشأ بعد ذلك في أسرة ودودة متحابَّة، تعيش في ظلِّ تعاليم الإسلام.

ثم إنه إذا حملت الأمُّ بالطفل، فقد أجاز لها الرسول ﷺ الفطر في نهار رمضان رحمة بها وبه.

وإذا ما وُلد الطفل فقد سنَّ ﷺ الأذان في أُذُنه اليمنى والإقامة في أُذُنه اليسرى؛ لتكون الشهادة بالكبرياء والوحدانيَّة لله ﷻ أوَّل ما يقرع سمع الطفل في الحياة.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦).

(٢) الترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه (١٠٠٤)، وقال الألباني: حسن. انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢).

أزمة حقوق الطفل
في العالم



صورة رقم (٢)

وقد أوجب الرسول ﷺ التسمية الحسنة للطفل عند ولادته، بما تحمل صفة حسنة، أو معنًى محمودًا يبعث الراحة في النفس والطمأنينة في القلب؛ وذلك من شأنه أن يُوقظ في وجدان الطفل بعد ذلك المعاني السامية والمشاعر النبيلة، ويُشعره بالعزَّة والفخار باسمه واحترام ذاته، وكذلك يُبْعِدُه عن سخرية الناس واستهزائهم، وفي ذلك قال ﷺ: «تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا: حَرْبٌ وَمُرَّةُ»[(١)].

وسنَّ الرسول ﷺ للطفل المولود -أيضًا- العقيقة[(٢)]، وهي نوع من الفرح والسرور بالمولود الجديد، فقال ﷺ: «مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَحَبَّ أَنْ يَنْسُكَ عَنْهُ فَلْيَفْعَلْ عَنِ الْغُلاَمِ شَاتَانِ مُكَافِئَتَانِ وَعَنِ الجَارِيَةِ شَاةٌ»[(٣)]. وكأنَّ المجتمع الإسلامي كله يشارك الوالدين فرحتهما بالمولود الجديد.

وقد تنزَّلت آيات القرآن بحقوق الطفل في الرضاعة، فقال الله ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ[(٤)]﴾.

ولا يخفى أن الرضاعة عمليَّة لها أثرها البعيد في التكوين الجسدي، والعاطفي، والاجتماعي في حياة الإنسان.

ومن ناحية أخرى حثَّ الرسول ﷺ علَى تحرِّي العدل في المعاملة بين الأبناء، فقال ﷺ: «اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ...»[(٥)]. وكذلك كان ﷺ ينصح الآباء بقوله: »...

---

(١) أبو داود: كتاب الآداب، باب في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، وأحمد (١٩٠٥٤)، وقال الألباني: صحيح دون قوله: «تسموا بأسماء الأنبياء». انظر: صحيح الترهيب والترغيب (١٩٧٧).

(٢) معناها ذبح الشاة عن المولود يوم السابع من ولادته (على اختلاف)، وحكمها سُنَّة مؤكَّدة.

(٣) أبو داود: كتاب الضحايا، باب العقيقة (٢٨٤٤)، وأحمد (٦٨٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (٧٥٩٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٥٥).

(٤) (البقرة: ٢٣٣).

(٥) البخاري عن النعمان بن بشير: كتاب الهبة وفضلها، باب الإشهاد في الهبة (٢٥٨٧)، ومسلم: كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة (١٦٢٣).

وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ...»[١]. وذلك لأنه قد تصاحب هذه الدعوة ساعة إجابة؛ فتكون سببًا في شقاء الولد طيلة حياته.

كما تمتَّع الطفل في الإسلام منذ ولادته بأهليَّة كاملة، يكون له بموجبها الحقُّ في الميراث والوصيَّة والوقف والهبة، وغير ذلك، وهذه الأهليَّة تثبت له فور اكتمال كيانه الإنساني بانفصاله عن أُمِّه حيًّا؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا اسْتَهَلَّ[٢] الْمَوْلُودُ وُرِّثَ»[٣].

وبالإضافة إلى ذلك سنَّ الرسول ﷺ رعاية الطفل من الناحية الوجدانيَّة؛ وذلك بالإحسان إليه ورحمته وملاعبته وإدخال السرور عليه، كما ذكرنا سابقًا في تعاملاته ﷺ مع أطفال المسلمين، وكذلك سنَّ ﷺ رعايته علميًّا وتعبُّديًّا، واحترامه وتشجيعه على الصراحة، وحُسن اختيار صُحبته، والدعاء له، إضافة إلى رعايته من الناحية السلوكيَّة والاجتماعيَّة، وبهذه المبادئ والقيم يكون الطفل أكثر تكيُّفًا مع وسطه الاجتماعي، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يصحب ابنه عبد الله ﷺ إلى مجلس النبي ﷺ؛ ليتعلَّم في واقع عملي الأدب واحترام الآخرين، فعن عبد الله بن عمر ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ». فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة. قال عبد الله: فاستحييت. فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها. فقال رسول الله ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ». قال عبد الله: فحدَّثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قُلْتَهَا أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا[٤]. هكذا يجب أن يتعلَّم أطفالنا القيم الإسلاميَّة الحاكمة للمجتمع تعلُّمًا تدريجيًّا، فيتهيَّأ لهم رويدًا رويدًا الدخول فيه.

---

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٩)، وأبو داود (١٥٣٢).

(٢) استهلَّ: أي رفع صوته بالبكاء والصراخ أو العطس بعد ولادته مباشرة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة هلل ١١/٧٠١.

(٣) أبو داود: كتاب الفرائض، باب في المولود يستهل ثم يموت (٢٩٢٠)، وابن ماجه (٢٧٥٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٣).

(٤) البخاري: عن عبد الله بن عمر، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١٣١)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

ولا نجد أجمل من قول غلامٍ[١] تربَّى على يديه ﷺ لنختتم به؛ حيث قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يَا غُلاَمُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». فما زالت تلك طِعْمَتِي بَعْدُ[٢].

فها هو ذا النبي ﷺ يُعَلِّم أطفال اليوم ورجال المستقبل القيم والأخلاق بحبٍّ ورأفة ورحمة.

المبحث الرابع:
النبي ﷺ وحقوق الخدم والعمال

أعزَّ الإسلام الخدم والعمَّال ورعاهم وكرَّمهم، واعترف بحقوقهم لأوَّلِ مرَّةٍ في التاريخ - بعد أن كان العمل في بعض الشرائع القديمة معناه الرقُّ والتبعيَّة، وفي البعض الآخر معناه المذلَّة والهوان - قاصدًا بذلك إقامة العدالة الاجتماعيَّة وتوفير الحياة الكريمة لهم.

وكانت سيرة رسول الله ﷺ خير شاهد على عظمة النظرة الإسلامية للخدم والعمَّال، وكانت إقرارًا منه ﷺ بحقوقهم، فقد دعا ﷺ أصحاب الأعمال إلى معاملتهم معاملة إنسانيَّة كريمة، وإلى الشفقة عليهم، والبرِّ بهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون من الأعمال، فقال ﷺ: «... إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ[٣]، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»[٤]. فجاء تصريح رسول الله ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ». ليرتفع بدرجة العامل الخادم إلى درجة الأخ! ولتصبح هذه الضوابطَ العامَّة التي توفِّر الحياة الكريمة لبني الإنسان عمومًا.

---

(١) هو عمر بن أبي سلمة، انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب (١٦٩٩) ص٤٨٠، وابن حجر العسقلاني: الإصابة (٥٧٤٤).

(٢) البخاري: عن الوليد بن كثير، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٣٧٦).

(٣) خولكم: خدمكم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١١٥.

(٤) البخاري عن أبي ذر: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

وألزم كذلك صاحب العمل أن يُوَفِّيَ للعامل والخادم أجره المكافئ لجُهده دون ظلم أو مماطلة، فقال ﷺ: «أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»(١).

وحذَّر الرسول ﷺ من ظلمهم فقال ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ». فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»(٢).

ومن حقِّهم -أيضًا- أن تُحْفَظ حقوقهم الماليَّة من الغبن، والظلم، والاستغلال؛ لذلك قال ﷺ في الحديث القدسي عن ربِّ العزَّة ﷻ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»(٣). لِيَعْلَمَ كلُّ مَنْ ظلم عاملاً أو خادمًا أن الله رقيبٌ عليه وخصم له يوم القيامة.

كما يجب على صاحب العمل عدم إرهاق العامل إرهاقًا يضرُّ بصحَّته ويجعله عاجزًا عن العمل، ولقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: «مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ مِنْ عَمَلِهِ كَانَ لَكَ أَجْرًا فِي مَوَازِينِكَ»(٤).

ومن الحقوق التي تُعتبر علامة مضيئة في الشريعة الإسلاميَّة حقُّ الخادم في التواضع معه، وفي ذلك يُرَغِّب الرسول ﷺ أُمَّته قائلاً: «مَا اسْتَكْبَرَ مَنْ أَكَلَ مَعَهُ خَادِمُهُ، وَرَكِبَ الحِمَارَ بِالأَسْوَاقِ، وَاعْتَقَلَ الشَّاةَ فَحَلَبَهَا»(٥).

ولأن حياته ﷺ كانت تطبيقًا لكل أقواله، فإن السيدة عائشة ؓ تروي فتقول: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا...»(٦).

---

(١) ابن ماجه عن عبد الله بن عمر (٢٤٤٣)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٢٩٨٧).

(٢) مسلم عن أبي أمامة: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٧)، والنسائي (٥٤١٩)، وأحمد (٢٢٢٩٣).

(٣) البخاري: عن أبي هريرة، كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًّا (٢٢٢٧)، وابن ماجه (٢٤٤٢)، وأبو يعلى (٦٤٣٦).

(٤) ابن حبان عن عمرو بن حريث (٤٣١٤)، وأبو يعلى (١٤٧٢) وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات.

(٥) الأدب المفرد للبخاري ٢/ ٣٢١، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (٥٥٢٧).

(٦) مسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام... (٢٣٢٨)، وأبو داود (٤٧٨٦)، وابن ماجه (١٩٨٤).

وهذا أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ يشهد شهادة حقٍّ وصدق فيقول: كان رسول الله ﷺ من أحسن النَّاس خُلقًا، فأرسلني يومًا لحاجةٍ، فقلت: والله لا أذهب -وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبيُّ الله ﷺ- قال: فخرجت حتى أَمُرَّ على صبيانٍ وهم يلعبون في السُّوق، فإذا رسول الله ﷺ قابضٌ بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يَا أُنَيْسُ، اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ». قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس ﷺ: وَاللهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ وَلاَ لِشَيْءٍ تَرَكْتُ: هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا[1].

وكان رسول الله ﷺ يهتمُّ برعاية خَدَمِه إلى الدرجة التي يحرص فيها على زواجهم، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنتُ أخدم النبي ﷺ فقال لي النبي ﷺ: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج؛ ما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. قال: فأَعْرِض عنِّي، ثم قال لي بعد ذلك: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: لا والله يا رسول الله، ما أريد أن أتزوَّج، وما عندي ما يُقيم المرأة، وما أحبُّ أن يشغلني عنك شيء. فأعرض عنِّي. وقال: ثم راجعتُ نفسي، فقلتُ: والله يا رسول الله أنت أعلم بما يُصلحني في الدنيا والآخرة. قال: وأنا أقول في نفسي: لئن قال لي الثالثة لأقولن: نعم. قال: فقال لي الثالثة: «يَا رَبِيعَةُ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟» قال: فقلتُ: بلى يا رسول الله، مُرْنِي بما شئتَ، أو بما أحببت. قال: «انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلاَنٍ». إلى حيٍّ من الأنصار...[2].

وقد امتدَّت رحمته ﷺ بخدمه لتشمل غير المؤمنين به أصلاً، وذلك كما فعل مع الغلام اليهودي الذي كان يعمل عنده خادمًا، فقد مرِض الغلام مرضًا شديدًا، فظلَّ النبي ﷺ يزوره ويتعهَّده، حتى إذا شارف على الموت عاده وجلس عند رأسه، ثم دعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه متسائلاً، فقال له أبوه: أَطِعْ أبا القاسم. فأسلَم، ثم فاضت رُوحه، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الْـحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[3]!

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣).

(٢) أحمد (١٦٦٢٧)، والحاكم (٢٧١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والطيالسي (١١٧٣).

(٣) البخاري عن أنس: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٦)، والترمذي (٢٢٤٧)، والحاكم (١٣٤٢)، والنسائي في سننه الكبرى (٧٥٠٠).

هذه بعض حقوق الخدم والعمّال التي أصّلها ﷺ بالقول والعمل في زمن لم يكن يعرف غير الظلم والقهر والاستبداد.

المبحث الخامس:
النبي ﷺ وحقوق المرضى وذوي الاحتياجات الخاصّة

نظرة الإسلام ورعايته للمرضى وذوي الاحتياجات نظرة خاصّة، بداية من تخفيفه عليهم في بعض الالتزامات الشرعيَّة، لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ[1]﴾، وانتهاء ببثِّ الأمل في نفوسهم ومراعاة حقوقهم الجسمانيَّة والنفسيَّة.

فها هو ذا النبي ﷺ كان إذا سمع بمريض أسرع لعيادته في بيته، مع كثرة همومه ومشاغله، ولم تكن زيارته هذه مُتكلَّفة أو اضطراريَّة، وإنما كان يَشعر بواجبه ناحية هذا المريض.. كيف لا؟! وهو الذي جعل زيارة المريض حقًّا من حقوقه؟! فقال ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ... وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ...»[2].

فكان رسول الله ﷺ يهوِّن على المريض أزمته ومرضه، ويُظهِر له -دون تَكَلُّف- مُوَاساته له، وحرصه عليه، وحُبَّه له، فيُسعد ذلك المريضَ وأهلَه، وفي ذلك يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فيقول: اشتكى سعد بن عبادة رضي الله عنه شكوى له، فأتاه النَّبِيُّ ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، فلمَّا دخل عليه فوجده في غاشية أهله[3]، فقال: «قَدْ قَضَى؟».

قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلمَّا رأى القوم بكاء النبي ﷺ بَكَوْا، فقال: «أَلاَ تَسْمَعُونَ؟! إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا[4]

---

(١) (النور:٦١).
(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز (١٢٤٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢).
(٣) غاشية أهله: أي الذين يلوذون به ويتكررون عليه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٦٢.
(٤) يُعَذِّب بهذا: أي إن قال سُوءًا. أَوْ يَرْحَمُ: أي إن قال خيرًا. انظر المصدر السابق.

- وأشار إلى لسانه - أَوْ يَرْحَمُ»[(١)].

كما كان الرسول ﷺ يدعو للمريض ويُبشِّره بالأجر والمثوبة نتيجة المرض الذي لحق به؛ فيهوِّن بذلك عليه الأمر، ويُرْضيه به؛ تروي أُمُّ العلاء رضي الله عنها[(٢)] فتقول: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعَلاَءِ، فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»[(٣)].

وكان ﷺ حريصًا على أن يخفِّف عن المريض وألاَّ يشقَّ عليه، وقد روى في ذلك جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً مِنَّا حجرٌ، فشجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمُّم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات؛ فلمَّا قدمنا على النبي ﷺ أُخبِرَ بذلك، فقال: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ -شَكَّ أحد رواة الحديث- عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»[(٤)].

بل إنه ﷺ كان يلبِّي حاجة المريض ويسير معه حتى يقضي حاجته، ولقد جاءته ذات مرَّة امرأة في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «يَا أُمَّ فُلاَنٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فخلا معها[(٥)] في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[(٦)].

كما جعل النبي ﷺ للمرضى وذوي الاحتياجات الخاصَّة الحقَّ في التداوي؛ لأن

---

(١) البخاري: عن عبد الله بن عمر، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض (١٣٠٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٤).

(٢) أم العلاء: أسلمت وبايعت النبي ﷺ، وهي أُمُّ خارجة بنت زيد بن ثابت. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٣٨٢، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ترجمة رقم (١٢١٦٨).

(٣) أبو داود: كتاب الجنائز، باب عيادة النساء (٣٠٩٢)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٧٨٥١).

(٤) أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (٣٠٥٧)، والدارمي (٧٥٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود (٣٢٥).

(٥) أي وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية؛ فإن هذا كان في ممرِّ الناس ومشاهدتهم إيَّاه وإيَّاها، لكن لا يسمعون كلامها؛ لأن مسألتها مما لا يظهره. انظر: النووي: المنهاج ١٥/ ٨٣.

(٦) مسلم عن أنس بن مالك: كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأحمد (١٤٠٧٨)، وابن حبان (٤٥٢٧).

سلامةَ البدن ظاهرًا وباطنًا مقصدٌ من مقاصد الإسلام؛ لذلك قال ﷺ للأعراب عندما سألوه عن التداوي: «تَدَاوَوْا عِبَادَ الله، فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً إِلا الْهَرَمَ...»[1]. كذلك لم يكن يمانع أن تعالِج المرأةُ المسلمة رجلاً من المسلمين؛ حيث جعل ﷺ رُفيدة - وهي امرأة من قبيلة أسلم - تُعَالِج سعد بن معاذٍ ﷺ حين أصابه سهمٌ بالخندق، وكانت ﷺ تداوي الجرحى، وتَحْتَسِبُ بنفسها على خدمة من كانت به ضَيْعَةٌ من المسلمين[2].

ثم ها هو ﷺ يتعامل مع عمرو بن الجموح ﷺ تعاملاً راقيًا؛ رغم كونه من ذوي الاحتياجات الخاصَّة، إلاَّ أن ذلك لم يكن مانعًا له من وصوله إلى أعلى درجات التكريم؛ لهمَّته العالية، وبذله الواسع في سبيل الله، وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العَرَج، وكان له بنون أربعة - مثل الأسد - يشهدون المشاهد مع رسول الله ﷺ، فلمَّا كان يوم أُحُد أرادوا حبسه، فأتى عمرو بن الجموح رسولَ الله ﷺ فقال: إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله ﷺ مخاطبًا عَمْرًا ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ عَذَرَكَ اللهُ فَلا جِهَادَ عَلَيْكَ». وقال لبنيه: «مَا عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللهُ يَرْزُقُهُ شَهَادَةً». فخرج مع النبي ﷺ فقُتِلَ يوم أُحُد، ثم قال ﷺ عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ، مِنْهُمْ: عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِي الجَنَّةِ بِعَرْجَتِهِ»[3].

فكان ﷺ قدوة وأسوة للمسلمين في تعامله مع المرضى وذوي الاحتياجات الخاصَّة؛ لذلك قال عنه عثمان بن عفان ﷺ: «إنا -والله- قد صَحِبْنَا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير»[4].

---

(١) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين...، وقال الألباني: صحيح. انظر: غاية المرام (٢٩٢).

(٢) البخاري: الأدب المفرد ١/ ٣٨٥، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٣٣.

(٣) ابن حبان عن جابر بن عبد الله (٧٠٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده جيد. وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٢٣، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٤/ ٢١٤.

(٤) أحمد (٥٠٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

المبحث السادس:
النبي ﷺ وحقوق اليتيم والمسكين والأرملة

تميَّزت الشريعة الإسلاميَّة بأنها حفظت حقوق اليتامى والمساكين والأرامل، وجعلتهم في أمان ورعاية المجتمع المسلم بتكافله معهم معنويًّا وماديًّا؛ فيأمرنا الله ﷻ بالرحمة باليتيم، فيقول: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ[(١)]﴾، كما يأمرنا بأن نعطي المسكين حقَّه المفروض له من قِبَلِ الله ﷻ، فيقول ﷻ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا[(٢)]﴾.

وزيادة في تدعيم حقِّ المساكين[(٣)] والأرامل[(٤)] يرغِّب الرسول ﷺ الأُمَّة كلها بالسعي في قضاء حوائجهم فيقول ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ»[(٥)]. فقد رفع رسول الله ﷺ قدر الذي يرعى شئونهما إلى درجة لا يتخيَّلها أحد، فأيُّ أجر وأيُّ ثواب أعظم من ذلك؟!

كما يحثُّ الرسول ﷺ على الإحسان إلى اليتيم واعدًا بالأجر العظيم؛ وذلك تأصيلاً لحقوق اليتامى في الرعاية والكفالة، فيقول ﷺ: «أَنَا وكَافِلُ اليَتِيمِ[(٦)] فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ». وأشار بأُصبعيه، يعني السَّبَّابة والوسطى[(٧)].

بل بلغت درجة الرفق والرحمة باليتيم أنه ﷺ رغَّب أفراد الأُمَّة أن يضمُّوا اليتامى إلى

---

(١) (الضحى: ٩).
(٢) (الإسراء: ٢٦).
(٣) المسكين: الذي ليس له من المال ما يسدُّ حاجته، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سكن ١٣/ ٢١١.
(٤) الأرملة: التي مات عنها زوجها، ويطلق على المحتاجة، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٢٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة رمل ١١/ ٢٩٤.
(٥) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (٥٣٥٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان على الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٢).
(٦) كافل اليتيم: القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية، وغير ذلك، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ٤٣٦.
(٧) البخاري عن صفوان بن سليم: كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة (٦٠٠٦)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣).

أولادهم، فقال ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ الْبَتَّةَ»(١)، فالمنهج النبوي الشريف لا ينظر إلى اليتامى والمساكين والأرامل على أنهم يحتاجون إلى متطلَّبات الحياة المادِّيَّة فقط؛ بل ينظر إليه على أنهم بَشَرٌ حُرِمُوا من العطف والحنان.

ولم يقتصر ﷺ على التشجيع في رعاية وكفالة اليتامى، وإنما ذهب في سبيل ذلك إلى وسائل أخرى أكثر ترغيبًا؛ فتراه ﷺ يقول لرجل أتى إليه يشكو قسوة قلبه: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، وتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ ارْحَمِ الْيَتِيمَ، وامْسَحْ رَأْسَهُ، وأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ يَلِنْ قَلْبُكَ، وتُدْرِكْ حَاجَتَكَ»(٢).

ومن ناحية أخرى حذَّر ﷺ من ظلم اليتامى وأكل حقِّهم، فقال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ(٣)... وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ»(٤).

كما قال ﷺ مرغِّبًا في إنفاق المال على المسكين واليتيم، فقال ﷺ: «... وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ، وَالْيَتِيمَ، وَابْنَ السَّبِيلِ...»(٥).

ونجد النبي ﷺ -أيضًا- يذمُّ طعام الوليمة الذي يحضره الأغنياء ولا يُدْعَى إليه الفقراء من اليتامى والمساكين، فيقول ﷺ: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ؛ يُدْعَى إِلَيْهِ الأَغْنِيَاءُ، وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ»(٦).

---

(١) أحمد (١٩٠٤٧) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح لغيره...، والبخاري: الأدب المفرد (٧٨)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٧٠)، وأبو يعلى (٩٢٦)، والهيثمي: مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٤ وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والسياق له وأحمد باختصار والطبراني، وهو حسن الإسناد. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٨٢).

(٢) أحمد (٧٥٦٦)، والبيهقي: السنن الكبرى (٦٨٨٦)، ومسند عبد بن حميد (١٤٢٦)، وحسنه الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة (٨٥٤).

(٣) الموبقات: المهلكات، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وبق ١٠/ ٣٧٠.

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾ [النساء: ١٠] (٢٧٦٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٥) البخاري : عن أبي سعيد الخدري، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٤٦٥)، والنسائي (٢٥٨١)، وأحمد (١١١٧٣).

(٦) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النكاح، باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله (٥١٧٧)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٣٢) ، وأبو داود (٣٧٤٢)، وابن ماجه (١٩١٣).



ولم يكتفِ الرسول ﷺ بذلك كله، وإنما نصَّب نفسه الشريفة مسئوليَّة ولاية اليتامى والفقراء والمحتاجين، فقال ﷺ يُعلنها كحاكم دولة: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، فَأَيُّكُمْ مَا تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيْعَةً(١) فَادْعُونِي فَأَنَا وَلِيُّهُ...»(٢).

وكان الرسول ﷺ أسرعَ الناس إلى تطبيق ما يقول، فقد روى عبد الله بن أبي أَوْفَى ﷺ أن النبي ﷺ كان لا يأنف ولا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين؛ فيقضي لهما حاجتهما(٣).

هكذا أرسى الإسلام قواعد التعامل مع اليتامى والأرامل والمساكين، وكان الرسول ﷺ خيرَ مطبِّقٍ لهذه القواعد؛ فكان المثل والقدوة الرحيمة، فما أعظمه!

المبحث السابع:
النبي ﷺ وحقوق الحيوان

ينظر الإسلام إلى الحيوان إجمالاً نظرة واقعيَّة؛ ترتكز على أهمِّيَّته في الحياة، ونفعه للإنسان، وتعاونه معه في عمارة الكون واستمرار الحياة، ولا أدلّ على ذلك من أن عدَّة سور في القرآن الكريم وضع الله لها أسماء من أسماء الحيوان مثل: سورة البقرة، والأنعام، والنحل، وغيرها، وينصُّ كذلك ﷺ على تكريم الحيوان، وبيان مكانته، وتحديد موقعه إلى جانب الإنسان، فيقول تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٤)﴾.

---

(١) الضيعة: العيال المحتاجون الضائعون، انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ٦١.
(٢) البخاري: كتاب الفرائض، باب ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج (٢٢٩٧)، ومسلم عن أبي هريرة: كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته (١٦١٩) واللفظ له، ومسند أحمد (٧٨٣٩).
(٣) النسائي (١٤١٤)، والدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٣) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني: المعجم الصغير (٤٠٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٥٨٣٣).
(٤) (النحل: ٥-٧).

ومن أهمِّ الحقوق التي أصَّلها الرسول ﷺ للحيوان عدم إيذائه؛ فقد روى جابر ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ على حِمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ[(١)]»[(٢)]. وفي رواية له قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ»[(٣)]. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ»[(٤)]. وهذا يعني أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يُعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلاميَّة.

وكذلك شرع الرسول ﷺ في تأصيله لحقوق الحيوان: تحريم حبسه وتجويعه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ؛ لَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[(٥)]. وروى سهل بن الحنظلية ﷺ قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ[(٦)]، فقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ... فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً»[(٧)].

كما أمر الرسول ﷺ أن يُستخدم الحيوان فيما خُلِقَ له، وحدَّد الغرض الرئيسي من استخدام الدوابِّ، فقال: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ[(٨)]؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ»[(٩)].

---

(١) وَسَمَه: إذا أثَّر أو علَّم فيه بكَيٍّ، والوسم والسمة العلامة المميزة للشيء، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وسم ١٢/ ٦٣٥.

(٢) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه (٢١١٧).

(٣) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه (٢١١٦)، وابن خزيمة (٢٣٤٩).

(٤) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة (٥٥١٣)، والنسائي (٤٤٤٢)، والدارمي (١٩٧٣).

(٥) البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (٢٣٦٥)، ومسلم عن أبي هريرة: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢)، واللفظ له، والدارمي (٢٨١٤).

(٦) لحق ظهره ببطنه: أي ظهر عليه الهزال من الجوع، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٥/ ٤٤٨.

(٧) أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (١٧٦٦٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن حبان (٥٤٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٨) تتخذوا ظهور دوابكم منابر: كناية عن القيام عليها؛ لأنهم إذا خطبوا على المنابر قاموا، والمعنى: لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتحدثون بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم، ثم اركبوا. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ١٦٩.

(٩) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الوقوف على الدابة (٢٥٦٧)، والبيهقي: السنن الكبرى (١٠١١٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢).

ونهى الرسول ﷺ عن اتخاذه غرضًا، فها هو ذا ابن عمر رضي الله عنهما يمرُّ بفِتْيانٍ من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله مَنْ فعل هذا؛ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا[(١)].

ومن أهمِّ ما أصَّله النبي ﷺ من حقوق الحيوان كذلك ما كان من وجوب الرحمة والرفق به، وقد تجسَّد ذلك في قول رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ[(٢)]، يَأْكُلُ الثَّرَى[(٣)] مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ[(٤)]». قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا[(٥)]؟ فقال: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[(٦)].

ومن مظاهر شفقته ورحمته ﷺ كذلك ما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قائلاً: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَةً[(٧)] معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيْهَا، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تُعَرِّشُ[(٨)]، فجاء النبي ﷺ فقال: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»[(٩)].

---

(١) البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة (٥٥١٥)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥٨)، والنسائي (٤٤٤١)، وأحمد (١٤٠١٤).

(٢) يلهث: يرتفع نفسه بين أضلاعه، أو يخرج لسانه من شدة العطش والحر، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥/ ٤١، وابن منظور: لسان العرب، مادة لهث ٢/ ١٨٤.

(٣) الثرى: التراب الندي، وقيل: أي يعضُّ أو يكدم الأرض الندية، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥/ ٤١، وابن منظور: لسان العرب، مادة ثرا ١٤/ ١١٠.

(٤) شكر الله له فغفر له: أي تقبَّله الله منه وأثابه عليه بتجاوزه عن ذنوبه، وشُكر الله هو الثواب على الطاعة، ولا يشكر الله سعيًا ولا عملاً إلاَّ أثاب عليه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٢٧٨.

(٥) يعنون: أيكون لنا في سقي البهائم والإحسان لها أجر؟!

(٦) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٧) الحُمَّرَة: طائر صغير كالعصفور، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ٢٤٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة حمر ٤/ ٢٠٨.

(٨) تُعَرِّشُ أي: ترفرف، والتَّعريش أن ترتفع وتظلِّل بجناحيها على من تحتها، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ٢٤٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة عرش ٦/ ٣١٣.

(٩) أبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر (٥٢٦٨)، والحاكم (٧٥٩٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.



كما أمرنا الرسول ﷺ أن نختار للدوابِّ المَرَاعي الخِصْبَة، وإن لم توجد فعلى أصحاب هذه الدوابِّ أن ينتقلوا بها إلى مكان آخر، يقول ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيَرْضَى بِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتِ الأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنِقْيِهَا[١]...»[٢].

على أن هناك درجة أخرى أعلى من الرحمة وأثمن أوجبها النبي ﷺ في معاملة الحيوان، وهي: الإحسان إليه واحترام مشاعره، وإن أعظم تطبيق لهذا الخُلُق حين ينهى الرسول ﷺ عن تعذيبه أثناء الذَّبح لأكل لحمه، سواء كان التعذيب جسديًّا بسوء اقتياده للذبح، أو برداءة آلة الذبح، أو كان التعذيب نفسيًّا برؤية السكين؛ ومن ثَمَّ يجمع عليه أكثر من مَوْتة! فقد روى شَدَّاد بن أوس ﷺ قال: ثِنْتَانِ حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[٣]. كما روى عبد الله بن عباس ﷺ أن رجلاً أضجع شاة يُريد أن يذبحها -وهو يَحِدُّ شَفرته- فقال النبي ﷺ: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ، هَلاَّ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا»[٤].

وهكذا حُقَّ للحيوان أن ينعم بالأمن والأمان، والراحة والاطمئنان في بيئة علا فيها قول رسول الله ﷺ، وطُبِّقت فيها أفعاله.

* * *

---

(١) النِّقْي: الشحم والودك، والمعنى أن ينجو عليها وهي في عافيتها، حتى يحصل في بلد الخصب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نقا ١٥/ ٣٣٨.

(٢) الموطأ – رواية يحيى الليثي عن خالد بن معدان يرفعه: كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من العمل في السفر (١٧٦٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٦٨٢).

(٣) مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩).

(٤) الحاكم (٧٥٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤).

المبحث الثامن:
النبي ﷺ وحقوق البيئة

خلق الله تعالى البيئة نقيَّة، سليمة، نافعة، وسخَّرها للإنسان وأوجب عليه ضرورة المحافظة عليها؛ كما دعاه إلى ضرورة التفكُّر في آيات الله الكونيَّة، التي خُلِقَتْ في أحسن صورة، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ[١]﴾[٢]، فنشأَتْ عَلاقة حُبٍّ ووُدٍّ بينه وبين البيئة المحيطة به من جماد وأحياء، كما أدرك أن المحافظةَ على البيئة نفعٌ له في دنياه؛ لأنه سيَحْيَى حياة هانئة، وفي آخرته حيث ثواب الله الجزيل.

ثم جاءت رؤية النبي ﷺ للبيئة تأكيدًا لتلك النظرة القرآنيَّة الشاملة للكون، التي تقوم على أن هناك صلةً أساسيَّة وارتباطًا متبادَلاً بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ونقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسانُ استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافًا فإن العالم برُمَّته سوف يُضَارُّ أضرارًا مباشرة (صورة للمقارنة رقم ٣).

فها هو ذا ﷺ يضع قاعدة عامَّة لكل البشر الذين يَحْيَوْنَ على ظهر الأرض، وهي عدم إحداث ضرر من أي نوع لهذا الكون، فقال رسول الله ﷺ: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ...»[٣]. كما نجده ﷺ يحذِّر من تلويث البيئة، فيقول ﷺ: «اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ»[٤].

---

(١) (ق: ٦، ٧).

(٢) البهيج: الشيء الجميل الذي يُدخل البهجة والسعادة والسرور إلى من نظر إليه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بهج ٢/ ٢١٦.

(٣) أحمد عن ابن عباس (٢٧١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والحاكم (٢٣٤٥) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤) أبو داود عن معاذ بن جبل: كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهي عن البول فيها (٢٦)، وأحمد (٢٧١٥)، وابن ماجه (٣٢٨)، وقال الألباني: حسن. انظر: إرواء الغليل (٦٢).

صورة للمقارنة



أزمة حقوق البيئة في العالم



صورة رقم (٣)

وجعل إماطة الأذى من حقوق الطريق، فقال ﷺ لصحابته الذين يُريدون الجلوس في الطريق: «إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ». فقالوا: ما لنا بدٌّ، إنَّما هي مجالسنا نتحدَّث فيها. فقال ﷺ لهم: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ المَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا». قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «... وَكَفُّ الأَذَى...»[1]. وكفُّ الأذى كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس ممن يستعملون الشوارع والطرقات.

كما نجده ﷺ يربط بين ثواب الله والمحافظة على البيئة فيقول: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ»[2].

ويأمرنا ﷺ صراحة بنظافة المساكن، فيقول ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ... فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ، وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»[3]. فما أروع التعاليم النبويَّة التي تحثُّ على الحياة الطيِّبة الخالية من أي نوع من أنواع الملوِّثات؛ فتحافظ بذلك على راحة الإنسان النفسيَّة والصحِّيَّة.

ومن حُبِّه للبيئة ونظافتها نجده ﷺ يتذوَّق الجمال ويحثُّ عليه؛ لذلك قال ﷺ للصحابي الذي سأله قائلاً: أَمِنَ الكِبْرِ أن يكون ثوبي حسنًا ونعلي حسنًا: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ[4]»[5]. ولا شكَّ أن من الجمال الحرصَ على مظاهر البيئة التي خلقها الله تعالى زاهية بهيجة.

كما نجد في إرشاده ﷺ إلى حُبِّ الروائح الطيِّبة وإشاعتها بين الناس، وتهاديها،

---

(١) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٤٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١)، وأبو داود (٤٨١٥) وأحمد (١٠٩١٦).

(٢) مسلم عن أبي ذر: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥٣)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وابن ماجه (٣٦٨٣).

(٣) الترمذي عن سعد بن أبي وقاص: كتاب الأدب، باب النظافة (٢٧٩٩)، وأبو يعلى (٧٩٠)، وحسنه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح (٤٤١٣).

(٤) غمط الناس: احتقارهم. وبطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ٩٠.

(٥) مسلم عن عبد الله بن مسعود: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وابن حبان (٥٤٦٦).

وتجميل البيئة بها؛ محاربةً للبيئة الملوَّثة؛ حيث قال ﷺ: «مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلاَ يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ المَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ»(١).

ويُرغِّب ﷺ الأُمَّة في استنبات الأرض وزراعتها، فيقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ(٢) إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»(٣).

وفي رواية: «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». فمِن عظمة الإسلام أن ثواب ذلك الغرس - المفيد للبيئة بمن فيها - موصول ما دام الزرع قد استُفيد منه، حتى ولو انتقل إلى مِلْكِ غيره، أو مات الغارس أو الزارع!

كما يَلْفِتُ الأنظار إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور؛ إذ جعل زرع شجرة، أو غرس بذرة، أو سَقْي أرض عطشى من أعمال البرِّ والإحسان، فقال ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَلَهُ مِنْهَا - يَعْنِي أَجْرًا - وَمَا أَكَلَتِ الْعَوَافِي(٤) مِنْهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»(٥).

ويخصُّ الماء بالذكر باعتباره أحد أهمِّ الثروات البيئيَّة الطبيعيَّة، فكان الاقتصاد في الماء والمحافظة على طهارته قضيَّتَيْن مهمَّتين عنده ﷺ، ونراه ﷺ حتى عندما يكون الماء متوفِّرًا ينصح بالاقتصاد في استعماله، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما من أن النبي ﷺ مَرَّ بسعد رضي الله عنه(٦) وهو يتوضَّأ، فقال: «مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟» قال: أفي الوضوء سرفٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»(٧).

---

(١) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك... (٢٢٥٣)، والترمذي (٢٧٩١).

(٢) يرزأه أحد: أي لا ينقصه ويأخذ منه، انظر: النووي: المنهاج ١٠/ ٢١٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة رزأ ١/ ٨٥.

(٣) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٢)، وأحمد (٢٧٤٠١).

(٤) العوافي: الطير والسباع، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عفا ١٥/ ٧٢.

(٥) النسائي عن جابر بن عبد الله: كتاب إحياء الموات، باب الحث على إحياء الموات (٥٧٥٦)، وابن حبان (٥٢٠٥)، وأحمد (١٤٣١٠) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٥٦٨).

(٦) هو سعد بن أبي وقاص بن وهيب الزهري، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وآخرهم موتًا، انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٣٣، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ٣/ ٧٣ ترجمة رقم (٣١٩٦).

(٧) ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصر وكراهية التعدي فيه (٤٢٥)، وأحمد (٧٠٦٥)، وحسنه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٩٢).

كما نهى ﷺ عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبوُّل في الماء الراكد[١].

هذه هي النظرة النبويَّة الشاملة للبيئة، التي تؤمن بأن البيئة بجوانبها المختلفة يتفاعل ويتكامل ويتعاون بعضها مع بعض وَفْق سُنَنِ الله في الكون الذي خلقه ﷻ في أحسن صورة.

* * *

(١) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد (٢٨١)، وأبو داود (٦٩)، والترمذي (٦٨).



أدلة نبوته ﷺ

الفصل الأول: المعجزة الخالدة (القرآن الكريم)
الفصل الثاني: كلماته ﷺ دليل نبوته
الفصل الثالث: النبي ﷺ ومنهجه في حل المشكلات
الفصل الرابع: حياته ﷺ دليل نبوته
الفصل الخامس: ذِكْرُهُ ﷺ في الكتب السابقة
الفصل السادس: شهادات على صدق نبوته

قال ابن مشرف (شاعر نجدي):

مُحَمَّدٌ الْمُصْطَفَى الْهَادِي الْبَشِيرُ هَدَى كُلَّ الْخَلائِقِ بِالآيَاتِ وَالسُّوَرِ

الباب الثاني:

أدلة نبوتـــــه ﷺ

إن أهم ما يميز هذا الإنسان العظيم محمدًا ﷺ أنه رسول من عند ربِّ العالمين؛ لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ[1]﴾، وقد جاء كغيره من الرسل ليُعْلِمَ الناسَ بما يريده ربهم ﷻ، ويبشِّرهم بالجنة إن هم أطاعوا ربهم، وينذرهم بالنار إن هم عصوه، وهذه وظيفة الرسل التي ذكرها ربنا في قوله: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[2]﴾، ولكن من السهل أن يدَّعي إنسان أنه رسول من عند ربِّ العالمين؛ لذلك شاء الله ﷻ أن يؤيِّد كل رسول بمعجزات تثبت صدق كلامه، وأنه فعلاً مرسل من الله ﷻ، ويكون من أهم صفات هذه المعجزات أن الجميع لا يستطيع الإتيان بها، كما أنهم يعترفون جميعًا بعظمتها، ولم يكن محمد ﷺ بدعًا من الرسل؛ ولذلك فقد أيَّده ربُّه بعدد كبير من المعجزات التي تثبت صدق نبوته، ونحن هنا في هذا الباب سنعرض لطرف من معجزاته مع إشارات سريعة لعظمتها وقوتها، مع وجوب التأكيد على أننا لم نقصد الاستقصاء الكامل لكل لمعجزاته؛ فهذا مما يحتاج إلى مجلدات ضخمة وموسوعات هائلة.

وقد تمَّ تقسيم هذه المعجزات إلى مجموعات بحسب نوعها، وسيتمُّ تناولها من خلال هذه الفصول:

الفصل الأول: المعجزة الخالدة (القرآن الكريم).

الفصل الثاني: كلماته ﷺ دليل نبوته.

الفصل الثالث: النبي ﷺ ومنهجه في حَلِّ المشكلات.

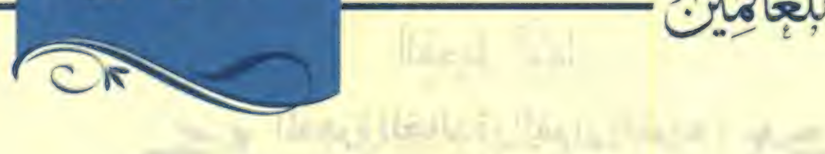
الفصل الرابع: حياته ﷺ دليل نُبُوَّته.

الفصل الخامس: ذِكْرُهُ ﷺ في الكتب السابقة.

الفصل السادس: شهادات على صدق نبوته ﷺ.

---

(١) (آل عمران: ١٤٤).
(٢) (النساء: ١٦٥).



المعجزة الخالدة «القرآن الكريم»

المبحث الأول: الإعجاز اللغوي والبياني
المبحث الثاني: الإعجاز التشريعي
المبحث الثالث: الإعجاز العلمي
المبحث الرابع: الإعجاز التاريخي
المبحث الخامس: الإعجاز الغيبي
المبحث السادس: الإعجاز النفسي

قال أبو الهدى الصيادي (شاعر سوري):

وأتى بالقــــرآن آية حقٍّ ... حين تتلى خرص لها الفصحاءُ

الفصل الأول:

المعجزة الخالدة (القرآن الكريم)

أرسل الله نَبِيَّه محمدًا ﷺ بالرسالة الخاتمة، ولَمَّا كان بعض الناس يجحدون ويكفرون بالرسل عليهم السلام، فقد أَيَّد اللهُ الرسل بالمعجزات الباهرات التي تدلُّ على صدق نُبُوَّتهم ورسالتهم التي أرسلهم الله بها، وتُرغم الكافرين المعاندين على الإيمان، وكانت معجزة كل نبي من جنس ما اشْتُهِرَ به قومه، وكان لا بُدَّ من معجزة تُلائِم طبيعتُها رسالةَ الله الخاتمة إلى العالمين؛ فتتعدَّد وجوه إعجازها؛ لتُقيم الحُجة على الخلق كافَّة، وتظلَّ شاهدة على صدق الرسالة الخاتمة وربانيَّتها.

ولذا لم تكن هذه المعجزة مؤقَّتة كمعجزات الأنبياء من قبله ﷺ لأن المعجزة المؤقتة لا تؤدِّي هذا الدور ولا تَصْلُح لهذه المهمَّة، وإنما كانت هذه المعجزة الخالدة هي القرآن الذي تحدَّى به محمد ﷺ العرب، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، ولم تنته هذه المعجزة بوفاة رسول الله ﷺ، بل استمرَّت حتى زماننا، وستظلُّ مستمرَّة كما وعد الله ﷻ، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[1]﴾، ونحن في هذا الفصل نستشهد بالقرآن على أنه دليل عقلي على نبوة محمد ﷺ وبرهان على صدقه؛ لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا[2]﴾، وسوف نتناول معجزة القرآن من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: الإعجاز اللُّغوي والبياني

المبحث الثاني: الإعجاز التشريعي

المبحث الثالث: الإعجاز العلمي

المبحث الرابع: الإعجاز التاريخي

المبحث الخامس: الإعجاز الغيبي

المبحث السادس: الإعجاز النفسي

---

(١) (الحجر: ٩).
(٢) (النساء: ١٧٤).

المبحث الأول:
الإعجاز اللُّغوي والبياني

يختلف القرآن الكريم في نَظْمِه عن النثر والشعر، ولكنه في الوقت ذاته يجمع من خصائصهما ما يُحيِّر السامع له، ولإعجاز النَّظْم في القرآن الكريم عدَّةُ مظاهر تتجلَّى فيها[(١)]؛ أولها: الخصائص المتعلِّقة بالأسلوب، فأسلوبه يَجْرِي على نسقٍ بديعٍ خارجٍ عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، فالفنون التعبيريَّة عندهم لا تَعْدُو أن تكون شعرًا أو نثرًا، ولكن القرآن شيء آخر؛ فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿حم ۞ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ[(٢)]﴾.

فهذه الآيات بتأليفها العجيب، ونظمِها البديع حينما سمعها عتبة بن ربيعة ﷺ - وكان من أساطين البيان- استولت على أحاسيسه ومشاعره، وطارت بلُبِّه، ووقف في ذهول وحَيْرة، ثم عبَّر عن حَيْرته وذهوله بقوله: «والله لقد سمعتُ من محمد قولاً ما سمعتُ مثلَه قطُّ، والله! ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة... والله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُهُ نبأ عظيم»[(٣)].

كما أن الأسلوب القرآني يَظَلُّ جاريًا على نسقٍ واحدٍ من السموِّ في جمالِ اللفظِ، وعمقِ المعنى ودقَّةِ الصياغةِ وروعةِ التعبيرِ، رغم تنقُّله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقَصص والمواعظ والحُجج والوعد والوعيد، وتلك حقيقةٌ شاقَّة، بل لقد ظلَّت

---

(١) في مظاهر إعجاز النظم في القرآن الكريم انظر محمد السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن الكريم، والمحمدي عبد العزيز الحناوي: دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): إعجاز القرآن البياني.

(٢) (فصلت: ١-٥).

(٣) البيهقي: دلائل النبوة (٥٠٩) ٢/ ٧٩، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٩٤، والسهيلي: الروض الأنف ٢/ ٤٦، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٥٠٤، ٥٠٥.

مستحيلة على الزمن لَدَى فحول علماء العربيَّةِ والبيانِ.

ومن خصائص الأُسلوب القرآني كذلك أن معانيه صيغت بحيث يصلح أن يخاطَب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطوُّر علومهم واكتشافاتهم.

خُذْ آيةً من كتاب الله ممَّا يتعلَّق بمعنًى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليطٍ من الناس يتفاوتون في المدارك والثقافة، فستجد أن الآية تعطي كلاًّ منهم معناها بقدر ما يفهم، وأنَّ كلاًّ منهم يستفيد منها معنًى وراء الذي انتهى عنده علمُه، مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا[1]﴾، فهذه الآية تصف كلاًّ من الشمس والقمر فالعامِّي من العرب يفهم منها أن كلاًّ من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، والمتأمِّل من علماء العربيَّة يُدْرِك من وراء ذلك أن الآية تدلُّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة؛ فلذلك سمَّاها سراجًا، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه لذلك سمِّيَ منيرًا، أمَّا العالِمُ الفلكي الحديث فقد يفهم منها أن إضاءة الشمس ذاتية كالسراج، بينما نور القمر مجرَّد انعكاس.. وكل هذه المعاني صحيحة[2].

كما يتميز الأسلوب القرآني بظاهرة التكرار الذي ينطوي على معانٍ بلاغية كالتهويل، والإنذار، والتجسيم والتصوير، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ[3]﴾، وقوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ[4]﴾.

وهناك تَكْرَار من نوع آخر وهو تكرار بعض القصص القرآني؛ ولكنه تكرار يُؤَدِّي معاني خاصة، حيث تبدأ القصص المكرَّرة بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئًا فشيئًا، ثم تعرض في حلقات كبيرة تكون في مجموعها جسم القصة، وخير شاهد على ذلك

(١) (الفرقان: ٦١).
(٢) انظر: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ١٤٧، ١٤٨.
(٣) (الحاقة: ١-٣).
(٤) (المدثر: ٢٦، ٢٧).

قصة موسى عليه السلام التي وَرَدَتْ في حَوَالَيْ ثلاثين موضعًا في القرآن، ولكنها في كل موضع تُخْرَجُ إِخْرَاجًا جديدًا يناسب السياق الذي وَرَدَتْ فيه، وتهدف إلى هدف خاصٍّ لم يُذْكَرْ في مكان آخر؛ حتى لكأننا أمام قصَّة جديدة لم نسمع بها من قبلُ؛ ففي سورة الأعلى -السورة الثامنة في النزول- وردت إشارة قصيرة عن موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ[1]﴾، ثم تُعرض القصة في سور مختلفة وبطرق مختلفة في سورة الأعراف والشعراء والنمل، ثم تأتي سورة القَصص حيث تبدأ القصة من أول حَلَقة فيها من مولد موسى إبان اضطهاد فرعون لقومه، ووضعه في التابوت، وإلقائه في البحر، والتقاط آل فرعون له، ثم تنتهي عند حلقة فرعون بعد خروج موسى، وهكذا في باقي المواضع الثلاثين؛ ممَّا يؤكِّد أن التكرار في القرآن ليس تكرارًا مطلقًا، بل لمقصد وغاية تربوية وعقائدية[2].

أمَّا ثاني الخصائص التي تؤكد إعجاز النظم في القرآن:

فهي الخصائص المتعلِّقة بجمال المفرَدَة القرآنيَّة، والتي من أهمِّ مزاياها جمال وقعها في السمع، واتِّساقها الكامل مع المعنى، واتِّساع دلالتها لما لا تتَّسع له عادةً دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات.

وقد نجد في تعابير بعض الأدباء والبلغاء كلمات تتَّصف ببعض هذه المزايا، أمَّا أن تجتمع كلها معًا وبصورة مطَّرِدَة لا تتخلَّف أو تشُذُّ فذلك ممَّا لم يتوافر إلاَّ في القرآن الكريم، وإليك هذا المثال القرآني الذي يوضح هذه الظاهرة ويجليها:

يقول تعالى في وصف كلٍّ من الليل والصبح: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ[3]﴾، ففي هاتين الكلمتين: «عَسْعَسَ»، و«تَنَفَّسَ» تشعر أنهما تبعثان في خيالك صورة المعنى محسوسًا مجسَّمًا دون حاجةٍ للرجوع إلى قواميس اللغة؟! وهل في مقدورك أنْ تُصَوِّر إقبال الليل وتمدُّده في الآفاق المترامية بكلمةٍ أدقَّ وأدلَّ من «عَسْعَسَ»؟! وهل

(١) (الأعلى: ١٨، ١٩).
(٢) انظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ص١٥٦-١٦٢.
(٣) (التكوير: ١٧، ١٨).

تستطيع أن تُصَوِّر انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من «تَنَفَّسَ»[1]؟!

وثالث هذه الخصائص هي:

الخصائص المتعلِّقة بالجملة القرآنيَّة وصياغتها، ونجد ذلك واضحًا في التلاؤم والاتِّساق الكاملين بين كلماتها، وبين حركاتها وسكناتها؛ فالجملة في القرآن تجدها دائمًا مؤلَّفة من كلمات و-حروف وأصوات يستريح لتألُّفها السمع والصوت والمنطق، ويتكوَّن من تضامِّها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع، ما كان لِيَتِمَّ لو نقصت من الجملة كلمةٌ أو حرف، أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال، فاقرأ قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ[2]﴾، وتأمَّل تناسق الكلمات في كل جملة، بل وتناسق الحروف قبل الكلمات، وعن هذا التناسق البديع بين الجمل والكلمات يقول الباقلاني: «تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، ممَّا يتعذَّر على البشر ويمتنع»[3]!

كما نجد الجملة القرآنيَّة تدلُّ بأقصر عبارة على أوسع معنى تامٍّ متكامل، لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلاَّ بأسطرٍ وجملٍ كثيرةٍ، دون أن تجد فيه اختصارًا مُخِلاًّ، أو ضعفًا في الأدلَّة[4].

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ[5]﴾، فلا يمكن التعبير الدقيق عن أثر قيمة القصاص في حياة المجتمع إلاَّ بكَلِمة حياة؛ فالحياة التي في القِصاص تنبثق من كفِّ الجُناةِ عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنًا لحياة مَن يقتل جدير به أن يتروَّى ويفكِّر ويتردَّد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم؛ فالاعتداء على حياة فرد اعتداءٌ على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كَفَّ

---

(١) وللوقوف على الخصائص المتعلِّقة بالمفردة القرآنية انظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن من ص٢٨٩-٣٢٨.
(٢) (القمر: ١١، ١٢).
(٣) الباقلاني: إعجاز القرآن ص٤٢.
(٤) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ١٥٣، وانظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٣٩٥-٤٢١.
(٥) (البقرة: ١٧٩).



القصاصُ الجاني عن إزهاق حياة واحدة؛ فقد كَفَّه عن الاعتداء على الحياة كلها[(١)].

وكذلك إخراج الجملة القرآنية للمعنى المجرَّد في صورة حسية ملموسة، ببثِّ الرُّوح والحركة فيها، فيقول ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ[(٢)]﴾، إنه يُصَوِّر لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك؛ حيث شبَّه حال المنافق المضطرب بين الحقِّ والباطل بالأعمى الذي لا يبصر[(٣)].

ومن اللافت أن القرآن الكريم استطاع أن يُخَاطب العامة والخاصة على السواء، فكلُّ إنسان قادر على قراءة القرآن وفهمه، واستشعار معانيه دون مشقَّة أو عَنَت، وقد يقول قائل: إن خطاب العامة والخاصة لغايتين متباعدتين عند الناس، فكيف استطاع القرآن الكريم أن يُوَفِّق بينهما؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه الرائع (النبأ العظيم): إنك إذا خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تُخَاطب به الأغبياء؛ لنزلتَ بهم إلى مستوًى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، وإنك لو خاطبت العامَّة باللمحة والإشارة التي تُخَاطب بها الأذكياء لجئتَهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك - إن أردتَ أن تُعطي كلتا الطائفتين حظَّها كاملاً من بيانك - أن تُخَاطب كلَّ واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى؛ كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تُلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى العامة والملوك، فيراها كلٌّ منهم مقدَّرة على مقياس عقله، وعلى وَفق حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمّه إلا في القرآن الكريم؛ فهو قرآن واحد يراه البلغاء أَوْفَى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة كلامًا قريبًا إلى نفوسهم وعقولهم، لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان؛ فهو متعة العامة والخاصة على السواء؛ مُيَسَّر لكلِّ مَنْ أراد، وصدق الله إذ قال:

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ١٣٧.

(٢) (البقرة: ١٧).

(٣) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى القرآن ص٢٧٢.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[1]﴾[2].

ويتجلى إعجاز القرآن البياني في ألفاظه، فما من لفظ فيه يمكن أن يقوم غيره مقامه؛ وذلك ما أدركه العرب الخُلّص الفصحاء الذين نزل القرآن فيهم، ولقد شهد التتبُّع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها، أنه يستعمل اللفظ بدلالة مُعَيَّنة لا يمكن أن يُؤَدِّيها لفظ آخر في المعنى الذي تضع له المعاجم وكتب التفسير عددًا أقلَّ أو أكثر من الألفاظ.

ولنرَ روعة القرآن الكريم في استخدامه للفظتي امرأة وزوجة، فإن البيان القرآني يستعمل لفظ «زوج» حينما تحدَّث عن آدم وزوجه (آيات: البقرة ٣٥، والأعراف ١٩، وطه ١١٧)، على حين يستعمل لفظ «امرأة» في مثل: امرأة العزيز، امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون.

وقد يبدو من اليسير أن يقوم أحد اللفظين مقام الآخر، وكلاهما من الألفاظ القرآنية، فنقول في «زوج آدم» - مثلاً - امرأة آدم، وفي امرأة العزيز: زوج العزيز، وذلك ما يأباه البيانُ المعجز؛ وهو ما يُعطينا سرَّ الدلالة في الزوجية مناط العلاقة بين آدم وزوجه في قصة أول زوجين من البشر، ولم تكن زوج آدم امرأة من أخريات، بل كانت وحدها الزوج، وكانت الزوجية -ولا شيء غيرها- مناط علاقتها بآدم وسرَّ وجودها.

ونتدبَّر سياق استعمال القرآن للكلمتين، فيهدينا إلى سرِّ الدلالة: فكلمة زوج تأتي حين تكون الزوجية هي مناط الموقف (حِكمة وآية، أو تشريعًا وحُكمًا) في آية الزوجية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[3]﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا[4]﴾، وكذلك الحال في «أزواج» بالحياة الآخرة، في مثل قوله تعالى:﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[5]﴾،

---

(١) (القمر: ١٧).
(٢) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص١٤٢، ١٤٣.
(٣) (الروم: ٢١).
(٤) (الفرقان: ٧٤).
(٥) (البقرة: ٢٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[(١)]﴾، وغيرها من الآيات القرآنية الأخرى.

فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودَّة والرحمة؛ بخيانة أو تباين في العقيدة، فهي امرأة لا زوج؛ قال تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ[(٢)]﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ[(٣)]﴾، وقوله عن امرأتي نوح ولوط: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ[(٤)]﴾؛ فـ«امرأة فرعون» قد تعطَّلت بينهما آية الزوجية؛ وذلك بإيمانها وكفره، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[(٥)]﴾.

ومن المهم أن نعلم أن حكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات هي اتصال الحياة بالتوالد، وفي هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج، وزوجين وأزواج من ذكرٍ وأنثى؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[(٦)]﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ[(٧)]﴾ وغيرها من الآيات القرآنية الأخرى.

فإذا تعطَّلت حكمة الزوجية في البشر بُعقم أو ترمُّل، فامرأة لا زوج: كالآيات في

---

(١) (آل عمران: ١٥).
(٢) (يوسف: ٥١).
(٣) (القصص: ٩).
(٤) (التحريم: ١٠).
(٥) (التحريم: ١١).
(٦) (النساء: ١).
(٧) (يس: ٣٦).

امرأة إبراهيم وامرأة عمران، كما في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ[(١)]﴾، وقوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[(٢)]﴾، وقوله ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ[(٣)]﴾، ويضرع زكريا إلى الله ﷻ بقوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا[(٤)]﴾، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا[(٥)]﴾، فلما استجاب له ربه، وحقَّقت الزوجية حكمتها، كان قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ[(٦)]﴾.

وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج حين تكون الزوجية قائمة (واقعًا أو حكمًا)؛ كأحكام المواريث، وعدَّة اللائي توفي أزواجهن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[(٧)]﴾.

أما حين تنقطع العلاقة الزوجية بطلاقٍ أو إيلاء، فالأحكام متعلقة بالنساء لا بالأزواج، كما في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ[(٨)]﴾، ومقتضى آية البقرة -﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[(٩)]﴾- أن تقوم الزوجية فعلاً بين المطلقة طلاقًا بائنًا والمحلل، لا أن

---

(١) (هود: ٧١).
(٢) (آل عمران: ٣٥).
(٣) (الذاريات: ٢٩).
(٤) (مريم: ٥).
(٥) (مريم: ٨).
(٦) (الأنبياء: ٩٠).
(٧) (البقرة: ٢٤٠).
(٨) (البقرة: ٢٣٦).
(٩) (البقرة: ٢٣٠).

تُحلِّل عودتها إلى مُطَلِّقِها؛ بإجراء عقد زواج صوري على المحلل!

وفي آيات الظهار تُجادِل مسلمة في زوجها، حيث تشكو مظاهرته منها والزوجية قائمة، وينزل الحكم في قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ(١)﴾ من حيث تعطيل هذه الزوجية بالظهار(٢).

ومن روائع الإعجاز البياني في القرآن الكريم نجد القصة القرآنية؛ فالقصة القرآنية تتعدَّد في صورها من طويلة إلى قصيرة، وهي في مختلَف ألوانها قصة هادفةٌ إلى زرع الطمأنينة في النفوس المستعدَّة لمعرفة الحكمة وفصل الخطاب.

ولنأخذ على ذلك نموذجًا قرآنيًّا فريدًا، يرقى فوق ما حدَّده النقاد والأدباء لمثل هذا اللون الأدبي، قال تعالى على لسان الخليل ﷺ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(٣)﴾، ففي ستين كلمة تقريبًا اكتملت قصةٌ معجزةٌ.. ومن ناحية الزمن فترةٌ محدودةٌ للغاية؛ فهذا أب يهمُّ بقتل ابنه، وتلَّه للجبين(٤)، فيوحي إليه ربه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فيُنقِذ الابن.

ومن ناحية الموضوع فإنه يتلخَّص في أب يقول لابنه: إنه قد أُوحي إليه أن يقتله. فيقول الابن في صدق الإيمان وعظمته: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(٥)﴾، ولم تحِدِ القصة عن موضوعها قيد أُنملة، ومن ناحية الأشخاص فهما اثنان لا ثالث لهما، يدور بينهما هذا الموقف الرهيب، من البداية والقمة والنهاية(٦).

(١) (المجادلة: ٣).
(٢) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن ص٢١٢-٢١٤.
(٣) (الصافات: ١٠٠-١٠٧).
(٤) تلَّه للجبين معناه: كبَّه على وجهه. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٤.
(٥) (الصافات: ١٠٢).
(٦) عمر محمد عمر: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني ص٢٣٢، ٢٣٣.

وهناك قصص طويلة لها دلالات وإشارات بيانية غاية في الروعة؛ منها: سورة يوسف، فهي رواية طويلة اشتملت على الشخوص والمكان والزمان والحدث والحبكة والعقدة ولحظة التنوير، ووجه الإعجاز فيها واضح من حيث أسلوب التشويق، الذي يجعل القارئ لا يملُّ من سماعها مرارًا وتكرارًا؛ لأن غاية القصة في القرآن إنما هي لِحِكم ومقاصد جمَّة.

كل هذا لنعلم أن القرآن كلام الله المعجز، فكل كلمة ولفظة أتت في محلِّها لغاية وغرض ومقصد، ولا يستطيع أحد أن يأتي بآية من مثله، ولو اجتمع الجن والإنس.

هذه بعض مظاهر الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن، وقد اعترف نصارى العصر الحديث بعظمة القرآن، وسجَّلوا في ذلك شهاداتهم التي تنطق بالحقِّ؛ فها هو ذا الدكتور ماردروس[١] المستشرق الفرنسي بعد أن كلَّفَتْهُ وزارتا الخارجيَّة والمعارف الفرنسيَّة بترجمة اثنين وستِّين سورة من القرآن يعترف بعظمة القرآن الكريم، وقال في مقدِّمة ترجمته الصادرة سنة (١٩٢٦م): «أمَّا أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلَّ وعلا؛ فإن الأسلوب الذي ينطوي على كَوْنِهِ الخالق الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلاَّ إلهًا، والحقُّ الواقع أن أكثر الكُتَّاب شكًّا وارتيابًا قد خضعوا لسلطان تأثيره»[٢].

المبحث الثاني:
الإعجاز التشريعي

اشتمل القرآن على لون آخر من الإعجاز، يعترف به كل المتخصِّصين، وإن لم يعرفوا العربيَّة؛ لأنه يتعلَّق بمحتواه ومضمونه، وهو الإعجاز الإصلاحي أو التشريعي، الذي تضمَّن أعظم التعاليم، وأقوم المناهج لهداية البشريَّة إلى التي هي أقوم، في تزكية الفرد،

(١) جوزيف شارل مارْدْرُوس Joseph Charles Mardrus (١٨٦٨-١٩٤٩م): طبيب ومستشرق فرنسي، ولد بالقاهرة، ورحل إلى باريس فدرس فيها الطب، وترجم معاني (القرآن الكريم) إلى الفرنسية، وكتاب (ألف ليلة وليلة). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ١/ ٢٤١.

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار ٣٣/ ٢٨٢.

وإسعاد الأسرة، وتوجيه المجتمع، وبناء الدولة، وإقامة العَلاقات الدُّوَلِيَّة على أمتن الدعائم[١].

ومن المعلوم أن القرآنَ الكريم المصدرُ الأوَّل من مصادر الشريعة الإسلاميَّة، ونصوص القرآن الكريم جميعها قطعيَّة في وُرُودِهَا وثبوتها ونقلها عن الرسول ﷺ إلينا، وقد تناقل المسلمون القرآن كتابة من المصحف المدوَّن، وتلقِّيًا من الحُفَّاظ أجيالاً عن أجيال في عدَّة قرون، وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ منذُ أربعةَ عَشَرَ قرنًا.

وقد جاء القرآن الكريم بتقرير المزايا العامَّة للإسلام؛ فهو دين وسط جامع لحقوق الرُّوح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة؛ مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[٢]﴾.

كما أن غايَتَهُ الوصولُ إلى سعادة الدنيا والآخرة؛ بتزكية النفس بالإيمان الصحيح، ومعرفة الله والعمل الصالح، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، لا بمجرَّد الاعتقاد والاتِّكال، ولا بالشفاعات وخوارق الأعمال، وهو ما يُدَلِّل عليه ربطُ القرآن الكريم بين الإيمان والعمل في ندائه للمؤمنين.

وهو يُسْرٌ لا حَرَجَ فيه، ولا عُسْرَ ولا إرهاق ولا إعنات، قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا[٣]﴾، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ[٤]﴾، ومن فروع هذا الأصل أن الواجب الذي يشقُّ على المكلَّف أداؤه، ويُحْرِجه يسقط عنه إلى بَدَلٍ أو يسقط مطلقًا؛ كالمريض الذي يُرْجَى برؤه والذي لا يُرْجَى برؤه، فالأوَّل يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي بل يُكَفِّر بإطعام مسكين فديةً عن كلِّ يوم إذا قدره.

كما أنه مَنَعَ الغلوَّ في الدين، وأبطل تعذيب النفس، وأباح الطيبات والزينة بدون

---

(١) انظر: القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص٣٦.
(٢) (البقرة: ١٤٣).
(٣) (البقرة: ٢٨٦).
(٤) (المائدة: ٦).

إسراف ولا كبرياء، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ[١]﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ[٢]﴾، فنهى عن الغلوِّ في العبادة، وعن ترك الطيبات، وعن الرهبانيَّة.

وراعى القرآن الكريم -كذلك- درجات البَشَرِ في العقل والفهم، وعلوَّ الهمَّة وضَعْفِها، فالقطعيُّ منه هو العامُّ، وغيرُ القطعي تتفاوت فيه الأفهام، فيأخذ كلُّ أحد منه بما أدَّاه إليه اجتهاده، وكذلك فعل رسول الله ﷺ مع أصحابه عندما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالَّة على تحريمهما دلالة ظنِّيَّة، فتركها بعضهم دون بعض، فأقرَّ كلاًّ على اجتهاده، إلى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ[٣]﴾، فالفرائض الدينيَّة العامَّة، والمحرَّمات الدينيَّة العامَّة لا يثبتان إلاَّ بنصٍّ قطعي يفهمه كلُّ أحد.

كما أرسى القرآن الكريم مبدأ معاملة الناس بظواهرهم، وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى؛ فليس لأحد من الحكَّام، ولا الرؤساء الرسميين، ولا لخليفة المسلمين أن يُعاقب أحدًا ولا أن يُحاسبه على ما يُضمر في قلبه أو يعتقد، وإنما العقوبات على المخالفات العمليَّة المتعلِّقة بحقوق الناس ومصالحهم.

وجعل مَدَارَ العبادات كُلِّها على اتِّباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر؛ فليس لأحد فيها رأي شخصي ولا رئاسة، ومدارها في الباطن على الإخلاص لله تعالى وصحَّة النيَّة.

وكُلُّ واحدة من النقاط السابقة جديرة بأن تُجعل مقصِدًا خاصًّا من مقاصد الوحي،

---

(١) (الأعراف: ٣١-٣٣).
(٢) (المائدة: ٧٧).
(٣) (العنكبوت: ٤٣).

ويُسْتَدَلُّ بها على أنه من الله تعالى؛ قرآنًا معجزًا في أحكامه التشريعيَّة، جالبًا مصالح العباد معه(١).

ولم يتوقَّف الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم عند الأحوال والنواحي الشخصيَّة فقط، وإنما تعدَّى ذلك إلى السياسة بمفهومها الإسلامي العامِّ؛ فالحُكْمُ الإسلامي للأئمة مُتَّخِذٌ مبدأ الشورى تُكَأَة في تنفيذه، والإمامُ الأعظم أو الخليفة مُنَفِّذٌ لشرع الله تعالى في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى(٢)﴾، وبيَّن الإسلام أن هناك طائفة من الأُمَّة يجب على الخليفة أن يستشيرهم -وهم أهل الحِلِّ والعقد- في مصالحها؛ وهم الذين تثق بهم الأُمَّة، وتتبعهم فيما يُقَرِّرُونه، وكان أوَّل منفِّذٍ لها رسولُ الله ﷺ؛ فلم يكن يقطع أمرًا من أمور السياسة والإدارة العامَّة للأُمَّة إلاَّ باستشارة أهل الرأي والمكانة في الأُمَّة؛ ليكون قدوةً لمن بعده.

ثم لم يُهمل القرآن الكريم الإرشاد إلى الإصلاح المالي؛ فبيَّن القرآن حقيقة المال التي يجب أن يعيها الإنسان جيدًا فقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ(٣)﴾، فالمال فتنة للبشرية جميعًا، ووسيلة للسعادة والفلاح أو الخزي والذلِّ، فمَنْ أنفقه في وجوه الخير نال وسيلة السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، ومن أنفقه في الصدِّ عن سبيل الله نال من الله العذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(٤)﴾، كما خاطب الله ﷻ الذين يستخدمون المال في الصدِّ عن سبيل الله فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(٥)﴾(٦).

ولم يقتصر القرآن على الجانب النظري فقط في محاربة الأمراض المتعلِّقة بالمال، وإنما تعدَّى ذلك إلى الجانب العملي؛ بتشريعه للزكاة وبيانه لطُرُقِ صرفها، وتحريمه للربا، فقال

(١) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص٢٨٣-٢٨٧ (بتصرف).
(٢) (الشورى: ٣٨).
(٣) (آل عمران: ١٨٦).
(٤) (البقرة: ١٩٥).
(٥) (الأنفال: ٣٦).
(٦) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ٢٩٩-٣٠٥.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[١]﴾، وكذلك تحريمه للرِّشْوة وأكل أموال الناس بالباطل، ونهى كذلك عن تطفيف الميزان، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ[٢]﴾.

إننا نرى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ولقد صدَقت هذه القاعدة أو النتيجة من خلال استقراء التاريخ الإسلامي؛ فرغم اختلاف الأجيال، وتنوُّع الأجناس التي دخلت هذا الدين، وتعدُّد اللغات والثقافات والأعراق إلا أن الشريعة الإسلامية -مصدرها الأول القرآن الكريم- كانت حاضرة بارزة قادرة على سدِّ كل صغيرة وكبيرة في ميادين الحياة المختلفة.

ونتعجَّب كل العجب أن هذا الدستور التشريعي (القرآن الكريم)، الذي أثبت جدارةً وقدرةً فائقة على وضع الحقوق والواجبات، قد نزل على محمد بن عبد الله النبي الأمي ﷺ في فترة زمنية لم تتعدَّ السنين العشر في الفترة المدينية، وكان ذلك منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة.

ومن ثَمَّ فقد أوضح القرآن الكريم أنه ما من شيء يتعلَّق بطبائع البشر، واحتياجاتهم القانونية والدستورية والتشريعية، إلا وجاء به كاملاً على أفضل وجه وأتمِّ صورة؛ قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ[٣]﴾، وقال النبي ﷺ في حجة الوداع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا[٤]﴾؛ فالتشريع الإسلامي تشريع كامل، وهذا في حدِّ ذاته إعجاز يدل على عظمته وسموِّه وتبايُنه عن قوانين البشر؛ التي تختلف من زمن إلى زمن، بل إن هناك قوانين تختلف من عام إلى عام ومن شهر إلى شهر، ومن بلد لآخر، وارجعْ إلى قوانين العقوبات في الولايات المتحدة الأمريكية، ستجدها مختلفة من ولاية لأخرى؛ فهذه ترى وجوب تطبيق عقوبة الإعدام في

---

(١) (آل عمران: ١٣٠).
(٢) (المطففين: ١-٣).
(٣) (الأنعام: ٣٨).
(٤) (المائدة: ٣).



حقِّ الجاني، وتلك ترى في الجريمة ذاتها أن عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة هي العقوبة المستحقة للجاني، لكن التشريع القرآني تشريع واضح بَيِّنٌ لا لبس فيه، طُبِّق في كل الأزمنة السابقة، وسيُطَبَّق في كل الأزمنة المستقبَلة، وهو في هذا وذاك صالح كل الصلاح، فلا ضير أو ضرر أو خلل فيه.

ومن الرائع أن نجد الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم ماثلاً في تطبيقه في عهود كثيرة؛ منها عهد النبوة، الذي لم تُقَمْ فيه الحدود إلا مرَّات قليلة؛ لنتأكد أن تطبيق التشريع الإسلامي في أي مجتمع من شأنه أن يحفظ كيان هذا المجتمع وأمنه واستقراره، وفي عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ كان عمر بن الخطاب ﷺ مسئولاً عن القضاء، ولما كان الشرع مطبَّقًا بين الرعية، فإن عمر ﷺ همَّ أن يستقيل من منصبه؛ لأنه مكث سنة لا يأتيه رجلان في منازعة؛ دلالة على عظمة المجتمع الإسلامي الذي طبَّق الشرع الإسلامي الحنيف[1]، وفي عصر عمر بن عبد العزيز ﷺ كانت الحضارة الإسلامية في أعلى قممها ومجدها؛ ذلك أنه استطاع أن يُطبِّق الشرع تطبيقًا حكيمًا عادلاً شاملاً، وهكذا إذا تتبَّعْنَا الأزمنة التي اهتمت الدولة فيها بتطبيق شرع الله وما جاء به القرآن الكريم، لوجدنا أن واقع الدولة السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحضاري كان في أعلى علوه؛ كعصر صلاح الدين الأيوبي، ومِنْ قبله نور الدين محمود، والدولة الأموية في الأندلس.. وغيرها، كل هذا دليل على عظمة التشريع القرآني وشموله.

والأمثلة القرآنية التشريعية التي تُدَلِّل على صلاحيته في كل زمان ومكان كثيرة لا تُحصى؛ منها: نظام الميراث الذي ما من أمة إلا وعدَّلت في أنظمة مواريثها عشرات المرَّات؛ لكن آيات القرآن الكريم في هذا المضمار صالحة ثابتة منذ نزول القرآن وحتى يومنا هذا، ونجد في سورة النساء - تلك السورة التي سماها الله بالنساء تكريمًا لهن ولمكانتهن في المجتمع - نظام الميراث الذي عَمِل به منذ ألف وأربعمائة عام مليارات من البشر، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٣٥١.

كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ[1] ﴾.

وتتضح أوجه الإعجاز التشريعي للميراث في القرآن إذا ما قارنَّاه بالأنظمة القديمة والغربية الحديثة؛ فعند الرومان نجد تشابهًا كبيرًا مع نظام الإسلام؛ إذ كان أساس الميراث راجع إلى القرابة، وجعلوا القرابة شاملة للفروع (أي: الأبناء وأبناء الأبناء)، لكنهم لم ينظروا إلى سبب الزوجية، وكان ميراث البنت شكليًّا فقط؛ لأنه يعود إلى إخوتها، ولم يُدخلوا الحجب في الفروع، ولم يُوَرِّثوا الأصول (الأب والجد ومَنْ علا) مع الفروع، بينما يُوَرِّث الإسلام الأصول مع الفروع، ويجعل الزوجية من أسباب الميراث. وأما نظام الميراث عند اليهود فنجدهم قد وَرَّثوا الابن الأكبر فقط، وإلا انتقل الميراث إلى الفرع المؤنث وإلا فإلى الأب وإلا فإلى الجد وإلا فالإخوة، وهم لا يُوَرِّثون أحد الزوجين من الآخر؛ حتى لا تخرج الثروة من نطاق الأسرة، لكن يُوَرِّثون الزوج من زوجته فقط، ويكون هو الوارث الوحيد لها.

وإذا نظرنا إلى نظام الميراث عند الغرب وجدنا أن النظام الفرنسي هو أقرب النظم الغربية للإسلام؛ خاصة في النظر إلى أسباب الميراث، ولكن يمتاز نظام الإسلام بأنه وَرَّث الزوجين كل منهما من الآخر مع وجود الفرع الوارث المذكر والمؤنث، وإن كان قد أعطاهم أقل مما كانوا يُعْطَون عند عدم وجودهم، أما النظام الفرنسي فلم يجعل للزوج ميراثًا في تركة الزوجة، إنما جعل له الحق في استغلال قدر من التركة ليظلَّ محافظًا على

(١) (النساء:١١، ١٢).



مستواه الاجتماعي. وبالنسبة للنظام الانجليزي فهم لا يُوَرِّثون أحد الزوجين من الآخر، ولا يُوَرِّثون الأصول مع الفروع، ويُوَرِّثون الابن الأكبر ويُقَدِّمونه على الجميع. والنظام الألماني أقرب إلى الإسلام وأقرب إلى القانون الفرنسي، ولكنه سَوَّى بين البنت والولد، كما أنهم يُوَرِّثون ذوي الأرحام كالعمّات والأخوال والخالات[1].

هذا النظام التشريعي الراقي طبّقه العالَم الإسلامي خلال أربعة عشر قرنًا وغطى حاجة المسلمين، ولم يُواجهوا معه أية مشاكل، مع أن غيره يحتاج إلى تطوير وتجديد حتى يقترب من نظام الإسلام.

وقد شهد بعض المنصفين من غير المسلمين لهذا النظام بالتفرُّد والتميز؛ ومن هؤلاء فون كريمر؛ حيث قال: «إن قانون الميراث الإسلامي نوع أصيل ممتاز من القانون الإسلامي». وشهد آخران هما (جانار) و(بري) بروعة الآثار التي منحها نظام الميراث في الإسلام؛ فيقولان في كتابيهما (الاقتصاد الهندي): «بالرغم من عدم القول بالمشاركة بين المسلمين، فإنه يُعطي السيادة الكاملة للمالك على أملاكه الموروثة والمكتسبة ما دام على قيد الحياة، وأما بعد الموت فإنها تنتقل إلى أنواع من الورثة أكثر ممن يُعَيِّنهم القانون الهندي»[2].

وتتملَّك القارئ الدهشة والإعجاب إذا علم أن القرآن والإسلام يستهدف من وراء تشريع نظام الميراث أمرين مهمين: الأول يكمن في تفتيت الثروات؛ فإن الله ﷻ قد أباح في الإسلام التملك وفتح باب الاستثمار على مصراعيه، دون قيد أو التزام إلا ما شرعه الله؛ وهذا من شأنه تجميع كثير من الثروات في أيدي أفراد قلائل، وهذا التجميع قد يُؤَدِّي إلى تحكُّم هؤلاء الأفراد في مقدَّرات الأمم والعبث في موازين العدل والانضباط؛ ولذلك فإن الله ﷻ قال: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

---

(١) عبد الوهاب محمد الجبوري، مقال بعنوان: «قراءة موجزة في فلسفة الميراث قبل الإسلام وبعده»، مجلة دنيا الرأي الإلكترونية، على الرابط: http://pulpit.alwatanvoice.com/content-179367.html.

(٢) ميرزا محمد حسين: الإسلام والاشتراكية، ترجمة: عبد الرحمن أيوب ص٢٢٢، نقلاً عن كتاب الميراث والوصية ودراسات قرآنية للدكتور محمد شريف.

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[١]﴾، وعَمِل على تفتيت هذه الثروات بوسائل متعددة؛ منها الميراث، ويتضح من ذلك عدة أمور لعلَّ أهمها: تقسيم التركات أثلاثًا وأرباعًا وأثمانًا، ومن النادر أن ينفرد واحد بالتركة. والتشديد على ضرورة إعطاء كل وارث حقَّه؛ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا[٢]﴾. ونقل أجزاء من الثروات من أسرة إلى أسرة عن طريق الزوجة، وقد ساوى الإسلام بين أتباعه؛ فقد يتزوَّج الغني فقيرة والعكس؛ وهذا ما يُساعد على نقل أجزاء من الثروات وتداولها.

ومن الرائع أن نجد آثارًا وثمرات اجتماعية للميراث في الإسلام؛ إننا نجد من خلال هذا النظام الراقي أنه استطاع أن يُقارب بين الطبقات، وهذا واضح في منعه لتكدس الثروات بالقيام بتفتيتها، بحيث لا يُتداول المال بين طائفة محدَّدة؛ فالغني اليوم بعد جيل أو جيلين تنتقل ثروته إلى أولاده وأحفاده وأقاربه، ومن كان فقيرًا في جيل من الأجيال، قد يُوجد من أولاده في الجيل الثاني أو في الجيل نفسه مَنْ ينتقل إلى الطبقة المتوسطة؛ بسبب وفاة قريب أو تَزَوُّجه بمن كان لها مال، وربما صار من كبار الأثرياء[٣].

ومن خلال هذا النظام نجد تقويةً للروابط الأسرية؛ فقد يرث الابن والأب والزوجة، وقد ترث البنت مع بنت الابن مع الأخت الشقيقة أو لأب، ومَنْ لا يرث مِن الأقارب دعا القرآن الكريم إلى الوصية لهم بجزء من التركة؛ فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ[٤]﴾، وحتى الذين لا ميراث ولا وصية لهم من الأقارب، فقد طلب القرآن الكريم إعطاءهم شيئًا من تركة المتوفى مع القول بالمعروف من باب المواساة؛ حتى يُشاركوا الورثة في نعمة المال؛ فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ

---

(١) (الحشر: ٧).
(٢) (النساء: ٧).
(٣) أحمد يوسف سليمان: بحث بعنوان: «الإعجاز التشريعي لنظام الميراث في القرآن الكريم وأثره الاقتصادي والاجتماعي» ص١٢٥، ١٢٦، مُقدَّم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وزارة الأوقاف الكويتية.
(٤) (البقرة: ١٨٠).

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا[١]﴾.

وتأتي الوصية وهي تصرُّف مضاف لما بعد الموت، فتقوم بدور اجتماعي كبير في مجال تحقيق التضامن الاجتماعي، وقد حدَّدها جلَّ وعلا بألا تزيد على الثلث؛ حتى لا تجور على نصيب الورثة، واشترط الشرع ألا يكون الغرض منها الإضرار بالورثة وأن تكون في معروف؛ أي: في جهة من جهات البرِّ، فالإنسان قد يكون راغبًا في مكافأة مَنْ أحسنوا إليه، وكذلك قد يرغب الإنسان في إعطاء جزء من ثروته لأحد أقربائه من غير الورثة؛ ليساعده على حياة كريمة، وقد يرغب في استمرار مساعدة بعض أبناء مجتمعه الفقراء كما كان يُساعدهم في حياته، فإنه يُحقق ذلك عن طريق الوصية[٢].

يقول الدكتور رفعت العوضي: «إن الإسلام لم يقف بتنظيمه لتوزيع الثروات بين الأفراد عند أحكام الميراث، وإنما أكمل بتشريع الوصية؛ وكأنَّ الوصية بالصورة التي شرعها الإسلام تهدف إلى تغطية الإنفاق على جوانب أخرى للمجتمع تلزم له، فجعل الإسلام من مسئوليات المسلمين القيام بتغطية هذه النفقات مِنْ تركتهم؛ سواء تعلَّق ذلك بفرد أو مؤسسة اجتماعية أو علمية؛ فكأنَّ الوصية من هذا الجانب تجعل ثلث الثروة والتركة مجنَّدًا -إن أراد صاحبه في ضوء مصلحة المجتمع- لأن يخدم أفرادًا أو جهات أخرى غير الورثة الأصليين المعروفين»[٣].

وإن مما يُدَلِّل على عظمة التشريع القرآني أنه أثبت قدرته وشموليته عند غير المسلمين؛ وفي بعض الدول الأوربية المتقدمة في التشريع والقانون؛ ففي بريطانيا قالت صحيفة (الديلي ميل)[٤]: إن ما لا يقلُّ عن ٨٥ محكمة بريطانية تُطَبِّق أحكام الشريعة الإسلامية في المملكة المتحدة. وأشارت الصحيفة إلى أن هذا الرقم أعلى ١٧ مرَّة من السابق، وأكدت دراسة أجراها الأكاديمي المتخصص بالشئون الإسلامية (دينيس ماكايون) أن هناك ما لا يقلُّ عن ٨٥ محكمة تُطَبِّق الشريعة الإسلامية تعمل في بريطانيا،

---

(١) (النساء: ٨).
(٢) أحمد يوسف سليمان: السابق ص١٢٧، ١٢٨.
(٣) رفعت العوضي: نظرية التوزيع ص٣٣٠.
(٤) الصادرة بتاريخ ٢٩ يونيو ٢٠٠٩م.

وأشارت الدراسة إلى أن القوانين القائمة على الشريعة الإسلامية آخذة في الانتشار.

وأكَّد رئيس أساقفة كانتربري (روان وليامز) أن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في بريطانيا أمرٌ لا مفرَّ منه في المستقبل، بينما أعلن لورد فيليبس رئيس القضاء البريطاني في يوليو ٢٠٠٨م أنه يجوز تطبيق الشريعة الإسلامية لتسوية الخلافات الزوجية والنزاعات المالية(١).

وفيما يتعلَّق بالأزمة المالية العالمية فقد أثبت التشريع الاقتصادي في القرآن قدرته على مواجهة أي تحديات، ولقد مدحته الكثير من الدول والمنظمات الأوروبية؛ فقد أشادت دراسة أعدَّها مركز أبحاث الكونجرس الأمريكي عن «التمويل الإسلامي» بالبنوك الإسلامية؛ لكونها «أكثر صلابة في مواجهة التراجع الاقتصادي العالمي والأزمة المالية الدولية مقارنة بالبنوك التقليدية»، وأشارت الدراسة إلى اعتقاد كثير من المراقبين بأن «التمويل الإسلامي يُمَثِّل عجلة للتعافي من الأزمة المالية الدولية»، كما توقَّعت الدراسة بأن «تُعَزِّز صناعةُ البنوك الإسلامية مكانتها في السوق الدولي في ظلِّ بحث المستثمرين والشركات عن مصادر بديلة للتمويل» خلال الأزمة الراهنة وفي المستقبل(٢).

بل إن المؤسسة المسيحية الأكبر في العالم الفاتيكان قد أثنت على التشريع الاقتصادي في الإسلام؛ لكونه يحمل مبادئ أخلاقية سامية(٣).

كل هذا لنعلم أن التشريع الإسلامي تشريع رباني خالد يصلح للماضي والحاضر والمستقبل، وما ذلك إلا لون من الإعجاز الإلهي للبشر.

❊ ❊ ❊

---

(١) www.dailymail.co.uk/news/article-1196165/Britain-85-sharia-courts-The-astonishing-spread-Islamic-justice-closed-doors.html.

(٢) موقع محيط الإخباري على الرابط: www.moheet.com/show_files.aspx?fid=253600.

(٣) جريدة الوطني الإماراتية الإنجليزية على الإنترنت على الرابط: www.thenational.ae/apps/pbcs.dll/article?AID=/20091206/BUSINESS/712069970/0/opinion.

المبحث الثالث:

الإعجاز العلمي

جاء القرآن الكريم بنوع آخر من أنواع الإعجاز، وهو الإعجاز العلمي، وهو نوع لم يتكلَّم عنه العلماء المسلمون قديمًا؛ إذ كان جُلُّ اهتمامهم يدور حول إعجاز القرآن الكريم من ناحية بلاغته، ونظمه، وتاريخه، ولغته، فلم يتطرَّقوا لمسألة إعجازه العلمي، والمقصود بذلك اشتمال القرآن الكريم على ألوان من القواعد العلميَّة التطبيقيَّة التي تحيَّرَ كثيرٌ من العلماء في وجودها واكتشافها (صورة رقم ٤).

وقد اشتمل القرآن الكريم على إشارات علميَّة سِيقَتْ مَسَاق الهداية؛ لأنه ليس كتابًا علميًّا خالصًا، ومثال ذلك ما ذكره القرآن عن التلقيح الخلطي في النبات، الذي يكون التلقيح فيه بالنقل، ومن وسائل ذلك الرياح، وهو ما أورده تعالى بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[١]﴾.

ومن الأمثلة العلميَّة التي ذُكرت في كتاب الله تعالى، والتي أَثْبَتَ صحَّتَها العلمُ الحديث بالأدلَّة التجريبية: (تمدُّد الكون)، فقد وصف القرآن الكريم -الذي أُنْزِلَ قبل أربعةَ عَشَرَ قرنًا في وقت كان فيه علم الفلك في طوره البدائي- نظرية تمدُّد الكون، فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[٢]﴾، وكلمة السماء التي ذكرتها الآية السابقة، مذكورة في مواطن عدَّة من القرآن الكريم، بمعنى الكون والفضاء.

---

(١) (الحجر: ٢٢).
(٢) (الذاريات: ٤٧).



الإعجاز العلمي في القرآن الكريم



صورة رقم (٤)

وهذه الآية القرآنيَّة كشفت أنَّ الكون يتوسَّع أو يتمدَّد، وهي النتيجة نفسها التي خَلُصَ إليها العِلْمُ في أيَّامنا هذه، فحتى فجر القرن العشرين كانت النظرة العلميَّة الوحيدة السائدة في هذا العالم أنَّ الكون له طبيعة ثابتة، وهو موجود منذ الأزل، لكنَّ الأبحاث والملاحظات والحسابات التي أُجْرِيَتْ بواسطة التقنيات الحديثة كشفت أن الكون في الحقيقة له بداية، وأنه يتمدَّد بانتظام؛ ففي بداية القرن العشرين أثبت عالم الفيزياء والفلك البلجيكي جورج لوميتر[1] نظريًّا بأن الكون في حركة دائمة، وأنه يتمدَّد، وقد أكَّد هذه الحقيقة عالم الفلك الأمريكي إدوين هبل[2] عام (١٩٢٩م)، حيث أثبت أن النجوم والمجرَّات تتحرَّك بعيدًا عن بعضها البعض بشكل دائم، وهذا يعني أنَّ الكون الذي يتحرَّك فيه كل شيء بشكل دائم بعيدًا عن بعضه البعض هو كَوْنٌ متمدِّد بشكل دائم[3].

ومن الآيات القرآنية المعجزة قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[4]﴾. فالفعل تجري فيه إعجاز عظيم؛ لأنه لا يدلُّ على حركة الشمس الظاهرية التي يبصرها الناس عندما تشرق، بل هو يدلُّ على حركة واقعية أثبتتها الأرصاد؛ حيث تقول الموسوعة الفلكية: «إن الشمس تدور حول محورها مرَّة كل خمسة وعشرين يومًا»[5]. كما قُدِّرَتْ سرعة مجرَّتنا الأرضية وضمنها الشمس وهي تبتعد عن غيرها من المجرات في الكون بمقدار ٩٨٠ كيلومتر في الثانية[6].

ومن وجوه الإعجاز -أيضًا- قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ[7]﴾. حيث أثبتت الدراسات أن البحر الأبيض المتوسط في لقائه مع المحيط

---

(١) جورج لوميتر George Le Maitre (١٨٩٤-١٩٦٦): عالم فضاء وفلك بلجيكي، صاغ نظرية الانفجار الكبير، والتي تتحدث عن بدء نشوْ الكون من انفجار كارثي كبير.
(٢) إدوين هبل Edwin Hubble (١٨٨٩-١٩٥٣): عالم فلك أمريكي ولد عام ١٨٨٩م، أثبت وجود مجرات أخرى عدا المجرة اللبنية.
(٣) انظر: هارون يحيى: المعجزات القرآنية ص١٢، ١٣ بتصرف.
(٤) (يس: ٣٨).
(٥) خليل بدوي: الموسوعة الفلكية ص٢١.
(٦) إبراهيم غوري: الشمس ص١٨.
(٧) (الرحمن: ١٩، ٢٠).

الأطلسي عند مضيق جبل طارق بينهما برزخ، ومن خلال التحليل الكيميائي لمياه كل منهما وجدوا أن البحر المتوسط أكثر ملوحة من الأطلسي، وأكثر حرارة، ويختلف كل منهما في الكائنات الحية[١]، كما نشرت بعثة السير جون إمري مع بعثة الجامعة المصرية بعض الملاحظات حول المياه في خليج العقبة، والتي تختلف في خواصها وتركيبها الكيميائي والطبيعي عن المياه في البحر الأحمر[٢].

ومن الآيات المعجزات قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا[٣]﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ[٤]﴾. فقد توصَّل علماء الجيولوجيا في العصر الحديث إلى أن تحت الجبل عِرْقًا وامتدادًا قد غُرِسَ في الطبقة اللزجة التي تحت طبقة الصخور، وقد جعل الله هذا الامتداد ماسكًا للقارات من أن تطوف أثناء دوران الأرض، ولم يتأكَّد الباحثون من هذه الحقيقة إلاَّ عام (١٩٥٦م)[٥]، وكذلك أثبتت الدراسات أن كل قارة بها جبال تتميز بها، وأن ارتفاع الجبال يتناسب ومكانها في الأرض، ونوع الصخور المكونة لها، وطبيعة الأرض حولها، كما وجدوا أن توزيع الجبال على الكرة الأرضية إنما قُصِدَ به حفظها من أن تميد أو تحيد[٦]، وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة منذ ألف وأربعمائة عام، فصدق الله وصدق رسوله ﷺ.

ولننظر إلى قوله تعال: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ[٧]﴾، فهذا قَسَمٌ من ربِّ العزة جلَّ وعلا، وقد وصف هذا البحر بأنه مسجور، والقَسَم كما هو معلوم يُؤْتَى به للتوكيد، وكلام الله لا يحتاج إلى توكيد؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً[٨]﴾، ولكنه ليُنَبِّه الغافلين، ويُرشد الطائعين، ويُقيم الحجة على الكافرين.

والمقصود بالمسجور المُوقد أو المُهَيَّج بالنار، وقَسَمُ الله ﷻ فيه دلالة صريحة على وجود

---

(١) مروان التفتنازي: الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث ص٣٨٤.
(٢) يعقوب يوسف: لفتات علمية من القرآن ص٥٧.
(٣) (النبأ: ٧).
(٤) (النحل: ١٥)، (لقمان: ١٠).
(٥) عبد المجيد الزنداني: كتاب التوحيد ص٧٢.
(٦) مروان التفتنازي: الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث ص٣٥٢.
(٧) (الطور: ٦).
(٨) (النساء: ١٢٢).

بحار مسجَّرة بالنيران؛ إذ إن المقصود بالبحر المسجور هنا هو من بحار الدنيا وليس الآخرة، وقد شاء الله ﷻ أن تتجلَّى هذه الحقيقة القرآنية في عصر العلم، ويصل علماء البحار إلى التأكد الجازم من وجود براكين ملتهبة بالنار في القيعان.

يقول الدكتور جمال الدين الفندي في كتابه (طبيعيات البحر وظواهره): «أثبتت الدراسات أن في قشرة قاع المحيط يوجد بعض الثغرات أو الشقوق العميقة؛ نتيجة التصدع بتقلصات القشرة لإحداث التوازن واختلافات الحرارة، وما يتبع هذه الاختلافات من تمدُّد بالتسخين، وتقلُّص بالبرودة، وعلى طول مثل هذه الأماكن المتمدِّدة الضعيفة، تندفع الحمم البركانية المنصهرة من باطن الأرض من خلال قشرة القاع، ثم تنبثق متدفِّقة في البحر، إلا أنها تلقى مقاومة بسبب ثقل مياه البحر، وبرغم ذلك فإن براكين البحر -أيضًا- تقذف حممها إلى أعلى، كما تبني فوهتها المخروطية صاعدة نحو السطح بتوالي تراكم الحمم المنصهرة، وقد تُسَبِّب الانفجارات البركانية نسف الجزر أو اختفائها؛ ومن أمثلة ذلك ما حدث عام ١٨٨٣م عندما انفجرت جزيرة (كاراكاتوا) من مجموعة جزر الهند الشرقية برُمَّتِها، وبعد يومين من تعاقب الانفجارات البركانية أصبحت هذه الجزيرة -التي كانت تعلو سطح البحر بنحو ١٤٠٠ قدم- ولم يبقَ ظاهرًا منها إلا جزء من حافة قمتها الأصلية»[(١)].

وعقد جورج جامو في كتابه (كوكب اسمه الأرض) فصلاً في كتابه بعنوان: جهنم تحت أقدامنا، وتحدَّث فيه عن تسجير قاع البحر، والنار والبراكين النشطة فيه، يقول في مطلعه: «ازدياد الحرارة مع العمق: إن سُحب الدخان الأسود المتصاعدة من فوهات البراكين الثائرة، والحمم الملتهبة المتدفقة على جوانبها، وعيون المياه الساخنة، كل هذا دعا الأقدمين إلى الاعتقاد بوجود نار متقدة ليست بعيدة تحت أقدامنا أُعِدَّت للخاطئين»[(٢)].

ووجه الإعجاز واضح لا ريب فيه؛ لقد قرَّر كتاب الله تعالى أن قاع البحار مسجرة بالنار، ولم يكن يُعلم قبل ومع نزول القرآن الكريم هذه الحقيقة العظمى، حتى بداية

---

(١) محمد جمال الدين الفندي: طبيعيات البحر وظواهره ص٢١٠.
(٢) جورج جامو: كوكب اسمه الأرض ص٧٤.

القرن العشرين؛ حيث تَبَيَّن للعلماء أن قاع البحار مسجرة ومضطرمة بالنيران، غير أن الحق قرَّر هذه الحقيقة البحرية بقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ[1]﴾، فمن الذي أخبر محمدًا ﷺ بأن البحر قاعه ملتهب، ومتفجر بالبراكين التي تقذف الحمم النارية؟[2].

وإذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[3]﴾، لعلمنا أن الآية القرآنية التي أُنزلت من ألف وأربعمائة عام تتحدَّث عن توسيع متواصل للكون، وأنه غير ثابت.

وهذه الحقيقة التي أخبر عنها ربُّ العزة ﷻ اكتشفها علماء الفلك والفضاء في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، ولقد ظلَّ علماء الفلك يُنادون بثبات الكون وعدم تغيُّره، في محاولة يائسة لنفي الخَلْق والتنكُّر للخالق ﷻ، حتى ثبت عكس ذلك بتطبيق ظاهرة دوبلر على حركة المجرات الخارجة عن مجرتنا، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان العالم النمساوي (دوبلر C.Doppler) قد لاحظ أنه عند مرور قطار سريع يُطلق صفارته، فإن الراصد للقطار يسمع صوتًا متصلاً ذا طبقة صوتية ثابتة، ولكن هذه الطبقة الصوتية ترتفع كلما اقترب القطار من الراصد، وتهبط كلما ابتعد عنه، وفسَّر دوبلر السبب في ذلك بأن صفارة القطار تُطلق عددًا من الموجات الصوتية المتلاحقة في الهواء، وأن هذه الموجات تتضاغط تضاغطًا شديدًا كلما اقترب مصدر الصوت، فترتفع بذلك طبقة الصوت، وعلى النقيض من ذلك فإنه كلما ابتعد مصدر الصوت تمددت تلك الموجات الصوتية، حتى تصل إلى سمع الراصد، فتنخفض بذلك طبقة الصوت.

كذلك لاحظ دوبلر أن تلك الظاهرة تنطبق -أيضًا- على الموجات الضوئية، فعندما يصل إلى عين الراصد ضوء منبعث من مصدر متحرِّك بسرعة كافية، يحدث تغيُّر في تردُّد ذلك الضوء، فإذا كان المصدر يتحرَّك مقتربًا من الراصد فإن الموجات الضوئية تتضاغط، وينزاح الضوء المدرك نحو التردد العالي (أي: نحو الطيف الأزرق)، وتُعرف هذه الظاهرة

---

(١) (الطور: ٦).
(٢) مروان التفتنازي: الإعجاز القرآني ص٣٩٠، ٣٩١.
(٣) (الذاريات: ٤٧).

باسم الزحزحة الزرقاء، وإذا كان المصدر يتحرَّك مبتعدًا عن الراصد، فإن الموجات الضوئية تتمدَّد وينزاح الضوء المدرك نحو التردُّد المنخفض (أي: نحو الطرف الأحمر من الطيف)، وتُعرف هذه الظاهرة باسم الزحزحة الحمراء، وقد اتضحت أهمية تلك الظاهرة عندما بدأ الفلكيون في استخدام أسلوب التحليل الطيفي للضوء القادم من النجوم الخارجة عن مجرتنا في دراسة تلك الأجرام السماوية البعيدة جدًّا عنا.

وفي سنة ١٩١٤م أدرك الفلكي الأمريكي (سلايفر Slipher) أنه بتطبيق ظاهرة دوبلر على الضوء القادم إلينا من النجوم، في عدد من المجرات البعيدة عنًّا، ثبت له أن معظم المجرات التي قام برصدها تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة، وبدأ الفلكيون في مناقشة دلالة ذلك، وهل يمكن أن يُشير إلى تمدد الكون المدرك؛ بمعنى تباعد مجراته عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة؟ وبحلول سنة ١٩٢٥م، تمكن هذا الفلكي (Slipher) من إثبات أن أربعين مجرَّة قام برصدها تتحرَّك فعلاً في معظمها بسرعات فائقة متباعدة عن مجرتنا (سكة التبانة)، وعن بعضها البعض.

وفي سنة ١٩٢٩م تمكن الفلكي الأمريكي الشهير (إدوين هبل Edwin Hubble) من الوصول إلى الاستنتاج الفلكي الدقيق، الذي مؤدَّاه أن سرعة تباعد المجرات عنا تتناسب تناسبًا طرديًّا مع بُعدها عنا، والذي عُرف من بعدُ باسم قانون هبل Hubble's law، وبتطبيق هذا القانون تمكَّن هبل من قياس أبعاد العديد من المجرات، وسرعة تباعُدها عنا، وذلك بمشاركةٍ من مساعده (ملتون هيوماسون Milton Humason)، الذي كان يعمل معه في مرصد جبل ولسون بولاية كاليفورنيا، وذلك في بحث نشراه معًا في سنة ١٩٣٤م.

وقد أشار تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض إلى حقيقة توسُّع الكون المدرك، التي أثارت جدلاً واسعًا بين علماء الفلك، الذين انقسموا فيها بين مؤيِّد ومعارض حتى ثبتت ثبوتًا قاطعًا بالعديد من المعادلات الرياضية، والقراءات الفلكية في صفحة السماء[1].

(١) مروان التفتنازي: الإعجاز القرآني ص١٨٩-١٩٢.

وحاليًا يقوم العلماء باستعمال مطيافات شديدة القوة والفاعلية لتحليل ضوء النجوم[(١)]، وبعد دراسات طويلة توصَّلُوا إلى التأكُّد من أن الخطوط الطيفية تميل دائمًا إلى الاحمرار، وعندما يبتعد مصدر ضوئي عن المرصد الموجود على الأرض، نجد أن تردُّد الضوء يتضاءل؛ فإن العلماء استنتجوا أن ميل الخطوط الطيفية إلى الاحمرار، إنما يدلُّ على أن كل الأجرام تبتعد عن بعضها، مما ينتج عنه امتداد للكون بشكل عام، فسبحان من أخبرنا بهذه الحقيقة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام[(٢)].

وهناك إعجاز علمي آخر في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ[(٣)]﴾؛ فقد يظنُّ البعض أن عبارة «أنزلنا»، التي خصَّ بها الحديد في هذه الآية، هي من باب المجاز الذي يُقصد به أن الله خلق الحديد لينتفع به الناس، ولكن عندما ننظر إلى المعنى الحرفي للكلمة: وهو أن الحديد أُرسل فيزيائيًّا من السماء، نُدرك أن الآية تتضمن إعجازًا علميًّا فريدًا؛ فقد تبين من خلال الاكتشافات الفضائية الحديثة أن الحديد الموجود في عالمنا قد جاء من نَجم ضخم في الفضاء الخارجي.

إن المعادن الثقيلة في الكون تنتج من نَواة نَجم كبير؛ فنظامنا الشمسي لا يملك التركيبة الملائمة التي تمكِّنه من إنتاج الحديد بنفسه؛ فالحديد لا يمكن أن يُنتج إلا في نجوم أكبر بكثير من الشمس، حيث تصل الحرارة إلى بضعة ملايين من الدراجات، وعندما تتعدَّى كمية الحديد مستوى معينًا في نجم ما، فإنه لا يستطيع التكيُّف معها، وبالنهاية ينفجر ويتحوَّل إلى ما يُسمى بالمستعر، أو المستعر العظيم (وهو نجم يتعاظم ضياؤه فجأة، ثم يخبو بعد بضعة شهور أو سنوات)، وكنتيجة لهذا الانفجار تنتشر في أرجاء الكون نيازك تحتوي على الحديد، وتنتقل إلى الفراغ إلى أن تجذبها القوة الجاذبة للأجرام السماوية.

كل هذا يُظْهِر أن الحديد لم يخرج من الأرض، بل نزل إلى الأرض بواسطة نيازك ناجمة عن انفجار نجوم في الفضاء، كما تُشير الآية الكريمة، ومن الواضح أن هذه الحقيقة

---

(١) جويل دوروني وآخرون: نحن والكون ص٢٤.
(٢) مخلص الريس وعلي موسى: قصة نشوء الكون ص٤١.
(٣) (الحديد: ٢٥).

العلمية لم تكن معروفة علميًا في القرن السابع الميلادي حين كان القرآن يُوحى به[١].

وفي آية قرآنية أخرى نجد معجزة واضحة كل الوضوح؛ ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ[٢]﴾، وأجمع المفسرون كافَّة بلا استثناء على أن النطفة الأمشاج هي حصيلة ماء الرجل والمرأة، والأمشاج أخلاط من الجنسين، وقبل اكتشاف المجهر بعد عصر تنزيل القرآن بأكثر من عشرة قرون، لم يكن يعلم أحدٌ بتكون الجنين من بويضة مخصبة (Fertilized egg) تُماثِل «نطفة»؛ أي: قطيرة ماء غاية في الضآلة ذات أخلاط تحتوي على مكونات وراثية من الأبوين، نسميها اليوم كروموزومات (Chromosomes).

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى[٣]﴾. قال القرطبي: «بيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى.. وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربَّى في رحم الأم ويستمدُّ من الدم الذي يكون فيه... والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية؛ فإنها نصٌّ لا يحتمل التأويل»[٤].

وتبدأ مراحل خلق الإنسان بتكون الحيوان المنوي عند الأب؛ لأن جميع بويضات الأم مكوَّنة أساسًا وهي جنين، والسائل المنوي يماثل ماء عديد النطف أي القطيرات، وهو ما يكشفه القرآن الكريم بالنصِّ الصريح؛ قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[٥]﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[٦]﴾. ولكن لا يقوم بالإخصاب إلا مكون منوي واحد من السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف؛ أي من نطفة (Drop-like Embryo)، وهو ما يُؤكِّده القرآن الكريم في جملة آيات؛ قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ

---

(١) هارون يحيى: المعجزات القرآنية ص٣٤.
(٢) (الإنسان: ٢).
(٣) (الحجرات: ١٣).
(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٤٢، ٣٤٣.
(٥) (السجدة: ٧، ٨).
(٦) (المرسلات: ٢٠).

يُمْنَى[١] ﴾، ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ[٢] ﴾، ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ[٣] ﴾.

والمدهش أن يعدل القرآن في وصف مكونات المني المماثل للماء إلى اسم الفاعل «دافق» بدلاً من اسم المفعول، قبل أن يُعَايِن بالمجهر حركته الذاتية أحدٌ؛ يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ[٤] ﴾.

ولصعوبة الرؤية في المجاهر الأولية رسم داليمباتيوس (Dalempatius) الإنسان كاملاً داخل رأس الحيوان المنوي عام ١٦٩٩م؛ أي: قبل بداية القرن ١٨ بعام واحد فقط، بدون إدراك لتخلق الجنين من الأبوين في أطوار، بينما يُعلن القرآن الكريم بجلاء منذ القرن السابع الميلادي بتخلُّق الجنين في أطوارٍ، يقول تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا[٥] ﴾.

والمرحلة الأولى لتخلُّق الجنين تتمُّ خارج التجويف الرحمي، وتُدهش أن يعدل القرآن الكريم في مقام بيان تكوُّن كل الأطوار إلى لفظ البطون في قوله تعالى: ﴿خْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ[٦] ﴾، وتحيط بالجنين ثلاث أغشية مجهرية بالفعل.

ويُبيِّن القرآن بالتفصيل تباين أطوار تكوُّن الجنين في تعبيرات وصفية دقيقة، تتفق تمامًا مع الأطوار الفعلية للجنين؛ يقول العلي القدير: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ[٧] ﴾.

---

(١) (القيامة: ٣٦، ٣٧).
(٢) (النحل: ٤).
(٣) (يس: ٧٧).
(٤) (الطارق: ٥، ٦).
(٥) (نوح: ١٣، ١٤).
(٦) (الزمر: ٦).
(٧) (المؤمنون: ١٢-١٤).

والجنين في مرحلته الرَّحِمِيَّة الأولى أشبه ما يكون بالعلقة (Leech-like Embryo)؛ فلا تجد نظيرًا لها يماثله في تلك المرحلة؛ فهي طولية الشكل وبلا قلب نابض، وتعيش بالتغذي على دماء كائن آخر مُعَلَّقة به، وهي نفس أوصاف أُولى مرحلة جنينية في الرحم، وتبدأ بعدها الأعضاء الأولية في التكوُّن؛ فيتجعَّد الجنين وتظهر فيه انبعاجات وانخفاضات، وتتضح الأجسام البدنية التي تُكَوِّن فقرات العمود الفقري لاحقًا، وهي أشبه ما تكون بعلامات الأسنان في علكة أو قطعة لحم، ويصل الجنين إلى حجم ما يمضغ، وينحني في الهيئة فكان لفظ (مضغة) هو أنسب تعبير بما يماثله في تلك المرحلة (Chewable mass -like Embryo)، وتنتهي مرحلة تكوُّن الأعضاء الأولية تلك بتكوُّن بدايات العظام في الأسبوع السابع، وتغطيها أوليات العضلات في الأسبوع الثامن،؛ ولذلك يمثِّل قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا[1]﴾ تحديًا علميًّا غير مسبوق في أي كتاب آخر يُنسب للوحي، وتنتهي مرحلة تكوُّن الأعضاء الأولية (Organogenesis) مع نهاية الأسبوع الثامن، وبتكوُّن الهيكل الأَوَّلِيِّ بعد الأسبوع السادس يأخذ الجنين الشكل الإنساني، ولا يتبقى إلى الولادة سوى النموِّ وتعديل الهيئة، ونسبة الرأس والبدن، وهو ما يَتَّفق مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ[2]﴾، ولا يملك العقل والوجدان سوى التسليم بيقينٍ، بأن تلك الحقائق العلمية -التي يُقَدِّمها القرآن الكريم بتلطُّف لا يُلفت عن الغرض- لا يمكن أن يكون مصدرها بشر قبل إدراكها مجهريًّا، والتحقق منها في عصر الثورة العلمية، خاصة في القرون الثلاثة الأخيرة؛ لذا لا يُقَدِّم الطاعنون سوى أدلة على المكابرة والعناد والجهل بحقائق العلوم، وسوء فهم لدلائل الوحي في الكتاب الكريم[3].

وإننا إذا تأمَّلْنَا في الآيات العلمية في القرآن الكريم، لوجدنا أن لها ظلالاً إعجازية غاية في الإبهار والروعة؛ فلنتأملْ إلى الحكمة من تحريم زواج الإخوة من الرضاعة،

---

(١) (المؤمنون: ١٤).

(٢) (المؤمنون: ١٤).

(٣) د. محمد دحدوح: مقال بعنوان «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج»، على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، على الرابط:
http://quran-m.com/firas/arabic/?page=show_det&id=1704&select_page=2.

والإعجاز العلمي الذي يتضح في هذه الآية الكريمة؛ فالقرآن الكريم جعل الإخوة من الرضاعة كالإخوة من النسب؛ ومن ثَمَّ حرَّم الارتباط الزوجي بالأخوات من الرضاعة؛ قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ[١]﴾.

لقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أُجريت حديثًا وجود أجسام في لبن الأم المرضعة، الذي يترتب على تعاطيه تكوين أجسام مناعية في جسم الرضيع بعد جرعات تتراوح من ثلاث إلى خمس جرعات... وهذه هي الجرعات المطلوبة لتكوين الأجسام المناعية في جسم الإنسان، حتى في حيوانات التجارب المولودة حديثًا، والتي لم يكتمل نموُّ الجهاز المناعي عندها... فعندما تَرضع اللبن تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة من اللبن الذي ترضعه؛ وبالتالي تكون مشابهة لأخيها أو لأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية، ولقد وُجد أن تكوُّن هذه الجسيمات المناعية يمكن أن يُؤَدِّي إلى أعراض مرضية عند الإخوة في حالة الزواج[٢].

ومن هنا نجد الحكمة في الآية القرآنية التي نحن بصددها؛ في تحريمها زواج الإخوة من الرضاع وقد حددتها السنة النبوية بخمس رضعات مشبعات[٣].

وهذه بعض أوجه الإعجاز في القرآن التي تُثْبِتُ أنه وحي أنزله الله على عبده محمد ﷺ بلفظه ومعناه، والتي تُثْبِتُ بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن النبي محمدًا ﷺ مُرْسَلٌ من ربِّه لهداية العالمين، وقد اعترف جُلُّ علماء الغرب المنصفين بمعجزة القرآن الخالدة؛ ومن هؤلاء العلماء إميل درمنجم الذي قال عن القرآن: «لا بُدَّ لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بُدَّ له من معجزة يتحدَّى بها... والقرآن هو معجزة محمد ﷺ؛ فأسلوبه المعجز وقوَّة أبحاثه لا تزال إلى يومنا يثيران ساكن مَنْ يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين،

---

(١) (النساء: ٢٣).

(٢) موقع جديد العلم، وهو موقع أجنبي أثبت فيه الدكتور مارك سيريجان تأثير لبن الأم على الأطفال: www.sciencealert.com.au/news/20081102-16879.html.

(٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يُقرأ من القرآن». صحيح مسلم: كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات (١٤٥٢).



وكان محمد ﷺ يتحدَّى الإنس والجنَّ بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدِّي أقْوَى دليل لمحمد على صدق رسالته...»[١].

المبحث الرابع:
الإعجاز التاريخي

اهتمَّ القرآن الكريم بسرد تاريخ الأمم السابقة؛ إمعانًا في تحديه للمعارضين له؛ فيُخْبِرُ عن حياة أُناس عاشوا من آلاف السنين بصورة مُوَثَّقة، وبِدِقَّة متناهية، لا يَصِلُ إليها المؤرِّخون مهما أُوتوا من أدلَّة ماديَّة.

وقد نوَّع القرآن الكريم في عرض تاريخ الأمم السابقة، وأوضح أن الحكمة من هذه القصص أكبر أَثَرًا، وأشمل حكمة من مجرَّد التسلية ومَلْءِ الفراغ؛ لذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٢]﴾.

فالإعجاز التاريخي -كما ذكره السيوطي- هو ما انطوى عليه من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة ممَّا كان لا يَعْلَمُ منه القصَّة الواحدة إلاَّ الفذُّ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلُّم ذلك، فيورده ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصِّه، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب[٣].

فالإنسان هو الإنسان -من مائة قرن خَلَتْ إلى مائة قرن يلدها المستقبل المنظور أو أكثر- لن تتغيَّر طبيعته، ولن يتبدَّل جوهره؛ لذلك فقد حفظ القرآن قصص الأوَّلين مع أنبيائهم، وجدَّد على الناس ذكرها بعدما طَوَتِ الليالي أصحابَهَا؛ ليُدَاوِيَ بها عِلَلاً متشابهة، وقد كثرت القصص لتحصي جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعيَّة، وتستأصل

---
(١) إميل درمنجهم: حياة محمد ص٢٨٩.
(٢) (يوسف: ١١١).
(٣) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

جرثومتها بصنوف العِبَر وشتَّى النُّذُر(١).

فلنتأمَّل قصة نوح عليه السلام على سبيل المثال؛ وقد جاءت مفصَّلة - بداية من دعوته لقومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسينَ عامًا، ومرورًا برحلة التكذيب الكبيرة التي قادها كبراء قومه، وكذلك قلَّة المؤمنين به، وصناعة السفينة، وركوب المؤمنين، وقصة الطوفان العظيم، وغرق ابنه وزوجته، واستقرار الأمر بعد ذلك لنوح عليه السلام ومن آمن معه - كيف علم رسول الله ﷺ كل هذه التفاصيل التي جاءت أطراف منها في كتب أهل الكتاب، ولم تأتِ أطراف أخرى منها، ولكن رسول الله محمدًا ﷺ أخبر بها على وجه اليقين؛ لذلك يختم ربنا قصة نوح عليه السلام بقوله: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**(٢)﴾. فهذا التاريخ المُحْكَم في قصَّة من جملة قصص القرآن الكريم؛ يُدَلِّل على أنَّ القرآن الكريم مُعْجِزٌ في توثيقه التاريخي، ويُبنى عليه فائدة تقوم على تأديب النفوس، وسياسة الجماعات.

ومن الأمثلة الواضحة على الإعجاز التاريخي في القرآن ذِكْرُ اسم هامان في القرآن الكريم متَّصلاً باسم فرعون موسى، وكشخصٍ من المقرَّبين إليه، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**(٣)﴾، وتُخالِف صورة هامان في القرآن الكريم الصورة التي ظهر بها في أحد كتب العهد القديم(٤)؛ حيث ظهر كمساعد لملك بابل (في العراق)، وأوقع الضرر الكبير بالإسرائيليين، وقد حدث هذا بعد سيدنا موسى بحوالي ألف ومائة سنة، وقد أثبتت الاكتشافات الفرعونية صحَّة ما جاء به القرآن الكريم؛ فمِن خلال الكتابات والنقوش الهيروغليفيَّة تمَّ التعرُّف على معلومة مهمَّة جدًّا، وهي أنَّ اسم هامان ورد فعلاً في الكتابات المصريَّة القديمة؛ حيث يوجد اسمه على حجر موجود حاليًا في متحف هوف بفيينا، كما ورد اسمه كذلك في (معجم أسماء الأشخاص في الإمبراطورية

---

(١) انظر: محمد الغزالي: نظرات في القرآن ص٩٥-٩٨.
(٢) (هود: ٤٩).
(٣) (القصص: ٣٨).
(٤) كتب اليهود المقدسة.

الجديدة Dictionary of Personal names of the New Empire) الذي تمت كتابته اعتمادًا على المعلومات الواردة في جميع الألواح والأحجار المصرية، وظهرت وظيفته وأنه كان مسئولاً عن عمال مقالع الأحجار(١).

ومن إعجاز القرآن التاريخي كذلك أنه أَطلق لقب (مَلِك) على حاكم مصر في عهد يوسف عليه السلام(٢)، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ...(٣)﴾. بينما أطلقت التوراة على الحاكم نفسه لقب فرعون، والسبب في عدم إطلاق القرآن لقب (فرعون) على حاكم في مصر في عهد يوسف عليه السلام أن لقب برعو - وهو أصل لقب فرعون - لم يكن يُطْلَقُ على حاكم مصر نفسه في ذلك العصر، بل كان يعني (القصر الملكي)، ولم يبدأ إطلاق هذا اللقب على حاكم مصر إلاَّ بعد عصر يوسف بما لا يقلُّ عن مائتي سنة(٤)، وهكذا ففي العصر الذي عاش فيه موسى كان لقب (فرعون) يُطْلَقُ على حاكم مصر، وبذلك يتجلَّى الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم، الذي كان دقيقًا حين لم يستخدم لقب (فرعون) إلاَّ مع حاكم مصر في عهد سيدنا موسى، في حين عمَّمت التوراة استخدام لقب فرعون على حاكم مصر في عصر كلٍّ من إبراهيم ويوسف وموسى، رغم أنَّ المصريين لم يستخدموه للدلالة على حاكم مصر في الزمن الذي عاش فيه كلٌّ من إبراهيم ويوسف(٥).

ونختم بمقولة رائعة للفخر الرازي يقول فيها: «إن هذه القصص دالَّةٌ على نُبُوَّة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه عليه السلام كان أُمِّيًّا وما طَالَعَ كتابًا ولا تَتَلْمَذَ على يد أستاذ، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ؛ دَلَّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يَدُلُّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ»(٦).

---

(١) هارون يحيى: المعجزات القرآنية ص ٧١، ٧٢.
(٢) في سورة يوسف الآيات: ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٢.
(٣) (يوسف: ٤٣).
(٤) بينما قالت الموسوعة البريطانية أن لفظ ملك كان يطلق على الهكسوس الذين احتلوا مصر ما بين(١٦٤٨ إلى ١٥٤٠ ق. م) أي في زمن قدوم يوسف عليه السلام لمصر انظر موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الرابط: www.55a.net\firas/arabic.
(٥) هارون يحيى: المعجزات القرآنية ص ٧٤، ٧٥.
(٦) الرازي: مفاتيح الغيب ١٤/ ١١٩.

المبحث الخامس:

الإعجاز الغيبي

من دلائل إعجاز القرآن الباهرة إعجازه الغيبي؛ فقد أخبر بأمور تقع في المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه بخال، وذلك في القرآن كثير، لكننا سنضرب أمثلة منه لتكون دليلاً على ما سواها.

ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله ﷻ: ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١)﴾. وأصل الحادثة أن فارس -وهم أهل أوثان- غلبت الرومَ -وهم أهل كتاب- فشَمَتَ كُفَّار مكَّة في النبي ﷺ وصحبه، فأنزل الله الآيات السابقة تحدِّيًا للعرب وبُشْرَى للمؤمنين؛ لأن طائفة الإيمان ستنتصر؛ لكن الذي يعنينا أنَّ القرآن الكريم أخبر عن حدث غيبي مهمٍّ، لم يستطع أَحَدٌ -في ذلك العصر- أن يُغَيِّر منه في شيء، أو يُكَذِّبه، وهو لون من ألوان الإعجاز الغيبي الذي جاء به القرآن الكريم متحدِّيًا به كل مُعانِدٍ له، أو جاحد لحقيقته، وقد حدث ما أخبر به الله ﷻ من انتصار الروم على الفرس، وكان ذلك وقت غزوة بدر(٢).

ومن الآيات القرآنية التي بشَّرت المسلمين المستضعفين في مكة أنهم سينتصرون على عدوِّهم، وستقوم دولتهم، قوله ﷻ: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ(٣)﴾. فقد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة قال عمر رضي الله عنه: أيُّ جمع يُهزم؟ أيُّ جمع يُغلب؟ قال عمر رضي الله عنه: فلما كان يوم بدر رأيتُ رسولَ الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: «سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». فعرفتُ تأويلها يومئذ(٤).

---

(١) (الروم: ١-٥).
(٢) الواحدي: أسباب النزول ص٢٣١، ٢٣٢.
(٣) (القمر: ٤٥).
(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٨٢.

ومن ألوان الإعجاز الغيبي ما بشَّر به الله ﷻ رسولَه والمؤمنين مِنْ دخول المسجد الحرام، والطواف بالكعبة المشرَّفة؛ فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا[1]﴾. فهذه الآية نزلت عند الانصراف من الحُديبية.

وقد قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «وكان رسول الله ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشكّ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسَّر[2] هذا العام، فلمَّا وقع ما وقع من قضية الصُّلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابلٍ؛ وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأله عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لا. قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ[3]»[4].

وقد تحقق هذا الوعد بتمامه من العام التالي؛ فقد اعتمر النبي ﷺ وأصحابه، على الهيئة التي ذكرهم القرآن الكريم بها؛ من تحليق الرءوس والأمن في المسجد الحرام، وكان هذا في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة[5].

ولا ريب أن تحقُّق ما بشَّر به القرآن الكريم دون خلل في شرح تفاصيل هيئة المسلمين، أو تغيُّر في ميعاد العمرة، لَيُدلل بوضوح تامٍّ على صدق الله ورسوله ﷺ.

كما أن القرآن الكريم قد بشَّر المسلمين بالتمكين والاستخلاف في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ

---

(١) (الفتح: ٢٧).

(٢) تتفسَّر: تحدث وتتعين.

(٣) البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١)، (٢٧٣٢).

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٥٦.

(٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٧٠.

أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[1]﴾. وقد تحقق للمسلمين ذلك في أقل من خمسة وعشرين عامًا فملئوا السمع والبصر بقيمهم وحضارتهم، فامتدَّتْ خلافتهم من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، بل ووصلت إلى أوربا شمالاً.

هذا طرف من إعجاز القرآن؛ ذلك الإعجاز الذي لا تنتهي عجائبه، ولا يَخْلَق من كثرة الردِّ؛ فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فاستحقَّ بذلك أن يكون معجزة النبي محمد ﷺ الخالدة.

المبحث السادس:
الإعجاز النفسي

إن الله ﷻ جعل هذه الشريعة في كلمات، وجعل هذه الكلمات معجزات، فحيثما نظرتَ في كتاب الله العزيز بنية خالصة، وقلب سليم، وجدتَ وراء كل آية معجزة قاهرة، وبرهانًا ساطعًا؛ يُرى ذلك في منطوقها وفي معناها الذي جاءت له، وبهذا يتلقَّى المسلم أحكام الشريعة على أضواء معجزات مشرقة تغمر بنورها الآفاق والأنفس، فتنشرح الصدور، وتتفتح القلوب للإيمان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ[2]﴾.

ولكتاب الله معرفة بأدق التفاصيل عن النفس الإنسانية، التي لا يعلمها إلا خالقها؛ لذلك كان التأثير النفسي للقرآن عميقًا، والحديث عن النفس في القرآن ذو شعب؛ أبرزها: الحديث عن النفس عامة، وتأثير القرآن في النفس الإنسانية، وتمزيق القرآن لحواجز النفس الإنسانية؛ فالإعجاز النفسي في آي القرآن هو ما تلمحه في آيات القرآن من

---

(١) (النور: ٥٥).
(٢) (النور: ٤٠).

حديث عن أصناف الناس ومواقفهم، وخفايا نفوسهم ودوافعها، وقد تكون الإشارة إلى أعداء المسلمين، وقد تُصَوِّر الآية المشهد فلا تُهمل جزئية إلا وترسم معالمها، وتخطُّ خطوطها الواضحة البينة، وتُعطي الحلول المريحة للنفس الإنسانية.

وأول من وقف عند هذا الضرب من الإعجاز هو الإمام الخطابي (ت٣٨٨هـ)، وقد أسماه بتأثير القرآن في القلوب؛ يقول: «وفي إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حَظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب[1] والقلق، وتغشاها من الخوف والفَرَق ما تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ من رجال العرب أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوَّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا»[2].

ويُؤَكِّد علماء كثيرون على تأثير القرآن في النفوس مثل الزركشي القائل: «فمنها الروعة التي في قلوب السامعين وأسماعهم؛ سواء منهم المقرُّ والجاحد، ومنها أنه لم يزل غضًّا طريًّا في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين»[3]. وقد سمي الوحي بحياة القلوب، واعتبر أن حياة القلوب أعظم من حياة الأبدان.

ويكشف القاضي عياض[4] أن هذه الروعة، وتلك الهيبة كانت سببًا في إسلام بعض

---

(١) الوجيب: الخفق والاضطراب. ابن منظور: لسان العرب، مادة وجب ١/ ٧٩٥.
(٢) الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٦٤.
(٣) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧.
(٤) هو القاضي عياض أحد مشايخ المالكية (٤٤٦هـ-٥٤٤هـ) صاحب المصنفات الكثيرة منها: الشفا، وشرح مسلم، ومشارق الأنوار، وغير ذلك. وكان إمامًا في علوم كثيرة، وكانت وفاته بمدينة سبتة. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥.

الكفار من العرب؛ فيقول: «ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته... وقد أسلم جماعة عند سماع آياته؛ منهم: جبير بن مطعمﷺ، فإنه سمع النبي ﷺ يقرأ المغرب بالطور، قال: فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ[1]﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ[2]﴾ كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي»[3].

ونجد هذا الإعجاز النفسي في القرآن من خلال معالجته للعوارض النفسية للإنسان؛ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا[4]﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[5]﴾، فإذا كانت معالجة البدن إنما تكون بالأغذية والأدوية؛ فإن معالجة النفوس إنما تكون بشيء روحاني يُجانِسها فيقمع ما يثور في النفس من عوارض؛ ففي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما في القرآن من روح وطمأنينة، وأمن وسلام، وموعظة وعبرة.

وفي القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، وفرط الحزن وشدته، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويهدأ ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن، ويرضى فيستَرْوح الرضا من الله عن الحياة، والقلق مرضٌ، والحيرة نَصَب والوسوسة داء؛ ومن ثَمَّ هو رحمةٌ للمؤمنين، وله تأثير عجيب في النفس الإنسانية؛ فالقارئ للقرآن يبكي عندما يتلو آياتٍ تبكيه، ويفرح عندما يتلو آيات فيها فرح، وذاك أعظم دليل على الإعجاز النفسي.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير؛ فهو يعصم العقل من الشطط، ويُطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويَكُفُّه عن إنفاق طاقته فيما لا يُجدي ولا ينفع، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط يجعل نشاطه منتجًا ومأمونًا، ويعصمه من الشطط

---

(١) (الطور: ٣٥).
(٢) (الطور: ٣٧).
(٣) القاضي عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٧٤.
(٤) (الإسراء: ٨٢).
(٥) (يونس: ٥٧).

والزلل، وفي القرآن شفاء من العلل والأمراض الاجتماعية التي تُقوِّض بناء المجتمعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها سُدًى، وقد كان هذا العلاج ملاحَظًا لابن القيم عندما ذكر أن جُمَّاع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين[1]؛ ففيه من البيِّنات والبراهين القطعية ما يُبيِّن الحقَّ من الباطل؛ فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصوُّر والإدراك.

ويُؤكِّد الإمام ابن تيمية رحمه الله على تشبيه القرآن بالرُّوح؛ والرُّوح إذا عُدمت فُقدت الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[2]﴾، فذكر في الآية أصلين الرُّوح والنور، وكذلك يضرب الله الأمثال للوحي الذي أنزله حياةً للقلوب ونورًا لها بالماء الذي يُنَزِّله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ[3]﴾[4].

ويُحلل القرآن في إشارات إلهية معجزة نفسيات بعض الناس؛ فهو مثلاً يُصوِّر لنا نفسية الملوك، وأنهم أفقر الناس لكثرة احتياجهم، وأكثرهم قلقًا وحبًّا لسفك الدماء؛ بسبب كثرة ما يملكونه أو يطمحون إليه، قال تعالى على لسان ملكة اليمن: ﴿إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[5]﴾، ويُصوِّر القرآن مشهدًا قويًّا؛ يُصوِّر حقيقة الملوك من خلال محاجاة موسى لفرعون وقومه، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

---

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٠.
(٢) (الشورى: ٥٢).
(٣) (الرعد: ١٧).
(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٤.
(٥) (النمل: ٣٤).

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ(١) ﴾، ويُصَوِّر نفسية الشرير وما يُعانيه من القلق والحيرة، وقِلَّة الاستقرار وخوفه من نفسه بحيث يهرع إلى أمثاله، قال تعالى: ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٣) ﴾. ويُصَوِّر -أيضًا- نفسية الإنسان الخيِّر في سعادته بذاته وبما يفعل، وفي إيمانه بقيمة الخير، وانسجامه مع نفسه ومع غيره؛ قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ(٤) ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥) ﴾(٦).

وإن روعة القرآن الكريم وعظمته تتجلَّى من خلال تبديله لسلوكيات البشر من النقيض إلى النقيض؛ فالقرآن قادر على تحويل غِلاظ القلوب إلى رحماء؛ تنهمر أعينهم من آياته البينات، ولنا في عمر بن الخطاب ﷺ القدوة والمثل في ذلك، كما أنه قادر على تبديل الأثرة إلى إيثار؛ وهذا ما يَتَّضح من خلال وصفه للأنصار -الذين كانوا يتحاربون من أجل الغنائم وحظوظ النفس في الجاهلية- حيث قال فيهم رب العزة ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٧) ﴾، فالقرآن الكريم قادر على تبديل سلوكياتنا وأخلاقنا المرذولة إلى النقيض والحسن، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٨) ﴾

---

(١) (الشعراء: ٢٣-٢٩).
(٢) (الأنعام: ٧١).
(٣) (آل عمران: ١٧٥).
(٤) (يونس: ٦٣، ٦٤).
(٥) (الحجرات: ١٠).
(٦) بلقاسم محمد الغالي: ملامح الإعجاز النفسي في القرآن الكريم، ص١٧.
(٧) (الحشر: ٩).
(٨) (الإسراء: ٩).

لقد ثبت تأثير القرآن في علاج النفوس؛ وذلك أعظم مظهر يَدُلُّ على إعجازه، وذروة العلاج النفسي في الإسلام هي «الذِّكْرُ»؛ وذِكْرُ الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل، واستشعار رب العالمين على الدوام في كل قول وفعل؛ ففي الذِّكْر شفاء وأمن وطمأنينة؛ لأن الذِّكْر يُعيد الصلة المقطوعة بين العبد وربه، ويربط النفس بمنبعها، ويردُّ الصنعة إلى صانعها؛ فهو ﷻ الأعلم بحقيقتها، والأقدر على علاجها؛ ومن ثَمَّ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[1]﴾، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ[2]﴾، فيعود النور ليغمر النفس، ويحلُّ العمار مكان الخراب، وتتجلَّى كلمات الله على قلب العبد الخاشع.

ومن العوارض النفسية التي يُداويها القرآن وساوس الصدور، وأحاديث النفوس، وهي من أقوى أمراض النفس وأشدها تأثيرًا في الإنسان وإيذاءً له؛ وهذا العلاج النفسي ذو التأثير العجيب يتمُّ العلاج به بشرط الاستجابة؛ بل إن صلاح القلب في مثل هذه الحالات النفسية وسعادته موقوف على الذِّكْرِ وتلاوة القرآن، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۝ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا[3]﴾، فأخبر ﷻ أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[4]﴾، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ[5]﴾، فأخبر ﷻ أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا القرآن إليه من الإيمان والعلم؛ وذلك لأن مِنْ أحدث طرق العلاج النفسي لدى الأطباء السلوكيين هو تدريب المريض النفسي على الاسترخاء في أي موقف يكون فيه، وذلك في جلسات متكرِّرة؛ فإذا غضب -مثلاً- وهو واقف طُلِبَ منه أن يجلس ويسترخي؛ حتى يذهب عنه الغضب، وهذا ما يُسمى بتشكيل السلوك، وهو ما علَّمَنا إيَّاه النبي ﷺ إذ قال: «إِذَا

---

(١) (غافر: ٦٠).
(٢) (البقرة: ١٥٢).
(٣) (يس: ٦٩، ٧٠).
(٤) (ق: ٣٧).
(٥) (الأنفال: ٢٤).

غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ»(١).

إن الأعراض النفسية مثل الغضب والغم والخوف والجزع كثيرًا ما يتعرَّض الإنسان لها، ويُبيِّن القرآن في سياق الآيات الكثيرة مبلغ حاجة الإنسان إلى علاجها؛ وقد يسلم الإنسان من الأعراض المرضية للبدن، أما الأعراض النفسية فإن الإنسان مدفوع في أكثر أوقاته إلى الوقوع فيها؛ إذ ليس يخلو في أكثر أحواله من استشعار غمٍّ أو غضب أو حزن، قلَّ ذلك أو كثر كلٌّ بحسب ظروفه ومزاجه وحساسيته؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ(٢)﴾.

وهكذا ترى القرآن قد اشتمل على الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ للتأثير على النفس الإنسانية، وتربيتها بالأحداث وَعَرْضِ الحلول الإنسانية من خلال الوقائع الماضية والحاضرة وفي المستقبل، والمفاهيم الإسلامية؛ مثل مفهوم القضاء والقدر الذي يمتاز بأثر نفسي عظيم، ومعنى قضاء الله وقدره ﷻ ليس استسلامًا للعجز والانهزامية؛ بل يدعوك للأخذ بالأسباب فتنشَط النفس لتُعِيد الكرَّة مرَّة أخرى.

ولننظر إلى قصَّة يوسف عليه السلام؛ لنُدرك عظمة تصوير الخالق ﷻ للنفس الإنسانية، وعندها سَنُدْرِك الإعجاز النفسي في القرآن؛ حيث بدأت السورة باستعراض الخواطر التي تبعث على ارتكاب الجريمة، والتي تبدأ عادة بتسويلٍ من النفس لتطويع المجرم؛ قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(٣)﴾، والمتأمِّل في قصة يوسف عليه السلام يجد تحليلاً دقيقًا لكوامن الغَيْرَة والحسد في نفوس إخوة يوسف، ويجد عواطف الأُبُوَّة والرحمة والحبِّ والأمل، وعدم اليأس من رَوْحِه في نفس يعقوب، ويجد تحليلاً لشخصيَّة بعض النساء ممن ينتمين لطبقة الحكَّام في مصر في ذلك الوقت، ويُعَدِّد القرآن الكريم مجموعة من القصص الكثيرة التي تكشف عن دوافع النفس الأمَّارة، ولعلَّ أوَّل قصَّة في التاريخ الإنساني تَبْرُز فيها النفس الأمَّارة

(١) سنن أبي داود (٤٧٨٢) عن أبي ذرٍّ، ومسند أحمد (٢١٣٨٦)، وصحيح ابن حبان (٥٦٨٨). قال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح.
(٢) (ق: ١٦).
(٣) (يوسف: ١٨).

قصةُ ابني آدم، فقال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[١]﴾

ومن اللافت أن هناك وقائع أخرى كثيرة تثبت الإعجاز النفسي واضحًا جليًّا؛ منها: تأثُّر النجاشي وقساوسته لَمَّا قرأ عليه جعفر بن أبي طالب ﷺ في الهجرة الأولى إلى الحبشة صدرًا من (كهيعص)، فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكى أساقفته حتى اخضلَّت مصاحفهم حين سمعوا ما تُلِيَ عليهم، ثم أرسل النجاشي إلى رسول الله ﷺ سبعين عالمًا من علماء النصارى، فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا وآمنوا، وإلى هذا يُشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ[٢]﴾.

ويتجلَّى هذا الإعجاز فيما كتبته البريطانية ماري ويلدز في كتاب بعنوان: (رحلتي من الكنيسة إلى المسجد، لماذا؟) سجلت هذه المرأة ما فعلته بها (رسائل النور) لبديع الزمان سعيد النورسي، وهي رسائل ضَمَّنها المؤلف معانيَ من القرآن والسُّنَّة حول أسئلة تحَيَّر الإنسانُ في الإجابة عنها، تقول الكاتبة: «لقد نجوت من تلك الحفرة المظلمة التي كنت أشعر بها، وانزاحت عني غشاوتها واحدة بعد الأخرى، بمعاونة أصدقاء مسلمين في الجامعة وصبرهم عليَّ ومؤازرتهم إيَّايَ.. لقد تعلمنا لغة جديدة للتفاهم مع الدنيا والكون هي لغة القرآن»[٣].

ومن صنيع القرآن في نفوس غير العرب: حادثة المرأة اليوغسلافية النصرانية التي أورد سيد قطب قصة تأثُّرها بآيات القرآن؛ ذلك لأن «الأداء القرآني يمتاز ويتميز عن الأداء البشري بأن له سلطانًا عجيبًا على القلوب، حتى ليبلغ أحيانًا أن يُؤَثِّر بتلاوته المجرَّدة على الذين لا يعرفون من العربية حرفًا»، ولقد استمعت هذه المرأة إلى خطبة فيها نصوص قرآنية، وقد تبينت من خلال إحساسها النفسي بروعة معاني بعض الآيات القرآنية، واختلافها في السياق عن غيرها من الكلام، وهذه الفقرات كانت تُحْدِثُ رعشة

(١) (المائدة: ٣٠).
(٢) (المائدة: ٨٣).
(٣) ماري ويلدز: رحلتي من الكنيسة إلى المسجد لماذا؟، تقديم: المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص١٥.

وقشعريرة في نفسها عندما تسمعها، أليس هذا إعجازًا نفسيًّا لهذه المرأة التي لا تعرف العربية؟! والقصص في هذا المجال كثيرة[١].

ومن ثَمَّ فالقرآن في تعريف الإنسان بذاته يرتكز على الصراحة والحقِّ، فيكشف عن جوانب سلبيَّة، كما يكشف عن جوانب إيجابيَّة، ويُوَضِّح أنَّ جوانب السلب والإيجاب تتعايش داخل النفس، وقد يغلب جانبٌ على آخر ويطغى بقوَّته عليه، ويبقى الجانب الآخر في أغوار الإنسان؛ فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[٢]﴾، وأوضح أنَّ الطغيان يجرُّ الإنسان إلى الكفر والرغبة في الاستغناء عن الله، قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى[٣]﴾[٤].

ولا ريب أن القرآن الكريم يرتفع عن الفلسفات الأخلاقيَّة النابعة من بعض أولئك الذين يَرَوْنَ الأخلاق من منظور ضيِّق، أو نفعي أو فِطري؛ إنه يُرَبِّي النفس البشرية بكافَّة توجُّهاتها وتطلُّعاتها وانتماءاتها، فلا يتوقَّف عند منظور قوم بعينهم؛ فمعيار مهمٌّ من معاييره أن يرتقي بالنفس البشريَّة ارتقاءً أخلاقيًّا، يتوافق مع ما أُعِدَّت له من إعمار الأرض، فلن يُكَوِّن الإنسانُ حضارة قويَّة مستمرَّة إلاَّ إذا كانت قاعدتها نفسًا إنسانيَّة قويمة.

على أنَّ ثمة إعجاز آخر للقرآن في النفس البشريَّة السويَّة، يكمن في هِدايتها إلى الحقِّ وطريق الخير، دون كثرة توضيح أو تعليل، وإنْ كان صاحبها من أشدِّ الناس عداوةً للإسلام، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما تجسَّد في قصَّة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، وجبير بن مُطْعِمٍ ﷺ[٥].

فهل فَرَضَ القرآنُ إعجازه على نفوس هؤلاء فقط لتَتَغَيَّر من النقيض إلى النقيض؛ فتستنير بصائرهم، فيؤمنوا بمعجزة المصطفى ﷺ بمجرَّد سماعهم آيات منها، دون غيرهم

---

(١) مجلة الفرقان، العدد السادس، يوليو ٢٠٠٠م ص٥٩، ٦٠.
(٢) (الشمس: ٧، ٨).
(٣) (العلق: ٦، ٧).
(٤) أكرم العمري: الرسالة والرسول ص٥١-٥٤.
(٥) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٩/ ٤٢٢.

ممن لَجوا في العناد والتكذيب؟!

والحقيقة أن القرآن لم يفرض إعجازه في النفس على هؤلاء الذين سبقوا إلى الإيمان به فحسب، بل فرضه كذلك على مَنْ ظلُّوا على سفههم وشركهم عنادًا وتمسُّكًا بدين الآباء؛ فقد كان طواغيت قريش وصناديد الوثنيَّة العتاة يتسلَّلون في أوائل عصر النبوة خفية عن قومهم؛ ليسمعوا آيات هذا القرآن دون أن يملكوا إرادتهم[١]!

* * *

(١) انظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ص ١٧-٢٤.

كلماته ﷺ دليل نبوته

قال أحمد فارس الشدياق (شاعر لبناني):

ذِي مُعْجِزَاتٍ لَمْ تزَلْ ... بِفِخَارِ أَحْمَـــدَ تَشْهَدُ

الفصل الثاني:

كلماته ﷺ دليل نبوته

اهتمَّت الأمة الإسلامية منذ نشأتها بالسنة النبوية اهتمامًا بالغًا؛ لأنها الترجمان العملي لتعاليم الله ﷻ، فتوصَّلوا إلى علم فريد، ألا هو علم الجَرْحِ والتعديل الذي لم تسبقهم إليه أُمَّةٌ من الأمم، والغرض منه الكشف عن أحوال رواة السنة، وتمييز الصادق من الكاذب، فأضحت نصوص السنة الصحيحة من أوثق النصوص التي شهدتها البشرية بعد القرآن الكريم.

كما كان منطلقهم من وراء ذلك الاهتمام -أيضًا- إيمانهم بأن محمدًا ﷺ قد ضرب المثل والقدوة في كل شأن من شئون الحياة؛ ليكون منارًا يستضيء به العالم من بعده، وقد حوت سنته ﷺ صورًا مختلفة من الإعجاز، سواء كان إعجازًا غيبيًّا، أو علميًّا، أو بيانيًّا، والتي تدلُّ دلالة واضحة على صدق نبوته ﷺ.

وسنتناول في هذا الفصل مجموعة من المباحث المتعلقة بصور الإعجاز المختلفة، وهي كالتالي:

المبحث الأول: الإعجاز الغيبي

المبحث الثاني: الإعجاز العلمي

المبحث الثالث: الإعجاز البياني



المبحث الأول:
الإعجاز الغيبي

يُعَدُّ الإعجاز الغيبي للنبي ﷺ من أكثر الأدلة على صدقه ﷺ؛ لأن إخباره بالأحداث التي ستقع أو وقعت بالفعل ولم يشاهدها ﷺ فيها دلالة على أن الله ﷻ هو الذي أوحي بها إليه مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ[1]﴾.

وسنكتفي هنا بذكر بعض الأحاديث للدلالة على الإعجاز الغيبي في سنته ﷺ؛ لأن المقام لا يتَّسع لأَنْ نستقصي جميع الأحاديث الواردة في هذا الشأن؛ لأنها كثيرة غاية الكثرة.

فمما أخبر به محمد ﷺ وقد وقع بالفعل في حياته موت النجاشي؛ فعن أبى هريرة ﷺ «أنَّ رسول الله ﷺ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا»[2]. وهذا الحديث دليل من دلائل نبوته ﷺ؛ لأن نعي النجاشي في اليوم الذي مات فيه على الرغم أن المسافة بين الحبشة والمدينة مسيرة أيام وليال تؤكِّد بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن الله ﷻ هو الذي أخبره بوفاة النجاشي[3].

ومن معجزاته الغيبية -أيضًا- تنبُّؤه ﷺ بفتح بلاد فارس، وانتشار الأمن والأمان في ربوع الجزيرة العربية، فعن عدي بن حاتم قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ، فشكا إليه الفاقة، ثمَّ أتاه آخر، فشكا قطع السَّبيل، فقال: «**يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ**». قلتُ: لم أرها، وقد أُنبئت عنها. قال: «**فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ[4] تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى**

---

(١) (آل عمران: ٤٤).

(٢) البخاري: كتاب الجنائز، باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه (١١٨٨)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في التكبير على الجنازة (٩٥١).

(٣) فاضل صالح السامرائي: نبوة محمد من الشك إلى اليقين، ص١٦٢.

(٤) الظعينة: المرأة في الهودج، وهو في الأصل اسم للهودج. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/٦١٣.

تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ». قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيِّئ[1] الَّذين قد سعَّروا البلاد[2]. «وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى». قلتُ: كسرى بن هرمز. قال: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً، وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ». قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتَّى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلاَّ الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ لترونَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»[3]. وحدث هذا في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ فقد كان عماله يطوفون على مَنْ يَقْبَل الصدقة فلا يقبلها أحد؛ فقد أغنى عمر بن عبد العزيز ﷺ الناس، وعن ذلك يقول مهاجر بن يزيد: بعثنا عمر بن عبد العزيز ﷺ فقسمنا الصدقة، فلقد رأيتنا وإنا لنأخذ الزكاة في العام القابل ممن يُتَصدَّق عليه في العام الماضي[4].

ومن دلائل إعجازه ﷺ الغيبي، والذي يشهد بصدق نبوته ﷺ، ما بَشَّر به من فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية[5]، فعن عبد الله بن بشر الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ

---

(١) دُعَّار: جمع داعر وهو الشرير، ويطلق على المفسد والسارق، والمراد قطاع الطريق. وطيئ قبيلة مشهورة، منها عدي بن حاتم المذكور، وبلادهم ما بين العراق والحجاز، وكانوا يقطعون الطريق على من مر عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة. انظر: المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) سعروا البلاد: أي أوقدوا نار الفتنة، أي ملئوا الأرض شرًّا وفسادًا. انظر: المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥).

(٤) محيي الدين النووي: تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢١.

(٥) وكذلك بشر النبي ﷺ بفتح اليمن، والعراق، والشام، وبيت المقدس، ومصر، والروم، وفارس، انظر الحديث في البخاري: أبواب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة (١٧٧٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار (١٣٨٨).

الجَيْشُ»[١]. وهذا الحديث الشريف إعجاز غيبي قلَّما يتوقَّعه أي متأمِّل لواقع المسلمين؛ سواء وهم في مكة في حالة الاستضعاف، أم في المدينة في حالة الاستقرار المشوب بالحذر، فكيف سيفتح المسلمون القسطنطينية الحصينة؟! (صورة رقم ٥) وهي عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، التي ما انفكَّت تصارع أُمَّة الفرس، فكانت الحرب سِجالاً بين الإمبراطوريتين العُظميين، وكانت معظم الأرض مقسَّمة بينهما، فكيف سينتصر المسلمون على هذه الإمبراطورية التليدة؟!

لكن إيمان المسلمين بصدق رسول الله ﷺ دفعهم إلى محاولات عديدة لنيل هذا الشرف؛ بداية من عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ الذي أرسل ابنه يزيد على رأس جيش مكوَّن من كثير من الصحابة وأبناء الصحابة، الذين أرادوا نيل شرف مدح رسول الله للجيش الفاتح للقسطنطينية، ثم تعدَّدت المحاولات في القرون اللاحقة حتى فتحها محمد الفاتح الخليفة العثماني العظيم في عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، فكانت فتحًا عظيمًا، ونبلاً كبيرًا مُنح لمحمد الفاتح من قِبَلِ رسول الله ﷺ، وترتَّب على هذا الفتح المجيد سقوط الإمبراطورية البيزنطية، ولم تقم لها من يومها قائمة.

ونختم مبحثنا هذا بحديثه ﷺ الذي يدل دلالة واضحة على صدق نبوته، ألا وهو ظهور النار في أرض الحجاز كما تنبأ بذلك الرسول ﷺ فقال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى»[٢]. وقد ظهرت هذه النار في أرض الحجاز سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) بالحرة قرب المدينة المنورة، وذكرها المؤرخون المعاصرون لها في كتبهم؛ كالقرطبي في كتابه (التذكرة)[٣]، وابن تيمية، وابن كثير، وغيرهم[٤].

---

(١) أحمد (١٨٩٧٧)، والحاكم (٨٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ٢٢٩. وقد ذكر راوي الحديث عبد الله بن بشر الخثعمي، أن مسلمة بن عبد الملك القائد العام للجيوش الإسلامية في عهد الخلافة الأموية قد تأكد من صحة هذا الحديث، فأمر بالتحرك فورًا تجاه القسطنطينية لفتحها.

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الفتن، باب خروج النار (٧١١٨)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (٢٩٠٢).

(٣) القرطبي: التذكرة ص٢٢٥.

(٤) انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح ٣/ ١٦٢، ١٦٣، ٥/ ٤٢٠، ٦/ ٨٩، وابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٣٩٥.







صورة رقم (٥)

المبحث الثاني:
الإعجاز العلمي

تُعَدُّ الإشارات العلمية الواردة في السنة النبوية من أبرز الدلائل على أن محمدًا هو خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لأن سبقه العلمي من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدائية لا تملك مفاتيح العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أميته يقطع الطريق أمام القائلين بأن محمدًا ﷺ قد تلقَّى هذا العلم من بَحيرا، أو ورقة بن نوفل، أو من غيرهم، كما أنه يُثبت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن المصدر الوحيد الذي اصطفى منه محمد ﷺ تعاليمه هو الله جلَّ في علاه.

وللتعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السُّنة النبوية ضوابط يجب أن تراعى؛ منها: اختيار الأحاديث المحتوية على إشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، والتثبُّت من معرفة درجة الحديث، واستبعاد كل الأحاديث الموضوعة، وكذلك جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد؛ لأن بعضها يفسر بعض، وفهم النص أو النصوص النبوية وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعدها، وفهم النص النبوي في ضوء سياقه وملابساته، وفهمه في نور القرآن الكريم؛ لأن أحاديث رسول الله ﷺ شارحة لكتاب الله، ومبيِّنة لدلالات آياته..[1]. كما أنه ينبغي ألاَّ يُؤَوَّل حديث لرسول الله ﷺ لإثبات نظرية علمية تحتمل الشكَّ والصواب، ولكن يجب التعامل فقط مع الحقائق العلمية الثابتة.

لقد جاءت السنة النبوية بمجموعة من الأحاديث الشريفة التي تحتوي على كمٍّ من الحقائق العلمية التي أثبتها العلم التجريبي الحديث؛ منها على سبيل المثال ما رواه أبو بردة عن أبيه، قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء. قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: «مَا زِلْتُمْ هَهُنَا؟» قلنا: يا رسول الله، صلينا

---

(١) للتعرف على الضوابط التي حددها العلماء لكون الحديث النبوي معتبرًا في أحاديث الإعجاز العلمي انظر: زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السُّنة النبوية ص٢٦-٣٢.

معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء. قال: «أَحْسَنْتُمْ» أو «أَصَبْتُمْ». قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»(١).

في هذا الحديث الشريف حقيقة علمية أثبتها العلم الحديث، ألا وهي ذهاب النجوم وانكدارها وطمسها، ثم انفجارها وزوالها بتحوُّلها إلى دُخان السماء.

ونظرًا لضخامة كتل النجوم فإنها تُهيمن بقوى جذبها على كل ما يدور في فلكها من كواكب، وكويكبات، وأقمار، ومذنبات، وغير ذلك من صور المادَّة، والنجوم ترتبط فيما بينها بالجاذبية، وتتجمَّع في وحدات كونية أكبر فأكبر، مرتبطة فيما بينها بالجاذبية أيضًا، فإذا انفرط عقد هذه القوى انهارت النجوم، وانهارت السماء الدُّنيا بانهيارها، وانهار الكون كله بانهيار السماء الدنيا، وهنا تتضح روعة التعبير النبوي الشريف: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ...»(٢).

وهذا الحديث الشريف إعجاز علمي واضح، فمَنْ أخبر رسولَ الله ﷺ بسرٍّ غريب كهذا من أسرار نشأة الكون وتوازنه؟ وكيف عرف محمد ﷺ الأميُّ، الذي يعيش في أُمَّة جاهلة لم يقم للعلم فيها راية هذه الحقيقة العلمية الخالدة؟! إنه الله الذي أوحى لنبيه هذا الأمر، فصدق رسوله ﷺ.

ومن الأحاديث النبوية التي بهرت العلماء غير المسلمين في العصر الحديث، وكانت سببًا في إسلام عدد لا بأس به منهم، قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ...»(٣).

---

(١) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة (٢٥٣١).

(٢) زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية ص١٣٤-١٣٥.

(٣) البخاري عن عبد الله بن مسعود: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] (٣٢٠٨)، (٣٣٣٢)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... (٢٦٤٣).

يوضح حديث رسول الله ﷺ السابق أن خلق الإنسان يمرُّ بثلاث مراحل، وهي: النطفة، والعلقة، والمضغة، تكتمل خلال الأربعين يومًا الأولى من بدء عملية الإخصاب، والملاحظات العلمية الدقيقة التي تجمّعت لدى العاملين في حقل علم الأجنة البشرية تؤكد ذلك.

وكان بعض علماء الحديث قد فهموا تلك المدة على أنها ثلاث أضعاف ذلك- أي مائة وعشرين يومًا- لأنهم فهموا التعبير بـ «مِثْلَ ذَلِكَ» في نصِّ الحديث على أنها تُشير إلى الفترة الزمنية المحدَّدة بأربعين يومًا لكل مرحلة من المراحل الثلاث: النطفة، والعلقة، والمضغة، وينفي ذلك الفهم حديثٌ آخر لرسول الله ﷺ قال فيه: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا...»[1].

وشكل المضغة لا صلة له بشكل الإنسان من قريب أو بعيد، ولكن تبدأ المضغة في اكتساب الشكل الإنساني بالتدريج في الأيام الخمسة التالية لتخلّق المضغة؛ أي في الفترة من اليوم الأربعين إلى الخامس والأربعين من بعد عملية الإخصاب، وفي اليوم الخامس والأربعين يتم تكوُّن الأعضاء، والهيكل العظمي بصورة ظاهرة، وتستمرُّ عملية الانقسام الخلوي والتمايز الدقيق في الخلق بعد ذلك.

وقد ثبت بالدراسات المستفيضة في مجال علم الأجنة البشرية أن هذه المراحل لا تبدأ إلاَّ مع نهاية مرحلة المضغة، أي مع نهاية الأسبوع السادس من بدء الحمل (بعد ثنتين وأربعين ليلة) وبذلك يثبت صدق رسول الله ﷺ في الحديثين المذكورين، وفي كل حديث قاله.

كيف عرف محمد ﷺ هذه الدقائق العلمية المعقدة، والمتناهية الدقَّة في خلق الجنين، والتي تتراوح أبعادها بين الجزء من عشرة آلاف جزء من المليمتر حتى تصل إلى حوالي

---

(١) مسلم عن عبد الله بن مسعود: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٥). وقد علق الدكتور محمد فياض على فهم بعض علماء المسلمين الخاطئ للحديث في كتابه إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان ص١٣٤.

عشرة ملليمترات فقط؟![1].

وهذه المراحل الجنينية حتى لو نزلت مع السّقط وهي غارقة في الدماء ما كان ممكنًا للإنسان أن يُدركها فضلاً عن رؤيتها، ووصفها، وتسميتها بأسمائها الصحيحة، ومن هنا كانت تعبيرات وصف مراحل الجنين كما جاء في الحديث السابق من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في سُنَّة رسول الله ﷺ، ودليلاً ناصعًا على صدق نبوته ﷺ.

هذه بعض الإشارات العلمية في سُنَّتِه ﷺ، والمجال لا يتَّسع لعرض المزيد منها، ولكنها تؤكِّد بما لا يدع مجالاً للشكِّ صدق النبي محمد ﷺ فيما بَلَّغ عن ربِّ العزَّة.

المبحث الثالث:

الإعجاز البياني

من أبرز دلائل نبوَّته ﷺ أنه أوتي جوامع الكلم، وهذه خاصية لم يعطها أحدٌ قبله ولا بعده؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَارًا**»[2]. وقال ﷺ في حديث آخر: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ...**»[3].

وجوامع الكلم تعني أن الله ﷻ جمع له المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلة؛ فتجد أن الجملة النبوية تتكون من عدد محدود جدًّا من الكلمات، ومع ذلك فهي تحتوي على كمٍّ هائل من الأحكام والمواعظ والعِبَر والتوجيهات، وهذا لا يكون لغيره ﷺ، ولم ينافسه فيه أحد، وهذا ليس في جانب معيَّن من كلامه أو في بعض أحاديثه، إنما هو يشمل كل كلامه وجميع أحاديثه، مما يدخل في باب الإعجاز والتحدي.

وأيضًا فإن اختصار الكلام يؤدي إلى سهولة حفظ الأحاديث النبوية، إضافة إلى تجدُّد استخراج الأحكام منها مع مرور الزمن بما يناسب تغير المكان والزمان، فتصبح الشريعة

---

(١) زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية ص٢١٦-٢٢٢.

(٢) رواه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٦٣، وذكر أنه حديث مرسل وله شواهد في الصحيح.

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». (٢٩٧٧).

الإسلامية صالحة في كل الظروف والأحايين.

وهذه الخاصية العجيبة جعلت الكثير من فقهاء الإسلام يختارون من أحاديث رسول الله ﷺ بعض الأحاديث القليلة التي لو أضيفت بعضها إلى بعض، فإنها تعبر عن الإسلام بكامله! وتلخِّص الشريعة الإسلامية الجامعة تلخيصًا نادرًا.. ومن أمثلة ذلك ما فعله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حين قال: «أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر رضي الله عنه: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[١]. وحديث عائشة رضي الله عنها: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»[٢]. وحديث النعمان بن بشير: «الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ[٣]»[٤]. فكل حديث مما سبق يلخص جانبًا كاملاً من الإسلام بشكل عجيب، حتى وكأنك قرأت عن الإسلام كله إذا قرأتهم.

وذِكْر أمثلة من جوامع كلِمه ﷺ يصعب جدًّا؛ لأن هذا يعني مراجعة كل كلماته وأقواله فكلها من جوامع الكلم، كما أن كلها يحتاج إلى شروح كبيرة جدًّا لاسيما جزءٍ من المعاني الهائلة فيها، ومع ذلك فإننا يمكن أن نمرَّ على بعض لأقواله لنفهم المقصود من هذا الوجه العجيب من وجوه الإعجاز..

يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا...»[٥]. ففي هذه الكلمات الموجزة جدًّا شرح لنا رسول الله ﷺ ما يقبله الله عز وجل، وما لا يقبله من أعمال أخرى؛ فهو يقبل الأعمال الطيبة وهذه لا حصر لها، فهو يقبل الصدقات والإصلاح والمعروف والصدق والأمانة والنصرة والهداية والمروءة وآلاف وملايين الأعمال الطيبة. كما أنه

---

(١) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، و مسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية». وأنه يدخل فيه، (١٩٠٧)؛ وأبو داود (٢٢٠١)، وابن ماجه (٤٢٢٧).

(٢) البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

(٣) البخاري: كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبَّهات (٢٠٥١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٤) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ٩.

(٥) مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥)، والترمذي (٢٧٩٩)، وابن ماجه (٢٦١٣)، وأحمد (٨٣٣٠).

بالتبعية لا يقبل أي عمل خبيث؛ فلا يقبل السرقة ولا الخيانة ولا الجبن ولا الخداع ولا الغش ولا الفاحشة، ولا غير ذلك من آلاف وملايين الأعمال الخبيثة؛ فصارت الكلمات القليلة التي قالها رسول الله ﷺ ركنًا عظيمًا من أركان الإسلام.

وعلى نسق هذا المثال تدبر في أقواله ﷺ، والتي منها ما يلي:

- «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١).
- «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»(٢).
- «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(٣).
- «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(٤). - «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»(٥).
- «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»(٦).
- «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(٧).
- «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ»(٨). - «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ»(٩).

هذه هي بعض الأمثلة، وهو باب لا نهاية له، وبحر لا ساحل له، وهي إحدى معجزاته الباهرة ﷺ، ومن أعظم دلائل نبوَّته.

---

(١) الترمذي (٢٣١٨)، وأحمد (١٧٣٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (٥٩١١) في صحيح الجامع.

(٢) ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم في مستدركه (٧٨٧٣)، والطبراني في الكبير (٥٩٨٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (٩٢٢) في صحيح الجامع.

(٣) أحمد (٢٨٠٤)، والحاكم (٦٣٠٣)، والطبراني في الكبير (١١٥٨٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (٢٩٦١) في صحيح الجامع.

(٤) البخاري: كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة (١٤١٣)، (٦٠٢٣)، (٦٥٣٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٦).

(٥) البخاري: كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة (٦٠٢١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٥).

(٦) النسائي (٢٢٢٤)، وقال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (٣٨٦٥) في صحيح الجامع.

(٧) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وابن ماجه (٥٩)، وأحمد (٣٩٤٧).

(٨) مسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٢٠٠٣)، وابن ماجه (٣٣٩٠)، وأحمد (٤٨٣٠).

(٩) الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، والدارمي (٢٢٦٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (٣٣١٤) في صحيح الجامع.



النبي ﷺ ومنهجه في حل المشكلات

المبحث الأول: علاجه ﷺ لمشكلة العنف والإرهاب
المبحث الثاني: علاجه ﷺ لمشكلة الفقر والبطالة
المبحث الثالث: علاجه ﷺ لمشكلة المسكرات والمخدرات

قال إبراهيم الأكرمي (شاعر سوري):

فلأنت فينا نِعمةٌ بل رَحمةٌ يا أحمدُ المحمودُ باستحقاقِ

الفصل الثالث:

النبي ﷺ ومنهجه في حل المشكلات

أرسل الله نبيَّه ﷺ إلى البشر هاديًا ومرشدًا، ومُخْرِجًا لهم من ظلمات الجهل إلى نور الإسلام، فكان ﷺ نِعْمَ القائد والداعية والمربِّي؛ الذي يتعامل مع مشكلات المجتمع من حوله بمنطق واقعيٍّ متدرِّج؛ بداية من غرس المراقبة في النفس الإنسانيَّة، ثم سدِّ كلِّ المنافذ التي تؤدِّي إلى حدوث المشكلة، وانتهاءً بالجانب العلاجي المتدرِّج عَبْر القوانين والتشريعات الحازمة؛ التي تُوقف كلَّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه النَّيْل من المجتمع؛ فعاش لذلك المجتمع في أمن وسلام، ومن خلال المباحث التالية نسوق بعض الأمثلة على منهجه ﷺ في حلِّ المشكلات التي عاصرته، والتي تدلُّ دلالةً واضحةً على نبوَّتِه؛ لأن منهجه ﷺ في الحلِّ كان مَبْنِيًّا على منهج الله وشرعه:

المبحث الأول: علاجه ﷺ لمشكلة العنف والإرهاب

المبحث الثاني: علاجه ﷺ لمشكلة الفقر والبطالة

المبحث الثالث: علاجه ﷺ لمشكلة المسكرات والمخدرات

المبحث الأول:
علاجه ﷺ لمشكلة العنف والإرهاب

اعتنى الإسلام عناية كبيرة بنشر الأمن والأمان في المجتمع الإنساني كلِّه، واعتنى كذلك بمحاربة كلِّ أشكال العنف والإرهاب؛ لأنها تتنافى مع المعاني السامية والأخلاقيَّات الرفيعة التي حثَّ عليها الإسلام في التعامل بين البشر جميعًا - مسلمين وغير مسلمين - فربُّنا تبارك وتعالى هو القائل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[1]﴾، وكانت سيرتُهُ ﷺ خيرَ تطبيق لهذه المعاني والقيم.

ولم يكن المجتمع الذي عاش فيه النبي ﷺ بأحسن حالاً من المجتمعات العالميَّة الآن (صورة رقم ٦)؛ فمشكلة العنف والإرهاب كانت متجذِّرة فيه بشكل رهيب، وتُمارَسُ كأنها حقٌّ من الحقوق، فها هو ذا جعفر بن أبي طالب ﷺ يصف للنجاشي حال المجتمع غير المسلم في قريش قائلاً: «أيها الملك، كُنَّا قومًا على الشرك؛ نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونُسِيءُ الجوار، يستحلُّ المحارم بعضُنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نُحِلُّ شيئًا ولا نُحَرِّمه...»[2]. وإذا نظرنا إلى ظاهرة وَأْدِ البنات في هذا المجتمع نجدها من الظواهر الدالَّة على عمق مشكلة العنف والقسوة والإرهاب؛ لذلك قال عنها رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ ثَلاَثًا وَنَهَى عَنْ ثَلاَثٍ؛ حَرَّمَ عُقُوقَ الْوَالِدِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ...»[3].

ووسط ما يعانيه العالم - قديمًا وحديثًا من مشكلة العنف والإرهاب - يأتي الحلُّ النبويُّ، الذي تمثَّل في تطبيقه للمنهج الإسلامي تطبيقًا يتَّسم بالحكمة والحزم والرحمة، فبدأ ﷺ حلَّه لهذه المشكلة بغرس خُلُق المراقبة في نفوس أصحابه؛ فبهذا الخُلُق يحرص الإنسان على أداء حقوق الله وحقوق العباد، فلا يمارِسُ عنفًا أو إرهابًا؛ لأن الله مطَّلع

---

(١) (فصلت: ٣٤).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٣٥، والسهيلي: الروض الأنف ٢/ ١١١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٢٠.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (٨٤٤)، (٦٤٧٣)، ومسلم عن المغيرة بن شعبة: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة... (٥٩٣) واللفظ له.

صورة من الواقع

العنف و الإرهاب



العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب .. العنف والإرهاب

صورة رقم (٦)

عليه، ورقيب على سرائره، فعن معاذ ﷺ أنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أوصني. قال: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ...»(١).

ثم ينتقل الحلُّ النبويُّ للمشكلة نقلة أخرى، وذلك بنظرته ﷺ للمجتمع الذي يجب أن يعيش فيه الإنسان، فهناك مجموعة من القيم يجب أن يتحلَّى بها المجتمع؛ أوَّلها: إشاعة رُوح الرفق والعدل بين أبنائه، دون تفرقة بينهم بسبب الجنس أو الدين أو العِرْق؛ فيقول ﷺ: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»(٢). وكانت سيرته ﷺ القدوة والمَثَل في ذلك؛ حتى ولو كان الأمر متعلِّقًا به هو شخصيًّا، وأمثلة ذلك في السيرة كثيرة جدًّا؛ فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السَّام(٣) عليكم. فقالت عائشة رضي الله عنها: فَفَهِمْتُهَا، فقلت: وعليكم السَّام واللَّعنة. فقال رسول الله ﷺ: «مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ».

وفي رواية: «وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ»- فقلتُ: يا رسول الله، أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟! قال رسول الله ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»(٤).

وثانيها قيمة الرحمة مع المخطئين، وهي من أعظم القيم التي يجب أن ينشأ المجتمع المسلم في ظلِّها؛ لأنها تخلُقُ نوعًا من التعامل الرحيم البعيد كل البُعد عن العنف والإرهاب، ولننظر إلى سيرته ﷺ لندرك عظمة هذه القيمة عنده ﷺ، فعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ(٥) فقام يَبُولُ في

---

(١) أحمد عن عبد الله بن عمر (٦١٥٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والطبراني: المعجم الكبير (١٧١٣١) ٢٠/ ١٧٥ واللفظ له، وابن أبي شيبة: المصنف ٨/ ١٢٨.

(٢) مسلم عن عائشة رضي الله عنها: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣)، وأبو داود (٤٨٠٧)، وابن ماجه (٣٦٨٨).

(٣) السامُ: المَوْتُ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سوم ١٢/ ٣١٤.

(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٦٠٢٤)، (٦٢٥٦)، وباب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا (٥٦٨٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يردُّ عليهم (٢١٦٥).

(٥) قيل: هو ذو الخويصرة اليماني، أو ذو الخويصرة التميمي، أو الأقرع بن حابس... انظر: ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٣٩.

المسجد، فقال له أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ[١]. قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوهُ[٢]، دَعُوهُ». فتركوه حتَّى بال، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ؛ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ». ثم أمر رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فَشَنَّهُ[٣] عليه[٤]. فهو هنا ﷺ يحلُّ الموقف برفق تامٍّ منع فيه الصحابة من العنف مع المخطئ، وعَلَّمه درسًا هادئًا رقيقًا دون تخويف ولا ترهيب.

أمَّا ثالثها فهي قيمة الوسطيَّة والاعتدال، وعدم الغلوِّ في الدين؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ[٥]»[٦]. فالغلوُّ في الدين باب يقود إلى العنف والسعي إلى إلزام المخالفِ رأيه بالقوَّة.

ثم تأتي قيمة المسالمة بين أبناء المجتمع، هذه القيمة التي ربط فيها النبي ﷺ بين أفضليَّة الإنسان عند ربِّه وفي مجتمعه، وبَيَّن مدى مسالمته لأبناء هذا المجتمع، فعن جابر ﷺ أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ فقال: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٧].

ولكن النبي ﷺ لا يكتفي بهذه القيم المجتمعيَّة الراقية فقط لحلِّ مشكلة العنف والإرهاب؛ بل يؤكِّد على مجموعة من الأوامر والنواهي تسدُّ باب العنف في المجتمع،

---

(١) مَهْ مَهْ: كلمة للزجر، انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣/ ١٩٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة مهه ١٣/ ٥٤١.

(٢) لا تُزرِمُوه: لا تقطعوا عليه بوله، انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣/ ١٩٠، وابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ٤٤٩.

(٣) شنَّه: صبَّه وسكبه، انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣/ ١٩٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة شنن ١٣/ ٢٤١.

(٤) البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٢١٩)، (٦٠٢٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول... (٢٨٥) واللفظ له.

(٥) الغدوة: سير أوَّل النهار، والروحة: السير بعد الزوال، والدلجة: سير آخر الليل، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٩٥.

(٦) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤)، وابن حبان (٣٥١).

(٧) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٤٢)، والترمذي (٢٥٠٤)، وأحمد (٦٧٩٢)، وأبو يعلى (٢٢٧٣).

وتُشِيع رُوح المودَّة والرحمة، فها هو ذا النبي ﷺ ينهى أُمَّته عن العنف مع النساء، فعن إياس بن عبد الله بن أبي ذُباب، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَضْرِبُوا إِمَاءَ الله». فجاء عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال: قد ذَئِرْنَ[1] عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ. فَرَخَّصَ في ضربهنَّ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجهنَّ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ»[2].

ونهى ﷺ كذلك عن العنف مع الخدم؛ فقال لأبي مسعود الأنصاري ﷺ عندما ضرب غلامًا له: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ». قال: فَالْتَفَتُّ، فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوجه الله.

فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[3].

كما نجده ﷺ يُحَرِّم قَتْل النفس وسَفْكَ الدم المعصوم؛ بل وجعل ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ[4]﴾، ثم يؤكِّد على عِظَم هذه الجريمة تنفيرًا للنفوس من ارتكابها بقوله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ»[5].

فاشتراك أهل السماء والأرض في قتل رجل واحد جريمة عظيمة عند ربِّ العالمين، تستحقُّ دخولهم النار جميعًا.

ويُحَرِّم كذلك ترويع الآمنين؛ بسدِّ كل المنافذ والأبواب والذرائع التي قد تكون وسيلة للترويع؛ فقال ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ

---

(١) ذَئِرْن: أي اجترأن ونشزن وغلبن، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٦/ ١٢٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة ذأر ٤/ ٣٠١.

(٢) أبو داود: كتاب النكاح، باب في ضرب النساء (٢١٤٦)، والدارمي (٢٢١٩) وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والحاكم (٢٧٦٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وأحمد (٢٢٤٠٤)، والبخاري: الأدب المفرد (١٧١)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٨٣).

(٤) (الإسراء: ٣٣).

(٥) الترمذي عن أبي سعيد الخدري: كتاب الديات، باب الحكم في الدماء (١٣٩٨)، وقال عنه: «هذا حديث غريب...». والحاكم (٨٠٣٦)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٥٢٤٧).

أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ»[(١)]. ففي ذلك تأكيد على حُرْمَة المسلم، وَنَهْيٌ شديد عن ترويعه وتخويفه، والتعرُّض له بما قد يؤذيه، وهذا التحريم يشمل المسلم وغير المسلم، وسيرته ﷺ خير شاهد على ذلك، فها هو ذا زيد بن سُعْنَة اليهودي يأتي إلى النبي ﷺ؛ ليطلب دَيْنًا له عند رسول الله ﷺ فيأخذ زيدٌ بمجامع قميصه ﷺ، وينظر إليه بوجه غليظ، ويقول لرسول الله ﷺ: ألا تقضيني - يا محمد - حقِّي؟! فوالله إنكم - يا بني عبد المطلب - قوم مُطْلٌ[(٢)]، ولقد كان لي بمخالطتكم علم. فيقول زيد بن سُعْنَة: نظرتُ إلى عمر بن الخطاب ﷺ وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره، وقال: أي عَدُوَّ الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل به ما أرى؟! فوالذي بعثه بالحقِّ، لولا ما أُحاذر فَوْتَهُ[(٣)]؛ لضربتُ بسيفي هذا عنقكَ. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتُؤَدة، ثم قال: «إِنَّا كُنَّا أَحْوجَ إِلَى غَيْرِ هَـذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ[(٤)]؛ اذْهَبْ بِهِ - يَا عُمَرُ - فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ»[(٥)].

كما نجده ﷺ ينهى عن الترويع وإن كان من باب الفكاهة، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال النبي ﷺ: «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»[(٦)].

وسط هذا المجتمع يجب أن يعيش الإنسان هادئًا آمنًا، ولكن النفس البشريَّة غير السويَّة لن تقف عن غيِّها إلاَّ بتشريعات وقوانين تردع كلَّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه ترويع المجتمع، أو الخروج عن السلوك السويِّ، ومن هذه التشريعات: حدُّ القصاص وحدُّ البغي، وحدُّ الحرابة؛

---

(١) مسلم عن أبي هريرة: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٢٦١٦)، وابن حبان (٥٩٤٤).

(٢) المَطل في الحق والدَّيْن: تَطْوِيلُ العِدَّة التي يضربُها الغريمُ للطالب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة مطل ١١/ ٦٢٤.

(٣) هو فوت رضا الله ورسوله، لأن ما فعله لا يُحِلُّ دمه.

(٤) التباعة: ما اتَّبعْتَ به صاحبَك من ظُلامة ونحوها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة تبع ٨/ ٢٧.

(٥) ابن حبان: كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٨٨)، والحاكم (٢٢٣٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: مرسل.

(٦) أبو داود: كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح (٥٠٠٤)، وأحمد (٢٣١١٤)، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام (٤٤٧).

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[1]﴾، وكان تطبيق الرسول ﷺ لهذه التشريعات تطبيقًا حازمًا؛ لأن الأمر يتعلَّق بسلامة المجتمع وأمنه.

ولم يكن الحلُّ النبوي لمشكلة العنف والإرهاب مبنيًّا على تحصين المجتمع المسلم داخليًّا فقط؛ بل امتدَّت نظرته ﷺ لتشمل العَلاقات بين المسلمين وغير المسلمين؛ فنجده ﷺ - في معظم أحواله - يبحث عن الطرق السلميَّة والهادئة للتعامل مع المخالفين له، حتى وإن كانوا في حالة حرب معه، فكانت وصيَّته لقوَّاده دائمًا: «...وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلاَ طِفْلاً، وَلاَ صَغِيرًا، وَلاَ امْرَأَةً»[2]. ويحرص ﷺ كذلك على تجنُّب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيقول ﷺ لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أعطاه الراية في غزوة خيبر: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ[3]»[4].

إنها عظمة النبي ﷺ، الذي حارب كلَّ أشكال إشاعة الفوضى، وكلَّ عمل يُقوِّض الأمن ويُرَوِّع الآمنين، سواء أكان ذلك يُسَمَّى إرهابًا، أم حرابًا، أم بغيًا؛ فجميعها صور تُشيع الرعب والخوف في المجتمع، وتُرهب الآمنين فيه، وتَحُول بينهم وبين الحياة المطمئنَّة، التي هي وسيلة حُسْنِ خلافتهم في الأرض بعمارتها في جوٍّ من الأمن والأمان والسلام والاطمئنان.

***

(١) (المائدة: ٣٣).

(٢) أبو داود عن أنس بن مالك: كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين (٢٦١٤)، والبيهقي: السنن الكبرى (١٧٩٣٢)، وابن أبي شيبة: المصنف ٦/ ٤٨٣.

(٣) حُمْر النَّعَم: هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وقيل: المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها. وقيل: تقتنيها وتملكها. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ٤٧٨، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ١٧٨.

(٤) البخاري عن سهل بن سعد: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (٢٩٤٢)، (٤٢١٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

المبحث الثاني:

علاجه ﷺ لمشكلة الفقر والبطالة

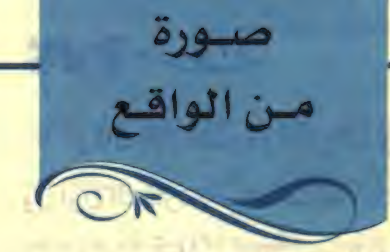
لقد اهتمَّ الإسلام بمشكلتي الفقر والبطالة، وحرص على علاجهما - قبل نشوئهما - بوسائل متعدِّدة حفاظًا على المجتمع المسلم من الأخطار التي قد تصيبه أخلاقيًّا وسلوكيًّا وعقائديًّا؛ حيث تؤكِّد الإحصائيَّات العلميَّة أنَّ للفقر والبطالة آثارًا سيِّئة على الصحَّة النفسيَّة **(صورة رقم ٧)**، وخاصَّة عند الأشخاص الذين يفتقدون الوازع الديني؛ حيث يُقْدِم بعضهم على شُرْب الخمور، كما تزداد نسبة الجريمة - كالقتل والاعتداء - بين هؤلاء العاطلين؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يستعيذ كثيرًا من الفقر، بل ويجمعه في دعاء واحد مع الكفر، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ...**»[١].

وكما يُعَاني العالم اليوم من جرَّاء مشكلتي الفقر والبطالة فإنه قد عانى قديمًا، فكان الحلُّ النبوي لهذه المشكلة حلاًّ عمليًّا متدرِّجًا مبنيًّا على تعاليم الإسلام وأحكامه؛ حيث بدأ ﷺ بتشجيع الناس على مزاولة الأعمال، وبعضَ المهن والصناعات، كما كان يفعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الذين أَعْطَوا القدوة والمثل الأعلى في العمل والكسب الحلال، فقال ﷺ عن نبي الله داود: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[٢].

---

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٩٠)، والنسائي (١٣٤٧)، وأحمد (٢٠٣٩٧) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي على شرط مسلم. والحاكم (٩٢٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم... ووافقه الذهبي.

(٢) البخاري عن المقدام بن معديكرب: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (٢٠٧٢)، وابن حبان (٦٣٣٣).







صورة رقم (٧)

وكان ﷺ القدوة والمَثَل الذي يُحتذى به في هذا المجال؛ حيث كان يرعى الغنم، ويُزاول التجارة بأموال خديجة رضي الله عنها قبل بعثته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ». فقال أصحابه: وأنتَ؟ فقال: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ[1] لأَهْلِ مَكَّةَ»[2].

كما كانت نظرته ﷺ للعمل نظرة تقدير واحترام، مهما كانت طبيعته؛ فإنه خيرٌ من سؤال الناس والذِّلَّة بين أيديهم، ويُصَوِّر رسول الله ﷺ هذا الأمر بقوله: «لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[3]. كما تتفرَّد النظرة النبويَّة للعمل كذلك بأنها تربط بين العمل وثواب الله في الآخرة.

وشجَّع النبي ﷺ المشاريع الاقتصادية بين المسلمين، وحثَّهم على المزارعة[4]، كما فعل الأنصار مع إخوانهم المهاجرين الفقراء، الذين قَدِموا على المدينة بلا أدنى مال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسمْ بيننا وبَيْن إخواننا[5] النَّخِيلَ. فقال: «لا». فقالوا: تَكْفُونَا الْمُؤْنَة، وَنَشْرَكْكُمْ في الثمرة. قالوا: سمِعْنا وأطَعْنا[6].

وحرَّم النبي ﷺ الربا لما له من مضارَّ على فقراء المجتمع؛ فهو يعوق التنمية، ويُسَبِّب التخلُّف، ويزِيد الفقير فقرًا؛ ممَّا يؤدِّي إلى الهلاك؛ كما قال ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ». قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ... وَأَكْلُ الرِّبَا...»[7].

---

(١) قراريط: جمع قيراط، وهو جزء من النقد، وقيل: قراريط اسم موضع بمكة، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٧٢.

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢٢٦٢)، وابن ماجه (٢١٤٩).

(٣) البخاري عن الزبير بن العوام: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٠)، (١٤٧١)، وابن ماجه (١٨٣٦)، وأحمد (١٤٢٩).

(٤) المزارعة: إعطاء الأرض لمن يزرعها على أن يكون له نصيب مما يخرج منها كالنصف أو الثلث، انظر: الزبيدي: تاج العروس باب العين فصل الزاي (زرع) ٢١/ ١٤٩.

(٥) أي المهاجرين.

(٦) البخاري: كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مئونة النخل... (٢٢٠٠)، وأبو يعلى (٦٣١٠).

(٧) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: ١٠] (٢٧٦٧)، (٦٨٥٧)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

وسيرته ﷺ كانت تطبيقًا عمليًا لهذه المبادئ والقيم، التي تعمل على حلِّ مشكلتي الفقر والبطالة، فعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله[١]، فقال ﷺ: «أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قال: بلى، حِلْس[٢]؛ نلبس بعضه[٣]، ونبسط بعضه، وقَعْب[٤] نشرب فيه من الماء. قال: «ائْتِنِي بِهِمَا». قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال: «مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟» مرَّتين أو ثلاثًا، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إيَّاه وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ». فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا». فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ[٥]، وَلِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ[٦]»[٧]. فكانت معالجته معالجة عمليَّة؛ استخدم فيها ﷺ كل الطاقات والإمكانات المتوفِّرة لدى الشخص الفقير، وإن تضاءلت؛ حيث علَّمه ﷺ كيف يجلب الرزق الحلال من خلال عمل شريف.

أمَّا إذا ضاقت الحال، ولم يجد الإنسان عملاً، وأصبح فقيرًا محتاجًا، فعلاج الإسلام حينئذ لهذه المشكلة هو أن يَكْفُل الأغنياءُ الموسرون أقاربهم الفقراء، وذلك لما بينهم من الرَّحِمِ والقرابة، وقد وصفه الله ﷻ بأنه حقٌّ من الحقوق الواجبة بين الأقارب، فقال

(١) يسأله: أي يطلب منه أن يعطيه شيئًا من المال. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سأل ١١/ ٣١٨.

(٢) الحلس: كساء غليظ، يلي ظهر البعير تحت القتب، وحلس البيت ما يُبسط تحت حرِّ المتاع من مِسْحٍ (كساء من الشعر) ونحوه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حلس ٦/ ٥٤.

(٣) نلبس بعضه: أي بالتغطية لدفع البرد، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٥/ ٣٧.

(٤) القعب: القدح الضُّخم الغليظ الجافي، وقيل: قدح من خشب مقعَّر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قعب ١/ ٦٨٣.

(٥) مدقع: أي شديد يُفضي بصاحبه إلى الدُّقاع وهو التُّراب، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دقع ٨/ ٨٩.

(٦) ذو الدم الموجع: هو مَنْ يتحمَّل ديةً فيسعى فيها، حتَّى يؤدِّيها إلى أولياء المقتول، فإن لم يؤدِّها قُتِلَ المتحمل عنه فيوجعه قتله، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وجع ٨/ ٣٧٩.

(٧) أبو داود عن أنس بن مالك: كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة (١٦٤١)، والترمذي (٦٥٣)، وابن ماجه (٢١٩٨)، وأحمد (١٢١٥٥).

تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ[(١)]﴾، ثم تأتي السيرة النبويَّة خير تطبيق لهذا الحقِّ، وتُرتِّب أولويَّات التكافل لدى كل مسلم؛ فعن جابر ﷺ أنه قال: أعتق رجل من بني عُذْرة عبدًا له عن دُبُرٍ[(٢)]، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «أَلَكَ مَالٌ غَيْرُهُ؟» فقال: لا. فقال: «مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي؟» فاشتراه نُعيم بن عبد الله العدوي بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا». يقول: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وعن يمينك وعن شمالك[(٣)].

وإذا عجز الأقارب الأغنياء عن سدِّ حاجة الفقراء جاء دَوْرُ المجتمع ككلٍّ؛ متمثِّلاً في الزكاة التي فرضها الله للفقراء من أموال الأغنياء، ولكنَّ النبي ﷺ جعلها مقصورة على الفقير الذي لا يستطيع العمل والكسب؛ لذلك قال ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ[(٤)]»[(٥)]. بهذا لم يجعل الرسول ﷺ لمتبطِّل كسول حقًّا في الصدقات؛ ليدفع القادرين إلى العمل والكسب.

أمَّا إذا عجزت الزكاة فإن الخزانة العامَّة للدولة المسلمة بكافَّة مواردها تكون هي الحلَّ لمعالجة مشكلة الفقر والبطالة، والموئل لكل فقير وذي حاجة - مسلمًا كان أو غير مسلم - وخير شاهد على ذلك من سيرته ﷺ ما كان يفعله مع أهل الصُّفَّة[(٦)].

وإذا بقي في المجتمع فقيرٌ لا يستطيع العمل؛ وجب على المجتمع كله أن يُخرِج

---

(١) (الروم: ٣٨).

(٢) أعتق السيد عبده عن دُبُر أي يصير بعد موته حرًّا، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دبر ٤/ ٢٦٨.

(٣) مسلم عن جابر بن عبد الله: كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة (٩٩٧)، والنسائي (٢٥٤٦).

(٤) المِرَّة: القوَّة، أي ولا لقويٍّ على الكسب، وسويّ: أي صحيح البدن تامّ الخلقة، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٥/ ٣٠.

(٥) أبو داود: كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، والنسائي (٢٥٩٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: غاية المرام (١٥٠).

(٦) أهل الصُّفَّة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يَأْوُون إلى موضع مُظَلَّل في مسجد المدينة يسكنونه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صفف ٩/ ١٩٤، وفي ذلك انظر: البخاري: كتاب الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين وإيثار النبي ﷺ أهل الصفة والأرامل.



الصدقات ابتغاء مرضاة الله وثوابه، وهذه مزيَّة تميَّز بها الإسلام عن غيره من المعالجَات البشريَّة للمشكلة، فها هو ذا النبي ﷺ يُعَلِّم أصحابه الإنفاق، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحثَّنَا على الصدقة، فأبطئوا حتى رُئِيَ في وجهه الغضب، ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصُرَّة[1]، فأعطاها له، فتتابع الناس حتى رُئِيَ في وجهه السرور، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا، وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَمِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[2].

وبهذه القيم يظلُّ المجتمعُ متماسكَ البنيان، ومتوازن الأركان، ولا تنهشه أمراض الحقد والحسد، والنظر إلى ما في يد الآخرين، فتمتلئ بطونُ البعض، بينما غيرهم لا يجد ما يسدُّ رَمَقه، أو يُبقي على حياته، فكان الإسلام ناجحًا في إيجاد الحلول العمليَّة والواقعيَّة لمشكلتي الفقر والبطالة، ولعلَّ هذه الطريقة الفريدة الفذَّة في علاج مثل هذه المشكلة لَمِنْ أبلغ الأدلَّة على نُبُوَّته ﷺ، وعلى أن المنهج الذي أتى به ليس منهجًا بشريًّا بحال، إنما هو من وحي الله العليم الخبير.

* * *

---

(١) الصُرَّة: ما يُجْمَعُ فيه الشيء ويُشَدُّ، انظر: المعجم الوسيط، مادة صرر ١/ ٥١٢.

(٢) مسلم: كتاب العلم، باب مَنْ سنَّ سنة حسنة أو سيئة... (١٠١٧)، والنسائي (٢٥٥٤)، وأحمد (١٩٢٢٥).

المبحث الثالث:
علاجه ﷺ لمشكلة المسكرات والمخدرات

حرَّم الإسلام كلَّ ما يضرُّ بالفرد أو الأسرة أو المجتمع، وأحلَّ كل ما هو طيِّب ومفيد للبشر جميعًا، فما حرَّم الله شيئًا إلاَّ عوَّض الناسَ خيرًا منه، فقال الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ[1]﴾؛ ولأن النفس البشريَّة تميل دائمًا إلى تحقيق رغباتها - دون نظر إلى ما يَتَرَتَّب على ما تقترفه من مضارَّ جسيمةٍ - فقد أرشد الإسلام أتباعه إلى كبح جماح أنفسهم، وسَنَّ لهم الأحكام والتشريعات والقوانين الوقائيَّة والعلاجيَّة لحلِّ كل مشكلة تعترضهم، ثم كانت سيرته ﷺ خير تطبيق لهذه الأحكام والتشريعات.

من هذه المشكلات الخطيرة مشكلة إدمان الخمور (صورة رقم ٨)، وكانت قد تغلغلت في نفوس العرب جميعًا؛ حتى إنهم كانوا يمدحونها في شعرهم؛ حيث تبدأ القصائد عادة بذكر الأطلال ثم وصف الخمر.. كما كانوا يشربونها في بيوتهم وأنديتهم ومنتدياتهم؛ ولذا فقد جاء الحلُّ الرباني للمشكلة حلاًّ حاسمًا، ودالاًّ بشكل واضح على أنه وحي من ربِّ العالمين.

لقد نزلت الآيات القرآنيَّة لتحلَّ المشكلة في تدرُّج مدهش، فكان أوَّل ما نزل في تنفير الناس مِنْ شُرْبِ الخمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[2]﴾، فوصف الله تعالى الرزق بالحَسَن، ولم يصف السكر بذلك؛ تمهيدًا لتحريم الخمر، ثم لفت الأنظار إلى آثارها الضارَّة التي تَفُوقُ ما فيها من منافع محدودة، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا[3]﴾، وفي مرحلة لاحقة حرَّم تعاطيها قبل أوقات الصلاة؛ بحيث لا يأتي وقتُ

---

(١) (الأعراف: ١٥٧).
(٢) (النحل: ٦٧).
(٣) (البقرة: ٢١٩).



المسكرات
والمخدرات



صورة رقم (٨)

الصلاة إلاَّ والواحد منهم في أتمِّ صحوة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ[١]﴾، وبعد أن تهيَّأت النفوس لتحريمها - وأصبحوا يتطلَّعون إلى اليوم الذي تُحَرَّم فيه تمامًا، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»[٢] - جاء التحريم القاطع في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٣]﴾.

ولأن عائشة ﷺ تعرف جيِّدًا عمق مشكلة الخمر في نفوس المجتمع الجاهلي؛ لذلك قالت عن التدرُّج الذي نزلت به الآيات: «... ولو نزل أوَّل شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا نَدَعُ الخمرَ أبدًا...»[٤]. ولكن المجتمع - الذي ربَّاه النبي ﷺ على مراقبة الله تعالى - امتثل لأوامره ﷻ فور نزولها على نبيِّه ﷺ فعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: كنتُ ساقي القوم في منزل أبي طلحة ﷺ، وكان خمرهم يومئذ الفَضِيخ[٥]، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: «أَلا إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ». قال: فقال لي أبو طلحة ﷺ: اخرج فأَهْرِقْهَا[٦]. فخرجتُ فهرقتها، فَجَرَتْ في سِكَكِ المدينة[٧].

ومع نزول هذا التحريم القاطع من الله ﷻ استمرَّ تنفير النبي ﷺ لأصحابه منها، فقال ﷺ لأبي الدرداء ﷺ: «لا تَشْرَبِ الخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»[٨]. بل ولعن ﷺ كل مَنْ يقوم بصناعتها وبيعها وشُرْبها، فقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا

---

(١) (النساء: ٤٣).

(٢) سنن النسائي: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر (٥٥٤٠)، وأحمد (٣٧٨)، والحاكم (٣١٠١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) (المائدة: ٩٠).

(٤) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤٩٩٣)، والبيهقي: شعب الإيمان (٢٢٢٦)، وعبد الرزاق: المصنف ٣/ ٣٥٢.

(٥) الفضيخ: البسر والتمر، والفضيخ أن يصبَّ عليه الماء ويتركه حتى يغلي من غير أن تمسه النار. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ١٤٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة فضخ ٣/ ٤٥.

(٦) أهرقها: الأصل أَرِقْهَا، أي صُبَّها، فأبدلت الهمزة هاء، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/ ٣٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة هرق ١٠/ ٣٦٥.

(٧) البخاري: كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق (٢٤٦٤)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر... (١٩٨٠).

(٨) ابن ماجه: كتاب الأشربة، باب الخمر مفتاح كل شر (٣٣٧١)، والحاكم (٧٢٣١) وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا وَالْـمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ»(١).

ولكنه ﷺ لم يُغلق باب التوبة أمام هؤلاء المدمنين؛ بل جعله مفتوحًا، حتى لو تكرَّر الخطأ أكثر من مرَّة؛ حيث ربط ﷺ بين التخويف من سخط الله وعقابه في الآخرة وعدم توبتهم إليه ﷻ، وهذه هي عظمة النبي ﷺ في معالجته لمثل هذه المشكلات المتجذِّرة في مجتمع ما، فقال ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ وَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قالوا: يا رسول الله، وما رَدَغَةُ الخَبَالِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»(٢).

كما جعلها ﷺ وصيَّة من الوصايا التي خصَّ بها بعض أصحابه؛ وفي ذلك دلالة على تنفير الأُمَّة منها، ووقايتهم من الوقوع في شِرَاك كلِّ مسكر أو مخدِّر، فيروي أبو الدرداء ﷺ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: أوصني يا رسول الله. قال: «لا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ... وَلا تَشْرَبِ الخَمْرَ...»(٣).

ويؤكِّد النبي ﷺ على مضارِّها على صحَّة الإنسان؛ فيقول للصحابي الذي سأله عن استخدام الخمر كدواء: «إِنَّهَا دَاءٌ، وَلَيْسَتْ بِدَوَاءٍ»(٤). وقد أثبتت الدراسات الطبِّيَّة الحديثة إصابة الذي يتناول الخمر بالعديد من الأمراض؛ مثل: مرض تليُّف الكبد؛ فالخمور

---

(١) أبو داود: كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر (٣٦٧٤)، والترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، وأحمد (٥٧١٦) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٨٣٩).

(٢) أبو داود عن ابن عباس: كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر (٣٦٨٠)، والترمذي (١٨٦٢) وقال: هذا حديث حسن. وابن ماجه (٣٣٧٧)، والدارمي (٢٠٩١)، وأحمد (٦٦٤٤)، والحاكم (٧٢٣٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦٣١٢).

(٣) ابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٣٤)، وأحمد (٢٢١٢٨)، والحاكم (٦٨٣٠)، وحسنه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح (٥٨٠).

(٤) أحمد عن وائل بن حجر الحضرمي (١٨٨٧٩) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (٦٠٦٥)، والدارقطني (٤٧٦٣).

تسبِّب تحطيمًا لخلايا الكبد، وتقوم بترسيب الدهون فيها، وكذلك تُصيب الجهاز الهضمي باضطرابات مختلفة؛ فيفقد الإنسان شهيَّته للطعام، ويُصاب بسوء التغذية ونقص الفيتامينات، كما تؤثِّر على الأعصاب، وعضلة القلب، والعناصر المكوِّنة للدم[(١)].

ثم يُواصل النبي ﷺ تعليم أُمَّته مضارَّ الخمر - بطريقة أخرى - بِذِكْرِ قصص السابقين؛ حتَّى يَتَّعظ منها مَنْ كان له عقل يفكِّر، فعن عثمان بن عفان ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «اجْتَنِبُوا الخَمْرَ؛ فَإِنَّهَا أُمُّ الخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ، فَعَلِقَتْهُ[(٢)] امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ. فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلاَمٌ وَبَاطِيَةُ[(٣)] خَمْرٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ، أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الخَمْرَةِ كَأْسًا، أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلاَمَ. قَالَ: فَاسْقِينِي مِنْ هَذَا الخَمْرِ كَأْسًا. فَسَقَتْهُ كَأْسًا، قَالَ: زِيدُونِي. فَلَمْ يَرِمْ[(٤)] حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا، وَقَتَلَ النَّفْسَ، فَاجْتَنِبُوا الخَمْرَ؛ فَإِنَّهَا وَاللهِ لاَ يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الخَمْرِ إِلاَّ لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ»[(٥)].

والنبي ﷺ حين يعالج مشكلة ما فإنه لا تشغله كثيرًا الأسماء بقدر ما تشغله المسمَّيات؛ فهو حين حرَّم الخمر حرَّم كذلك كل ما تنطبق عليه صفتها من إذهاب العقل، أيًا كان مصدر هذا الشراب؛ العنب أو التمر أو غيرهما، فعن عائشة ﵂، عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ»[(٦)]. وقالت أمُّ سلمة ﵂ في حديث آخر يُبَيِّنُ أن

---

(١) مقال بجريدة الرياض: www.alriyadh.com. وانظر: مصطفى سويف: المخدرات والمجتمع ص٨٦-٩١.

(٢) علقته: عشقته وأحبَّته، انظر: نور الدين السندي: حاشية السندي على النسائي ٨/ ٣١٥.

(٣) الباطِيَة: إناء من الزجاج عظيم يُملأ من الشراب، انظر: نور الدين السندي: حاشية السندي على النسائي ٨/ ٣١٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة بطا ١٤/ ٧٤.

(٤) فلم يَرِمْ: من رَامَ يَرِيم، أي: فلم يبرح ولم يَتْرُك، انظر: نور الدين السندي: حاشية السندي على النسائي ٨/ ٣١٥.

(٥) النسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر (٥٦٦٦)، وابن حبان (٥٣٤٨)، وقال الألباني: صحيح موقوف. وذكر المتقي الهندي في كنز العمال: أن ممن ذكر الحديث مرفوعًا عن رسول الله ﷺ، كلاً من عبد الرزاق في مصنفه، والبيهقي في شعب الإيمان. انظر: نصب الراية ٥/ ٤٨٧.

(٦) البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر (٢٤٢)، (٥٥٨٥)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٢٠٠١).

كل أنواع المسكرات والمخدِّرات مُحَرَّمة شرعًا؛ لأنها تُهلك الفرد، وتُضْعِف المجتمع: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ[1]»[2]. كما نجده ﷺ يُحرِّم كل شيء يضرُّ بصحَّة الإنسان، فيقول ﷺ: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ...»[3]. فما ينطبق على الخمر من تحريم وعقوبات ينطبق على المخدِّرات وغيرها من السموم التي تضرُّ الإنسان.

وبعدما استقرَّ التحريم، كانت التشريعات واضحةً في معاقبة مَنْ يُقْدِم على تناول المسكرات، وكان تطبيق الرسول ﷺ لهذه التشريعات تطبيقًا رائعًا، فعن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ ضَرَبَ فِي الخَمْرِ بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ[4]. وعن قَبِيصَة بن ذُؤَيْب ﷺ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ...»[5].

ولكنَّ الهدف من العقاب في نظر النبي ﷺ هو ردع كل مَنْ تُسَوِّل له نفسه أن يُدمن المسكرات أو المخدِّرات، وليس التشفِّي أو الانتقام من صاحبها؛ فهو شخص مريض في حاجة إلى العلاج؛ لذلك عَمِل ﷺ على تأصيل هذه المعاني في نفوس الصحابة، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ برجل قد شرب، فقال: «اضْرِبُوهُ». فقال أبو هريرة ﷺ: فمِنَّا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلـمَّا انصرف قال بعض القوم: أخزاكَ الله. قال: «لا تَقُولُوا هَكَذَا، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ»[6].

هكذا عالج النبي ﷺ مشكلة المسكرات والمخدِّرات معالجة عمليَّة متدرِّجة مبنيَّة على تقوى الله أوَّلاً، والخوف من عصيانه؛ فهو الآمر بتحريم كل مسكر، ثم بِسَنِّ القوانين

---

(١) المفتر: كل شراب يورث الفتور والخدر في الأطراف، انظر: العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠/ ٩٢.

(٢) أبو داود: كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر (٣٦٨٦)، وأحمد (٢٦٦٧٦)، وقال ابن حجر العسقلاني: سنده حسن. انظر: فتح الباري ١٠/ ٤٤.

(٣) ابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (٢٣٤٠)، والموطأ - رواية يحيى الليثي (١٤٢٩)، وأحمد (٢٨٦٧). وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والحاكم (٢٣٤٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٠).

(٤) البخاري: كتاب الحدود، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر (٦٧٧٣)، ومسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر (١٧٠٦).

(٥) أبو داود: كتاب الحدود، باب إذا تتابع في شرب الخمر (٤٤٨٥)، والنسائي (٥٦٦١)، وأحمد (٧٧٤٨) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٦) البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال (٦٧٧٧)، وأبو داود (٤٤٧٧)، وأحمد (٧٩٧٣).

الرادعة التي تعالج - أيضًا - كل نفس تخرج عن السلوك السَّوِيِّ، وفي ذلك صلاح للفرد والمجتمع.

هذا هو منهج الرسول ﷺ في حلِّ مشكلات عصره، قد تناولنا في هذا الفصل نماذج منها؛ فتعرَّضْنَا لنموذج يتعلَّق بمشكلة عالمية يُعَانِي منها العالم جميعًا، وهي مشكلة العنف والإرهاب، ورأينا كيف عالجها النبي ﷺ معالجة قائمة على الوقاية والعلاج، ونموذج آخر يتعلَّق بالجانب الاقتصادي داخل المجتمع، ألا وهو مشكلة الفقر والبطالة، ورأينا كيف عالجها النبي ﷺ معالجة رائعة قائمة على فتح آفاق العمل والاجتهاد أمام المجتمع بكل أفراده وطوائفه، وأخيرًا رأينا كيف عالج النبي ﷺ مشكلة أخرى متجذِّرة داخل كيان المجتمع - وهي مشكلة المسكرات والمخدرات - معالجة تدريجيَّة، وقد تميَّز المنهج النبوي في معالجة المشكلات بمزيَّة متفرِّدة؛ ألا وهي غرس مراقبة الله ﷻ في قلوب كل أفراد المجتمع، فامتنعوا بفضل هذه القيمة عن فعل كل قبيح؛ فعاش الجميع في أمن وسلام، وفي عالمنا المعاصر ما زالت تلك المشكلات متجذِّرة في المجتمعات الحديثة، ويعاني منها العالم جميعًا، فما أحوجه إلى منهج رسول الله ﷺ، الذي لم ينسب الفضل فيه لنفسه بل نسبه لله تبارك وتعالى، ففي ذلك دليل قاطع على صدقه وانتفاء الغرض الشخصي من وراء رسالته.

❊ ❊ ❊

حياته ﷺ دليل نبوته

المبحث الأول: زهده ﷺ
المبحث الثاني: عبادته ﷺ
المبحث الثالث: حرصه ﷺ على أمته
المبحث الرابع: نقاء حياته ﷺ
المبحث الخامس: أميته ﷺ

قال حسان بن ثابت (شاعر الرسول ﷺ):

خُلِقتَ مُبرَّأً من كُلِّ عَيبٍ ... كأنَّكَ قَدْ خُلِقتَ كَما تَشاءُ

الفصل الرابع:

حياته ﷺ دليل نبوته

تُعَدُّ حياته ﷺ من أنصع الأدِلَّة على نُبُوَّتِه؛ لما تَتَّصف به من نقاء ووضوح، ولا يكون ذلك إلاَّ لنبي مُرْسَل من ربِّه، لا يُمَثِّلُ نفسه، وإنما يُمَثِّل الإرادة العليا؛ مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى[1]﴾. فانظروا إلى الرسول العابد الذي لا يفتر عن ذكر ربِّه في ليله ونهاره، والأمي الذي علَّمه شديد القوى، والحريص على أُمَّته من عذاب رب العالمين، والزاهد في الدنيا رغم أنها أتته راغبة، وانظروا أيضًا إلى عصمة الله له وإلى نقاء حياته؛ ستدركون عندها أن محمدًا ﷺ رسول من رب العالمين؛ فهذه الحياةُ النقية لا يمكن أن يكون صاحبها دَعِيًّا، ولا يمكن أن يكون دجالاً، كما لا يمكن أن يكون طالب مُلْكٍ، ولا يمكن أن يكون رجل دُنْيا.

وفي المباحث التالية نُقَدِّمُ بعضًا من جوانب حياته، والتي تَدُلُّ دلالةً واضحةً على صِدْقِ نُبُوَّتِهِ ﷺ:

المبحث الأول: زهده ﷺ

المبحث الثاني: عبادته ﷺ

المبحث الثالث: حرصه ﷺ على أُمَّتِهِ

المبحث الرابع: نقاء حياته ﷺ

المبحث الخامس: أُمِّيَّته ﷺ

---

(١) (النجم: ٣-٥).

المبحث الأول:

زهـــــــــده ﷺ

إن نظرة الإسلام للحياة نظرة فريدة؛ لأنها تخلق إنسانًا متوازنًا يُدرك أن الحياة مهما طالت فهي قصيرة، وأن الآخرة هي خير وأبقى؛ لذلك قال تعالى عن الدنيا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ[1]﴾. كما وضع القرآن الكريم المعيار الحقيقي أمام الإنسان عند تطلُّعه للدنيا: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[2]﴾.

فالدنيا في المنظور الإسلامي ما هي إلاَّ مزرعة الآخرة، وهي كذلك مجرَّد طريق يعبر عليه الإنسان لوِجْهَته الحقيقيَّة، وهو ما قاله رسول الله ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[3].

ويُعَلِّم النبيُّ ﷺ أُمَّته حقيقة العَلاقة بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة أكرم وأفضل عند الله، فيقول ﷺ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى[4] بِالسَّبَّابَةِ- فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ»[5].

ومن عظمته ﷺ أن حياته كانت نموذجًا عمليًا لهذه النظرة الربَّانيَّة للدنيا، فقد وصف عمر بن الخطاب ﷺ بيت وحال النبي ﷺ بقوله:... فدخلت عليه فإذا هو مضطجع على رُمَال حصير[6]، ليس بينه وبينه فراش، قد أَثَّر الرمالُ بجنبه، مُتَّكِئًا على

---

(١) (آل عمران: ١٨٥).

(٢) (العنكبوت: ٦٤).

(٣) البخاري عن عبد الله بن عمر: كتاب الرقائق، باب قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ» (٦٤١٦)، والترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤)، وأحمد (٦١٥٦).

(٤) هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان، من الطبقة الصغرى من التابعين، ثقة ثبت مرضي حجة حافظ، تُوُفِّيَ سنة ١٩٨هـ. انظر: المِزِّي: تهذيب الكمال ٣١/ ٣٢٩، وابن حجر: تهذيب التهذيب ١١/ ١٩٠- ١٩٣.

(٥) مسلم عن المستورد بن شداد: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨)، وأحمد (١٨٠٣٧)، وابن حبان (٦٢٦٥).

(٦) الرمال: بكسر الراء وضمِّها، ما نُسِجَ، وقيل: المنسوج بالسعف. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٢٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة رمل ١١/ ٢٩٤.

وسادة من أَدَم حشوها ليف... ثم رفعتُ بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يَرُدُّ البصر غير أَهَبَة[١] ثلاثة، فقلتُ: ادعُ الله فليوسِّع على أُمَّتِك؛ فإن فارس والروم وُسِّعَ عليهم، وأُعْطُوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله. وكان متَّكِئًا، فقال: «**أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**»[٢].

ولقد أشفق أصحابه ﵃ عليه ﷺ عندما وجدوا الحصير قد أثَّر في بدنه؛ فعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: اضطجع النبي ﷺ على حصير، فأثَّر في جلده، فقلتُ: بأبي وأمي يا رسول الله، لو كنتَ آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئًا يقيك منه. فقال رسول الله ﷺ: «**مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[٣].

ورأينا رسول الله ﷺ -وهو القائد العامُّ لجموع المسلمين في الجزيرة العربيَّة، ومع ما فتح الله عليه من الفتوح- مستمسِّكًا بحياة الزهد، مبتعدًا عن الزعامة المتصنَّعة، متواضعًا في مأكله ومشربه، وقد لا يجد هذا المأكل في كثير من الأحيان، فقد خطب النعمان بن بَشِير ﵁، فقال: ذَكَر عُمَرُ ﵁ ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي**[٤] **مَا يَجِدُ دَقَلاً**[٥] **يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ**»[٦].

وكثيرًا ما كان يلتوي رسول الله من الجوع طيلة حياته!! ومن هذه المواقف ما ذكره أبو هريرة ﵁ بقوله: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر ﵄، فقال: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومَا**». فقامَا معه: فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَيْنَ فُلانٌ؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول

---

(١) الأهبة: بمعنى الأُهُب والهاء فيه للمبالغة وهو جمع إهاب، وهو الجلد مطلقًا دُبغ أو لم يُدبغ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أهب ١/ ٢١٧.

(٢) البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٤٩١٣)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء... (١٤٧٩).

(٣) ابن ماجه (٤١٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) يلتوي: أي يتقلَّب ظهرًا لبطن ويمينًا وشمالاً. انظر: السيوطي: شرح سنن ابن ماجه ص٣٠٦.

(٥) الدقل: رديء التمر. انظر: ابنُ منظور: لسان العرب، مادة دقل ١١/ ٢٤٦.

(٦) مسلم: كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٨)، والترمذي (٢٣٧٢)، وابن ماجه (٤١٤٦).

الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا منِّي. قال: فانطلق فجاءهم بعِذْق[1] فيه بُسْر وتمر ورُطب. فقال: كُلُوا من هذه. وأخذ المدية[2]، فقال له رسول الله ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذْق، وشربوا، فلمَّا أن شبعوا وَرَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»[3].

لقد كان زهد النبي ﷺ في حقيقته علامة من علامات نبوَّته، ودليلاً على صدق بعثته، فقد تؤثِّر الدنيا في أحدنا فتغيِّره، فيصبح عندها موضع انتقاد الجميع، ولكن رسول الله ﷺ ظلَّ على عهده بالزهد، مصاحبًا له، ومقترنًا به إلى موته، وهو ما تُقرِّره أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها: «مَا شَبِعَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا مِنْ خُبْزِ بُرٍّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ»[4].

ولَمَّا جاءته الدنيا بما تشتهي كل نفس زهد فيها غاية الزهد، فها هو ذا يوم حُنين تهون عليه الدنيا كلها ويعطيها دون تردُّدٍ لأصحابه وللمؤلَّفة قلوبهم، فهي عنده لا تعدل جناح بعوضة، حتى إنه لم يُبقِ منها ما يعوِّض فقر السنين وانقضاء العمر الذي تجاوز الستِّين، ثم يقول للأعراب بعد أن أخذ بعضهم رداءَهُ: «رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، أَتَخَافُونَ أَلاَّ أَقْسِمَ بَيْنَكُمْ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ كَانَ لَكُمْ عِنْدِي عَدَدَ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً...»[5].

ورغم زهد النبي ﷺ للدنيا إلاَّ أن نظرته للزهد كانت نظرة رائعة؛ لأنها علَّمت الأُمَّة

(١) العِذْق: الغصن من النَّخل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عذق ١٠/ ٢٣٨.

(٢) المدية: السكين والشَّفرة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة مدي ١٥/ ٢٧٢.

(٣) مسلم: كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه... (٢٠٣٨)، وأبو يعلى (٦١٨١).

(٤) البخاري: كتاب الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون... (٦٤٥٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٠)، واللفظ له.

(٥) البخاري: كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٣١٤٨)، وابن حبان (٤٨٢٠)، والموطأ برواية يحيى الليثي عن عمرو بن شعيب (٩٧٧)، واللفظ له.

أن تَزْهَدَ دون أن تترك إعمار الأرض، فليس عدم التعلُّق بالدنيا داعيًا إلى خرابها، بل يعمرها المسلم دون أن يتمسك بمتاعها؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»(١).

هذه هي النظرة الإسلاميَّة للدنيا؛ نظرة توازن لا تُغْفِل الدنيا لحساب الآخرة، ولا الآخرة لحساب الدنيا، وهذه هي عظمة الإسلام، وعظمة نبيِّه ﷺ التي تُثْبِتُ -بما لا يدع مجالاً للشكِّ- صدق نبوَّته، وربانية دعوته.

المبحث الثاني:

عبادتــــــه ﷺ

كان رسول الله ﷺ شاكرًا لأَنْعُمِ الله العظيمة التي وهبها اللهُ له وأحاطه بها؛ فقد كان واقعه ﷺ منسجمًا مع ما أعطاه الله تعالى من نِعَمٍ، فلم يكن شكره ﷺ مجرَّد كلمات تقال، ولكنَّها كانت واقعًا حيًّا مَعِيشًا، فنراه في سيرته راكعًا ساجدًا عابدًا لله تعالى، فاعلاً للخير، مسبِّحًا بحمد الله، مُتَّبِعًا في ذلك الآيات القرآنيَّة التي تحضُّ على العبادة والحمد؛ منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٢)﴾.

كما ذُكرت أحاديثُ كثيرةٌ، ومواقفُ عديدةٌ فَسَّرت وأبانت حقيقة عبادة رسول الله ﷺ لربِّه جلَّ وعلا؛ فعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر(٣) قدماه، فقالت عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنعُ هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من

---

(١) أحمد (١٣٠٠٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) (الحج: ٧٧).
(٣) تتفطر: أي تتشقُّ، وفي رواية للبخاري: «حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ». انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ٢٨٢٠، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ٤٦١، وابن منظور: لسان العرب، مادة فطر ٥/ ٥٥.

ذنبك وما تأخر؟! قال: «أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[١]. وقد أبان هذا الردُّ الجميل رؤيته ﷺ لمسألة العبادة، فهو لا يراها تكليفًا ربَّانيًّا فقط، بل إنه يقوم بها عن حُبٍّ وإرادة، كنوع من الشكر العميق للإله القدير الذي أعطى ومنح، وهذا يُفَسِّر أيضًا طول عبادته وشِدَّة إرهاقه لنفسه فيها.

وتصف السيدة عائشة ﵂ في حديث آخر صلاة رسول الله ﷺ بالليل، بقولها: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، كَانَتْ تِلْكَ صَلاتُهُ -تَعْنِي بِاللَّيْلِ- فَيَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ لِلصَّلاةِ»[٢].

فكان رسول الله ﷺ يجد راحته في الإكثار من الصلاة وقراءة القرآن؛ فيروي حذيفة ﵁ قائلاً: صلَّيْتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة. ثم مضى، فقلتُ: يُصَلِّي بها في ركعة. فمضى، فقلتُ: يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسِّلاً؛ إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ، ثم ركع، فجعل يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثم قام طويلاً قريبًا ممَّا ركع، ثم سجد، فقال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». فكان سجوده قريبًا من قيامه[٣].

وكان رسول الله ﷺ يُكثر من قيام الليل؛ لما فيه من الخلوة بينه وبين ربِّه ﷻ؛ لذلك قال عنه ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الْمَفْرُوضَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ...»[٤]. ومن شِدَّة حُبِّه لقيام الليل

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة الفتح (٤٨٣٧)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨٢٠).

(٢) البخاري: كتاب الوتر، باب ما جاء في الوتر (٩٩٤)، وأبو داود (١٣٣٦)، وعند الترمذي: «عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة. قال: قلت: كم كان قدر ذلك؟ قال: قدر خمسين آية» (٧٠٣).

(٣) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٧٧٢)، والنسائي (١١٣٣)، وأحمد (٢٣٤١٥).

(٤) أبو داود: كتاب الصيام، باب في صوم المحرم (٢٤٢٩)، وأحمد (٨٤٨٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح علي شرط الشيخين. والنسائي (١٦١٤)، ومسند عبد بن حميد عن أبي هريرة (١٤٢٧)، واللفظ له، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (١٢٣٦).

كان يقضيه ﷺ في الصباح إذا فاته لأمر ما؛ فعن عائشة ؓ أنها قالت: «... كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً...»(١).

وهذا الحُبُّ العميق لعبادة الله -خاصَّة الصلاة- يُفَسِّر أيضًا قوله ﷺ لبلال بن رباح ؓ: «قُمْ يَا بِلالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلاةِ»(٢). ويقول ﷺ في حديث آخر: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»(٣).

ولا غَرْوَ أنَّ نِعم الله ﷻ وعطاياه وفضله تستتبع حمدًا جزيلاً، وهو ما كان يقوم به رسول الله ﷺ؛ فكان لسانه ﷺ دائمًا رطبًا بذِكْرِ الله وحَمْدِه على نِعمه وأفضاله؛ فعن عائشة ؓ أنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»(٤).

ونراه في الصوم يَزِيدُ البذلَ والعطاء، وفي العشر الأواخر من شهر رمضان يتعهَّد نفسه بمضاعفة العبادة، فقد روت عائشة ؓ فقالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ(٥)، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»(٦).

كذلك، كان رسول الله ﷺ مواظبًا على صيام الاثنين والخميس، وقد ذكر عِلَّة ذلك

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٣١٤)، وابن حبان (٢٥٥٢).

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥)، وأحمد (٢٣١٣٧)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات، لكن اختلف على سالم بن أبي الجعد في إسناده. والطبراني: المعجم الكبير (٦٢١٥)، والبوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٩٠٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (١٢٥٣).

(٣) أحمد عن أنس بن مالك (١٣٥٢٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والنسائي (٣٩٣٩)، والبيهقي: السنن الكبرى ٧/ ٧٨، ومصنف عبد الرزاق (٧٩٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧٣٨٨)، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٦٥٨).

(٤) مسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (٣٧٣)، والترمذي (٣٣٨٤)، وأبو داود (١٨)، وابن ماجه (٣٠٢)، وأحمد (٢٦٤١٩).

(٥) شدَّ مئزره: المئزر ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن، وشده كناية عن اعتزال النساء، وقيل: أراد تشميره للعبادة، يقال: شَدَدْتُ للأمر مئزري أي تشمَّرت وتهيَّأتُ له. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٤/ ٢٦٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة أزر ٤/ ١٦.

(٦) البخاري: كتاب صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (١٩٢٠)، وأحمد (٢٤٤٢٢)، وابن خزيمة (٢٠٢٩)، وسبل السلام (٦٥٣).

بقوله: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[١].

وكان رسول الله ﷺ يحبُّ الصيام في الهواجر[٢] وفي الأيام شديدة الحرِّ؛ فعن أبي الدرداء ﷺ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولُ الله ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلاَّ رَسُولُ الله ﷺ وَعَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ»[٣].

وهكذا كان رسول الله ﷺ يتعامل مع قضيَّة العبادة من منطلق الشكر لا الفرض فقط، ومن منطلق البذل والتطوع والزيادة لا أداء الواجب؛ ممَّا أعطى عبادته شكلاً متميِّزًا باهرًا في صورته.

المبحث الثالث:

حرصه ﷺ على أمته

أرسل الله نبيَّه طوقًا لنجاة البشريَّة من غيِّها وضلالها، فاستحقَّ ﷺ بحقٍّ أن يكون منقذًا للإنسانيَّة، فكانت سيرته أعظم نبعٍ لمن يُريد تربية الأمم -أفرادًا وجماعاتٍ- على قيم الحبِّ والرأفة، التي تمثَّلت في حرصه ﷺ على الناس عامَّة، وأُمَّته خاصَّة، وكان هذا الحرص نابعًا من رأفته ورحمته بهم، كما كان ذلك دليلاً على صدق نُبُوَّتِهِ ﷺ؛ لذلك وصف الله ﷻ حرصه ﷺ على أُمَّته بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[٤]﴾.

لقد بلغ حرص رسول الله ﷺ على أُمَّته حدًّا لا يتخيَّله أحد من البشر؛ فمنذ

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس (٧٤٧)، وأحمد (٢١٨٠١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والنسائي (٢٣٥٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٩٥٩).

(٢) الهواجر: جمع الهاجرة، وهي اشتدادُ الحرِّ نصفَ النهار. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة هجر ٥/ ٢٥٠.

(٣) البخاري: كتاب الصوم، باب إذا صام أيام من رمضان ثم سافر (١٩٤٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر (١١٢٢).

(٤) (التوبة: ١٢٨).

اللحظات الأُولى للدعوة وهو يأمر القلَّة المستضعفة في مكة بالهجرة للحبشة فِرارًا بدينهم، فيقول ﷺ: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ؛ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ...»(١).

وكثيرًا ما رأينا رسول الله ﷺ يُعرِض عن عمل من الأعمال -وهو مُقرَّب إلى قلبه، ومحبَّب إلى نفسه- لا لشيء إلاَّ لخوفه أن يُفْرَض على أُمَّته، فيعنتهم ويشقّ عليهم؛ لذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»(٢).

وكان رسول الله ﷺ يُحذِّر الأُمَّة من الذنوب، ويُوَضِّح خطرها على كيانها وقوَّتها مهما كانت الذنوب بسيطة في عين المسلم؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ». وإنَّ رسول الله ﷺ ضرب لهُنَّ مَثَلاً: «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاَةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»(٣).

كما خشي رسول الله ﷺ على أُمَّته من الأئمة المضلِّين، الذين يقودونها إلى الهلاك والضياع، فيقول ﷺ مخاطبًا أُمَّته: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ»(٤).

وامتدَّ حرص النبي ﷺ ورفقه بالمؤمنين في شئون دينهم المختلفة، وخاصَّة في جانب العبادات، فمع أن التقرُّب إلى الله والتبتُّل إليه أمرٌ محمود مرغوب، بل هو مأمور به، لكنه ﷺ كان يخشى على أُمَّته من المبالغة في الأمر، فيفتقدون التوازن في حياتهم، فقال ﷺ:

---

(١) البيهقي: كتاب السير، باب الإذن بالسير (١٨١٩٠)، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٢٢، ٣٢٣، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

(٢) البخاري: أبواب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل... (١١٢٨)، (١١٧٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى... (٧١٨).

(٣) أحمد (٣٨١٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والطبراني: المعجم الكبير ٥/ ٤٤٩، والبيهقي: شعب الإيمان (٧٠١٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٦٨٧).

(٤) أبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٥٢)، والترمذي: (٢٢٢٩)، وأحمد عن أبي الدرداء (٢٧٥٢٥)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. والدارمي (٢١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٨٢).

«لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَخَّرْتُ صَلاَةَ الْعِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ»[1]. فهذا الحديث وغيره يُبيِّن مدى حُبِّ النبي ﷺ لأُمَّته، وحرصه عليها وعلى مصالحها في أمور دينها.

ومِنْ ثَمَّ كان النبيُّ ﷺ يتحيَّن الفرص في إبراز حقيقة حرصه على الناس كافَّة؛ فقد سَمِعَ ﷺ أن ثلاثةً من الصحابة يُريدون أن يَشُقُّوا على أنفسهم؛ ظنًّا منهم أن هذا الأمر سيكون سببًا قويًّا في قربهم لله تعالى؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)»[2].

وما أجمل أن نختم كلامنا بموقف يعكس مدى انشغال رسول الله ﷺ بأُمَّته وحرصه عليها، ومدى تقدير ربِّ العالمين جل جلاله لهذا الحرص! فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إذ يروي «أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[3]﴾، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[4]﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي». وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ»[5].

---

(١) الترمذي عن زيد بن خالد الجهني: أبواب الطهارة، السواك (٢٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٦٩١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٣٩٠).

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح (١٤٠١).

(٣) (إبراهيم: ٣٦).

(٤) (المائدة: ١١٨).

(٥) مسلم عن عبد الله بن عمرو: كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢)، والنسائي (١١٢٦٩)، والطبراني: المعجم الكبير (١٥١٥)، وشعب الإيمان للبيهقي (٣٠٨)، وابن حبان (٧٣٥٧).

المبحث الرابع:
نقاء حياته ﷺ

اتَّصفت حياة النبي ﷺ قبل الرسالة وبعدها بالنقاء التامِّ والأخلاق والشمائل العظيمة التي قلَّما تجتمع في تلك البيئة الجاهليَّة لأحد، فقد اشتهر بالصدق والأمانة؛ الأمر الذي جعل أعداءه يستأمنونه على أموالهم وودائعهم رغم عدائهم الشديد له، وعدم إيمانهم بدعوته، ولم تُنْسِهِ ﷺ عداوةُ قومه له خصلةَ الأمانة؛ لذلك فقد استخلف ﷺ عليَّ بن أبي طالب ﷺ ليلة الهجرة لردِّ الودائع إلى أصحابها، رغم أن أصحاب هذه الأمانات قد أجمعوا آراءهم على قتله في تلك الليلة.

ولننظر إلى سيرته العطرة لنُدرك نقاء حياته ﷺ وحِفْظ الله له؛ فقد صُنِعَ بحقٍّ على عين الله تبارك وتعالى؛ ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، فقد حفظه الله ﷻ فترة شبابه -قبل النبوة- عمَّا كان عليه أهل الجاهليَّة، وعصمه عن مقارعة الآثام أو إتيان الدنايا، فشبَّ رسول الله ﷺ -كما يقول ابن إسحاق وغيره- يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهليَّة ومعايبها[1].

ومن جوانب حفظ الله ﷻ له وعصمته إيَّاه ما كان يُحدِّث به ﷺ من أنه لم تُكشف له عورة وهو غلام، فقال ﷺ «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي غِلْمَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ، نَنْقُلُ حِجَارَةً لِبَعْضِ مَا يَلْعَبُ بِهِ الصِّبْيَانِ، كُلُّنَا قَدْ تَعَرَّى وَأَخَذَ إِزَارَهُ[2] وَجَعَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ؛ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الحِجَارَةَ، فَإِنِّي لأُقْبِلُ مَعَهُمْ وَأُدْبِرُ إِذْ لَكَمَنِي لاكِمٌ لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: شُدَّ عَلَيْكَ إِزَارَكَ. قَالَ: فَأَخَذْتُهُ فَشَدَدْتُهُ عَلَيَّ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَنْقُلُ الحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِي وَإِزَارِي عَلَيَّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي»[3].

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١٨٣، وابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢٨٦.
(٢) الأُزُر: جمع إزَار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. انظر: المعجم الوسيط، مادة أزر ١/ ١٦.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١٨٣، والسهيلي: الروض الأنف ١/ ٣١٢، والصالحي: سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٤٧.

وقد وقع قريبٌ من هذا عند بناء الكعبة، فروى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: حدَّثني أبي العباسُ بن عبد المطلب، قال: لَمَّا بَنَتْ قريش الكعبة انفردتْ رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكنتُ أنا وابن أخي، فجَعَلْنَا نأخذُ أُزُرَنَا فنضعها على مناكبنا[1]، ونجعل عليها الحجارة، فإذا دنونا من الناس لَبِسْنَا أُزُرَنا، فبينا هو أمامي إذ صُرِعَ[2]، فسَعَيْتُ وهو شاخص ببصره[3] إلى السماء، فقلتُ: يابن أخي، ما شأنك؟ قال: «نُهِيتُ أَنْ أَمْشِيَ عُرْيَانًا». قال: فكتمتُه حتى أظهره الله بنبوَّته[4].

وكان مِنْ حِفْظ الله له -أيضًا- أنه لم يركن إلى اللهو ولم يسمع الغناء، يَرْوِي في ذلك عليٌّ رضي الله عنه فيقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَهُمُّونَ بِهِ مِنَ الْغِنَاءِ إِلاَّ لَيْلَتَيْنِ، كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا؛ لَيْلَةٌ لِبَعْضِ فِتْيَانِ مَكَّةَ وَنَحْنُ فِي رِعَايَةِ غَنَمِ أَهْلِنَا، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي؛ حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ فَأَسْمُرَ بِهَا كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ. فَقَالَ: بَلَى. فَدَخَلْتُ حَتَّى إِذَا جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ عَزْفًا وَغَرَابِيلَ[5] وَمَزَامِيرَ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: تَزْوِيجُ فُلانٍ فُلانَةَ. فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، وَضَرَبَ اللهُ عَلَى أُذُنِي، فَوَاللهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا. ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي رَأَيْتُ.

ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي؛ حَتَّى أَسْمُرَ بِمَكَّةَ. فَفَعَلَ، فَدَخَلْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ مَكَّةَ سَمِعْتُ مِثْلَ الَّذِي سَمِعْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، وَضَرَبَ اللهُ عَلَى أُذُنِي، فَوَاللهِ مَا أَيْقَظَنِي إِلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي.

فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: لا شَيْءَ. ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي رَأَيْتُ، فَوَاللهِ مَا هَمَمْتُ وَلا

---

(١) المناكب: جمع المَنْكِب، وهو مُجْتَمَع عَظْم العضد والكتف. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نكب ١/ ٧٧٠.

(٢) صُرِعَ: أي سقط ووقع. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صرع ٨/ ١٩٧.

(٣) شَخَصَ الرجل ببصره: رَفَعَه فلم يَطرِفْ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شخص ٧/ ٤٥.

(٤) مسند البزار (١٢٩٥)، وابن أبي عاصم الشيباني: الآحاد والمثاني ١/ ٢٧١ (٣٥٤)، والصالحي: سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٤٨، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٢٥١، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٧٨٣).

(٥) الغرابيل: جمع الغِرْبال، وهو الدُّفُّ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غربل ١١/ ٤٩١.

عُدْتُ بَعْدَهُمَا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللهُ بِنُبُوَّتِهِ»(١).

كما أنه ﷺ لم يشرب خمرًا قطُّ، ولم يسجد لصنم قطُّ؛ فعن عليٍّ ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدتَ وثنًا قطُّ؟ قال: «لا». قالوا: فهل شربتَ خمرًا قطُّ؟ قال: «لا، وَمَا زِلْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ كُفْرٌ، وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ»(٢).

وتروي أُمُّ أيمن رضي الله عنها حاضنة الرسول ﷺ عن عدم سجوده ﷺ لصنم قطُّ فتقول: كان بُوَانة صنمًا تحضره قريش يومًا في السنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلِّم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه فيأبى، حتى رأيتُ أبا طالب غضب عليه، ورأيتُ عمَّاته غضبن عليه، وقُلْنَ: يا محمد، ما تريد أن تحضر لقومك عيدًا، ولا تُكَثِّر لهم جمعًا؟! فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب ما شاء الله، ثم رجع مرعوبًا فَزِعًا، فقالت عمَّاته: ما دهاك؟ قال: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي لَمَمٌ». فقلن: ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيتَ؟ قال: «إِنِّي كُلَّمَا دَنَوْتُ مِنْ صَنَمٍ مِنْهَا تَمَثَّلَ لِي رَجُلٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ يَصِيحُ بِي: وَرَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ، لا تَمَسَّهُ». قالت: فما عاد إلى عيد لهم(٣).

وظلَّ على هذه الحال بعد نزول الوحي عليه لا يركن إلى الدنيا، ولا يبحث عن ملذَّاتها، فها هو ﷺ يقول لزعماء قريش عندما عرضوا عليه الدنيا في مقابل ترك دعوته: «مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لأَمْرِ اللهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»(٤). فالهدف واضح في ذهنه ﷺ، وثقته كبيرة بنصر الله له رغم التكذيب والعناد الذي يُلاقيه.

---

(١) ابن حبان (٦٢٧٢)، والحاكم (٧٦١٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. والبزار (٦٤٠).
(٢) الصالحي: سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٤٩، والمتقي الهندي: كنز العمال (٣٥٤٣٩)، والشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٤/ ٥٤٦.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٥٨، والصالحي: سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٤٩، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٦٦.
(٤) البخاري: خلق أفعال العباد ص١٨٦ حديث رقم (٤٠٨)، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٤٧٩.

ومن نقاء حياته وكمالها أنه لم يَتَحَيَّن ويستغل الفرص للتعالي على قومه وأتباعه، وهناك شواهدُ كثيرةٌ على ذلك؛ منها موقفه من كسوف الشمس وقت وفاة ابنه إبراهيم؛ فعن المغيرة بن شعبة، أنه قَالَ: كَسَفَتِ الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت لموت إبراهيم. فقال رسول الله ﷺ « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الله، لاَ يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللهَ ﷻ»[1]. مثلُ هذا لا يصدر عن كاذب أو دجال، فلو كان غير النبي ﷺ مِنْ مُدَّعِي النُّبُوَّة، لانتهز هذه الفرصة، وقال: انظروا الشمس حزنت لحزني وانكسفت. ولكن حاشا للنبي ﷺ أن يفعل ذلك.

ومن نقاء حياته ووضوحها -أيضًا- حرصه على إظهار بشريَّتِهِ ﷺ فما محمد إلاَّ بشر من بني آدم، وُلِد من أبوين، فيأكل الطعام ويَتَزَوَّج النساء، يجوع ويمرض، ويفرح ويحزن، والمدهش حقًّا أن يأتي هذا التأكيد منه ﷺ بل ويُصِرُّ عليه. وما أجمل أن نتذكَّر هنا موقف جرير بن عبد الله ﷺ الذي قال: أُتِيَ النبي ﷺ برجل ترعد[2] فرائصه[3]، فقال له: « هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ[4] فِي هَذِهِ الْبَطْحَاءِ[5]»! قال: ثم تلا جرير بن عبد الله البجلي: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ[6]﴾[7].

ومن أعظم الأدلَّة على نقاء حياته ﷺ عتابُ الله ﷻ له ﷺ ونزول هذا العتاب في القرآن الكريم؛ ليظل محفوظًا بين الناس على الدوام، وهذا العتاب يكشف لنا كيف كانت حياة النبي ﷺ واضحةً غاية الوضوح، حتى عَلِمَ الجميعُ سِرَّه وعلانيته، فهل يَتَأَتَّى ذلك

---

(١) البخاري: كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١)، واللفظ له.

(٢) تُرْعَد فرائصه: أي ترجف وتضطرب من الخوف. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رعد ٣/ ١٧٩.

(٣) فرائص جمع فريصة: وهي المُضْغَة التي بين الثدي، ومَرْجِع الكتف من الرجل، والدابة تُرْعَد إذا فَزِعَت. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة فرص ٧/ ٦٤.

(٤) القديد: اللحم المَمْلُوحُ المُجَفَّف في الشمس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قدد ٣/ ٣٤٣.

(٥) بطحاء الوادي: تراب لَيِّنٌ مما جرَّته السُّيول، ومنها بطحاء مكة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بطح ٢/ ٤١٢.

(٦) (ق: ٤٥).

(٧) الحاكم (٣٧٣٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٧٠٥٢).

لدعِيٍّ أو كذَّاب! ومن أمثلة هذا العتاب قوله تعالى في حقِّ نَبِيِّنَا ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ[1]﴾، وذلك أن عبد الله بن أم مكتوم أتى النبيَّ ﷺ يستهديه، فأعرض النبي ﷺ عنه؛ لانشغاله بدعوة سادات قريش، فنزل عتاب الله جَلَّ وعلا لنَبِيِّه ﷺ، فكان قرآنًا يُتْلَى إلى يوم القيامة، وقد تكرر هذا العتاب في أكثر من موقف من مواقف حياته ﷺ.

هكذا كان محمدٌ ﷺ واضحًا غاية الوضوح، ونقيًّا غاية النقاء؛ فكانت رسالته خاتمة الرسالات.

المبحث الخامس:

أميتـــــــــه ﷺ

أرسل الله نَبِيَّه محمدًا ﷺ إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، وأَيَّده بالمعجزات الدالَّة على صدقه، ومن أبرز هذه المعجزات أُمِّيَّته ﷺ. فمن الثابت تاريخيًّا أن النبي محمدًا ﷺ وُلِدَ أُمِّيًّا، وظَلَّ على ذلك إلى أن بعثه الله للعالمين وهو أُمِّيٌّ، وهذا كمالٌ في حَقِّه ﷺ، ومعجزة من معجزاته الشريفة، يقول عنها ابن تيمية: «بَيَّنَ سبحانه من حاله ما يَعْلَمُه العامَّة والخاصَّة، وهو معلومٌ لجميع قومه الذين شاهدوه، متواترٌ عند مَنْ غاب عنه وبَلَغَتْهُ أخباره من جميع الناس - أنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ كتابًا، ولا يحفظ كتابًا من الكتب؛ لا المُنَزَّلة ولا غيرها، ولا يكتب بيمينه كتابًا، ولا ينسخ شيئًا من كُتب الناس، المُنَزَّلَة ولا غيرها»[2].

وتَعَددت الآيات القرآنية التي تُثْبِتُ أُمِّيَّة الرسول ﷺ، وتَرُدُّ على الذين يَدَّعُونَ أن النبي ﷺ قد تَعَلَّم هذا القرآن من قراءته في كُتب الأَوَّلِينَ، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[3]﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

---

(١) (عبس: ١، ٢).
(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح ٥/ ٣٣٨.
(٣) (الجمعة: ٢).



رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[١]﴾. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نَبِيُّكُم ﷺ أُمِّيًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب...»[٢].

كما قال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ[٣]﴾. ويُعَلِّقُ الزمخشري على هذه الآية قائلاً: «وأنت أُمِّيٌّ ما عَرَّفَكَ أحدٌ قَطُّ بتلاوة كتاب ولا خطٍّ. (إِذًا) لو كان شيء من ذلك، أي من التلاوة والخط. (لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) من أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أُمِّيٌّ لا يكتب ولا يقرأ... أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تَعَلَّمَهُ أو كتبه بيده»[٤].

وتُعَدُّ أُمِّيَّة النبي ﷺ من المعجزات العقلية على صدق النبي ﷺ، «والأُمِّيَّة وصفٌ خصَّ اللهُ به من رسله محمدًا؛ إتمامًا للإعجاز العلمي العقلي الذي أيَّده الله به، فجعل الأُمِّيَّة وصفًا ذاتيًا له... ليُظْهِرَ أن كماله النفساني كمالٌ لدنيّ إلهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأُمِّيَّة وصفَ كمالٍ فيه، مع أنها في غيره وصف نقصان؛ لأنه لَمَّا حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات الحقِّ، وكان على يقين من علمه، وبيِّنَةٍ من أمره، ما هو أعظم مما حصل للمتعلمين؛ صارت أُمِّيَّتُه آيةً على كَوْن ما حصل له إنَّما هو من فيوضات إلهيَّة»[٥].

ومن تمام هذه المعجزة النبوية أن الكتاب الذي أُنزِلَ عليه معجِزٌ لمشركي العرب ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، رغم أن مشركي العرب أهلُ الفصاحة والبلاغة، بل وتحدَّاهم ﷺ أن يأتوا بمثله، أو حتى بسورة أو آية من مثله؛ فليفكرْ صاحب العقل في هذه المعجزة الباهرة، كما يقول صاحب التحرير والتنوير: «أفلا تعقلون أنَّ مثل هذا الحال -من الجمع بين الأُمِّيَّة والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه- لا يكون إلاَّ حال مَنْ أفاض

---

(١) (الأعراف: ١٥٨).
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٩٨.
(٣) (العنكبوت: ٤٨).
(٤) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٣/ ٤٦٢.
(٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٩/ ١٣٣.

الله عليه رسالته؛ إذ لا يَتأَتَّى مثله في العادة لأحدٍ»[١].

ولقد اعترف مشركو قريش قديمًا أن هذا القرآن المعجز لا يمكن أن يتأتى لرجل أُمِّيٍّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة؛ فَادَّعَوْا أن ذلك سحرٌ يُؤْثَر[٢]، فها هو ذا عتبة بن ربيعة يقول: إني والله قد سمعتُ قولاً ما سمعتُ مثله قَطُّ، ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله! ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإنْ تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بغيركم، وإنْ يَظْهَرْ على العرب فمُلْكُهُ مُلْكُكُم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتُم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه[٣].

كما أَدْرَكَ ذلك -أيضًا- عَدَّاس ذلك الفتى النصراني الذي أرسله ابني ربيعة إلى الرسول ﷺ بقِطْفٍ[٤] من العنب، بعدما لجأ إلى حائطهما، وهو عائدٌ ﷺ من الطائف مكروبًا حزينًا على عدم إيمان أهلها، ففعل عَدَّاس، وأقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلمَّا وضع رسول الله ﷺ يده قال: «باسم الله». ثم أكل، فنظر عَدَّاس إلى وجهه، ثم قال له: والله! إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة. فقال له رسول الله ﷺ: «مِنْ أَيِّ الْبِلادِ أَنْتَ؟ وَمَا دِينُكَ؟» فقال عَدَّاس: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نِينَوَى[٥]. فقال له رسول الله ﷺ: «مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟» فقال له عَدَّاس: وما يُدْرِيكَ ما يونس بن متى؟! والله لقد خرجتُ من نينوى وما فيها عشرة يعرفون مَتَّى، من أين عَرَفْتَ أنت مَتَّى وأنت أُمِّيٌّ وفي أُمَّةٍ أُمِّيَّة؟! فقال رسول الله ﷺ: «هُوَ أَخِي، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ». فأكبَّ عَدَّاس على رسول الله ﷺ يُقَبِّلُ رأسه ويديه ورجليه، فلمَّا رجع عَدَّاسٌ، قالا ابنا ربيعة: ويلك يا عَدَّاسُ! ما لَكَ تُقَبِّلُ رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟! فقال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد خَبَّرَنِي بأمر لا يعلمه إلاَّ نبي[٦].

---

(١) السابق نفسه ١١/ ١٢٣.
(٢) سحر يؤثر: أي يأثره عن غيره. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٦.
(٣) البيهقي: دلائل النبوة ٢/ ٢٠٤، ٢٠٥، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٥٠٤، ٥٠٥.
(٤) القِطْف: ما قطف من الثمر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قطف ٩/ ٢٨٥.
(٥) نينوى: قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها: نينوى، منها كربلاء. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ٣٣٩.
(٦) ابن تيمية: الجواب الصحيح ١/ ٣٩١، ٣٩٢.



وقد حاول بعضُ المشكِّكِينَ أن يَنْفُوا عنه ﷺ صفة الأُمِّيَّة؛ لأن سرده لما في التوراة والإنجيل، وتنبُّؤه بالعديد من الأحداث المستقبليَّة -كهزيمة الفرس، كما ذكرنا سابقًا، وغير ذلك- دون تعليم، إنما يُعَدُّ معجزةً عقليَّةً باهرةً لا ينكرها إلاَّ المكابرون، وهؤلاء المكابرون يعلمون جيدًا أن أُمِّيَّة النبي ﷺ مذكورة في التوراة والإنجيل؛ مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ[1]﴾.

كما قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ[2]﴾، تشهدون أن صفة محمد ﷺ في كتابكم، ثم تكفرون به وتنكرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل: «النَّبِيَّ الأمِّيَّ الذي يؤمن بالله وكلماته»[3].

هكذا كانت أُمِّيَّته ﷺ دليلاً من أَدِلَّة صدقه ونُبُوَّتِهِ.

* * *

(١) (الأعراف: ١٥٧).
(٢) (آل عمران: ٧٠).
(٣) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٦/ ٥٠٣.

ذِكْرُهُ ﷺ في الكتب السابقة

المبحث الأول: بشارات النبي ﷺ في كتب الأولين
المبحث الثاني: بشارات النبي ﷺ في التوراة
المبحث الثالث: بشارات النبي ﷺ في الإنجيل

قال ابن معصوم المدني (شاعر أندلسي):

بِمَبْعَثِهِ إِنْجِيلُ عِيسَى مُبَشِّرٌ   وَتَوْرَاةُ مُوسَى وَالزَّبُورُ مُتَرْجِمُ

الفصل الخامس:

ذِكْرُهُ ﷺ في الكتب السابقة

أكرم الله ﷻ البشرية برسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، فأرسله إلى جميع العالمين إنسهم وجِنِّهم، عربهم وعجمهم، بأوضح حُجَّة، وأظهر دلالة، وأبين برهان، وساق الله ﷻ تلك الدلائل الظاهرة البينة لتَعْلَم البشرية صدق دعوته ونُبْلَ رسالته، وأنه حلقة في سلسلة الأنبياء الذين أرسلهم الله ﷻ لوظيفة واحدة لا تتجزّأ، وتتمثَّلُ في دعوة التوحيد لله ربِّ العالمين.

ومن سُنَّة الله تعالى أن كل نبي يُسَلِّم جذوة دعوته إلى الذي يليه، وهكذا فقد بَشَّرَتْ به ﷺ الكتب السالفة، وأَخْبَرَتْ به الرسل السابقة، من عهد آدم أبي الأنبياء والبشر إلى عهد المسيح عيسى بن مريم ؏، كُلَّما قام رسولٌ أُخذ عليه الميثاق بالإيمان به والبشارة بنُبُوَّته ورسالته.

وهذه البشارات هي بمنزلة الإعلان والبلاغ المسبق من الله ومن الرسل إلى الأمم والشعوب بمَقْدَم محمد ﷺ، والحكمة منها أن لا يحدث انقطاع في الهدي الإلهي؛ فإذا جاء نبيٌّ جديد فلا يُقَابله أتباع النبي السابق بشيء من العداوة والبغضاء والتعصُّبِ المذموم، بل يشعرون أنه امتداد لما كان عليه النبي السابق؛ فتتواصل بذلك الهداية الإلهية، وتتعاضد وتتكامل الرسالات السماوية.

وسنتناول في هذا الفصل -بعون من الله- مجموعة من المباحث المتضمنة لبِشارات عن محمد ﷺ، وهي على النحو التالي:

المبحث الأول: بشارات النبي ﷺ في كتب الأَوَّلِينَ

المبحث الثاني: بشارات النبي ﷺ في التوراة

المبحث الثالث: بشارات النبي ﷺ في الإنجيل

المبحث الأول:
بشارات النبي ﷺ في كتب الأولين

أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل لكل أُمَّة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، فينذرهم ويُبَشِّرهم؛ ليُقيم عليهم الحُجَّة يوم القيامة، وأن كل هذه الأمم والشعوب قد عَرَفت وتَيقَّنَتْ -عن طريق أنبيائهم ورسُلهم- بمجيء خاتم الأنبياء والرُّسل محمد ﷺ، وهو ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [1]﴾، أي: «إنَّ ذِكْرَ محمدٍ عليه السلام في كتب الأولين»[2].

ورغم أنه لم يَعُدْ من كتب الأَوَّلِينَ إلاَّ بقايا قليلة جدًّا، لكنها لم تَخْلُ من ذِكْرٍ لمحمد ﷺ ورسالته؛ ففي كتاب (السامافيدا)، أحد الكُتب المقدَّسَة لدى البراهمة، نجد النصّ التالي: «أحمد تلقَّى الشريعة من ربِّه، وهي مملوءة بالحكمة، وقد قُبست من النور كما يقبس من الشمس»[3].

وجاء في كتاب مُقَدَّسٍ آخر عند الهندوس وهو (أدهروهيدم) ما نصُّه: «أيها الناس، اسمعوا وَعُوا؛ يُبْعَثُ المحمَّدُ بين أظهر الناس، وعَظَمَتُه تُحْمَدُ حتى في الجنة، ويجعلها خاضعة له وهو المحامد»[4]. يعني محمد.

وفي كتاب هندوسي ثالث هو (بفوشيا برانم) ما يلي: «في ذلك الحين يُبعث أجنبي مع أصحابه باسم محامد الملقب بأستاذ العالم[5]، والمَلِك يطهِّره بالخمس المطهرة»[6]. ولا شكَّ

---

(١) (الشعراء: ١٩٦).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٣٨.

(٣) السامافيدا الجزء الثاني من الفقرة ٦-٨، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/٣٥١.

(٤) كتاب أدهروهيدم، الجزء العشرون الفصل ١٢٧ الفقرة ٧٠، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/٣٥٢.

(٥) وأيضًا فإن في الإنجيل إنجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام أخبر بهذه الصفة، بقوله: «إن أركون العالم سيأتي». وأركون تعني السيد والعظيم. انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح ٥/٣٠٤، ٣٠٥.

(٦) الجزء ٢ الفصل ٣ العبارة الثالثة وما بعدها، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/٣٥٢.

في أنها الصلوات الخمس التي يمحو الله بهنَّ الخطايا.

وقد جاء وصف أصحاب رسول الله ﷺ في كتاب (بنوشيا برانم)، فقد ورد فيه: «هم الذين يختتنون، ولا يربون القَزَع[١]، ويربون اللِّحَى، ويُنادون الناس للدُّعاء بصوت عالٍ[٢]، ويأكلون أكثر الحيوانات إلاَّ الخنزير، ولا يستعملون الدرباء[٣] للتطهير، بل الشهداء هم المتطهرون، ويُسمون بمسليّ[٤]؛ بسبب أنهم يُقاتلون من يُلبس الحقَّ بالباطل، ودينهم هذا يخرج منِّي وأنا الخالق»[٥].

ولقد قامت مجموعة من الباحثين الهندوس بتحليل العديد من الترتيلات الهندوسية المختلفة، والتي جاءت في كتب الويدات وغيرها من الكتب الهندوسية، فوجدوا أن النبي محمدًا ﷺ قد ذُكِرَ صراحة، كما ذُكِرَتْ بعضُ محاور رسالته ودعوته؛ لذلك كَتَبَ عددٌ من علماء الهندوس وغيرهم بحوثًا حول هذه الشخصية الفذَّة التي وجدوها في كتبهم، وهي شخصية (نراشنس)، فدرسوها في ضوء ما ذُكِرَ لها من الخصائص والأوصاف.

وكلمة (نراشنس) كلمة سنسكريتية[٦] مكوَّنة من مقطعين؛ أوَّلهما: (نر)، ومعناه الإنسان، وهذا غريب بالنسبة للويدات التي قلَّما تختار من البشر أحدًا لمدحه والثناء عليه. والمقطع الثاني: (أشنس)، ومعناه اللغوي: مَنْ يُحْمَدُ ويُثْنَى عليه بكثرة، فهو مرادف لمحمد مرادفة تامَّة، ومع ذلك فلم تَكْتَفِ الويدات بذكر اسم هذا النبي العظيم فقط، بل «وفَّرَتْ لنا تفاصيل أخرى تقطع سبل النقاش والجدال، وتُبُتُّ البشارة بتَّة لا مجال فيها لأدنى احتمال، وأكبر مجموعة لهذه التفاصيل هي ما ورد في (أتهرو ويد) في بابه العشرين، والفصل السابع والعشرين بعد المائة، بينما يوجد بعض البيانات في مناتر[٧] أخرى جاءت

(١) جمع قزعة وهي القطعة من السَّحاب، وسمِّي شعر الرأس إذا حُلِق بعضه وترك بعضه قزعًا؛ تشبيهًا بالسَّحاب المتفرِّق. انظر: شمس الحق آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١/ ١٦٥.
(٢) ينادون للدعاء: أي ينادون للصلاة؛ لأن الصلاة دعاء.
(٣) الدرباء: نبات يخرج به الهنود الدم من جسم الإنسان، ويعدون هذا العمل تطهيرًا من الخطايا.
(٤) مسلي: أي يسمون بالمسلمين، دخل عليها شيء من التحريف.
(٥) الجزء الثالث الفصل الثالث عبارات ٢٧، ٢٨، نقلا عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/ ٣٥٢.
(٦) السنسكريتية: هي لغة قديمة في الهند، وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية، والجانية.
(٧) مناتر: هي التراتيل الهندوسية في كتب الويدات.

متفرِّقَة في بقية الويدات والكتب المقدسة عند الهندوس»[١].

وقد تُرجمت هذه المناتر على الصورة التالية:

١- «اسمعوا أيها الناس باحترام، إن نراشنس يُحمد ويثنى عليه، ونحن نعصم ذلك المهاجر -أو حامل لواء الأمن- بين ستين ألف عدوٍّ وتسعين عدوًّا».

ويُلاحَظُ في هذه الترتيلة عدَّة أشياء؛ أوَّلها: أن هذه الشخصية تتمتَّع بحمد الناس وثنائهم عليها، وتمتاز على الآخرين بذلك، ولا يُعرف في تاريخ البشر إنسانٌ حمده الناس وأثْنَوْا عليه بمعشار ما أثْنَوْا على محمدٍ ﷺ وحمدوه، فهو الذي امتاز بهذه الخصيصة بين الأنبياء.

وثانيها: أن هذه الترتيلة ذَكَرَتْ كلمة المهاجر، ومن المعلوم أن محمدًا ﷺ قد هاجر من مكة إلى المدينة، وموضوع الهجرة من أبرز الأحداث التي مرَّ بها الأنبياء عليهم السلام.

وثالثها: وهو الغريب في هذه الترتيلة أنها أحصت أعداء النبي ﷺ؛ فهم ستين ألفًا وتسعين عدوًّا، وقد تتبع بعض الباحثين عدد من عادى النبي ﷺ في حياته فوجدهم يقربون من هذا العدد، والله أعلم[٢].

٢- «يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتي عشرة امرأة، ويحصل له من علو المنزلة، وسرعة المركب أنه يمسُّ السماء ثم ينزل».

وهذه الترتيلة واضحة جدًّا في دلالتها على نُبُوَّةِ محمد ﷺ والبشارة به؛ إذ ما من وصف ذُكِرَ فيها إلاَّ وقد تَحَقَّقَ في رسول الله ﷺ، فنراشنس -محمد ﷺ- كان دائم الركوب للإبل في أسفاره وغزواته، وهذا مشهور متواتر في كتب السيرة، وهو دليل على أن ميلاد هذا النبي لا يكون إلاَّ في منطقة صحراوية؛ لأن الإبل لا توجد إلاَّ في مثل هذه المناطق، وقد وُلِدَ رسول الله ﷺ بالفعل في مكة، وهي أرض صحراوية قاحلة تُحِيطُ بها

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/ ٣٦٦.
(٢) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/ ٣٧١.

صحاري شاسعة. ثم إن النبيﷺ لا يكون عزبًا بل يتزوَّج من اثنتي عشرة امرأة، ولم يَثْبُتْ ذلك لأحد غيره من الأنبياء والمرسلين؛ فقد تَزَوَّج رسول اللهﷺ من اثنتي عشرة امرأة على رأي من قالوا بأن السيدة ريحانة بنت زيدرضي الله عنها كانت زوجة من زوجاته ﷺ (١).

وقد تحدَّث ويد بركاش أبادهياي -وهو أحد كبار علماء اللغة السنسكرتية في شبة القارة الهندية- عن ترجمة الفقرة الثانية من هذه البشارة في كتابة: «نراشنس أور أنتم رشي» ص١٤، وهي أن أزواجه تكون اثنتي عشرة امرأة، وهو لم يُشِرْ إلى احتمال أيِّ معنًى آخر سواه(٢).

وهناك إشارة أيضًا إلى رحلة الإسراء والمعراج التي ركب فيه النبيﷺ البراق(٣) الذي كان من سرعته أنه يضع قدمه عند منتهى طرفه، وأنه علا به إلى السماء، ثم نزل إلى الأرض(٤).

ويتَّضِحُ من هاتين الترتيلتين -وغيرها من بقيَّة التراتيل المتعلِّقة بنراشنس- مدى تطابقهما مع أوصاف محمدﷺ ؛ لذلك فهو دليل صريح من كتب الهندوس على التبشير بنُبُوَّة محمدﷺ ، ولا يَتَوانَى بعض علماء الهندوس في ذكر ذلك صراحة، ولا يَستغرب أحد أن كُتب الهندوس قد جاءت بأوصاف لرسول اللهﷺ ؛ فاعتقادُنا بأنها مجموعة من الكتب الموضوعة بأيدٍ بشريَّة قد يكون صحيحًا إن كان المقصود بذلك التحريف والتبديل؛ لأنه لا يُعقل أن تتنزل الرسالات في منطقة الشرق الأوسط، وتُنسى بقية المعمورة بساكنيها من الوحي والرسالات -وحاشا لله ﷻ ذلك- لأنه يتعارض مع رحمته وعدله، وقد أخبرنا القرآن الكريم أن كل أُمَّةٍ من الناس لم تَخْلُ من نذير أو بشير، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ

---

(١) انظر: السابق نفسه ١/ ٣٧١، ٣٧٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٦٠٥، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٨٨.

(٢) نقلا عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/ ٣٧٤.

(٣) البُراق: دابة يركبها الأنبياء عليهم السلام. وقيل: البراق فرس جبريل، وهي الدابة التي ركبها الرسول ﷺ في الإسراء والمعراج؛ سُمِّي بذلك لنصوع لونه وشدَّة بريقه، وقيل: لسرعة حركته شبَّهه فيها بالبَرْق. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة برق ١٠/ ١٤.

(٤) انظر: صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/ ٣٧٥.

خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ[١] ﴾. ومن ثَمَّ يمكن التعويل على هذه الترتيلات الهندوسية -استنادًا لما ذكره علماؤها- في التصديق والبشارة بنُبُوَّة محمد ﷺ.

المبحث الثاني:
بشارات النبي ﷺ في التوراة

أدلَّة وبراهين وبشارات كثيرة، تلك التي تَضَمَّنَتْهَا كُتب التوراة الموجودة الآن بين يدي أتباعها؛ بما يُؤَكِّد صدق النبي محمد ﷺ في دعواه ورسالته، وأنه خاتم المرسلين والمبعوثُ رحمةً للعالمين؛ ممَّا يُقِيم الحُجَّة على أهل هذه الكُتب، ويُثْبِتُ إيمان المؤمنين.

ولقد أراد اليهود بكل عزمهم وقُوَّتهم وجهدهم أن يطمسوا النور الذي بين أيديهم، فحرَّفوا وبدَّلوا في كتاب الله التوراة، وكان من جملة ما طمسوا حقيقته وشَوَّهُوا صورته، البشاراتُ الإلهية بقدوم خاتم الأنبياء محمد ﷺ وذلك لعدم إيمانهم بقُدْرَة أَيَّة أُمَّة غيرهم على النهضة العالمية المرجُوَّة لطريق الله القويم، ولَمَّا كان النبي الخاتم من وَلَدِ إسماعيل، وليس من ولد إسحاق كما اعتادوا دومًا؛ فقد زادهم ذلك حقدًا فوق حقدهم، فعملوا بكل ما أُوتُوا من قُوَّة على تشويه حقيقة النبي الخاتم محمد ﷺ والدين الحقّ الإسلام.

قوله في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة: «إن هاجر لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال: يا هاجر، من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدين؟ فلما شرحتْ له الحال، قال: ارجعي، فإني سأكثِّر ذريتك وزرعك حتى لا يُحصون، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا اسمه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع ذُلَّك وخضوعك، وولدك يكون وحش الناس، يده فوق يد الجميع، ويد الكل به، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته»[٢]. يقول ابن القيم: «... ومعلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحاق؛ بل كان في أيدي بني إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم

(١) (فاطر: ٢٤).
(٢) الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين، نقلاً عن ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى ص١٤٧.

يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لَمَّا بُعِثَ موسى، وكانوا مع موسى من أعزِّ أهل الأرض، ولم يكن لأحد عليهم يد؛ ولذلك كانوا مع يوشع إلى زمن داود ومُلْكِ سليمان، المُلْك الذي لم يُؤتَ أحدٌ مثله فلم تكن يد بني إسماعيل عليهم، ثم بعث الله المسيح فكفروا به وكذبوه، فدمَّر عليهم تكذيبُهم إيَّاه، وزَالَ ملكهم، ولم تَقُمْ لهم بعده قائمة، وقَطَّعَهُم الله في الأرض أُممًا، وكانوا تحت حُكْمِ الروم والفرس، وغيرهم، ولم تكن يَدُ وَلَدِ إسماعيل عليهم في هذا الحال، ولا كانت فوق يَدِ الجميع إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ برسالته، وأكرمه الله بنُبُوَّته، فصارت بمبعثه يَدُ بني إسماعيل فوق الجميع، فلم يَبْقَ في الأرض سلطان أعزَّ من سلطانهم؛ بحيث قهروا سلطان فارس والروم والترك والدَّيْلَم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وعُبَّاد الأصنام؛ فظهر بذلك تأويل قوله في التوراة: «ويكون يده فوق يد الجميع، ويد الكل». وهذا أمر مستمرٌّ إلى آخر الدهر. قالت اليهود: نحن لا نُنْكِر هذا؛ ولكنْ إنَّ هذه بشارة بملكه وظهوره وقهره لا برسالته ونُبُوَّته. قال المسلمون: المُلك ملكان؛ ملك ليس معه نُبُوَّة بل ملك جبار مُتَسَلِّط، وملك نفسه نبوة؛ والبشارة لم تقع بالملك الأول، ولا سيَّما إن ادَّعَى صاحبه النُّبُوَّة والرسالة وهو كاذب مفترٍ على الله؛ فهو من شَرِّ الخَلْقِ وأفجرهم وأكفرهم، فهذا لا تقع البشارة بمُلْكِه، وإنما يقع التحذير من فتنته، كما وقع التحذير من فتنة الدجال، بل هذا شرٌّ من سنحاريب وبُخْتُنَصَّر[(١)]، والملوك الظلمة الفجرة الذين يَكْذِبون على الله، فالأخبار لا تكون بشارة، ولا تفرح به هاجر وإبراهيم، ولا بَشَّرَ أَحَدٌ بذلك، ولا يكون ذلك إثابة لها من خضوعها وذُلِّها، وأن الله قد سمع ذلك ويعظِّم هذا المولود ويجعله لأُمَّة عظيمة، وهذا عند الجاحدين بمنزلة أن يقال: إنكِ ستلدين جبارًا ظالمًا طاغيًا يقهر الناس بالباطل، ويقتل أولياء الله، ويسبي حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل، ويُبَدِّل أديان الأنبياء، ويكذب على الله، ونحو ذلك، فمَنْ حَمَل هذه البشارة على هذا، فهو مِنْ أعظم الخَلْقِ بهتانًا وفرية على

(١) بُخْتُنَصَّر: هو الذي كان خَرَّب بيت المقدس، وقيل: إنما هو بُوخَتُنَصَّر، فأُعرب؛ وبُوخَتُ ابنُ، ونَصَّرُ صنم، وكان وُجد عند الصَّنم، ولم يُعرف له أب، فقيل: هو ابن الصنم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نصر ٥/ ٢١٠.



الله؛ وليس هذا بمُسْتَنْكَر لأُمَّة الغضب، وَقَتَلَة الأنبياء، وقوم البهت»[١].

ورغم هذه التشويهات المتعاقبة عبر العصور المتلاحقة في التوراة، فقد بَقِيَتْ هناك بعض النصوص التي تُدَلِّل بوضوح على وجود النبي الخاتم الذي بَشَّرَ به موسى ﷺ، بل وأراد أن يكون من أُمَّتِه!

يقول ابن تيمية: «قد رأيتُ أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنُبُوَّة محمد ﷺ باسمه، ورأيتُ نسخة أخرى بالزبور فلم أَرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى»[٢].

وإذا أردنا بعضًا من هذه التصريحات أو البشارات، فإنه عندما سقطت بابل في يَدِ مَلِكِ الفرس عام (٥٣٨ ق. م)، سُمح لليهود بالعودة إلى فلسطين -بعد أن أسرهم الزعيم الكلداني الشهير بُخْتُنَصَّر- كما سُمِحَ لهم بإعادة بناء القدس والهيكل، وعندما وُضعت الأساسات لبناء المعبد الجديد، ارتفعت صيحات الفرح بين اليهود، وفي أثناء هذه المناسبة بعث الله النبي (حجّي)، الذي قال لهم في هذه المناسبة: «وسوف أُزلزل كل الأمم، وسوف يأتي (حِمْده) لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قال رب الجنود، لي الفضة ولي الذهب، هكذا قال رب الجنود، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، هكذا قال رب الجنود، وفي هذا المكان أُعْطِي (شالوم)، هكذا قال رب الجنود»[٣].

لقد أعطى المعلِّقُون اليهود والنصارى أهمية قصوى للوعد المزدوج الذي احتوته النبوءة المذكورة آنفًا، وكلاهما يفهمان كلمة (حِمْده) على أنها نبوءة يهودية مسيحية، فلو فُسِّرَت هذه النبوءة بالمعنى المجرَّد لكلمتي (حِمْده) و(شالوم) على أنهما (الأمنية) و(السلام)؛ لأصبحت النبوءة لا شيء سوى أمنيات مبهمة غير ذات مغزى، ولكن لو فهمنا من كلمة (حِمْده) أنها شخصية حقيقية، ومن كلمة (شالوم) أنها ديانة مُنَزَّلة، وقوَّة

---

(١) ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص١٤٨، ١٤٩.
(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح ٣/ ٥٠، ٥١.
(٣) (سفر حجي ٩/ ٧-٩).

فَعَّالة، عندئذٍ تُصبح هذه النبوءة صادقة ومتحققَة في شخصية أحمد ودين الإسلام؛ ذلك لأن كلمتي (حِمْده) و(شالوم) تؤديان بدقَّة معنى كلمتي (أحمد) و(الإسلام)[١].

وقد أكَّد عبد الأحد داود[٢] على أن أصول كلمة (حِمْده) و(شالوم) تُدَلِّلان بوضوح على بشارة التوراة بمحمد ﷺ وبدين الإسلام؛ فكلمة (حِمْده) تُقرأ في النصِّ الأصلي: «في يافو حِمْده كُول هاجوييم». وهي تعني حرفيًّا: «وسوف يأتي حِمْده لكل الأمم». والكلمة مأخوذة من اللغة العبرية القديمة أو الآرمية، وأصلها (حِمْدْ) وتُلفظ بدون التسكين (حِمِد). ممَّا يعني في العبرية (الأمنية الكبيرة)، أو (المشتهى)، أو ما يتوق إليه المرء، ونجد في اللغة العربية أن الفعل (حَمِدَ) من جذر الكلمة نفسها (ح م د) بمعنى الإطراء والمديح.

ومن البشارات أيضًا التي جاءت في التوراة، ما جاء في سفر (أشعيا) في الإصحاح الثاني والأربعين ما نصُّه: «لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار[٣]؛ لتترنَّم سكان سالع، من رءوس الجبال ليهتفوا؛ ليعطوا الرب مجدًا، ويُخبروا بتسبيحه في الجزائر»[٤].

وهذا النصُّ واضح في التبشير بمحمد ﷺ فقد أشار إلى بلاد العرب وهي الديار التي سكنها قيدار بن إسماعيل، وطلب منها أن تبتهج. والغريب أن النصَّ لم يَكْتَفِ بالإشارة إلى قيدار بن إسماعيل الذي هو جدُّ النبي محمد ﷺ[٥]، بل إن النصَّ جاء بذِكْرِ دار هجرة رسول الله ﷺ وهي المدينة المنورة، فقال: «لتترنم سكان سالع». وسالع هو (سَلْع) وهو جبل في باب المدينة، كما هو اسمه إلى الآن، وهو سالع بالعبرانية[٦].

والنصُّ السابق يُلمح لنا عن طريق التأمُّل والاستقصاء لماذا استقرَّ اليهود في المدينة

---

(١) عبد الأحد داود: محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص٣٦، ٣٧.

(٢) عبد الأحد داود: هو القس دافيد بنجامين الكلداني، وُلِدَ عام (١٨٦٧م)، وكان قسيسًا للروم من طائفة الكلدان، وبعد إسلامه تسمى بعبد الأحد داود، وألف كتاب (الإنجيل والصليب)، و(محمد في الكتاب المقدس). انظر نبذة من حياته في مقدمة كتابه: محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص٥-٨.

(٣) قيدار هو ابن نبي الله إسماعيل عليه السلام.

(٤) (أشعيا ٤٢/ ١١).

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى ص١٥٨.

(٦) فاضل صالح السامرائي: نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص٢٥٣.

المنورة وما حولها؟ لقد كانوا على يقين بأن خاتم الأنبياء سيقطن المدينة، التي من أماراتها جبل (سالع) المذكور عندهم في التوراة كالبشارة السابقة، فتَمَنَّوْا أن يكون منهم وفيهم، ومن المعلوم أنهم طالما خَوَّفُوا الأوس والخزرج من النبي الخاتم الذي سيخرج من بين ظهرانيهم فيتخلص منهم، ومَنْ على شاكلتهم!

لقد كان اليهود في المدينة وما حولها يعلمون صفة النبي ﷺ، وقُرْبَ ظهوره، وهو ما يُؤَكِّدُه ابن سعد في طبقاته بسند مُتَّصِلٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما ما نصُّه: «قال: كانت يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺ قبل أن يُبْعَث، وأن دار هجرته المدينة»[1]. وهذا الأمر دليل واضح من التوراة ومن الواقع التاريخي على البشارة بالرسول الخاتم محمد ﷺ.

هذه بعض البشارات التي وردت في التوراة عن النبي محمد ﷺ، ولا يَتَّسِعُ المجال لعرض المزيد منها، والتي تدلُّ دلالةً واضحةً على صدق رسول الله فيما بَلَّغَ عن ربِّ العِزَّة ﷻ.

* * *

(١) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٠٤.

المبحث الثالث:
بشارات النبي ﷺ في الإنجيل

كَثُرَتِ البشارات بقدوم النبي الخاتم محمد ﷺ في الإنجيل، تارة بوصفه أستاذ العالم، وأخرى بتسميته الفارقليط، بل كان ثمة جزءٌ كبير من رسالة عيسى عليه السلام إلى قومه قائمًا على التبشير بمجيء محمد ﷺ، لكن اليهود خاصَّتهم وعامَّتهم، ورهبانهم وأحبارهم قد انساقوا خلف الشهوات، وحادُّوا الله عز وجل، بل ووقفوا ضدَّ رسالة عيسى عليه السلام، وقاموا بقتل يحيى عليه السلام، وغيره من أنبياء الله الذين جاءوا لهدايتهم، ورغم ذلك فإن الإنجيل لا يزال يشهد في مواضع عديدة بالحقِّ الذي يأتي من بعد عيسى، والمتمثِّل في محمد ﷺ ورسالته الخاتمة الخالدة.

إن الرسالة المحدَّدة التي بُعث بها المسيح كانت هدايةُ اليهود وإعادتهم عن ضلالهم وانحرافهم، وتصحيحُ اعتقادهم الخاطئ عن المسيح المنحدر من سلالة داود، ولإقناعهم بأن ملكوت الله على الأرض -الذي كانوا ينتظرون تحقيقه- لم يكن ليتحقق بواسطة مخلِّص منحدر من سلالة داود، ولكن من نسل إسماعيل اسمه أحمد، وهو الاسم الصحيح المطابق للاسم الذي نصَّتْ عليه الأناجيل اليونانية بصيغة (بركليتوس PERIQLYTOS)، وليس (باراكليت[1] PARACLETE) كما شَوَّهَتْه الكنائس[2].

وهذه الحقيقة يُؤَكِّدُهَا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3].

---

(١) باراكليت: هو الفارقليط أي الذي يَفْرُقُ بين الحق والباطل، وهو روح الحقِّ الذي يرسله أي: هو الذي يعلِّمكم كلَّ شيء، والفارقليط عندهم الحمَّاد، وقيل: الحامد. وجمهورهم أنه المخلِّص. انظر: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس باب القاف فصل الفاء (فرقن) ٢٦/ ٣٠٠، وابن تيمية: الجواب الصحيح ٥/ ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢) عبد الأحد داود: محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص١٤٢.

(٣) (الصف: ٦).



ولقد جاءت البشارات بمجيء خاتم الأنبياء محمد ﷺ في مواضع عديدة من الأناجيل، من ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا ونصه: «الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب»(١).

وقد اختلفت تفاسير كلمة الفارقليط اليونانية (PERIQLYTOS)؛ فمنهم من فَسَّرَها بمعني المعزِّي، أو المحامي والكثير الحمد، وقيل: هي كلمة آرامية الأصل، تعني المخلِّص من اللعنة. وقد كانت هذه الكلمة دارِجة بين المؤمنين -آنذاك- وكانت تتعَلَّقُ بخاتم الأنبياء. وقيل: هي كلمة يونانية تعني بالترجمة الحرفية لها (أحمد) أو (محمد) بالعربية. والنصوص الأصلية للإنجيل باللغة الآرمية القديمة قد جاءت بكلمة مَحَمده وحِمِده، وهي كلمات موازية تمامًا لكلمة محمد وأحمد في اللغة العربية، ولعلَّ هذا التفسير الأخير لكلمة الفارقليط -وهي لفظة يونانية كما أسلفنا- يُعْتَبَرُ الأقرب للصواب؛ لأن الله تعالى ذَكَرَهُ صراحةً على لسان عيسى عليه السلام في كتابه الكريم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ(٢)﴾، وهذا من أقوى البراهين على نُبُوَّة محمد ﷺ، وعلى أن القرآن تنزيل إلهي فعلاً؛ إذ لم يكن في وُسْع محمد ﷺ أن يعرف أن كلمة البرقليطوس كانت تعني (أحمد) إلاَّ من خلال الوحي، وهذه حُجَّة جازمة ونهائية؛ لأن المدلول الحرفي للاسم اليوناني يُعادل بدقَّة كلمتي (أحمد ومحمد)، ومن المدهش أن الوحي قد ميَّز صيغة أفعل التفضيل من غيرها أي (أحمد) من (محمد)، ومن المدهش أيضًا أن هذا الاسم الفريد لم يُعْطَ لأحد من قبلُ؛ إذ حُجِز بصورة معجزة لخاتم الأنبياء والرسل وأجدرهم بالحمد والثناء؛ ذلك أن اسم برقليطوس لم يُطلق على أي يوناني قطُّ، كما أن اسم أحمد لم يُطلق على أي عربي قبل النبي محمد، صحيح أنه كان هُنالك يوناني مشهور من أثينا اسمه بركليس (PERIQLYS) بمعنى الشهير، ولكن ليس بمعنى الأشهر(٣).

(١) (يوحنا ١٦-٢٥).
(٢) (الصف: ٦).
(٣) انظر: عبد الأحد داود: محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنّصارى ص١٩٢، ١٩٨.

وقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار[(١)] أنه سأل العلامة الكبير الدكتور كارلو نلّينو[(٢)] المستشرق الإيطالي: ما معنى بيريكلتوس؟ فأجابه بقوله: إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المعزي). فقال له: إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولستُ أسأل قسيسًا. فقال: إن معناها الذي له حمد كثير. فقال له: هل هذا يوافق أفعل التفضيل من (حمد)؟ فقال: نعم. فقال له: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد. فقال: يا أخي، أنت تحفظ كثيرًا. قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: ثم افترقنا، وقد ازددتُ بذلك تثبيتًا في معنى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ[(٣)]﴾[(٤)].

وأمَّا قوله في النصِّ المذكور سابقًا: «ويسوسكم بالحق». ففيه أيضًا دليل على صدق نُبوّة محمد ﷺ؛ حيث مَكَّنَ الله ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ أن يحكم الناس بكتاب الله الذي هو الحقُّ المبين، فقال تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ[(٥)]﴾. وهذا الفارقليط الأخير دَلَّتْهُم عليه مجموعة من المخطوطات التي وُجِدَتْ في منطقة البحر الميت، وهذه المخطوطات تُعَدُّ من أهمِّ الاكتشافات التي قد تُغيِّر الفهم التقليدي للإنجيل، كما عبر بذلك أحد كبار القساوسة، وهو القس باول ديفن أحد رؤساء الكنائس الكبرى في واشنطن؛ حيث قال: «إن مخطوطات البحر الميت -وهي من أعظم الاكتشافات منذ قرون عديدة- قد تُغيِّر الفهم التقليدي للإنجيل».

---

(١) عبد الوهاب النجار: (١٢٧٨-١٣٦٠هـ/ ١٨٦٢-١٩٤١م): أديب، مؤرخ، فقيه، ومشارك في علوم الطبيعة والكيمياء وغيرها، ملم ببعض اللغات السامية، عين مدرسًا للآدب والشريعة، واشترك في أكثر الجمعيات الإسلامية، من مؤلفاته: تاريخ الإسلام، تاريخ الخلفاء الراشدين، انظر: محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ١/ ٣١٧-٣٣٨.

(٢) كارلو نلينو (Carlo Alfoso Nallino) (١٨٧٢-١٩٣٨م): مستشرق إيطالي، حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود، وعُيِّنَ أستاذاً للتاريخ والدراسات الإسلامية بجامعة روما، وكان من أعضاء المجمع العلمي الإيطالي، والمجمع اللغوي بمصر، من كتبه: (علم الفلك.. تاريخه عند العرب في القرون الوسطى). انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٥٨٣، ونجيب العقيقي: المستشرقون ١/ ٤٣٢-٤٣٤.

(٣) (الصف: ٦).

(٤) فاضل صالح السامرائي: نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٥) (المائدة: ٤٨).

وقد جاء في هذه المخطوطات بالنصِّ ما يلي: «إن عيسى كان مسيًّا المسيحيين، وأن هناك مسيًّا آخر». ومسيا بالآرمية تعني رسولاً؛ لذلك أخبرهم المسيحُ ﷺ قائلاً: «ابن البشر ذاهب، والفارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويُفَسِّر لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدتُ له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل»[١].

فمحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء الذي يرشد البشرية إلى كل الحقِّ كما جاء بنصِّ الإنجيل: «وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويُخبركم بأمور آتية»[٢]. وهذا النص الإنجيلي يُؤَكِّده صحابة رسول الله ﷺ بقولهم: «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمسُ، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا»[٣].

وكما بَشَّر المسيح ﷺ بمجيء النبي محمد ﷺ الذي يُخَلِّص الناس من ضلالاتهم وفجورهم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة، فإن يحيى ﷺ أو يوحنا المعمدان -كما عند النصارى- أشار إلى ما يسمى الاستبدال؛ أي استبدال أُمَّة اليهود بغيرها ممن يقيمون لواء الله، ويرفعون كلمته، كما أشار إلى مجيء الرسول الخاتم الذي هو أعظم الرُّسل، ونصُّ البشارة: «وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية، قائلاً: توبوا؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات KINGDOM OF HEAVEN، فإن هذا هو الذي قيل عنه بإشعياء النبي القائل صوتٌ صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب، اصنعوا سُبُله مستقيمة... فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته، قال لهم: يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا؛ لأني أقول لكم أنّ الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكل شجرة لا

(١) (يوحنا ١٤: ١٦). وانظر: صفي الرحمن المباركفوري: نبأ عظيم إلى جميع البشر ١/ ٣٢٧-٣٢٩.
(٢) (يوحنا ١٦: ١٣).
(٣) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢).

تصنع ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقى في النار، أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار»(١).

فقد حاول يحيى عليه السلام -يوحنا المعمدان- أن يجعل اليهود من التائبين، فأمرهم صراحة بالتوبة والإنابة إلى الله، ولكنه -لعلمه بعصيانهم ويأسه منهم- قد أخبرهم بأنه قد تم استبدالهم بأمة أخرى، وأن الفأس قد وضعت على أصل الشجرة التي أبت أن تُعطي ثمارها، وما بقي إلاَّ مُباشرة قطعها، وقد أكَّد لهم يحيى عليه السلام أن وقوع الغضب والعقاب من الله عز وجل حادث لا محالة، ثم يتحدَّث عليه السلام عن النبي الذي سيأتي من بعده في الشجرة البديلة من أبناء إبراهيم، بأنه أقوى منه، وأنه سيلغي التعميد بالماء، ويُعمد الناس بالروح والنور، وكلاهما -أي الروح والنور- وصفان وُصف بهما القرآن الكريم.

ولعلَّ النبوة هنا تُضيف بُعْدًا آخر في تحديد الأمة البديلة؛ إذ لم ينكر يحيى عليه السلام على اليهود فكرة بقاء النبوة والأرض في أبناء إبراهيم، لكنه ذَكَّرهم بأن لإبراهيم أبناء غيرهم، وأنه لا ينبغي لهم الاغترار بوعد الله لإبراهيم عليه السلام ببقاء النبوة في أبنائه، ونستطيع أن نفهم في وضوح تامٍّ أن الأُمَّة البديلة ستكون من فرع آخر من أبناء إبراهيم، كما يدلُّ على ذلك كلام يحيى عليه السلام بأن الله سيُخرج لإبراهيم أبناء آخرين غير اليهود، وقد تحقق ذلك بأبناء إسماعيل، فجاء منهم النبي محمد ﷺ(٢).

والإنجيل بعد -بلا أدنى ريب- مليء بالبشارات التي تدلل على رسالة محمد ﷺ، وإننا لن نستطيع أن نستقصي كل ما جاء في الإنجيل عن نبوة محمد ﷺ وصدقه، ويكفينا ما أشرنا إليه من كلام كل من عيسى ويحيى عليهما السلام

وفي نهاية هذا الفصل الذي استعرضنا فيه بعضًا من بشارات الكتب السابقة بما فيها التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ، نختم بقصة واقعية تؤكد صحَّة هذه البشارات، التي استطاع أحد الرهبان -ويُدعى فرامرينو، وهو راهب لاتيني- اكتشاف النسخة المحررة باللغة الإيطالية من الإنجيل، ويقول في ذلك: إنه لدى مطالعته عدة رسائل لأيرينايوس

---

(١) (متى ٣: ١-٣، ٧-١١).
(٢) نصر الله عبد الرحمن أبو طالب: تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ ص٣٢٧.

وجد إحداها تندد بالقديس بولس الرسول استنادًا إلى إنجيل القديس برنابا، ومن هنا اهتمَّ الراهب فرامرينو بالبحث عن هذا الإنجيل، وقد ساعدته ظروف عمله في مقرِّ البابوية، إذ صار بعد فترة مُقَرَّبًا من البابا سكتس الخامس، وبذلك تمكن من دخول المكتبة البابوية، وببحثه عثر على نسخة إنجيل برنابا[١] التي كان يرنو إليها، وبعد الاطلاع عليها تأكد من صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وانتهى به الأمر باعتناق الإسلام[٢].

❊ ❊ ❊

(١) لمزيد من البشارات عن الرسول محمد ﷺ انظر: إنجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، تحقيق سيف الله أحمد فاضل.

(٢) محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص٥٦.



شهادات على صدق نبوته ﷺ

المبحث الأول: شهادة رب العالمين
المبحث الثاني: الصحابة رضي الله عنهم
المبحث الثالث: زوجاته رضي الله عنهن
المبحث الرابع: غير المسلمين في عصره
المبحث الخامس: المنصفون من الغربيين
المبحث السادس: شهادة الواقع

قال السيد الحميري (شاعر عباسي):

شهد الملائكةُ الكرامُ وربُّهم ... وكفى بهمْ وبربِّهمْ من شُهَّدِ

الفصل السادس:

شهادات على صدق نبوته ﷺ

شَهِدَ الحقُّ تبارك وتعالى لنَبِيِّهِ محمدﷺ بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ[1]﴾ . وكفى بشهادة ربِّ العالمين دليلاً على صدقهﷺ، ولكننا آثرنا أن نُقَدِّمَ لأصحاب المذاهب العقليَّة شهاداتٍ أخرى لكل من عايشهﷺ من الصحابة الأجلاَّء، وزوجاته الفضليات، بل وأعدائه الألدَّاء، ومَنْ قرأ عنه وسمع سيرته من العلماء الغربيين؛ ليُدْرِكُوا جيِّدًا أن كُلَّ مَنْ عَرَفه ﷺ قد اعترف بعُلُوِّ هِمَّته، وصفاء طبعه، وطهارة قلبه، ونُبْلِ خُلُقِه، ورجاحة عقله، فشهدوا في حَقِّه شهادةَ صدقٍ؛ فكانت هذه الشهادات دليلاً على صدق دعوته وعظمة رسالته.

وسوف نتناول الشهادات المختلفة من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: شهادة ربِّ العالمين ﷻ

المبحث الثاني: الصحابة ﷺ

المبحث الثالث: زوجاته رضي الله عنهن

المبحث الرابع: غير المسلمين في عصره

المبحث الخامس: المنصفون من الغربيين

المبحث السادس: شهادة الواقع

---

(١) (الأحزاب: ٤٠).

المبحث الأول:
شهادة رب العالمين

تَعَدَّدَتِ الأدِلَّة على نُبُوَّة محمد ﷺ، ولكن تبقى شهادة ربِّ العالمين له بالرسالة أقوى دليل على صدقه فيما بَلَّغ عن ربِّ العزَّة ﷻ؛ وذلك لأسباب كثيرة، أهمها أن الحقَّ لن يُوَفِّق إنسانًا كذابًا مُدَّعِيًا عليه سبحانه، بل ويُؤَيِّده بالمعجزات الباهرات.

إضافةً إلى سبب آخر جوهري ألا وهو شهادة الواقع التاريخي للقرآن، التي تُثبت -بما لا يدع مجالاً للشكِّ- أنه أصدق وثيقة ظَلَّتْ حتى الآن بلا تحريف أو تبديل، تناقلتْ عبر الأجيال حفظًا متواترًا وكتابة محفوظة في مئات البلدان التي دخلها الإسلام، ممَّا يُعْطِي لها مزيَّة لا تتوافر في كل الوثائق التاريخية الأخرى.

ولننظر إلى الآيات القرآنية المختلفة، التي تحدَّثَتْ في أكثر من صورة عن شهادة الله جَلَّ وعلا لنبيِّه بالرسالة، فقال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**[1]﴾. وننظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا**[2]﴾. ويقول الطبري مُعَلِّقًا على هذه الآية: «**وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً**»، إنما جَعَلْنَاكَ -يا محمد- رسولاً بيننا وبين الخلق، تُبَلِّغُهم ما أرسلناك به مِن رسالة إليهم، وليس عليك غيرُ البلاغ وأداءُ الرسالة إلى مَنْ أُرْسِلَتْ إليه، فإن قَبِلُوا ما أُرْسِلَتْ به فلأنفسهم، وإن رَدُّوا فعليها. «**وَكَفَى بِاللهِ**» عليك وعليهم، «**شَهِيدًا**» يقول: حَسْبُكَ اللهُ -تعالى ذِكْرُه- شاهدًا عليكَ في بلاغِكَ ما أُمِرْتَ ببلاغِه من رسالته ووحيه، وعلى مَنْ أُرْسِلْتَ إليه في قَبُولهم منك ما أُرْسِلْتَ به إليهم، فإنه لا يخفَى عليه أمرُك وأمرُهم، وهو مُجازيك ببلاغك ما وَعَدَك، ومجازيهم ما عَمِلُوا من خيرٍ وشرٍّ، جزاءَ المُحْسِن بإحسانِه، والمُسِيء بإساءته[3].

(١) (آل عمران: ١٤٤).
(٢) (النساء: ٧٩).
(٣) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٨/ ٥٦١.

ويقول الحقُّ تبارك وتعالى في آيات أخرى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا[١]﴾.

ويُعَلِّقُ الأستاذ سيد قطب على هذه الآيات قائلاً: «فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة، وهي جارية على سُنَّة الله في إرسال الرسل لعباده ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ[٢]﴾؛ فأهل الكتاب يعترفون بالرسل قبل محمد ﷺ اليهود يعترفون بمن قبل عيسى عليه السلام، والنصارى يعترفون بهم وبعيسى... فإذا أنكروا رسالتَكَ -يا محمد- فلا عليك منهم، فليُنْكِروا ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا[٣]﴾ وفي هذه الشهادة من الله، ثم من ملائكته ومنهم مَنْ حَمَلَهَا إلى رسوله، إسقاطٌ لكل ما يقوله أهل الكتاب، فمن هُمْ والله يشهد؟! والملائكة تشهد؟! وشهادة الله وحدها فيها الكفاية! وفي هذه الشهادة تسرية عن الرسول ﷺ وما يَلْقَاهُ من كيد اليهود وعنتهم»[٤].

وفي تحدٍّ عجيب يقول الحقُّ تبارك وتعالى للذين لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ[٥]﴾. يقول ابن عاشور تعليقًا على شهادة ربِّ العالمين على صدق نبيِّه ﷺ «إن الله لا يُصَدِّقُ مَنْ كذب عليه، فلا يَتِمُّ له أَمْرٌ، وهو معنى قول أئمة أصول الدِّينِ: إن دلالة المعجزة على الصدق أنَّ تغيير الله العادةَ لأجْلِ تحدِّي الرسول ﷺ قائمٌ مقام قوله: صَدَقَ عبدي فيما أخبر به عني»[٦].

وآيات القرآن التي تشهد بصدق النبي ﷺ كثيرة، ولا نكون مبالغين إن قُلْنَا: إن كل

---

(١) (النساء: ١٦٤-١٦٦).
(٢) (النساء: ١٦٥).
(٣) (النساء: ١٦٦).
(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ٢٩١.
(٥) (الرعد: ٤٣).
(٦) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٥/ ٢١.



القرآن يشهد بذلك تصريحًا أو تضمينًا. وما أجمل أن نختم هذا المبحث بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ[١]﴾، «أيُّ» شاهدٍ في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة؟ أيُّ شاهد تعلو شهادته كل شهادة؟ أيُّ شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة؟... وكما يُؤْمَر رسول الله ﷺ بالسؤال، فهو يُؤْمَر كذلك بالجواب؛ ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطَبِينَ أنفسهم، ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع.

«قُلِ اللهُ» نعم! فالله ﷻ هو أكبر شهادة، هو الذي يَقُصُّ الحقَّ، وهو خير الفاصلين، هو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله؛ فإذا قال فقد انتهى القول، وقد قُضِيَ الأمر[٢].

المبحث الثاني:
الصحابـــــــــة ﭫ

إن صحابة رسول الله ﷺ هم الذين صَدَّقوا دعوته، وآمنوا برسالته، وصحبوه في سلمه وحربه، لفترة زمنية طويلة، فعلموا فيها حقيقة محمد ﷺ وخبيئته، فلو كان محمد ﷺ فظًّا في تعامله، سيئًا في سريرته، لكانوا أَوَّل الناس ابتعادًا عنه، وكُرْهًا له، لكن الأمر كان على النقيض تمامًا؛ إذ كانوا يزدادون يومًا بعد يوم، فبلغ عدد من شهد حَجَّة الوداع منهم مائة ألف صحابي أو يزيد.

وقد شهد القريب والبعيد منهم بحُسْنِ خُلق النبي ﷺ، فهذا أنس بن مالك ﷺ أحد الصحابة الذين عاشوا مع محمد ﷺ بصورة شبه كاملة؛ في البيت، وفي المسجد، وفي الطريق، وفي السوق، وفي الحرب، يقول: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ،

---

(١) (الأنعام: ١٩).
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ٤٩٣.

وَلا لِمَ صَنَعْتَ، وَلا ألاَّ صَنَعْتَ»[(١)]. وهذا مثال في غاية الروعة، ووصفٌ في غاية الجمال؛ فعشر سنين فترة زمنيَّة ليست بالهيِّنَة ولا القصيرة، ورغم ذلك لم يخرج من فم رسول الله ﷺ أقل عُتب أو لوم لأنس ﷺ، ولو خرج في هذه المُدَّة من رسول الله ﷺ ما يُغضب أنسًا لقاله، ولأخبر به بعد وفاة النبي ﷺ، لكن ذلك لم يحدث.

لقد أقرَّ كُلُّ الصحابة -بلا استثناء- بِحُبِّ رسول الله ﷺ، وكان هذا الحُبُّ والإنصاف نابعًا من تصديقهم برسالته، ومعايشتهم لواقعه. ومِمَّا يُدَلِّل على هذا الحُبِّ والإنصاف موقف الصحابي زيد بن الدَّثِنَة ﷺ، الذي أَسَرَه بعضُ الهُذَلِيِّينَ، وباعوه لصفوان بن أمية القرشي الذي كان والده أمية قُتل في غزوة بدر الكبرى، فأراد أن يثأر لوالده بقتله لزيد بن الدَّثِنَة، فأخذوه إلى الحرم ليقتلوه، فرأى أبو سفيان رباطة جأشه، وإقباله على الشهادة بحُبٍّ منقطع النظير، فقال له: أتحبُّ أنَّ محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنَّك في أهلك؟ قال: والله ما أُحِبُّ أنَّ محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِيبه شوكةٌ تؤذيه وأنا جالسٌ في أهلي[(٢)].

إن زيدًا ﷺ على مشارف الموت، وهذه اللحظة هي أصدق لحظة مع النفس؛ يُصَرِّح فيها الإنسان بالحقيقة التي لا جدال فيها، والتي تُؤَكِّدُ بكُلِّ ثقة واطمئنان أن محمدًا ﷺ في وجدان أصحابه نبيٌّ مرسل، فلو لم يكن كذلك، وكان دَعِيًّا كاذبًا، لما ضَحَّى زيدٌ ﷺ وغيره من الصحابة بأرواحهم وأموالهم في سبيلِ دَعِيٍّ كاذب.

وممن شهد بصدق رسول الله ﷺ، سلمان الفارسي الذي ظَلَّ يبحث عن النبي الحَقِّ الذي عَرَف صفاته ومناقبه من أحد الرهبان في عَمُّورِيَة، بعدما طلب منه سلمان أن يدلَّه على راهب من الرهبان يعيش في كنفه عابدًا لربه، ويقص علينا سلمان قصته مع الهداية قائلا: «قال راهب عمورية: أي بُنيّ... قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٩١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩).

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٧٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ١٢٨، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٦/ ٤٢، ١١/ ٤٣١.

يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حرتين[١]، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعلْ. قال سلمان: ثم مات وغُيِّب، فمكثت بعمورية ما شاء الله إن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب[٢] تجارًا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني مِنْ رجل مِن يهودَ عبدًا، فكنت عنده ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق لي في نفسي، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي راهب عمورية، فأقمت بها وبعث الله رسوله فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عَذْقٍ[٣] لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال فلانٌ: قاتل الله بني قيلة! والله إنهم الآن لمجتمعون بقُبَاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي. قال: فلما سمعتها أخذتني العُرَوَاءُ[٤] حتى ظننت سأسقط على سيدي. قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟! ماذا تقول؟! قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟! أقبلْ على عملك. قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبتَ عما قال.

وقد كان عندي شيءٌ قد جمعته، فلمَّا أمسيت أخذته، ثم ذهبتُ به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُبَاء، فدخلتُ عليه، فقلتُ له: إنَّه قد بلغني أنَّك رجلٌ صالحٌ، ومعك أصحابٌ لك غرباء ذوو حاجةٍ، وهذا شيءٌ قد كان عندي للصَّدَقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقَرَّبْتُه إليه. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كُلُوا». وأمسك يده فلم يأكل. قال: فقلتُ في نفسي: هذه واحدةٌ. قال: ثم انصرفتُ عنه فجمعت شيئًا، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى

(١) الحَرَّةُ: أَرض ذات حجارة سود نَخِراتٍ كأنها أُحرقت بالنار. ويقصد بذلك المدينة المنورة؛ لأنها تقع بين حَرَّتَيْن عظيمتين. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حرر ٤/١٧٧، ومادة لوب ١/٧٤٥.

(٢) قبيلة عربية.

(٣) العَذْق بالفتح: النخلة بحَمْلها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عذق ١٠/٢٣٨.

(٤) العرواء: الرِّعدة من فزع أو حُمَّى. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرا ١٥/٤٤.

المدينة، ثم جئتُه به. فقلتُ له: إنِّي قد رأيتُكَ لا تأكل الصدقة، وهذه هديَّةٌ أكرمتُكَ بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلتُ في نفسي: هاتان اثنتان. ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجلٍ من أصحابه عليه شَمْلتان[1] له، وهو جالسٌ في أصحابه، فسلَّمْتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؛ فلمَّا رآني رسول الله ﷺ استدبرتُه[2]، عرف أنِّي أستثبتُ في شيءٍ وُصِف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفتُهُ، فأكببت عليه أُقَبِّله وأبكي. فقال لي رسول الله ﷺ: «تَحَوَّلْ». فتحوَّلْتُ، فجلستُ بين يديه، فقصصت عليه حديثي...»[3].

وترجع أهمية قصَّة إسلام سلمان رضي الله عنه إلى كونها دليلاً يشهد بصدق نُبُوَّة محمد ﷺ، بل إن بقاء سلمان رضي الله عنه على إسلامه، وجهاده ودفاعه عن الدين، ونشره له حتى مماته في عام خمسة وثلاثين من الهجرة، دليلٌ على كون محمد ﷺ صادقًا فيما أُرسل إليه، ولم يكن مُدَّعِيًا للنُبُوَّة، أو كاذبًا فيما جاء به، ولو رأى سلمان رضي الله عنه خلاف ذلك لرجع إلى بحثه عن النبي الخاتم، الذي خرج من أجله منذ أعوام عديدة؛ إذ كان ذلك هو شغله الشاغل، لكن ذلك لم يحدث؛ لأن سلمان رضي الله عنه وجد أن محمدًا ﷺ نبيٌّ حقًّا، بل هو خاتم الأنبياء أجمعين.

وقد تَكَرَّرَ الأمر نفسه عند إسلام الحَبْر اليهودي (عبد الله بن سَلاَم[4])، فيروي قصة إسلامه بنفسه قائلاً:

«قال: لَمَّا سمعتُ برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كُنَّا نَتَوَكَّفُ[5] له، فكنتُ مُسِرًّا بذلك صامتًا عليه حتى قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة، فلمَّا قَدِمَ

---

(١) الشَّمْلة: كِساءٌ دون القَطِيفة يُشْتَمل به. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شمل ١١/ ٣٦٤.
(٢) اسْتَدْبَرَهُ: أتاه من ورائه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دبر ٤/ ٢٦٨.
(٣) أحمد: (٢٣٧٨٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٢٠، ٢٢١، والألباني: صحيح السيرة ص٦٨.
(٤) عبد الله بن سلام: هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان اسمه «الحصين» فسماه رسول الله ﷺ عبدَ الله. توفي بالمدينة سنة (٤٣هـ/ ٦٦٣م). انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٩٢١.
(٥) يتوكف الخبر: أي يتوقعه ويرتقبه وينتظره. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وكف ٩/ ٣٦٢.



نزل بقُبَاء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رَجُلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعَمَّتِي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلمَّا سَمِعْتُ الخبرَ بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرْتُ، فقالت عَمَّتِي حين سمعتْ تكبيري: لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران ما زدتَ. قلت لها: أي عَمَّة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه[1]، بُعِثَ بما بُعث به. فقالت له: يابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخْبَرُ به، أنه يبعث مع بعث الساعة؟ قال: قلتُ لها: نعم. قالت: فذاك إذن.

قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ، فلمَّا تَبيَّنْتُ وجهه عرفت أنه ليس بوجهِ كذاب. وفي رواية أخرى يقول عبد الله بن سلام: أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ له: إني سائِلُكَ عن خِلالٍ لا يعلمهُنَّ إلاَّ نبي: ما أَوَّل أشراط الساعة؟ وما أَوَّل طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟ قال: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا». قلت: جبريل؟ قال: «نَعَمْ». قلت: عَدُوّ اليهود من الملائكة. ثم قرأ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[2]﴾، قال: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَخْرُجُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْمَشْرِقِ تَسُوقُهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ، وَأَمَّا السَّوَادُ الَّذِي فِي الْقَمَرِ فَإِنَّهُمَا كَانَا شَمْسَيْنِ»، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ[3]﴾ فالسَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتَ هُوَ الْمَحْوُ». فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا، وكتم إسلامه، ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن اليهود قد علمتْ أني سيدهم وابن سيدهم، وأَعْلَمُهُمْ وابن أعلمهم، وأنهم قوم بُهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عَنِّي بهتوني، وقالوا فِيَّ ما ليس فِيَّ، فأُحِبُّ أن تُدْخِلَنِي بعض بيوتك. فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود، فدخلوا عليه فقال: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيْلَكُمْ، اتَّقُوا اللهَ، فَوَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ،

---

(١) أي على دين توحيد الله، وإفراده بالعبودية.
(٢) (البقرة: ٩٧).
(٣) (الإسراء: ١٢).

إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا». فقالوا: ما نعلمه. فقال: «فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. فقال: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟». قالوا: أعاذه الله من ذلك! فقال: «يَا ابْنَ سَلاَمٍ اخْرُجْ عَلَيْهِمْ»

فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا معشر اليهود، اتقوا الله واقْبَلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقًّا، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة؛ اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأُصدِّقه، وأعرفه. قالوا: كذبت، أنت شَرُّنَا وابن شَرِّنَا. وانتقصوه. قال: هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله، ألم أُخبِرْكَ أنهم قوم بُهُت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرتُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمتْ عمتي خالدة بنت الحارث وحَسُنَ إسلامها[1].

ولم تكن هذه الشهادات في حياته ﷺ فقط ولكنها كانت -أيضًا- بعد مماته ﷺ، فها هو عمرو بن العاص ﷺ يقول عن رسول الله ﷺ بعد وفاته وهو يصفه: «مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ؛ إِجْلاَلاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ»[2].

هذه بعض شهادات الصحابة على حُبِّهِمْ له ﷺ، وإيمانهم بدعوته، وتصديقهم برسالته، والتي لا تدع مجالاً للشكِّ أن محمدًا ﷺ نبيٌّ مرسلٌ لهداية الناس إلى الحقِّ، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور.

* * *

(١) البيهقي: دلائل النبوة ٢/ ٥٢٩-٥٣١، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) أبو الفضل السيد أبو المعاطي النوري: المسند الجامع ٣٢/ ٤٩٨.



المبحث الثالث:
زوجاته رضي الله عنهن

من المعلوم أن الزوجة هي أقرب الناس لزوجها؛ فهي تعلم سِرَّه قبل علنه، وتعلم حقيقة خُلُقه دون مواربة منه أو تَخَلُّق زائف، وهذا مع الزوجة الواحدة، فما بالُنا بزوجات كثيرات بلغْنَ التسع؟ فهل من المعقول أن تتواطأ تسعٌ من النساء الضرائر -وما يُعرف عنهن من الغيرة الشديدة- على تجميل وتحسين صورة زوجهن في حياته، وبعد مماته؟!

إن العقل ينقض هذا التصوُّر، فقد تحبُّ بعضهن زوجها، وقد تكرهه الأخريات؛ لسوء معاملته لهن، أو لتقريبه لبعضهنَّ دون الأخريات، فهل كان الأمر كذلك مع رسول الله ﷺ؟!

لقد كان الأمر مخالفًا لذلك تمام المخالفة بين رسول الله ﷺ وزوجاته؛ فقد كُنَّ يتسابقن للقرب منه، كلُّهن يُحِبْنه حُبًّا شديدًا في حياته وبعد مماته، فقد كانت منهن الكبيرة العجوز، والصغيرة المتوقدة، ومنهن شديدة الغيرة، وسريعة الغضب، لكنهن قد اجتمعن على شيء واحد، ألا وهو حبُّهن للنبي محمد ﷺ.

كانت أُولَى زوجات النبي ﷺ السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقد عاش معها رسول الله ﷺ خمسة وعشرين عامًا كاملة، لم تَرَ منه فيها إلاَّ كل جميل؛ لذلك فعندما نزل الوحي عليه ﷺ، وخاف خوفًا شديدًا ممَّا وجده من أثره في نفسه، وَقَفَتْ تُهَدِّئ من قلقه؛ فقالت له: «فوالله ما يخزيك الله أبدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ[1]، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ...»[2].

ولم يكن هذا التأييد من السيدة خديجة رضي الله عنها مجرد كلمات عابرة، بل كانت الحقيقة كاملة؛ فقد كانت هذه أخلاق رسول الله ﷺ التي عَهِدَتْهُ عليها، فأضحت أخلاقه معها في

(١) الكَلّ: الثِّقْل من كل ما يُتكلَّف. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كلل ١١/ ٥٩٠.
(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (٤)، (٤٩٥٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

بيته مطابِقة لأخلاقه خارجه، وهذا دليل على صدق نُبُوَّتِه، وهو الأمر الذي جعل السيدة خديجة رضي الله عنها تشهد لرسول الله ﷺ بطيب المعشر، وحُسْن الخُلق.

وقد شهدت أصغر زوجات النبي ﷺ السيدة عائشة رضي الله عنها بحُسن خُلقه وصدقه، وهي أعلم الناس به؛ فقد كان رسول الله ﷺ يُحبُّها ويُجِلُّها، بل تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ في حجرها وبين يديها، فوصفتْ رضي الله عنها خُلُقَهُ قائلة: «خُلُق نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»[1].

ومن أَجَلِّ المواقف التي جاءت في كتب السيرة، التي تشهدُ احترام وتوقير أمهات المؤمنين لرسول الله ﷺ، ذلك الموقف العجيب الذي حدث بين أُمِّ المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، ووالدها أبي سفيان بن حرب زعيم قريش، وأحد ساداتها، وكان ما زال على كفره، ولم يُسْلِمْ بَعْدُ.

فحينما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ الذي أبرمته في الحُديبية، وانقضَّتْ على قبيلة خزاعة، فقتلتْ وسَبَتْ، خافت قريش من رسول الله ﷺ؛ فأرسلوا أبا سفيان إلى المدينة مُسرعًا؛ ليُجَدِّد العهد بين الفريقين، لكن رسول الله ﷺ رفض طلب التجديد وعزم على فتح مكة. وموطن الشاهد هنا هو ذلك الحوار العجيب بين الابنة وأبيها، فعندما قدم أبو سفيان إلى المدينة، ذهب لزيارة ابنته بعد فراق طويل، وأعوام عديدة مَرَّت على رحيلها؛ بدايةً من هجرتها إلى الحبشة فرارًا بدينها، ونهاية بقدومها إلى المدينة، فدخل على ابنته أُمِّ حبيبة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ، فلمَّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طَوَتْهُ عنه، فقال: يا بنيَّة، ما أدري أرغبتْ بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنِّي؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشركٌ... فقال: والله لقد أصابك بعدي شَرٌّ[2].

إن هذا الموقف من أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها يعكس التربية الإسلامية لهذه الزوجة الصالحة؛ فهي تعلم تمام العلم أن محمدًا نبيٌّ صادقٌ، وأن أباها مشرك يعبد ما لا يضرُّ ولا ينفع، فأرادتْ بهذا الفعل أن تُوقِظَهُ من غفلته التي يحيا فيها أعوامًا عديدة، فطوت

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (١٦٠١)، وأحمد (٢٤٣١٤).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٠.

الفراش -وهو انعكاسٌ عما يجيش في صدرها من مقارنة محسومة لصالح زوجها الصادق محمد ﷺ- ولم تكن أبدًا لصالح أبيها المشرك الذي طالما ناصب العداء لمحمد ﷺ وصحبه!

ومن أعظم الشهادات على صدقه ﷺ شهادة أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها زعيم يهود بني قريظة، الذي أمر النبي ﷺ بقتله لغدره وخيانته للعهد الذي تمَّ بينه وبين المسلمين؛ فها هي ذي رضي الله عنها تُحدِّثُنا عن خُلُقِهِ فتقول: «ما رأيتُ أحدًا قط أحسن خُلُقًا من رسول الله، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلتُ أنعس فتضرب رأسي مؤخرة الرَّحل، فيمسني بيده ويقول: يا هذه، مهلاً»[1].

ثم ها هي ذي تتمنَّى أن تُضَحِّيَ بنفسها فداءً له ﷺ، وأن تتألم عِوَضًا عنه؛ فعن زيد بن أسلم رضي الله عنه أنه قال: «اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددتُ أن الذي بك بي... فقال النبي ﷺ معلقًا على كلامها: «وَاللهِ! إِنَّهَا لَصَادِقَةٌ»[2]. بهذه الكلمات الرقيقة عَبَّرَتْ أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها عن مشاعرها تجاه النبي ﷺ في وقتٍ لا تحتاج فيه إلى مداهنته، أو اتقاء شرِّه، ولكنها مشاعر امرأة آمنت بأنه نبي مرسل؛ ولذلك خاطبته بهذه الصفة قائلة: يا نبي الله. ومن عظمة الرسول ﷺ أنه يشهد على صدق مشاعرها نحوه بعدما تغامز بها بعض أزواجه ﷺ.

وكذلك عاشت كل زوجاته ﷺ في كنفه؛ مؤمنات قانتات، عابدات لله ربِّ العالمين، كما تَعَلَّمْنَ من محمد ﷺ الرسول قبل أن يكون الزوج.

❋ ❋ ❋

(١) أبو يعلى: المسند ١٣/ ٢٩، ٣١، والطبراني: المعجم الأوسط ٦/ ٣٤٤، ٣٤٥.
(٢) عبد الرزاق: المصنف ١١/ ٤٣١.

المبحث الرابع:

غير المسلمين في عصره

ولم يشهد بصدق محمد ﷺ أحبابه ولا المؤمنين به فقط، بل شهد له من حاربه السنوات الطوال، فقلوب هؤلاء زعماء الكفر في مكة ومَنْ حولها من الأعراب كانت موقنة بأن محمدًا صادقٌ غيرُ كذوب؛ فقد عايشوه أربعين عامًا قبل الرسالة، فلم يعهدوا عليه كَذِبًا، أو خيانة، أو سوءًا في الخُلق أو المعاملة، ولكنهم لم يؤمنوا به لمصالح خاصة عندهم.

وعندما مَنَّ الله على رسوله ﷺ، واصطفاه للقيام بأمر الدعوة إليه ﷻ، فقام يدعو الناس في السرِّ والعلن؛ فإذا بالقوم ينقلبون على أعقابهم؛ فكَذَّبُوا رسالته، وعَذَّبوا أصحابه، حتى أُخرج من مكة مُكْرَهًا، بعدما تآمروا على قتله.

ومع كل هذا العنت والمشقَّة والتعذيب والتنكيل إلاَّ أن أعداءه قد شهدوا بصدق دعوته في مواطن كثيرة؛ وخير شاهد على ذلك حديث أبي سفيان بن حرب -الذي كان معاديًا لرسول الله ﷺ في أول الأمر- مع هرقل عظيم الروم، فقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب قد أخبره «أن هرقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تُجَّارًا بالشام في المدَّة[1] التي كان رسول الله ﷺ مادَّ[2] فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأَتَوْهُ وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: «أَيُّكُمْ أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلتُ: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه منِّي، وقَرِّبُوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره[3]. ثم قال لترجمانه: قُلْ لهم: إني سائل عن هذا الرجل، فإن كَذَبَنِي فكَذِّبوه. فوالله! لولا الحياء من أن يَأْثِرُوا عليَّ

(١) المدة: يعني مدة الصلح بالحديبية، وكانت في سنة ست من الهجرة، وكانت مدتها عشر سنين. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٣٤، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ١٠٣.
(٢) مادَّ فيها أبا سفيان: أي جعل بينه وبينه مدة صلح. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٨٦.
(٣) فاجعلوهم عند ظهره: أي: لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٣٥، والنووي: المنهاج ١٢/ ١٠٤.

كذبًا لَكَذَبْتُ عنه[1]. ثم كان أَوَّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلتُ: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قطُّ قبله؟ قلتُ: لا. قال: فهل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ قلتُ: لا. قال: فأشراف الناس يَتَّبِعُونَهُ أم ضعفاؤهم؟ فقلتُ: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلتُ: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلتُ: لا. قال: فهل كنتم تَتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلتُ: لا. قال: فهل يَغْدِر؟ قلتُ: لا، ونحنُ منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تُمْكِنِّي كلمة أُدْخِلُ فيها شيئًا غير هذه الكلمة[2]. قال: فهل قَاتَلْتُمُوهُ؟ قلتُ: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إيَّاه؟ قلتُ: الحرب بيننا وبينه سجال[3]؛ ينال مِنَّا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلتُ: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تُشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قُلْ له: سألتُكَ عن نَسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبْعَثُ في نسب من قومها، وسألتُكَ: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ: رجلٌ يَتَأَسَّى بقول قيل قبله، وسألتُكَ: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فذكرتَ أن لا، قلتُ: فلو كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ قلتُ: رجل يطلب مُلْكَ أبيه. وسألتُكَ: هل كنتم تَتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا؛ فقد أعرِفُ أنه لم يكن ليذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتُكَ: أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسُل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ، وسألتُكَ: أَيَرْتَدُّ أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل

---

(١) يأثروا عليَّ كذبًا أي: ينقلوا عليَّ الكذب لكذبت عليه... وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب؛ إمَّا بالأخذ عن الشرع السابق، أو بالعرف. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٣٥، والنووي: المنهاج ١٢/ ١٠٤.

(٢) أي: أنتقصه به، على أن التنقيص هنا أمر نسبي، وذلك أن من يقطع بعدم غدره أرفع رتبة ممن يجوِّز وقوع ذلك منه في الجملة. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٣٥.

(٣) سجال: أي: نُوَب، نوبة لنا ونوبة له. وينال أي: يصيب. فكأنه شبَّه المُحَارِبِينَ بِالْـمُسْتَقِينَ: يستقي هذا دلوًا وهذا دلوًا. وأشار أبو سفيان بذلك إلى ما وقع بينهم في غزوة بدر وغزوة أحد. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٣٦، والنووي: المنهاج ١٢/ ١٠٥.

فيه؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخَالِط بشاشته القلوب[١]، وسألتُكَ: هل يَغْدِر؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الرُّسل لا تغدر، وسألتُكَ: بما يأمركم؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظنُّ أنه منكم، فلو أنِّي أعلم أنِّي أَخْلُصُ[٢] إليه لَتَجَشَّمْتُ[٣] لقاءه، ولو كنت عنده لغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ[٤]...»[٥].

وفي هذا دليلٌ واضحٌ على صدق نُبُوَّة محمد ﷺ، فكلُّ ما أخبر به أبو سفيان واقعٌ قد رآه بعينه، وعايشه بعقله وجوارحه.

ولم تكن شهادة أبي سفيان بن حرب الشهادةَ الوحيدة من عَدُوٍّ غاصر رسول الله ﷺ فأنصفه، ولا من هرقل الذي يتزعم دولة كبيرة حاربت المسلمين ردحًا من الزمن، بل كانت هناك شهادات من أعداء آخرين لا يَقِلُّونَ عداوة لرسول الله ﷺ عنهما، بل يُعَدُّون من أكثر أعداء رسول الله ﷺ كُرْهًا له، وحَنَقًا عليه، وسعيًا لقتله ومحوه من بين ظهرانيهم، إنه أبو جهل الذي بلغت عداوته لرسول الله ﷺ الذروة؛ فهو الذي أَصَرَّ على إشعال نيران الحرب بين الكافرين والمسلمين في غزوة بدر، وَجَرَّه كِبْرُه وجبروته لحتفه ومصرعه؛ لقد شهد هذا العدُوُّ لرسول الله ﷺ بالصدق والنُّبُوَّة؛ فقد سأل المِسْوَرُ بن مخرمة خاله أبا جهل عن حقيقة محمد ﷺ، إذ قال: «يا خالي، هل كنتم تَتَّهِمُون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يابن أختي، والله! لقد كان محمد ﷺ فينا وهو شابٌّ يُدْعَى الأمين،

(١) تخالط بشاشته القلوب: يعني انشراح الصدور، وأصلها اللطف بالإنسان عند قدومه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٣٧، والنووي: المنهاج ١٢/ ١٠٦.
(٢) أخلص أي: أصل، يقال: خلص إلى كذا أي وصل. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٧.
(٣) لتجشَّمْتُ أي: تَكَلَّفْتُ الوصول إليه، ولكني أخاف أن أُقْتَطَعَ دونه. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٧، والنووي: المنهاج ١٢/ ١٠٧.
(٤) لغسلتُ عن قدميه: مبالغة في العبودية له والخدمة. وفي اقتصاره على ذِكْر غسل القدمين إشارة منه إلى أنه لا يطلب منه -إذا وصل إليه سالمًا- لا ولاية ولا منصبًا، وإنما يطلب ما تحصل له به البركة. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٧.
(٥) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣).

فما جَرَّبْنَا عليه كذبًا قطُّ. قال: يا خال، فما لكم لا تَتَّبِعُونه؟ قال: يابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأَطْعَمُوا وأَطْعَمْنَا، وسَقَوْا وسَقَيْنَا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا[١] على الرُّكَبِ كُنَّا كفَرَسَيْ رِهَانٍ[٢]، قالوا: مِنَّا نبي. فمتى نُدْرِكُ مثل هذه؟! وقال: الأخنسُ بن شُريق يومَ بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم، أَخْبِرْنِي عن محمد؛ أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش أحدٌ غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادقٌ، وما كذب محمدٌ قطُّ، ولكن إذا ذهبتْ بنو قُصَيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟»[٣].

إن الاعترافين السَّابقين لأبي جهل -وهو العدُوُّ الأوَّل للدعوة الإسلامية- لدليلٌ واضح على صدق نُبُوَّة محمد ﷺ؛ فأبو جهل لا يُنازع محمدًا اعتقادًا منه بأنه كاذب أو مُدَّعٍ، بل يُنازعه لأجل عصبية زائفة، تجعل الاعتراف بمحمد ونُبُوَّتِه أمرًا بالغ الصعوبة والتعقيد؛ إذ الاعتراف بنُبُوَّته سيجعل كفَّة بني هاشم راجحةً قويةً على سائر بطون قريش، وهو الأمر الذي يرفضه أبو جهل رفضًا قاطعًا.

بل وقد اعترفت قريش بسائر بطونها بأنه صادق أمين، وهو أمر لا يستقيم لأيِّ أحد من الناس أن تجتمع القبيلة بكاملها على صدقه وأمانته، رغم الاختلافات الاجتماعية والنفسية بين أفرادها الكثيرين؛ ففي يوم من الأيام «خرج رسول الله ﷺ حتَّى أتى الصَّفَا، فصَعِدَ عليه فهتف: «يَا صَبَاحَاهُ»... فلَمَّا اجتمعوا إليه قال: «أَرَأَيْتُم لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ»؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقال أبو لهب: تبًّا لك! ما جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهَذَا؟...»[٤].

---

(١) تجاثينا: أي جلسنا على الرُّكب للخصومة. وفي الروض الأنف: تجاذينا على الركب: وقع في الجمهرة الجاذي: المقعي على قدميه. قال: وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء. انظر: السهيلي: الروض الأنف ٣/ ١١٠، وانظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جثا ١٤/ ١٣١، ومادة جذا ١٤/ ١٣٦.

(٢) كفَرَسَيْ رهَان: يُضرب للمتساويين في الفضل، وقيل: للمتناصبين. انظر: الضبي: الأمثال ١/ ١١.

(٣) ابن القيم: هداية الحيارى ص٥٠، ٥١.

(٤) البخاري عن ابن عباس: كتاب التفسير (٤٧٧٠)، (٤٨٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٢٠٨).

إن قريشًا كلَّها قد اعترفت بصدق محمد ﷺ، فلمَّا أخبرهم بحقيقة دعوته ورسالته، نَكَصُوا على أعقابهم[١]؛ تقليدًا لآبائهم، وخوفًا على مناصبهم وتجارتهم وأموالهم، فكان هذا الموقف -وغيره من المواقف الكثيرة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش- دليلاً يحمل في طَيَّاته اعترافًا منهم بصدقه، ومن ثَمَّ صِدْق دعوته ونُبُوَّتِهِ.

كما اعترف زعماء اليهود بصدق نبوته ﷺ، وهذا ما تقصه أم المؤمنين صفية بِنْتِ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ ﵂ زعيم يهود بني قريظة فتقول: «كنت أحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمِّي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلاَّ أخذاني دونه. قالت: فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قُبَاء في بني عمرو بن عوفٍ، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب، مُغَلِّسَيْنِ[٢]. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفتَ إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمِّ. قالت: وسمعت عمِّي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو[٣]؟ قال: نعم والله! قال: أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ»[٤].

وما أجمل أن نختم مبحثنا هذا باعتراف نصارى نجران بنبوته ﷺ عندما رفضوا مباهلة[٥] رسول الله ﷺ الذي امتثل لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٦]؛ فخرج إليهم ﷺ ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة، ودعاهم للمباهلة فقالوا: يا أبا القاسم، دَعْنَا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبدَ المسيح، ماذا

---

(١) نَكَصَ على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخير، ولا يقال ذلك إلاَّ في الرجوع عن الخير خاصَّة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نكص ٧/ ١٠١.

(٢) الغَلَس: ظلام آخر الليل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غلس ٦/ ١٥٦.

(٣) يقصد بذلك رسول الله ﷺ.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥١٧.

(٥) المباهلة: الملاعنة، يقال: باهَلْت فلانًا أي لاعنته. ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنةُ الله على الظالم منا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة بهل ١١/ ٧١.

(٦) (آل عمران: ٦١).



ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرَفْتم أن محمدًا لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفَصْل من خَبَر صاحبكم[(١)]، ولقد علمتم أنه ما لاعَن قومٌ نبيًّا قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صَغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادِعُوا الرجلَ ثم انْصَرِفُوا إلى بلادكم[(٢)].

المبحث الخامس:
المنصفون من الغربيين

لقد أنصف كثير من الغربيين محمدًا ﷺ، وكان هذا الإنصاف ناتجًا عن دراسة موضوعية مستفيضة لسيرته وحياته ﷺ، وقد اكتملتْ في هذه الدراسة عناصر المنهج العلمي الحديث القائم على الملاحظة والتجربة والاستقصاء، فخرجت نتائجهم إيجابية تجاه رسول الله ﷺ، وأصبحت شهاداتهم نورًا يهتدي به الباحثون عن الحقيقة في الغرب.

فممن أنصف رسول الله ﷺ الشاعر الفرنسي لامارتين[(٣)]؛ حيث يقول: «أترون أن محمدًا كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا، بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته، فإنَّ الخداع والتدليس والباطل والإفك.. كل تلك الصفات هي ألصق بمن وصف محمدًا بها»[(٤)].

ويقول توماس كارليل[(٥)]:

---

(١) يقصد عيسى عليه السلام.

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٨٤.

(٣) ألفونس دو لامارتين Alphonse de Lamartine (١٧٩٠- ١٨٦٩م): كاتب وشاعر وسياسي فرنسي، كان كثير السفر، أقام مدة في أزمير بتركيا. من كتبه: رحلة إلى الشرق، وتأملات شعرية.

(٤) لامارتين: السفر إلى الشرق ص٨٤.

(٥) توماس كارليل Thomas Carlyle (١٧٩٥- ١٨٨١م): كاتب إسكتلندي، ناقد ساخر، ومؤرخ، من مؤلفاته: الأبطال، (وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي فنقله إلى العربية الأستاذ على أدهم)، والثورة الفرنسية. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٢/ ٥٣.

«لسنا نعدُّ محمدًا قطُّ رجلاً كاذبًا متصنِّعًا، يتذرَّع بالحيل والوسائل إلى بُغيةٍ، أو يطمع إلى درجة مُلك، أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أدَّاها إلاَّ حقٌّ صراح، وما كلمته إلاَّ صوت صادق صادر من العالم المجهول، كلا، ما محمد بالكاذب ولا الملفِّق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تَفَطَّر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع»(١).

ويقول عالم الاجتماع جوستاف لوبون(٢):

«إنني لا أدعو إلى بدعة مُحْدَثة، ولا إلى ضلالة مستهجَنَة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نَبِيِّه محمد، فكان أمينًا على بثِّ دعوته بين قبائل تلهَّتْ بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذَّذَتْ بتُرَّهَات الجاهلية، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحَّدَ كلمتهم بعد أن كانت متفرِّقَة، وَوَجَّهَ أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حُبًّا ونسبًا وزعامةً وَنُبُوَّةً، هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمائة مليون مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة، يُرَتِّلُونَ قرآنًا عربيًّا مبينًا»(٣).

ويقول لوبون في موضع آخر: «فرسول كهذا جدير باتِّباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قِوَامُهَا معرفة الخالق، والحضُّ على الخير، والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»(٤).

ولا يُخفي المفكِّر البريطاني لين بول(٥) تَأَثُّرَه بمحمد ﷺ، فيقول:

---

(١) توماس كارليل: الأبطال ص٥٨-٦٠.

(٢) جوستاف لوبون Gustav Lobone (١٨٤١- ١٩٣١م): مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع، من أشهر كتبه: حضارة العرب، الذي يعدّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. انظر: أحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص٥٩-٦١.

(٣) هذا التعداد الذي ذكره غوستاف لوبون كان وقت إصداره لكتابه (حضارة العرب)، أما الآن عام ٢٠٠٨م فقد تجاوز عدد المسلمين في العالم ١,٣ مليار نسمة. انظر: جريدة الشرق الأوسط: www.asharqalawsat.com.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص٦٧.

(٥) لين بول Lane Poole (١٨٥٣-١٩١٧): مفكر إنجليزي، وهو واضع فهرست المسكوكات المحفوظة في دار الكتب المصرية عام ١٨٩٧م، من مؤلفاته: (رسالة في تاريخ العرب).

«إن محمدًا ﷺ كان يَتَّصِفُ بكثير من الصفات؛ كاللطف والشجاعة وكرم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثَّر بما تَطْبَعُه هذه الصفات في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادرًا عن غير ميل أو هوًى، كيف لا؟! وقد احتمل محمد ﷺ عداء أهله وعشيرته سنوات بصبر وجَلَد عظيمين، ومع ذلك فقد بَلَغ من نُبْلِه أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافِحِهِ حتى لو كان يصافح طفلاً! وأنه لم يمرَّ بجماعة يومًا من الأيام -رجالاً كانوا أم أطفالاً- دون أن يُسلِّم عليهم، وعلى شفتيه ابتسامة حُلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذبًا!»[١]

ويتحدث الأديب الإنجليزي جورج برنارد شو[٢] قائلاً:

«لقد درست محمدًا باعتباره رجلاً مدهشًا، فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدْعَى منقذ الإنسانية، وأوربا في العصر الراهن بدأت تعشق عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك؛ فتعرف بقدرة هذه العقيدة على حلِّ مشكلاتها، فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي»[٣].

ويقول المستشرق الإنجليزي الكبير وليم موير[٤]:

«امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مُصْلِحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد»[٥].

---

(١) لين بول: رسالة في تاريخ العرب، نقلاً عن: عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي ص٤٣٨.
(٢) جورج برنارد شو George Bernard Show (١٨٥٦-١٩٥٠م): مؤلف إنجليزي مشهور، حاز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٥م. وطُلِبَ منه أن يكتب مسرحية عن حياة محمد ﷺ فرفض، وكان ذلك ضربة قاضية لمن أرادوا تشويه الإسلام. انظر: أحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص١٣-١٥.
(٣) الحسيني الحسيني معدي: الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة ص٧٠.
(٤) وليم موير William Muir (١٨١٩-١٩٠٥م): مؤرِّخ ومستشرق إنجليزي، وكان يبحث في الإسلام ويدرس أخلاق نبي الإسلام منذ بداية وجوده في الهند عام ١٨٣٧م، ودرس الحقوق في جامعتي أدنبره وجلاسجو، ووصل إلى منصب رئيس جامعة أدنبره، انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص ٥٧٨، ٥٧٩، وأحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص٢٢، ٢٣.
(٥) وليم موير: حياة محمد ص٣١.

«ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، وخبيرٌ به مَنْ أمعن النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم»[١].

ويقول المستشرق الأمريكي الكبير واشنجتون إرفنج[٢]:

«كانت تصرفات الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة تدلُّ على أنه نبي مرسل، لا على أنه قائد مظفَّر؛ فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه، برغم أنه أصبح في مركزٍ قَوِيٍّ، ولكنه تَوَّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»[٣].

ويقول رئيس الوزراء الهندي الأسبق جواهر لال نهرو[٤]:

«كان محمد كمؤسسي الأديان الأخرى ناقمًا على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره، وكان للدين الذي بَشَّر به -بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة- تجاوبٌ لدى الناس في البلدان المجاورة؛ لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين، لقد تعب الناس من النظام القديم، وتاقوا إلى نظام جديد، فكان الإسلام فرصتهم الذهبية؛ لأنه أصلح الكثير من أحوالهم، ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم»[٥].

ويقول المؤرخ البلجيكي جورج سارتون[٦]:

---

(١) وليم موير: حياة محمد ص٢٠.

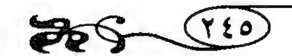
(٢) واشنجتون إرفنج Washington Irving (١٧٨٣- ١٨٥٩م): مستشرق ومؤرخ أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا بالدراسات الإسلامية، من مؤلفاته: (حياة محمد)، (فتح غرناطة). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/ ١٣١.

(٣) واشنجتون إيرفنج: حياة محمد ص٧٢.

(٤) جواهر لال نهرو (J.Lal. Nahro) (١٨٨٩- ١٩٦٤م): يعدّ نهرو أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال. تميز بالاشتراكية والعدالة، ولم يكن متعصبًا للهندوسية.

(٥) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم ص٢٧.

(٦) جورج سارتون George Sarton (١٨٨٤- ١٩٥٦م): بلجيكي الأصل، متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، درس العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٣١-١٩٣٢م، وألقى محاضرات حول فضل العرب على الفكر الإنساني. أبرز إنتاجه (المدخل إلى تاريخ العلم). انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/ ١٤٧، ١٤٨.



«وخلاصة القول... إنه لم يُتَحْ لنبي من قبلُ ولا من بعدُ أن ينتصر انتصارًا تامًّا كانتصار محمد»[١].

لقد أبرزت هذه الشهادات بعض من جوانب عظمة الرسول محمد ﷺ، التي يُقِرُّ بها كل من يعايشه، أو يقرأ قسطًا من حياته، تكمن هذه العظمة في أنه كان حاملاً رسالةً سماويةً شموليةً، تهدف أساسًا إلى إصلاح حياة البشرية عامة[٢].

المبحث السادس:
شــــــهادة الواقــع

يشهد الواقع قديمًا وحديثًا أن الدين الإسلامي أسرع الديانات نموًّا في العالم؛ فمنذ أكثر من ١٤٠٠ سنة بدأ محمد ﷺ الدعوة إلى الإسلام، ولم يؤمن معه إلاَّ قِلَّة، ثم مَرَّت الأيام والأعوام، وقد وصل الإسلام اليوم إلى كل بقعة من بقاع الأرض.

والتاريخ يشهد شهادة صدق على انتشار هذا الدين، وإيمان شعوب الأرض المختلفة به، سواء كانت مهزومة أو منتصرة في معاركها مع معتنقيه، وهذا من أعجب المواقف التي حَيَّرَت العلماء والمفكرين، وما إسلام التتار عَنَّا ببعيد! ذلك الشعب الذي دخل بلاد المسلمين مبيدًا لأهلها، ولكن هزيمته في معركة عين جالوت عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) جعلته يُفَكِّر في طبيعة هذا الدين، ويدركها عن قُرب، فآمن أغلبهم، وتَحَوَّلوا إلى مدافعين عن الإسلام، حامين لعرينه من المعتدين.

فداعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه؛ حيث تضَمَّنَتْ عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشدَّ الحرص على أن يدخلوا فيها، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء، ولا ينتقصه شيئًا؛ فإن الإنسان يكسب الصِّلَة المباشرة بالله ﷻ، ويجد

---

(١) سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ص٢٨-٣٠.

(٢) وللاستزادة من شهادات المتصفين انظر الملحق الخاص بذلك في آخر البحث.

الطريق إليه، فيقف بين يديه خمس مرات في اليوم، ويدعوه دون حجاب، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا، ثم حياة الخلود في دار البقاء، ولا يُكَلِّفُه ذلك إلاَّ النطق بالشهادتين، واتِّبَاع شريعة الإسلام.

وإنك لتتعجَّب عندما تنظر إلى خريطة الأرض، وتتأمَّل مدى انتشار الإسلام (خريطة رقم ٣)، ويزداد عجبك عندما تتبين أن الإسلام قد ملأ قلوب معتنقيه دون جيش مُنَظَّم، أو سياسة مرسومة لذلك! إنها هو الإسلام نفسه، جعله الله خفيفًا على القلوب، قريبًا إلى النفوس، ما تكاد كلمة الحق تُصافح أُذُنَ الرجل حتى يصل الإيمانُ إلى قلبه، فإذا استقرَّ في قلبه لم يكن هناك قَطُّ سبيل إلى إخراجه منه[(١)].

ولعلَّ أكبر أسباب خِفَّة الإسلام على القلوب هو وضوحه وصدقه؛ لذلك انبهر علماء الغرب بطبيعته، حتى إن المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي الشهير جوستاف لوبون يقول عن يُسْرِ الإسلام: «ولا شيء أكثر وضوحًا، وأقلَّ غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعةِ فروضٍ يدخلُ الجنةَ مَنْ يقوم بها، ويدخل النار من يُعْرِض عنها، وإنك إذا ما اجتمعتَ بأي مسلم من أية طبقة رأيتَه يعرف ما يجب عليه أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة، وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل! وساعد وضوح الإسلام البالغ ما أمر به من العدل والإحسان، كل المساعدة على انتشاره في العالم»[(٢)].

---

(١) حسين مؤنس: الإسلام الفاتح، ص٢٠-٢٤ بتصرف.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٢٥.



75
45
0
-45
120 60 0 60 120 180

٧٠-١٠٠ % | ٥٠-٦٩ % | ٣٠-٤٩ %
١٠-٢٩ % | ٢-٩ % | أقل من ٢ %

خريطة رقم (٣)

نسبة تواجد المسلمين في دول العالم

ولننظـر إلى عـالم اليـوم حيـث نجـد أكثـر مـن ٤٢٠٠ ديانـة في العـالم[١]! ولكـن الإحصائيات تدلُّ على أن الدين الإسلامي هـو الأسرع انتشارًا بين جميع تلـك الأديان؛ ففي عـام (١٩٠٠م) بلغـت نسبة المسلمين في العـالم ١٢,٤٪، أمَّـا المسيحية فقد بلغت نسبتها ٢٦,٩٪، وفي عام (١٩٨٠م) بلغت نسبة المسلمين في العالم ١٦,٥٪، أمَّا المسيحية فقد بلغت نسبتها ٣٠٪، وفي عام (٢٠٠٠م) بلغت نسبة المسلمين في العـالم ١٩,٢٪، أمَّـا المسيحية فقد بلغت نسبتها ٢٩,٩٪[٢]. وقد أقرت بذلك الموسوعة المسيحية العالمية طبقًا لأحدث طبعة لها، حيث لاحظت ارتفاع عدد المسلمين من مجموع سكان العالم بنسبة تقرب من ٧٪ خلال القرن الماضي، بينما تراجعت نسبة المسيحيين.

وأكدت الموسوعة ذاتها أيضًا أن نسبة المسلمين من مجموع سكان العـالم ارتفعـت إلى ١٩,٦٪، أي ما يقارب ١,٣ مليار مسلم[٣].

أمَّا تَوَقُّعَات المراقبين في عام (٢٠٢٥م) بأنه سوف تبلغ نسبة المسلمين في العالم ٣٠٪، أمَّا المسيحية فستكون نسبتها ٢٥٪، فبالوقوف على هذه النتائج نستنتج أن الإسلام ينمو كل سنة بنسبة ٢,٩٪، وهذه أعلى نسبة للنمو في العالم[٤].

وإذا أمعنا النظر أكثر في بعض البلاد الغربية مثل فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأمريكا وغيرها، سنتأكَّد من هذه الحقيقة التي تدلُّ على أن الإسلامَ دينُ الفطرة الإنسانية التي ما إنْ يَعْرِف حقيقتَه أيُّ إنسان على ظهر الأرض إلاَّ اعتنقه عن اقتناع وحُبٍّ؛ فقد كشفت دراسة أعدَّتْهَا وزارة الداخلية الفرنسية أن ٣٦٠٠ شخص يعتنقون الإسلام سنويًّا في فرنسا[٥].

كما أَكَّدَت وزيرة الداخلية البريطانية جاكي سميث أن عدد المسلمين بالمملكة المتحدة في

---

(١) موقع: www.adherents.com.
(٢) Sato Tsugitaka, Muslim Societies, Routledge,UK, 2004.
(٣) موقع وكالة الأخبار الإسلامية (نبأ): www.islamicnews.net، وموقع جريدة الشرق الأوسط: www.asharqalawsat.com.
(٤) Sato Tsugitaka, Muslim Societies, Routledge,UK, 2004.
(٥) موقع إسلام تايم: www.islamtime.net.

الوقت الراهن عام ٢٠٠٧م قد وصل إلى مليوني شخص، مقارنة بـ(١,٦) مليون عام (٢٠٠١م)، وذلك بزيادة قدرها ٤٠٠ ألف في أقل من سبعة أعوام. وأشارت صحيفة (ذا جارديان) إلى أن الأرقام الجديدة أَكَّدَتْ على مكانة الإسلام، وأنه يُعَدُّ ثاني أكبر ديانة في البلاد بعد المسيحية؛ حيث بات المسلمون يشكلون الآن ٣,٣٪ من سكان بريطانيا، موضحة أن الإسلام أصبح أسرع الدِيانات انتشارًا في المملكة[1].

كما أشارت عملية مسح حديثة صادرة عن مركز الأبحاث الاجتماعية في جامعة جورجيا الأمريكية إلى أن الدين الإسلامي أسرع الأديان انتشارًا في الولايات المتحدة؛ حيث بلغ عدد المساجد في أمريكا أكثر ١٢٠٩ مساجد، بُني أكثر من نصفها خلال السنوات العشرين الماضية، كما تتراوح نسبة الذين تَحَوَّلُوا إلى الديانة الإسلامية خلال السنوات العشر الماضية ما بين ١٧ و٣٠٪[2].

أمَّا في ألمانيا فيعيش أكثر من ٣,٣ مليون مسلم، ويُشَكِّلُون حوالي ٤٪ من مجمل السكان، ويَصِلُ عدد المساجد هناك إلى ما يقرب من ٣٠٠٠ مسجد وصالة للصلاة[3].

كما بيّن استطلاع للرأي نشرته صحيفة «ليبر بلجيك» البلجيكية أن المسلمين سوف يكونون غالبية سكان مدينة بروكسل -التي تعتبر عاصمة رسمية للاتحاد الأوربي- بعد عشرين عامًا. وثمة دليل آخر على صحة هذه التوقعات، وهو أن محمدًا هو الاسم الأكثر انتشارًا بين المواليد الجدد في بروكسل منذ عام ٢٠٠١م. كما ذكرت صحيفة «روسيسكايا جازيتا» أن عدد المسلمين في بلجيكا تضاعف على وجه التقريب خلال عشرة أعوام منذ عام ١٩٩٥م ليبلغ ٤٥٠ ألف شخص في عام ٢٠٠٥م، عندما بلغ مجموع السكان في هذا البلد ١٠ ملايين شخص[4].

هذا هو الإسلام عبر التاريخ ينتشر بسلاسة وحيوية؛ لأنه دين الفطرة السليمة، فما أروع ذلك من دليلٍ على صدق نبينا ﷺ! وما قدمناه من شهادات واضحة تدل على صدق نبوته

---

(١) الموقع السابق نفسه.
(٢) موقع لواء الشريعة: www.shareah.com.
(٣) موقع مجلة ألمانيا: www.magazine-deutschland.de.
(٤) موقع وكالة الروسية نوفوستي: http://ar.rian.ru/analytics.

ﷺ وكمال رسالته، إنما ينطلق من قناعتنا بأن محمدًا ﷺ قدم للعالم أجمع رسالة يملؤها الحب والتعاون والخير.

وما أجمل أن نختم بقوله ﷺ الذي تنبأ فيه بانتشار الإسلام في ربوع الأرض، فقال ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ[1] إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ»[2].

* * *

---

(١) بيوت الوَبَر والمَدَر أي: بيوتِ البوادي والمُدْن والقُرى، وهو من وَبَر الإبل؛ لأن بيوتهم يتخذونها منه، والمَدَرُ جمع مَدَرَة وهي اللَّبِنَة، وقِطَعُ الطين اليابس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وبر ٥/ ٢٧١.

(٢) أحمد (١٦٩٩٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم (٨٣٢٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسة الصحيحة (٣).



النبي ﷺ والتعامل مع غير المسلمين

قال أحمد محرم (شاعر مصري):

نُحبُّ مُحمَّدًا ونَصُونُ فيه ... لِعيسَى ما يُحِبُّ وَمَا يَصُونُ

الباب الثالث:

النبي ﷺ والتعامل مع غير المسلمين

أرسل الله نبيَّه محمدًا ﷺ، وختم به رسالاته، فكانت رسالته رحمة وهدى للعالمين، فلم يَأْتِ النبي ليختلف مع الآخرين، ويُثِيرُ البغضاء والشحناء، بل جاء هاديًا ومبشِّرًا ونذيرًا؛ إيمانًا منه ﷺ بأن أنبياء الله جميعًا - عليهم صلوات الله وسلامه - إنما جاءوا بالتعاليم نفسها التي جاء بها؛ لذلك حرص النبي دائمًا على إظهار هذا المعنى، وآياتُ القرآن تدعوه إلى إعلان ذلك، فيقول تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ[1]﴾. وكانت معاملته ﷺ لأصحاب الديانات الأخرى معاملة راقية؛ انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[2]﴾، فلم يفكر يومًا في ظلم أحدهم أو قتله أو إجباره على اعتناق الإسلام، أو إكراهه على تغيير دينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[3]﴾.

ورغم ذلك فما زال هناك بعض الحاقدين يُثِيرون حول الإسلام ورسوله ﷺ الكثير من الشبهات التي هو منها براء؛ ولذا فقد أفردنا هذا الباب لتناول حياته ﷺ مع غير المسلمين، وآداب تعامله معهم، وسيتم هذا -بإذن الله- من خلال الفصول التالية:

الفصل الأول: الرسول ﷺ والرسالات السابقة

الفصل الثاني: تعاملاته ﷺ مع غير المسلمين في حال السلم

الفصل الثالث: معاهداته ﷺ مع غير المسلمين

الفصل الرابع: حروبه ﷺ مع غير المسلمين

الفصل الخامس: شبهات وردود

---

(١) (الأحقاف: ٩).
(٢) (الإسراء: ٧٠).
(٣) (يونس: ٩٩).

النبي ﷺ والرسالات السابقة

المبحث الأول: نظرة القرآن للرسل
المبحث الثاني: نظرة الرسول ﷺ لمن سبقه من الرسل

قال ابن الحداد (شاعر يمني):

يَا رَسُولَ اللهِ يَا أَهْلَ الْوَفَا   يَا عَظِيمَ الْخَلْقِ يَا بَحْرَ الصَّفَا

الفصل الأول:

النبي ﷺ والرسالات السابقة

منذ بعث الله نبيَّه محمدًا ﷺ إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا وهو يؤكِّد على حقيقة مهمَّة، ألا وهي أن دينَ الأنبياء جميعًا هو الإسلام - منذ خلق الله ﷻ آدم عليه السلام إلى أن ختم الله رسالاته بمحمد ﷺ - دينٌ واحد، يدعو إلى عبادة ربٍّ واحد ﷻ وإن اختلفت الشرائع في الأحكام الفرعيَّة، وجاء القرآن الكريم معبِّرًا عن هذا المعنى في آيات كثيرة؛ فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[1]﴾، وجاء على لسان يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ[2]﴾.

فالإسلام ينظر إلى الأنبياء جميعًا نظرة تبجيل وتعظيم؛ فاستحقَّ لذلك أن يكون الدِّينَ الخاتم للبشريَّة.

ومن خلال المبحثين التاليين نستعرض عَلاقة النبي ﷺ بغيره من الرُّسُل:

المبحث الأول: نظرة القرآن للرسل

المبحث الثاني: نظرة الرسول ﷺ لمن سبقه من الرسل

* * *

---

(١) (البقرة: ١٢٧).

(٢) (يوسف: ١٠١).



المبحث الأول:
نظرة القرآن للرسل

منذ بداية الدعوة الإسلاميَّة والقرآن يتنزَل بالآيات التي تشرح قصص الأنبياء؛ انطلاقًا من كون الرسالة التي نزلتْ عليهم جميعًا واحدة - مهما اختلفت العصور والأماكن - وهدفها واحد؛ وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى طريق الحقِّ تبارك وتعالى، فكان القرآن واضحًا غاية الوضوح في بيان حقيقة العَلاقة بين الرسل جميعًا؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا[1]﴾

ثم ها هو ذا القرآن المكِّيُّ يتحدَّث عن تكريم موسى عليه السلام - على سبيل المثال - فيقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[2]﴾، ويقول أيضًا: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ[3]﴾، ومثال ذلك كثير جدًّا في القرآن الكريم.

والأمر كذلك بالنسبة لعيسى عليه السلام؛ فتجد القرآن المكِّيَّ يُمَجِّد قصَّته في أكثر من موضع، فيذكر على سبيل المثال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا[4]﴾، ويقول أيضًا: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ[5]﴾

---

(١) (النساء: ١٦٣، ١٦٤).
(٢) (القصص: ١٤).
(٣) (الأعراف: ١٤٤).
(٤) (مريم: ٣٠-٣٣).
(٥) (الأنعام: ٨٥).

وعلى هذا التكريم والتبجيل استمرَّ الوضعُ في فترة المدينة، على ما كان فيها من صراعات وخلافات مع اليهود والنصارى، وعلى ما حدث من تكذيبٍ مستمرٍّ منهم، إلاَّ أن المديح الإلهي للأنبياء الكرام استمرَّ دونما انقطاع؛ فربنا ﷻ يذكر موسى وعيسى عليهما السلام كائنين من أُولي العزم من الرسل، فيقول سبحانه في حقِّهما: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[1]﴾.

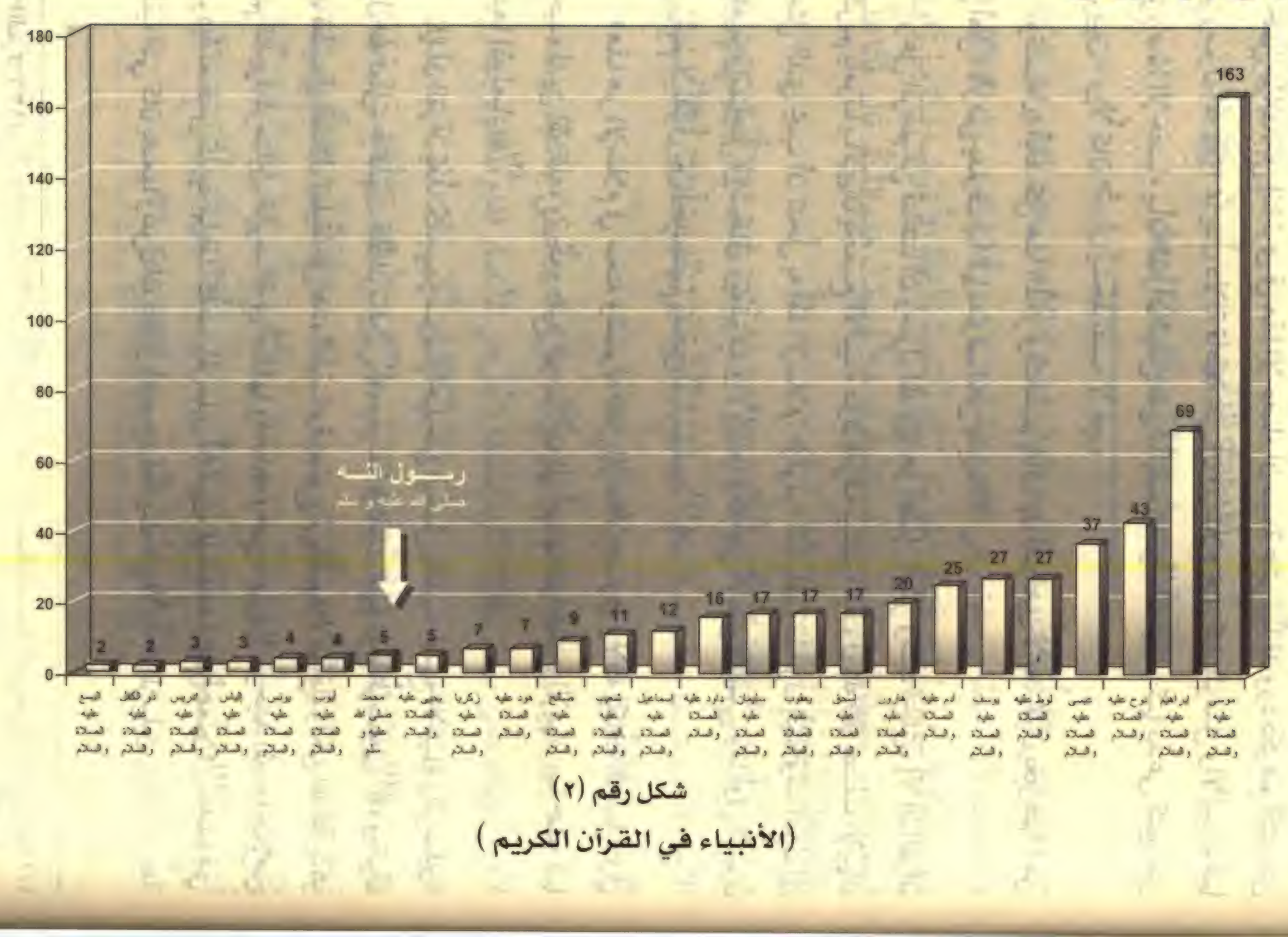
فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه السورة - وهي سورة الأحزاب - قد نزلت بعد خيانة يهود بني قريظة للمسلمين، ومحاولتهم استئصال كافَّة المسلمين من المدينة؛ أدركنا مدى التكريم الإلهي لموسى وعيسى عليهما السلام - وهما من أنبياء بني إسرائيل - وأدركنا كذلك مدى الأمانة التي اتَّصف بها الرسول ﷺ؛ إذ ينقل تكريم الله لهؤلاء الأنبياء العظام على رغم خيانة أقوامهم وأتباعهم.

ولم يكن هذا الاحتفاء والاحترام لهذين الرسولين العظيمين أمرًا عرضيًّا عابرًا في القرآن الكريم، بل كان متكرِّرًا بشكل لافت للنظر؛ فعلى الرغم من ورود لفظ (محمد) ﷺ أربع مرَّات فقط، ولفظ (أحمد) مرَّة واحدة فقط، نجد أن لفظ (عيسى) قد جاء خمسًا وعشرين مرَّة، ولفظ (المسيح) إحدى عشرة مرَّة، بمجموع ستّ وثلاثين مرَّة!! بينما تصدَّر موسى عليه السلام قائمة الأنبياء الذين تمَّ ذكرهم في القرآن الكريم؛ حيث ذُكر مائة وست وثلاثين مرَّة[2]!

وبالنظر إلى عدد المرَّات التي ذُكر فيها كل نبي في القرآن نُدرك مدى الحفاوة التي زُرعت في قلوب المسلمين لهم (**شكل رقم ٢**)، كما نجد أن لها دلالات لطيفة، فأكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن هم: موسى، ثم إبراهيم، ثم نوح، ثم عيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم، وهم جميعًا من أُولِي العزم من الرسل، ولا شكَّ أنَّ في هذا تعظيمًا وتكريمًا لهؤلاء الرسل خاصَّةً، ولكن لم يأتِ ذِكْرُ رسولنا محمد ﷺ -كما أشرنا قبل ذلك-

---

(١) (الأحزاب: ٧).
(٢) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢١٨، ٤٩٤، ٦٦٦، ٦٨٠.



شكل رقم (٢)

(الأنبياء في القرآن الكريم)

إلاَّ خمس مرَّات، بل إننا نرى في هذا الإحصاء أن سبعة عشر نبيًّا قد ورد ذكرهم أكثر من ذكر رسول الله ﷺ؛ مما يدلُّ دلالة قاطعة على أن الإسلام يجلُّ كل الرسل والأنبياء، كما يجزم هذا الإحصاء بأن القرآن ليس من تأليف رسول الله ﷺ -كما يدَّعي كثير من الغربيين- وإلاَّ كان همُّه أن يُمَجِّدَ نفسه لا غيره.

ونتساءل: أَبَعْد كل هذا الذِّكْر والتعظيم يقال: إن المسلمين لا يعترفون بغيرهم؟! مَنْ مِنْ أهل الأرض يعترف بنا كما نعترف نحن بغيرنا؟!

وعلى الرغم من قناعتنا أن رسول الله ﷺ هو أفضل البشر وسيِّد الخَلْق، إلاَّ أن القرآن الكريم يأمرنا بالإيمان بجميع الأنبياء دون تفرقة بينهم؛ فيقول الله ﷻ يصف الإيمان الأمثل الذي يجب أن تتحلَّى به أُمَّة الإسلام: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[1]﴾.

«هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات، وفي ولائه لكافَّة الرسل، وفي توحيده لدين الله كله، ورَجْعِهِ جميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده»[2].

كما أن القرآن يَعُدُّ تكذيب رسول واحد من الرسل تكذيبًا لجميع الأنبياء والمرسلين؛ لقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ[3]﴾، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ[4]﴾، ويقول سيد قطب في الظلال تعليقًا على هذه الآية: «وقوم نوح لم يُكَذِّبوا إلاَّ نوحًا، ولكن الله ﷻ يذكر أنهم كذَّبوا المرسلين، فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له، فمَنْ كَذَّب بها فقد كَذَّب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين»[5]. هذه هي الخلفية التي كان يضعها رسول الله ﷺ في ذهنه عند الحديث عن الأنبياء والمرسلين.

---

(١) (البقرة: ١٣٦).
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٤٢٣.
(٣) (الشعراء: ١٢٣).
(٤) (الشعراء: ١٠٥).
(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٣٥٦.

المبحث الثاني:
نظرة الرسول ﷺ لمن سبقه من الرسل

عَلَّم النبي ﷺ أُمَّتَهُ أنَّ رسل وأنبياء الله السابقين كالبناء العملاق القائم على التكامل والتعاون؛ لأداء مهمَّة واحدة، وهي توحيد الله تعالى، ومن ثَمَّ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ. قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[١].

كما أَمَرَ النبيُّ ﷺ أيضًا أُمَّتَه ألاَّ تُفاضل بين الأنبياء، فقال: «لا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ»[٢]. وعندما حدث خلاف بين مسلم ويهودي حول المفاضلة بين الأنبياء غضب الرسول ﷺ لصالح اليهودي وليس لصالح المسلم!

فقد روى أبو هريرة ﷺ فقال: بينما يهوديٌّ يعرض سلعته أُعطي بها شيئًا كرهه، فقال: لا، والَّذي اصطفى موسى على البَشَرِ. فسمعه رَجُلٌ من الأنصار فقام فلَطَمَ وجهه، وقال: تقول: والَّذي اصطفى موسى على البشر. والنَّبيُّ ﷺ بين أَظْهُرِنَا؟! فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إنَّ لي ذمَّةً وعهدًا، فما بال فلانٍ لطم وجهي؟ فقال ﷺ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟!». فَذَكَرَهُ، فغضب النبي ﷺ حتى رُئِي في وجهه، ثم قال: «لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي؟ وَلا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٣].

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦).

(٢) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب الديات، باب إذا لطم يهوديًّا عند الغضب (٦٩١٦).

(٣) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩] (٣٤٠٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ... (٢٣٧٣).

إن رسول الله ﷺ لا يتحرَّج أن يذكر مثل هذه الحقائق، وبخاصَّة في هذا الموقف الذي فيه خلاف بين مسلم ويهودي؛ لقد تناسى النبيُّ ﷺ تمامًا قصَّة هذا النزاع، وتذكَّر أخاه في النُّبُوَّة موسى بن عمران عليه السلام، فانبرى مدافعًا عنه رافعًا من شأنه؛ إيمانًا منه ﷺ بأن الإسلام لا يفرِّق بينهم -عليهم السلام- ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنَّ الإسلام يُوجِب علينا أن نحبَّ الأنبياء السابقين، أكثر من حُبِّ أتباعهم لهم؛ لأن هذا الحُبَّ ركن من أركان الإيمان بالله في العقيدة الإسلاميَّة السمحة.

لذلك نجده ﷺ يُعَلِّم أُمَّته تعظيم الأنبياء، بل ويخصُّ بالذِّكْر الزعماء الكبار للديانتين اليهودية والنصرانية، فيقول ﷺ عندما عَلِم ﷺ بأنَّ اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ احتفالاً بإنجاء الله ﷻ لموسى عليه السلام وبني إسرائيل من عدوِّهم: «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ». فصامه وأمر بصيامه[1]. كما قال رسول الله ﷺ عن عيسى عليه السلام: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ»... وقال ﷺ أيضًا: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ[2]، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[3]. هكذا كان ينظر رسولُ الله ﷺ إلى أنبياء الله؛ فشتَّان بين نظرة مستمدَّة من قيم الإسلام الأصيلة وغيرها من النظرات المحرَّفة القاصرة.

هذه هي مكانة هؤلاء الأنبياء الكرام في عين رسول الله ﷺ، وحتى عندما كان يتمنَّى ﷺ من نبي فعلاً غير الذي فعل، كان يُقَدِّم أمنيَّته بالدعاء له؛ فتجده -مثلاً- عندما يتمنَّى أن لو كان موسى عليه السلام قد صبر في رحلته مع الخضر يقول: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»[4].

---

(١) البخاري عن عبد الله بن عباس: كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٢) قال العلماء: أولاد العلات هم الإخوة لأب من أمهات شتى، وأمَّا الإخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاد الأعيان. قال جمهور العلماء: معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة، فإنهم متَّفقون في أصول التوحيد، وأمَّا فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، وأمَّا قوله ﷺ: «وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». فالمراد به أصول التوحيد. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/١١٩.

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] (٣٤٤٢)، (٣٤٤٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥).

(٤) البخاري عن أبي بن كعب: كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠).

وعندما رأى ﷺ أن هناك كلمة أولى من الكلمة التي قالها لوط عليه السلام وحكاها عنه القرآن الكريم عندما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ[1]﴾، قال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»[2].

بل إنه ﷺ يتجاوز الأنبياء السابقين ليمدح أتباعهم والذين ساروا على نهجهم وثبتوا على دينهم؛ فها هو ذا يمدح الراهب النصراني في قصَّة أصحاب الأخدود[3]، وها هو ذا يمدح الأعمى من بني إسرائيل الذي شكر نعمة الله تعالى[4]، وها هو يمدح جريجًا[5] ويذكر قصَّته للصحابة ولنا، وهو من عُبَّاد بني إسرائيل، وهكذا.. وإنَّ حَصْر مثل ذلك صعب جدًّا؛ لوفرته في كتب السُّنَّة النبويَّة.

وأكثر من ذلك أنه ﷺ طلب من الصحابة أن يتَّخذوا الثابِتِينَ من السابقين من أصحاب الديانات الأخرى قدوةً ونبراسًا للهدى!

وانظر إلى هذا الموقف الذي يَضرِب فيه المَثَل بأَتْبَاع دينٍ آخر؛ قال خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة؛ قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال ﷺ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[6].

---

(١) (هود: ٨٠).

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأنبياء، باب قوله ﷻ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل (١٥١).

(٣) حديث أصحاب الأخدود رواه مسلم عن صهيب: كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥)، وأحمد (٢٣٩٧٦).

(٤) قصة الأقرع والأعمى والأبرص الذين ابتلاهم الله، رواها البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٧)، ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

(٥) قصة العابد (جريج) والطفل الذي تكلَّم في المهد، رواها البخاري عن أبي هريرة: كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة (١١٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة (٢٥٥٠).

(٦) البخاري: كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٩٤٣)، وأبو داود (٢٦٤٩)، وأحمد (٢١١٠٦).

هذه هي نظرته ﷺ للأنبياء ولأتباعهم، وهو أمر ثابت في منهج حياته ﷺ من أول بعثته، فهم لَبِنَات في صرح هائل ضخم، ولا معنى لتصارع اللَّبِنَات في البناء الواحد، إنما هو التكامل والتعاون لأداء مهمَّة واحدة، وهي توحيد الله ربِّ العالمين.

ومن ثَمَّ فإننا لا نكتفي بمجرَّد الاعتراف والإيمان بمن سبقنا من الرسل، وإنما نُوَقِّرهم جميعًا، ونجلهم، ونرفع قدرهم فوق عامة البشر، وكيف لا وقد اصطفاهم ربنا على خلقه، وجعلهم قدوة للعالمين!

* * *

تعاملاته ﷺ مع غير المسلمين في حال السلم

المبحث الأول: تعامله ﷺ مع المشركين في مكة
المبحث الثاني: تعامله ﷺ مع الأقلية غير المسلمة في المدينة
المبحث الثالث: تعامله ﷺ مع الدول غير المسلمة

قال الشاعر أحمد كاشف (شاعر مصري):

أهلاً بميثاقِ السّلامِ مُقدّمًا ... لكَ مِنْ رَسولِ الرّحمةِ الفيْحاءِ

الفصل الثاني:
تعاملاته ﷺ مع غير المسلمين في حال السلم

لقد حفلت نصوص القرآن ومواقف السيرة النبوية بما يدلُّ على أن الإسلام يُؤْثِرُ دائما السلام، ومن أدلَّة ذلك أنَّ القرآن الكريم أورد كلمة السلم بمشتقاتها مائة وأربعين مرَّة، في حين ذُكِرَت كلمة الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط! والفرق بين العددين هو الفرق بين نظرة الإسلام إلى كلا الأمرين (**شكل رقم ٣**)، ومن ثَمَّ في ميل الرسول ﷺ إلى كلٍّ منهما؛ ففي معظم أحواله ﷺ كان يبحث عن الطرق السلمية والهادئة للتعامل مع المخالفين له، ويحرص على تجنُّب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ويؤكِّد هذا النظرة العديد من الآيات التي أمرت بالسَّلْم مع غير المسلمين إن أبدى هؤلاء الاستعداد والميل للصلح والسلام؛ فيقول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**[1]﴾، وهذه الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ تبرهن بشكل قاطع على حُبِّ المسلمين وإيثارهم للسلم متى مال الأعداء إليه، ما لم يكن من وراء هذا الأمر ضياع حقوقٍ للمسلمين أو سلب لإرادتهم؛ لذلك يرى الشيخ محمود شلتوت[2] أن السلم هو الحالة الأصلية التي تهيِّئ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامَّة، وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم، فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية[3].

---

(١) (الأنفال: ٦١).

(٢) هو الشيخ محمود شلتوت: (١٣١٠- ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣- ١٩٦٣م): فقيه مفسر مصري، ولد بالبحيرة، وتخرج بالأزهر، عُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة، ثم شيخًا للأزهر (١٩٥٨م) إلى وفاته، من مؤلفاته: (فقه القرآن والسنة)، (مقارنة المذاهب)، (يسالونك) وهي مجموعة فتاوى، وترجمت له كتب كثيرة لعدة لغات. توفي سنة (١٩٦٣م). انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ١٧٣.

(٣) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٥٣.

160
140
120
100
80
60
40
20
0
السلام ١٤٠ مرة
الحرب ٦ مرات

شكل رقم (٣) الحرب والسلم في القرآن الكريم

المبحث الثاني:
تعامله ﷺ مع الأقلية غير المسلمة في المدينة

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أصبح سيدًا عليها، ومن ثَمَّ عاشت معه في داخل المدينة أقلية غير مسلمة من المشركين واليهود، وعندما امتدَّت الدولة الإسلامية إلى مساحات أوسع صارت فيها أقليات من النصارى -كذلك- تمتعت كلها بالحرية الدينية، فكل أقلية تمارس شعائرها كما تحبُّ، وهذه الحرية أقرَّها الإسلام كمبدأ منذ نزول الوحي على الرسول ﷺ؛ لترتقي بها الإنسانية، وتسعد في ظلِّها البشرية.

وسيرته ﷺ خير شاهد على تمتع الأقلية غير المسلمة بالحرية الدينية، رغم ما قاساه الصحابة الكرام الأوائل من مشركي مكة، إلاَّ أن الرسول ﷺ - الذي اكتوى أيضًا بنار القسوة والتعذيب - لم يَرُدَّ على الكافرين والمشركين بهذا الأسلوب، ولم يعاملهم بالمثل عندما أنعم الله عليه بالنصر والتمكين، ولم يرتضِ يومًا أن يفرض عليهم عقيدة لم يقتنعوا بها بعدُ، امتثالاً لأوامر القرآن الكريم التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[1]﴾، وهو ما طبَّقه الرسول ﷺ، وجعل منه دستورًا للمسلمين في تقرير الحرية الدينية (صورة للمقارنة رقم ٩).

ومما يؤكِّد هذه الحقيقة ما ورد في سبب نزول الآية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ[2]﴾، فقد جاء أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبي ﷺ، ثم قَدِمَا المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما، وقال: لا أدعكما حتى تُسلما. فأبيا أن يسلما؛ فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟! فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية، فخلَّى سبيلهما[3].

(١) (يونس: ٩٩).
(٢) (البقرة: ٢٥٦).
(٣) انظر: الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، ص ٥٣، والسيوطي: لباب النزول ص ٣٧.

المبحث الأول:

تعامله ﷺ مع المشركين في مكة

تعامل النبي ﷺ مع المشركين في مكة بطريقة فذَّة فريدة، فكان رسول الله ﷺ يبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل إنقاذهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، رغم عنادهم وقسوتهم في التعامل معه ﷺ ومع من أسلم من أصحابه، إلاَّ أنه كان مُصِرًّا على دعوتهم إلى الإسلام الذي يُحقِّق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

وقد اتَّسم تعامله ﷺ مع المشركين في مكة بعدَّة سمات، أوَّلها دعاؤه لهم بالهداية؛ فكان يخصُّ بدعائه ﷺ كل المشركين، بل ومن ناصبه العداء كأبي جهل وعمر بن الخطاب قبل إسلامه، وكانا من ألدِّ وأشهر وأقوى أعدائه ﷺ، فكان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ. فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ»[1].

كما اتسم أيضًا بِسِمَة التبشير؛ فحياته ﷺ من أقوال وأفعال مبنية على التبشير، ولم يكن يخرج عن هذا الطبع على الرغم من قسوة المشركين عليه؛ فعن ربيعة بن عباد الديلي -وكان جاهليًّا ثم أسلم- قال: رأيت رسول الله ﷺ بَصَرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؛ تُفْلِحُوا». ويدخل في فجاجها[2] والناس مُتَقَصِّفُون[3] عليه، فما رأيتُ أحدًا يقول شيئًا، وهو لا يسكت، يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؛ تُفْلِحُوا». إلاَّ أن وراءه رجلاً أحول وَضِيءَ الوجه ذا غَدِيرَتَين، يقول: إنه صابئ كاذب. فقلتُ: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة. قلتُ: من هذا الذي يُكَذِّبه؟

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب (٣٨٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر. وأحمد (٥٦٩٦)، والحاكم: (٤٤٨٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٦٠٣٦).

(٢) الفجاج: جمع الفَجِّ، وهو الطريق الواسع والمكان البعيد، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة فجج ٢/ ٣٣٨.

(٣) المتقصِّفون: المزدحمون والمجتمعون، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قصف ٩/ ٢٨٣.

قالوا: عمُّه أبو لهب[١].

ولم يخرج الرسول ﷺ عن أدبه في المعاملة حتى مع السفاهة الواضحة لأبي لهب، وظلَّ على منهج التبشير يدعو الناس إلى الفلاح والنجاة، بل إنه كان يُبَشِّرُهم بمُلْكِ الدنيا قبل نعيم الآخرة إنْ هم آمنوا بالله ولم يشركوا به شيئًا؛ قال عبد الله بن عباس ﷺ: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ، وعند أبي طالب مجلسُ رجلٍ، فقام أبو جهل كي يمنعه، وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يابن أخي، ما تُريد من قومك؟ قال ﷺ: «إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ». قال: كلمة واحدة؟! قال ﷺ: «كَلِمَةً وَاحِدَةً». قال: «يَا عَمِّ، قُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ». فقالوا: إلهًا واحدًا؟! ما سمعنا بهذا في الملَّة الآخرة[٢]، إن هذا إلاَّ اختلاق[٣]. قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ﴾[٤]، فلم يَعْبَسْ ﷺ في وجوهم، ولم يقاطع مجالسهم، ولم ينظر لهم نظرة المتكبِّر المُعرِض، إنما تلطَّف وتودَّد إليهم، ويبشِّرهم بمُلْكِ الدنيا ونعيم الآخرة.

أمَّا السمة الثالثة فهي الحوار معهم، امتثالاً للمنهج القرآني الذي ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى

---

(١) أحمد (١٩٠٢٦)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عبد الرحمن بن أبي الزناد. والحاكم (٣٩) وقال: وإنما استشهدت بعبد الرحمن بن أبي الزناد اقتداء بهما فقد استشهدا جميعًا به. ووافقه الذهبي، والطبراني: المعجم الكبير (٤٥٨٤)، والبيهقي (١٧٥٠٥)، وله شاهد من حديث طارق به عبد الله المحاربي، أخرجه أبو بكر بن شيبة، انظر: المطالب العالية (٤٢٧٧). وقال الساعاتي: سنده جيد. انظر: الفتح الرباني ٢٠/ ٢١٦.

(٢) الملة الآخرة: ملة النصرانية، فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، وقيل: يعنون بها ملة قريش. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٩/ ١٠٠.

(٣) اختلاق: كذب اختلقه. انظر المرجع السابق نفس الصفحة. وانظر في تفسيرها: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٥٢، والطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٢١/ ١٥٢-١٥٥، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٥٥، والبغوي: معالم التنزيل ٧/ ٧٢.

(٤) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة ص (٣٢٣٢)، وقال: هذا حديث حسن. وأحمد (٢٠٠٨)، وابن حبان (٦٦٨٦)، والحاكم (٣٦١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. ووافقه الذهبي، (والآيات من سورة ص: ١-٧).

أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ[1] ﴾[2]، فالرسول ﷺ يعلم على وجه اليقين أنه على الحقِّ والهدى، ومع ذلك أمره الله في تحاوره مع المشركين أن يقول لهم: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، إنها الأرضية المشتركة التي نقف عليها، أحدنا على حقٍّ والآخر على باطل، فلنتناقش ولنتحاور حتى نصل إلى الحقيقة الغائبة؛ إنها طريقة الحوار المثلى، وغاية الأدب، ومنتهى سموِّ الأخلاق، ثم يُعَلِّمه الله أن يخاطبهم في أدب جمٍّ فيقول لهم: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾!

فقد أُمر الرسول ﷺ بأن ينسب (الجُرْم) إلى نفسه، وهو عادة يأتي في الأخطاء والزَّلاَّت، وينسب لفظ (العمل) لهم، وهو يحتمل الصلاح أو الفساد، ثم يُسَلِّم الأمر كله بعد ذلك لله ﷻ، فيقول: إن الله ﷻ سيجمع بيننا جميعًا يوم القيامة، ويحكم بيننا بالحقِّ الذي يراه، فنعرف ساعتها من الذي أصاب ومن الذي أخطأ.

وهذه - ولا شكَّ - أرقى وسيلة ممكنة من وسائل التحاور، لا تحمل أي صورة من صور العصبية والتَّزمُّت، إنما فيها كل الأدب، وكل التقدير للطرف الآخر.

وإنَّ حَصْر مثل هذه الآيات يطول ويصعب لكثرتها، وما يهمُّنَا هنا هو تمثُّل الرسول ﷺ لهذه الآيات وتلك التوجيهات الربانية، تلك التي تُعَبِّرُ عن منهجه وأسلوبه ﷺ العظيم الراقي في تعامله مع المشركين في مكة.

أمَّا السمة الرابعة فهي صَبْرُه ﷺ على إيذاء قريش له، فعن عروة بن الزبير ﷺ قال: سألت عبد الله بن عمرو ﷺ عن أشدِّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه، فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر ﷺ حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ

---

(١) (سبأ: ٢٤-٢٦).

(٢) سورة سبأ مكية بإجماعهم، إلاَّ آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦]، فقالت فرقة: هي مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٥٨.

جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١][٢].

كما رموه بالسحر والجنون وهو منه براء إمعانًا في تسفيه ما جاء به، وهو الحقُّ من رب العالمين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذه الرِّيح[٣]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إنَّ محمَّدًا مجنونٌ. فقال: لو أنِّي رأيت هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ. قال: فلقيه، فقال: يا محمد، إنِّي أرقي من هذه الرِّيح، وإنَّ الله يشفي على يدي مَنْ شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ**». قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء. فأعادهنَّ عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرَّاتٍ، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السَّحرة، وقول الشُّعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[٤]. قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه...[٥].

كما اشتدَّ الأذى عليه ﷺ بعد موت عمِّه أبي طالب، فيروي ابن هشام قائلاً: فلما مات أبو طالبٍ نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالبٍ، حتى اعترضه سفيهٌ من سفهاء قريشٍ، فنثر على رأسه ترابًا... فلمَّا دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تَبْكِي يَا بُنَيَّةِ؛ فَإِنَّ اللهَ مَانِعُ أَبَاكِ**»[٦].

ورغم هذا الإيذاء الذي سقنا طرفًا منه إلاَّ أن النبي ﷺ لم يمنع التعامل معهم، بل

---

(١) (غافر: ٢٨).

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً» (٣٤٧٥)، وأحمد (٦٩٠٨). وفعل أبو جهل مثل ذلك؛ حيث ألقى على النبي ﷺ سلا جزور، انظر: البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٧٧٦).

(٣) المراد بالريح هنا الجنون ومس الجن. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦/ ١٥٧.

(٤) ناعوس البحر: وقع في صحيح مسلم بالنون والعين، وفي سائر الروايات قاموس وهو وسطه ولجته، أي: وصل إلى أبعد مدى. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦/ ١٥٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة نعس ٦/ ٢٣٣.

(٥) مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٨)، وابن حبان (٦٥٦٨).

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٤١٦.

ظلَّ على حُسْن المعاملة من بيع وشراء، ودليلنا على ذلك ما فعلته قريش مع المسلمين في العام السابع من البعثة[(١)]، عندما فرضت عليهم حصارًا اقتصاديًّا ظالمًا.

بل وأكثر من ذلك حيث حفظ لهم أماناتهم التي أودعوها عنده ﷺ، وَرَدَّها كاملة إليهم، رغم تآمرهم على قتله ليلة الهجرة؛ حيث ترك ﷺ خلفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه لِرَدِّها[(٢)].

ومن فرط رحمته وحرصه عليهم لم يَدْعُ الله عليهم بالهلاك، فعندما قال له ملك الجبال: إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين[(٣)]. قال رسول الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[(٤)].

هكذا كان تعامله ﷺ مع مشركي قريش تعاملاً قائمًا على الرحمة والشفقة، ودليلاً أكيدًا على نبوَّته؛ لأنه ﷺ لم يتعامل مع مشركي قريش إلاَّ من منطلق المنهج الرباني الذي استقاه من القرآن الكريم.

* * *

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٣-٧١، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٥٠، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ١٧٤.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٢٣٤، ٢٧٠، ٢٩٠، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٤٨٥، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٣٣.

(٣) الأخشبين: جبلي مكة أبي قبيس ومقابله قعيقعان، سُمِّيا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما، والمراد بإطباقهما أن يلتقيا على مَنْ بمكة، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقًا واحدًا. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٣١٦.

(٤) البخاري عن عائشة: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين... (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

المبحث الثاني:
تعامله ﷺ مع الأقلية غير المسلمة في المدينة

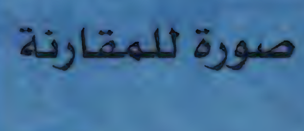
بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أصبح سيدًا عليها، ومن ثَمَّ عاشت معه في داخل المدينة أقلية غير مسلمة من المشركين واليهود، وعندما امتدَّت الدولة الإسلامية إلى مساحات أوسع صارت فيها أقليات من النصارى -كذلك- تمتعت كلها بالحرية الدينية، فكل أقلية تمارس شعائرها كما تحبُّ، وهذه الحرية أقرَّها الإسلام كمبدأ منذ نزول الوحي على الرسول ﷺ؛ لترتقي بها الإنسانية، وتسعد في ظلِّها البشرية.

وسيرته ﷺ خير شاهد على تمتع الأقلية غير المسلمة بالحرية الدينية، رغم ما قاساه الصحابة الكرام الأوائل من مشركي مكة، إلاَّ أن الرسول ﷺ - الذي اكتوى أيضًا بنار القسوة والتعذيب - لم يَرُدَّ على الكافرين والمشركين بهذا الأسلوب، ولم يعاملهم بالمثل عندما أنعم الله عليه بالنصر والتمكين، ولم يرتضِ يومًا أن يفرض عليهم عقيدة لم يقتنعوا بها بعدُ، امتثالاً لأوامر القرآن الكريم التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[1]﴾، وهو ما طبَّقه الرسول ﷺ، وجعل منه دستورًا للمسلمين في تقرير الحرية الدينية (صورة للمقارنة رقم ٩).

ومما يؤكِّد هذه الحقيقة ما ورد في سبب نزول الآية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ[2]﴾، فقد جاء أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبي ﷺ، ثم قَدِمَا المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما، وقال: لا أدعكما حتى تُسلما. فأبيا أن يسلما؛ فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟! فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية، فخلَّى سبيلهما[3].

---

(١) (يونس: ٩٩).
(٢) (البقرة: ٢٥٦).
(٣) انظر: الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، ص ٥٣، والسيوطي: لباب النزول ص ٣٧.



صورة للمقارنة





صورة رقم (٩)

مأساة كشمير

ينبئ وضع المسلمين في كشمير عن أزمة خطيرة لهم منذ ما يقرب من نصف قرن. ففي ولاية كشمير الهندية يتعرض المسلمون لأبشع أنواع التعذيب والتقتيل. ولا تتوانى القوات الهندية عن حملات القتل العشوائي، وعمليات النهب، وحرق البيوت والدكاكين والأسواق، حتى إنها (القوات الهندوس) تطلب من الأهالي أن يبقوا في دكاكينهم وبيوتهم وهي محترقة، وإذا فروا فتحوا عليهم نيران رشاشاتهم. وبين جدران السجون تحدث أبشع جرائم التعذيب مما لا يتصوره عقل، فضلاً عن قذارة الزنزانات، ورائحة العفن التي تفوح منها، والأوضاع الصحية المزرية التي يعاني منها السجناء دون علاج، كما أنهم يحصلون على أقذر الأطعمة التي تؤدي إلى إصابتهم بالأمراض المميتة، كما تجرى عمليات جراحية إجبارية للمسلمين لاستئصال الكلى، ثم تزرع هذه الكلى أو تباع في نيودلهي[1].

(١) عمر بن عبد العزيز: سماحة الإسلام، ص١٤٤ : ١٤٥.

وهكذا أمر الرسول ﷺ والد الابنين المتنصرين والمخالِفين له ولرسول الله ﷺ في العقيدة بأن يَدَعْهُما وما يعتقدان، ويُخَلِّي بينهما وبين ما يعبدان، حتى وإن كان له عليهما حقُّ الطاعة!

كما أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية - كذلك - في أول دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يشكِّلون مع المسلمين أُمَّة واحدة[(١)].

كما كان تعامله ﷺ مع غير المسلمين تعاملاً قائمًا على العدل؛ من ذلك ما رواه عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ قال: كنَّا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، فقال النبي ﷺ: «هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ؟» فإذا مع رجلٍ صاعٌ من طعامٍ أو نحوه، فعجن، ثم جاء رجل مشرك مُشْعانٌّ (ثائر الرأس) طويلٌ، بغنمٍ يسوقها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «بَيْعًا أَمْ عَطِيَّةً؟» أو قال: «أَمْ هِبَةً؟»[(٢)] قال: لا، بل بيعٌ. فاشترى منه شاةً، فصنعت، وأمر النَّبيُّ ﷺ بسواد البطن[(٣)] أن يشوى، وايم الله ما في الثلاثين والمائة إلاَّ قد حزَّ[(٤)] النَّبيُّ ﷺ له حزَّةً[(٥)] من سواد بطنها: إن كان شاهدًا أعطاها إيَّاه[(٦)]، وإن كان غائبًا خبَّأ له، فجعل منها قصعتين، فأكلوا أجمعون، وشبعنا ففضلت القصعتان، فحملناه على البعير[(٧)].

فهذا رسول الله ﷺ في فرقة من جيشه قوامها مائة وثلاثون رجلاً يحتاجون إلى طعام، يمرُّ بهم رجل مشرك بغنم، فيشتري رسول الله ﷺ منه شاة بثمنها، ولم يتَّجه إلى إكراه الرجل على إعطائهم الشاة بدون ثمن مع توافر القوَّة لديه ﷺ، ومع شدَّة احتياجهم، ومع

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠١، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٦٠، والسهيلي: الروض الأنف ٢/ ٣٤٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١.

(٢) وفيه جواز بيع الكافر وإثبات ملكه على ما في يده، وجواز قبول الهدية منه، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٤/ ٤١٠.

(٣) سواد البطن: هو الكبد، أو كل ما في البطن من كبد وغيرها. انظر المصدر السابق ٥/ ٢٣٢.

(٤) حزَّ: قطع، وقيل: قطع بغير إبانة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حزز ٥/ ٣٣٤.

(٥) الحزة: هي القطعة من اللحم وغيره. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٤/ ١٧.

(٦) أعطاها إياه: هو من القلب وأصله أعطاه إياها.

(٧) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٨)، (٥٣٨٢)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٦).



كفر الرجل وفساد عقيدته؛ إنه العدل في أرقى صوره.

كما كان رسول الله ﷺ يعامل غير المسلمين المحيطين به معاملة الرجل لأهله؛ فها هو ذا أنس رضي الله عنه يروي موقفًا عجيبًا من مواقف رسول الله ﷺ فيقول: كان غلامٌ يهوديٌّ يخدم النبي ﷺ فمرض؛ فأتاه النبي ﷺ يعوده؛ فقعد عند رأسه؛ فقال له: «أَسْلِمْ». فنظر إلى أبيه وهو عنده؛ فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

بل ويُقِرُّ أسماء بنت أبي بكر(٢) رضي الله عنهما على صلتها لأمها فتحكي فتقول: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي(٣) وهي مشركةٌ في عهد قريشٍ إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدَّتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدمت عليَّ وهي راغبةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِيهَا»(٤).

وما أبلغ وأروع الموقف الذي علَّمَنا إياه رسول الله ﷺ عندما مَرَّت به جنازة يهودي، فعن ابن أبي ليلى أنَّ قيس بن سعدٍ(٥) وسهل بن حنيفٍ(٦) رضي الله عنهما كانا بالقادسيَّة، فمرَّت

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الصبي الإسلام؟ (١٣٥٦)، والترمذي (٢٢٤٧)، والحاكم (١٣٤٢)، والنسائي في سننه الكبرى (٧٥٠٠).

(٢) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، كانت تحت الزبير بن العوام، وكان إسلامها قديمًا بمكة، ثم هاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله ابن الزبير، فوضعته بقباء، وقد توفيت بمكة في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله بن الزبير بيسير. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٢، وابن حجر العسقلاني: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٧٩١).

(٣) هي قُتيلة بنت سعد من بني عامر بن لؤي، امرأة أبي بكر الصديق، وهي أم عبد الله وأسماء. ذكرها ابن الأثير في الصحابيات، وقال: تأخر إسلامها. قدمت إلى المدينة وهي مشركة بعد صلح الحديبية. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٢٤٢.

(٤) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣).

(٥) قيس بن سعد بن عبادة: أحد دهاة العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحروب، وكان شريف قومه، وكان من النبي ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير، وقد أعطاه الرسول ﷺ الراية يوم فتح مكة، ومات بها سنة ٥٩ أو ٦٠ هـ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٢٧٢، وابن حجر العسقلاني: الإصابة، الترجمة (٧١٧٦)، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٣٥٠.

(٦) سهل بن حنيف بن واهب، شهد بدرًا وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وثبت يوم أُحُد، استخلفه عليٌّ رضي الله عنه حين خرج من المدينة إلى البصرة، كما شهد مع علي صِفِّين وولاه على فارس. مات بالكوفة سنة ٣٨هـ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٣٥، وابن حجر العسقلاني: الإصابة، الترجمة رقم (٣٥٣٢)، وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٢٣.

بهما جنازةٌ، فقاما، فقيل لهما: إنَّها من أهل الأرض[1]، فقالا: إنَّ رسول الله ﷺ مرَّت به جنازةٌ فقام، فقيل: إنَّه يهوديٌّ. فقال: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[2]. فها هو ذا النبي ﷺ يُعلِّم أُمَّته احترام غير المسلمين حتى الموتى منهم.

وما أجمل أن نختم بموقف للنبي ﷺ مع يهود خيبر تم بعد هزيمتهم وقبولهم الصُّلحَ معه ﷺ، فكانوا في موقف ضعف، والمسلمين في موضع قوَّة، ويستطيع المسلمون - في هذا الموقف - أن يفرضوا رأيهم بالقوة إن أرادوا، ولكن تعامل النبي ﷺ مع هذا الموقف تعاملاً آخر؛ فروى سهل بن أبي حَثْمة ﷺ أنَّ نفرًا من قومه انطلقوا إلى خيبر، فتفرَّقوا فيها، ووجدوا أحدهم قتيلاً، وقالوا للذي وُجِدَ فِيهِمْ: قد قَتَلْتُمْ صاحبنا. قالوا: ما قتلْنَا ولا علمنا قاتلاً. فانطلقوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، انطلقنا إلى خيبر فوجدنا أحدنا قتيلاً. فقال: «الْكُبْرَ الْكُبْرَ»[3]. فقال لهم: «تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟» قالوا: ما لنا بَيِّنَةٌ! قال: «فَيَحْلِفُونَ؟» قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود. فكره رسول الله ﷺ أن يُبطل دمه، فوداه[4] مائةً من إبل الصَّدقة[5].

فالقتل تمَّ في أرض اليهود، والاحتمال الأكبر أن يكون القاتل من اليهود، ومع ذلك فليس هناك بينة على هذا الظنِّ، والأمر في مجال الشكِّ والتخمين، وهذا لا يُفلِحُ في الدعوى؛ ولذلك لم يعاقِب رسولُ الله ﷺ اليهودَ بأي صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا! وليس هذا فقط، بل دفع رسول الله ﷺ دية القتيل من بيت المسلمين؛ ليسكِّن من ثائرة الأنصار، وبذلك تهدأ الفتنة دون ضرر لليهود.

---

(١) من أهل الأرض أي: من أهل الذمة، وقيل لأهل الذمة أهل الأرض لأن المسلمين لما فتحوا البلاد أقروهم على عمل الأرض وحمل الخراج. وقيل: معناه جنازة كافر من أهل تلك الأرض. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ١٨٠، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٧/ ٣٠.

(٢) البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٣١٣)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنائز (٩٦١).

(٣) الكُبْرَ الكُبْرَ: أي قدِّموا في الكلام أكبركم. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٢/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٤) وداه: أي دفع دِيَتَه، والدية هي حقُّ القتيل. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٢/ ٢٣٥. ابن منظور: لسان العرب، مادة ودي ١٥/ ٣٨٣.

(٥) البخاري: كتاب الديات، باب القسامة (٦١٤٢) وهذا لفظه، ومسلم في كتب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة (١٦٦٩).

هكذا كان يتعامل النبي ﷺ مع الأقليات غير المسلمة في المدينة تعاملاً قائمًا على العدل والرحمة والتسامح.

المبحث الثالث:
تعامله ﷺ مع الدول غير المسلمة

لقد أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ للعالمين بشيرًا ونذيرًا، وجعله ﷺ خاتم رسله، وأيده بالقرآن ذلك النبع الثري الذي استقى منه رسول الله ﷺ طريقته في التعامل مع غير المسلمين أفرادًا ودُولاً؛ فالله ﷻ هو القائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[1]﴾؛ لذلك لم تقتصر دعوته على الجزيرة العربية وما حولها فقط، بل شملت العالم أجمع، فنجد رسول الله ﷺ يرسل عدَّة رسائل إلى ملوك الأرض حينذاك؛ يدعوهم فيها إلى الإسلام (صورة رقم ١٠، وخريطة رقم ٤)، واللافت للنظر أنه في كل رسائله كان يصف المَلِكَ أو الزعيم بالعظمة، ولم يتحرَّجْ من وصف رجل غير مسلم بهذا الوصف، فيقول ﷺ في رسالته إلى قيصر الروم: «مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ...»[2]. ويقول كذلك في رسالته إلى كسرى فارس: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِس...»[3].

ويقول في رسالته إلى المقوقس زعيم مصر: «مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ...»[4]، وإلى النجاشي زعيم الحبشة: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إِلَى النَّجَاشِيِّ الأَصْحَم، عَظِيمِ الحَبَشَةِ...»[5].

---

(١) (سبأ: ٢٨).

(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب حديث لأبي سفيان عند هرقل (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣).

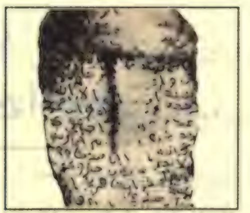
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ١/ ١٣٢، والمتقي الهندي: كنز العمال، (١١٣٠٢).

(٤) انظر: الزيلعي: نصب الراية ٤/ ٤٢١، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٣١، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٣/ ٦٩١.

(٥) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤١، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ١١/ ٣٦٦.



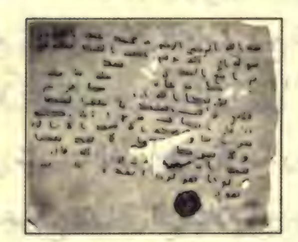
رسائل الرسول ﷺ
إلى ملوك الأرض



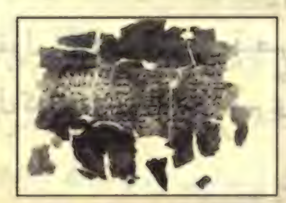
إلى كسرى عظيم فارس



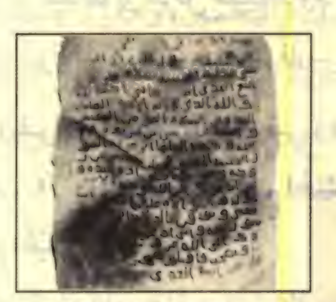
إلى هرقل عظيم الروم



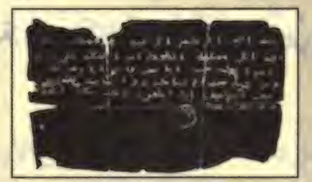
إلى المقوقس عظيم القبط



إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين



إلى النجاشي عظيم الحبشة



إلى مسيلمة الكذاب

صورة رقم (١٠)





خريطة رقم (٤)

رسائل الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض

كما نجده ﷺ كذلك يُكرِم رسولي كسرى مع كونهما جاءا برسالة غير مقبولة من كسرى عظيم فارس، ليأخذاه ﷺ من عقر داره بالمدينة إليه، ومع ذلك فلم يخرج رسول الله ﷺ عن هدوئه وأدبه ورقة طباعه، بل وكان يُكرم كل الوفود التي تأتي إلى المدينة المنورة بصرف النظر عن الموقف السياسي والديني الذي يُتَوَقَّع من هذه الوفود، وكان له ﷺ اهتمام خاصٌّ بالوفود؛ استقبالاً وضيافةً وتجمُّلاً وجوائز؛ فكان ﷺ يُجري عليهم الضيافة، ويُحسن استقبالهم، ويسائلهم ويتردَّد عليهم، ويلبس أحسن الثياب لاستقبالهم[١].

كما خصَّص لهم ﷺ بعض الديار لاستقبالهم كما جاء عند استقباله لوفد سلامان[٢]؛ حيث قال لثوبان غلامه: «أَنْزِلْ هَؤُلاءِ الْوَفْدَ حَيْثُ يَنْزِلُ الْوَفْدُ»[٣]. فمن الواضح هنا أن لهؤلاء الوفود دارًا مخصَّصة لهذا الأمر، كما حدث مع وفود كلاب، ومحارب، وعذرة، وعبد قيس، وتغلب، وغسان، وغيرهم[٤]، وكان من عادته ﷺ أن يُحَمِّلَ هذه الوفود بالهدايا والجوائز، وكثيرًا ما تكون هذه الجوائز من الفضة[٥].

وفي المقابل كان النبي ﷺ يقبل الهدايا من الدول غير الإسلامية إمعانًا في التآلف والمودة، ولا سيما إن لم يكن من جانبهم غدر أو قتال؛ كما فعل رسول الله ﷺ مع هدايا المقوقس عظيم قبط مصر[٦].

ومن أعظم صور تعاملاته ﷺ الدبلوماسية في حياته ﷺ ما فعله مع النجاشي ملك

---

(١) فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص٩٥.
(٢) يقول حبيب بن عمرو السلاماني: قدمنا وفدَ سلامان على رسول الله ﷺ ونحن سبعة؛ فصادفنا رسول الله ﷺ خارجًا من المسجد إلى جنازة دُعِيَ إليها؛ فقلنا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليكم، من أنتم»؟ قلنا: نحن من سلامان، قدمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا. فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد، فلما صلى الظهر جلس بين المنبر وبيته، فتقدمنا إليه فسألناه عن أمر الصلاة وشرائع الإسلام، وعن الرقي، وأسلمنا وأعطى كل رجل منا خمس أواق، ورجعنا إلى بلادنا، وذلك في شوال سنة عشر. انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٣٢.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٣٢.
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٠٠ - ٣٤٨.
(٥) انظر المصدر السابق نفس الصفحات.
(٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٩٤.

الحبشة بداية من مدحه له قائلاً ﷺ لأصحابه: «إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ»(١). ثم مرورًا بإقرار النبي ﷺ بوكالة النجاشي - رغم بقائه في ذلك الوقت على دينه على ما يبدو(٢) - للسيدة أم حبيبة والتي تنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش في الحبشة(٣)، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئها بزواجه إياها، فزوَّجها إِيَّاهُ النَّجاشيُّ ومهرها أربعة آلافٍ، ثمَّ جهَّزها من عنده، فبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة، وجهازها كلُّه من عند النَّجاشيِّ، ولم يرسل إليها رسول الله ﷺ بشيءٍ(٤).

كل ذلك يجعلنا نتفهَّم طبيعة العلاقة بين النبي ﷺ في المدينة وبين النجاشي في الحبشة؛ فلقد كانت العلاقات - على ما تؤكده هذه الواقعة - من القوة والمتانة والقرب بمكان، بل يمكن أن نلاحظ أن العلاقة بين الجانبين لم تكن على المستوى السياسي أو الدبلوماسي الظاهري، بل كانت أعمق من هذا بكثير، وهو ما يؤكده جواب النجاشي لرسول الله ﷺ بقوله: «قد زوجتك امرأة من قومك، وهي على دينك أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديت لك هدية جامعة قميصًا، وسراويل، وخُفَّيْنِ ساذَجين(٥)»(٦).

وانتهاءً بالرسالة التي أرسلها النبي ﷺ له في نهاية العام السادس من الهجرة وبداية العام السابع يدعوه فيها إلى الإسلام، ويحذِّره من آثار الشرك وعواقبه(٧).

هذا طرف من معاملاته ﷺ مع الدول غير المسلمة، والتي تؤكِّد على عمق تفهُّمه ﷺ لطبيعة هذه الدول، ودبلوماسيته الرائعة في إنزال الناس منازلهم.

---

(١) مسند أحمد (١٨٣٠٤)، ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٦٤، وقال الألباني: صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

(٢) انظر: فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص٦٩.

(٣) انظر: سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب الصداق (٢١٠٧)، وسنن الدارقطني (٣٦٥٢). قال الألباني: صحيح. انظر صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢١٠٧).

(٤) البيهقي: السنن الكبرى ٧/ ٢٣٢.

(٥) ساذَجين: لم يُخَالِطْ سَوادَهما لونٌ آخَرُ. انظر: الزبيدي: تاج العروس، باب الجيم فصل السين المهملة مع الجيم ٦/ ٣٣، ٣٤.

(٦) الحسين بن مسعود البغوي: الأنوار في شمائل النبي المختار ص٢٨٠.

(٧) جاء فيها: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ الأَصْحَمِ عَظِيمِ الْحَبَشَةِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ...». انظر: الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٣٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٠٨.

معاهداته ﷺ مع غير المسلمين

قال ابن الحاج النميري (شاعر أندلسي):

وهَذا النَّبيُّ الكَريمُ الَّذِي ... يُقِيلُ العِثَارَ وَيَرْعَى الْجِوَارَا

الفصل الثالث:

معاهداته ﷺ مع غير المسلمين

عقد النبي ﷺ المعاهدات بينه وبين كل الطوائف غير المسلمة في عصره، فكان وفيًّا بكل ما عاهدهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا[1]﴾، ويُعَلِّق ابن كثير على هذه الآية قائلاً: «وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكَّدة»[2].

على هذه المبادئ سارت حياة النبي ﷺ، بل وربَّى أصحابه عليها، فقال ﷺ: مُعَلِّمًا إياهم قيمة الوفاء بالعهد: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً، وَلا يَحُلُّهَا، حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»[3].

والوفاء بالمعاهدة واجب ديني يُحَاسَب عليه المسلم أمام ربه؛ وحول هذا المعنى يقول الشيخ محمود شلتوت مُبَيِّنًا قيمة المعاهدات عند المسلمين: «الوفاء بالمعاهدة واجب ديني، يُسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله، ويكون الإخلال بها غدرًا وخيانة»[4].

وسوف نتناول في هذا الفصل الحديث عن معاهداته في ثلاثة مباحث، وهي:

المبحث الأول: معاهداته ﷺ مع اليهود

المبحث الثاني: معاهداته ﷺ مع النصارى

المبحث الثالث: معاهداته ﷺ مع المشركين

---

(١) (النحل: ٩١).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩٨.

(٣) أبو داود عن عمرو بن عبسة: كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد... (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (١٧٠٥٦)، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع (٦٤٨٠).

(٤) شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٤٥٧.



المبحث الأول:
معاهداته ﷺ مع اليهود

عقد رسول الله ﷺ المعاهدة مع يهود المدينة بعد هجرته إليها مباشرة وفي أوائل أيامه بها (خريطة رقم ٥)؛ مما يدل دلالة قاطعة على فكره التعايش ورغبته ﷺ في مسالمة غير المسلمين، وقد جاء في نصوص المعاهدة ما يلي:

١- أن يهود بني عوف أُمَّةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم[(١)].

٢- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٥- وأنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه.

٦- وأن النصر للمظلوم.

٧- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله ﷻ، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وأنه لا تُجارُ قريشٌ ولا مَن نَصَرَهَا.

١١- وأن بينهم النصر على من دَهَم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلَهُمْ.

---

(١) حددت المعاهدة أسماء القبائل على اختلافها لتصبح ملزمة للجميع، فذكرت يهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جُشم وبني ثعلبة وغيرهم.



خريطة رقم (٥)

معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود



١٢- وأنه لا يَحُول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[١].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضع أن هذه الوثيقة لم تذكر يهود بني قينقاع ولا يهود بني النضير ولا يهود بني قريظة[٢]؛ مع ما صحَّ من وقائع السيرة التي تُثْبِتُ أنه قد تمت معهم عهود ومواثيق أخرى غير هذه الوثيقة.

وتثبت هذه الوثيقة بما لا يدع مجالاً للشكِّ ما كانت عليه الدولة الإسلامية - وهي في هذه المرحلة الأولى من البناء والتأسيس - من حرية تامَّة، وإفساح للغير للمشاركة والمعايشة القائمة على احترام الآخر، كما يظهر ذلك من خلال القراءة المتأنية لبنود هذه الوثيقة أنها تقبل الآخر، وتشرع القوانين من أجله، ولأجل ما ينظِّم حياته بين أفراد المجتمع المسلم، ويحفظ له حقوقه ويرد عنه الظلم إن وقع عليه.

وقد حَرَصَ الرسول ﷺ والمسلمون - رغم ما واجهوه من صعوبات بالغة ومكائد متكررة - على استمرار تطبيق بنود هذه المعاهدة، فكان التعايش السلمي الآمن مع مَنْ يعيش من اليهود مع الرسول ﷺ والمسلمين هو سمة الحياة داخل المدينة؛ فبدأ التبادل التجاري بينهم حيث امتلأت أسواق اليهود في المدينة بالمسلمين، ومن أشهر أسواق اليهود سوق بني قينقاع. وإتمام عمليات البيع والشراء لا تتم إلا بين قوم يأمن بعضهم بعضًا، وقد كانت المرأة المسلمة تذهب بنفسها لتشتري من اليهود في سوقهم دون حرج؛ مما يدل على مدى ثقة المسلمين باليهود[٣]، كما اشترى عثمان بن عفان ﷺ بئر رومة[٤] من يهودي.

كما كان رسول الله ﷺ يخالط كل من يقيم بالمدينة، مسلمين وغير مسلمين، ويجلس معهم ويحدِّثهم ويحدِّثونه، ومما جاء في ذلك ما رواه عروة بن الزبير ﷺ قال: أخبرني

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، ٥٠٤.

(٢) ومن ذُكر في المعاهدة السابقة إنما هم من بطون العرب الذين تهوّدوا، أما بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فهم يهود أصليون.

(٣) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٣١٤، ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٤٣.

(٤) أرض بالمدينة بين الجُرف وزِغابة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٠٤.

أسامة بن زيدٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ ركب حمارًا عليه إكافٌ[(١)] تحته قطيفةٌ[(٢)] فدكيَّةٌ[(٣)]، وأردف وراءه أسامة بن زيدٍ[(٤)] ﷺ، وهو يعود سعد بن عبادة[(٥)] ﷺ في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل موقعة بدرٍ، حتَّى مرَّ في مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ﷺ، فلمَّا غشيت المجلس عجاجة الدَّابَّة[(٦)] خمَّر[(٧)] عبد الله بن أبيٍّ أنفه بردائه، ثمَّ قال: لا تغبِّروا علينا. فسلَّم عليهم النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أيُّها المرء، لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقًّا؛ فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منَّا فاقصص عليه. قال عبد الله بن رواحة ﷺ: بلى يا رسول الله، فاغشنا في مجالسنا؛ فإنَّا نحبُّ ذلك. فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتَّى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النَّبيُّ ﷺ يخفِّضهم، ثمَّ ركب دابَّته، حتَّى دخل على سعد بن عبادة فقال: «**أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ**؟ (يُرِيدُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ) **قَالَ: كَذَا وَكَذَا**». قال: اعفُ عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الَّذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحرة[(٨)] -عند مسلم: البحيرة- على أن يتوَّجوه

---

(١) الإكاف: ما يوضع على الدابة.

(٢) القطيفة: كساء.

(٣) نسبة إلى فَدَك القرية المشهورة شمال المدينة، كأن القطيفة صُنعت فيها.

(٤) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، مولى رسول الله ﷺ من أبويه، ويقال له الحِبّ بن الحب، أي حِبّ رسول الله ﷺ وابن زيد حب رسول الله. أمّره النبي ﷺ على الجيش وهو ابن ١٨ سنة. مات في المدينة ٥٨ أو ٥٩هـ، وكان قد اعتزل الفتنة. انظر: الاستيعاب، ١/ ١٧٠، أسد الغابة ١/ ٩١، الإصابة، الترجمة (٨٩).

(٥) هو سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري الساعدي، كان نقيبًا شهد العقبة وبدرًا، وكان سيدًا في الأنصار مقدمًا وجيهًا جوادًا، له رياسة وسيادة يعترف قومه له بها. مات بحوران من أرض الشام لسنتين ونصف مضتا من خلافة عمر ﷺ سنة ١٥هـ. انظر: الاستيعاب ٢/ ١٦١، أسد الغابة ٢/ ٢٢١، الإصابة، الترجمة (٣١٦٩).

(٦) ما تثيره الدابة أثناء سيرها من ترابٍ ونحوه.

(٧) خمر: أي غطَّى.

(٨) قال ابن حجر في الفتح: هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية،ونقل ياقوت الحموي أن البحرة من أسماء المدينة النبوية.

فيعصِّبونه[١] بالعصابة، فلمَّا ردَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الَّذي أعطاك شَرِقَ[٢] بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النَّبيُّ ﷺ»[٣].

ورغم حرص النبي ﷺ على التعايش السلمي مع اليهود في المدينة إلاَّ أن اليهود قاموا بأفعال مستفزَّة، لكن النبي ﷺ كان يقابلها بسعة صدر كبيرة، وبحكمة بالغة. وسنكتفي هنا بذكر أمثلة من أفعال اليهود الاستفزازية؛ منها تهجُّمهم على رب العالمين، وهذه بمفردها كارثة تستوجب أشدَّ العقاب، ليس فقط لضعف إيمانهم، وإنكارهم الحق الذي يعرفونه؛ ولكن لأنهم بهذا التعدِّي يطعنون في المرجعية الأساسية للمسلمين؛ وبذلك فهم يحضُّون الناس على رفض التشريع الذي يحكمهم، وفي هذا فتنة كبيرة في المدينة، ومن ذلك ما نسبوه إلى رب العالمين ﷻ من الفقر، وفيهم أنزل الله ﷻ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ[٤]﴾[٥].

وكذلك تعدِّيهم على رسول الله ﷺ فقد كانوا يمرُّون عليه، ويَدْعُون عليه بالموت في وجهه، وهم يحاولون أن يُظهِروا عكس ذلك، فيقول أحدهم: السام عليك. والسام هو الموت، فلا يزيد ﷺ في ردِّه عليهم على قول: «وَعَلَيْكُمْ»[٦]. بل وكان ﷺ يأمر الصحابة الذين يسمعون هذا الدعاء بأن يترفَّقُوا بالردِّ ولا يتفحَّشُوا في القول.

ومن ذلك - أيضًا - تعدِّيهم على الأنبياء والقرآن وإثارة الشحناء بين المهاجرين والأنصار.. وغير ذلك، ولكن لو بقي حال اليهود على ما هو عليه لكان الأمر محتملاً

---

(١) يعني يرئسوه عليهم ويسودوه، وسمي الرئيس معصَّبًا لما يعصب برأسه من الأمور، أو لأنهم يعصبون رءوسهم بعصابة لا تنبغي لغيرهم يمتازون بها. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٢٣٢.

(٢) أي غصبه، وهو كناية عن الحسد.

(٣) البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين (٤٥٦٦)، (٢٦٩١) واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨)، وأحمد (٢١٨١٥).

(٤) (آل عمران: ١٨١).

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٥٨، ٥٥٩، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ٢٥٤، ٢٥٥، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٨٥.

(٦) البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٦٠٢٤)، وباب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا (٦٢٥٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام... (٢١٦٤).

ومقبولاً؛ ولكنهم تطاولوا أكثر من ذلك، وما زادهم حلم رسول الله ﷺ إلاَّ جهلاً، فارتكبوا من الأمور ما لا يمكن احتماله، ومن ثَمَّ كان هذا نقضًا صريحًا للمعاهدة، يتعذَّر معه صفح، ويستحيل حياله تجاهل؛ فقد خالفت بنو قينقاع مخالفات جسيمة، بمراودة المرأة المسلمة على كشف وجهها، ثم التحايل على كشف عورتها، ثم الاجتماع القبلي على قتل رجل مسلم(١)، وخالفت بنو النضير بمحاولة صريحة لقتل رسول الله(٢)، وكذلك خالفت بنو قريظة في محاولة أشد عنفًا وضراوةً تهدف إلى قتل واستباحة كل مَنْ في المدينة المنورة(٣)!!..

أمَّا معاهدته ﷺ مع يهود خيبر فقد تمَّت بعد حربهم، التي لم يلجأ إليها النبي ﷺ إلاَّ بعد تأكُّده من أنها أصبحت ملاذًا لمن يريد التخطيط لهدم الدولة الإسلامية وتقويض بنيانها، فقد لجأ إليها سلامُ بن أبي الحقيق المعروف بأبي رافع، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وهم من أشراف بني النضير(٤)، ومن ألدّ أعداء المسلمين، ومن الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة بعد ما اقترفوا من الجرائم، فبدأ يهود بنو النضير المقيمون بخيبر، ومن معهم من يهود خيبر وزعمائها بتأليب(٥) المجتمع القَبَلي على المسلمين؛ فخرجت مجموعة من يهود خيبر ويهود بني النضير لتجميع الأحزاب المشركة بهدف حصار المسلمين، فكانت غزوة الأحزاب، التي تجمَّع فيها أكثر من عشرة آلاف مقاتل من المشركين؛ لإبادة المسلمين في المدينة، ولكن الله مَنَّ على المسلمين بنصره فيها، ولكن خيبر أصبحت بؤرة خطرٍ عظيمٍ على المسلمين؛ لذلك كان لا بُدَّ من تأديبهم، ومحاسبتهم على بعض ما اقترفوا من جرائم في حقِّ الدولة الإسلامية.

فخرج النبي لمحاربتهم في العام السابع من الهجرة، وبعد معارك عديدة وحصار

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٧، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٦، والسهيلي: الروض الأنف ٥/ ٢٧٧.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٨٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ١٤٦، والسهيلي: الروض الأنف ٦/ ١٥٨.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٢٠، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٧٣، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٣/ ٢٤٠.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥١٣، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٤٢.
(٥) أَلَّبَ عليه: اجتمع عليه بالظلم والعَداوة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ألب ١/ ٢١٥.

لحصونهم الواحد تلو الآخر طلب اليهود أن ينزلوا على الصلح، وأن يتفاوضوا مع رسول الله ﷺ، وقَبِلَ ﷺ منهم ذلك، وكانت خلاصة الأمر أن تمَّ التصالح على حقْن دمائهم، ودماء كل من في الحصون من المقاتلة والذُّرِّيَّة والنساء، وعلى أن يتركوا خلفهم الديار، والسلاح، والأموال، والذهب، والفضة، ويخرجوا دون شيء، كما اشترط الرسول ﷺ في هذه المعاهدة عليهم شرطًا مهمًّا فقال: «وَبَرِئَتْ مِنْكُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ﷺ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئًا[1]». أي لو أن أحدًا من اليهود أخفى شيئًا من الأموال أو من الذهب أو الفضة؛ فللرسول ﷺ أن يقتله بهذا الإخفاء[2]. وقَبِل اليهود هذا الصلح، وبدءوا في الخروج من خيبر، وقد حقن الرسول ﷺ دماءهم جميعًا بهذا الصلح، وذلك رغم ما قدَّمت أيديهم من سوء، ولم يقتل إلاَّ مَنْ برزتْ خيانته لهذا العهد، كما وقع لكنانة بن أبي الحقيق[3].

إلى هذا الحدِّ كان الأمر كله بيد المسلمين، وليس أمام اليهود اختيار غير الخروج، ومع ذلك ولرغبة رسول الله ﷺ في التعايش السلمي مع الآخر قَبِلَ بالطرح الذي قدَّمه اليهود؛ لقد طلب اليهود من الرسول ﷺ أن يزرعوا هذه الأرض مناصفة مع المسلمين، ففي البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها[4].

وكان هذا الصلح بمثابة الإحسان التامِّ من قِبل رسول الله ﷺ ليهود خيبر، وإنقاذًا لهم من الخروج إلى الصحراء، فقد كانت المعاهدة الأولى تنصُّ على إجلائهم تاركين

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة ٤/ ٢٠٤، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٨٣، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٥/ ١٣١.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٧٧، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ١٢٩، ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣) أُخبِر الرسول ﷺ من أحد اليهود أن كنانة بن أبي الحقيق قد أخفى مالاً، فأُتي به، فقال له ﷺ: «هَلْ أَخْفَيْتَ مَالاً؟».. فقال: لا.. فقال ﷺ: «أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَكَ أَأَقْتُلُكَ؟!».. قال: نعم. فأمر ﷺ بالبحث في أرضه، فوجدوا كنزًا كبيرًا من المال، وقُتل كنانة بن أبي الحقيق نتيجة خيانته للعهد مع المسلمين. انظر: ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٧٤، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧.

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر (٢٥٧١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (١٥٥١).

خلفهم كل شيء، لقد جرت الحياة بصورة طبيعية مع أهل خيبر، الذين ظلُّوا في أعمالهم يقومون بها بحُرِّيَّة تامَّة، ولم تُؤْثَر أية مواقف تدلُّ على تعنُّت المسلمين معهم.

بهذه الأخلاق الراقية وبهذا الحب العظيم للآخر عقد النبي ﷺ معاهداته مع اليهود ولكنهم لم يحافظوا عليها ونقضوها واحدة تلو الأخرى.

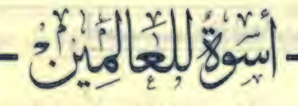
المبحث الثاني:
معاهداته ﷺ مع النصارى

وفي آخر سنتين في حياته ﷺ عقد عدَّة معاهدات مع النصارى (خريطة رقم ٦)؛ منها معاهدته مع نصارى نجران، وقد أرسلوا وفدًا إلى رسول الله ﷺ، مُكَوَّنًا من أربعة عشر رجلاً[١]، وكان أمير الوفد رجلاً يُدْعَى العاقب، وكان هناك رجل آخر يتولَّى إدارة الرحلة، كانوا يلقِّبونه بالسيد، بينما كان هناك رجل ثالث مسئول عن الأمور الدينية، وهو أسقف الرحلة وحبرها، واسمه أبو الحارث، فكان هؤلاء الثلاثة على رأس الوفد، وهم الذين يتولَّوْن التفاوض[٢].

وقد جاء الوفد في هيئة منظَّمة، وفي صورة منمَّقة لدرجة المبالغة؛ حيث لبسوا الثياب الحريرية، وتحلَّوْا بالخواتم الذهبية، وكان من الواضح أن الوفد لم يكن في نيته أن يُسْلِمَ، وإنما أتى ليناظر الرسول ﷺ من ناحية، وليبهره والمسلمين من ناحية أخرى؛ فعرض رسول الله ﷺ عليهم الإسلام؛ ولكنهم رفضوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم!. فقال ﷺ لهم: «يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلاَمِ ثَلاَثٌ: عِبَادَتُكُمُ الصَّلِيبَ، وَأَكْلِكُمْ لَحْمَ الخِنْزِيرِ، وَزَعْمُكُمْ أَنَّ للهِ وَلَدًا»[٣].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٥٧، وابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١١٢.
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١٠٦، ١٠٧، والسهيلي: الروض الأنف ٥/ ٥، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٨٩.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١١٤، وابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ٣٤٨.





خريطة رقم (٦)

معاهدات الرسول ﷺ مع النصارى

فهذه أمور ثلاثة حرفتموها في الإنجيل، ولم تُسْلِموا فيها لله رب العالمين، ولا يستقيم أن تُطْلِقوا على أنفسكم: «مسلمين». قبل أن تتركوا هذا الاعتقاد الفاسد.

وكثر الجدال بينهم وبين الرسول ﷺ، وكثر إلقاء الشبهات والردّ عليها، وكان مما قالوه: ما لك تشتم صاحبنا - يقصدون عيسى عليه السلام - وتقول: إنه عبد الله؟! فقال ﷺ: «أَجَلْ، إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءَ الْبَتُولِ»[1].

ولم يكن هذا انتقاصًا أبدًا من عيسى عليه السلام، بل العبودية لله تشريف، وهو رسول من أُولي العزم من الرسل، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم عليها السلام، والتي نُكَرِّمُهَا أيضًا ونُجِلُّهَا، وننفي عنها أي شبهةٍ سوء، فنقول: إنها مريم العذراء البتول.

لكن وفد نجران لم يتنازلوا عن هذا الاعتقاد؛ فغضبوا من وصف عيسى عليه السلام بالبشرية والعبودية، وقالوا: هل رأيت إنسانًا قَطُّ من غير أب؟! فإن كنتَ صادقًا فأَرِنا مثله. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما عندي شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يُقال في عيسى[2]»..

فأصبح الغد، وقد أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[3]﴾.

ولكن هذا الكلام المقنع لم يُعجب النصارى، ووصلت المحاورة إلى طريق مسدود؛ ومن ثَمَّ دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، ولكنهم رفضوا لعلمهم أنه نبي مرسل -كما أشرنا من قبل- فصالحهم ﷺ على الجزية، بعدما تحمَّل كِبْرَهم وإعراضهم؛ رغم أنهم الذين جاءوا للصلح، وأنهم ليسوا أهل قوةٍ، ولو شاء الرسول ﷺ أن يحاربهم لأرسل إليهم جيشًا كبيرًا؛ ولكنه ﷺ يريد إرساء قواعد السلام بين المسلمين وسائر الأمم، القريب منها والبعيد.

---

(١) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٢٩٣، وجلال الدين السيوطي: الدر المنثور ٢/ ٢٢٨.
(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٥٤٩.
(٣) (آل عمران: ٥٩-٦١).

فكتب ﷺ كتابًا لأهل نجران[1]: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ لِلأَسْقُفِ أَبِي الحَارِثِ، وَأَسَاقِفَةِ نَجْرَانَ، وَكَهَنَتِهِمْ، وَرُهْبَانِهِمْ، وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ جِوَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ، لا يُغَيَّرُ أُسقفٌ مِنْ أسقفَتِهِ، وَلا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلا كَاهِنٌ مِنْ كَهَانَتِهِ، وَلا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَلا سُلْطَانُهُمْ، وَلا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، جِوَارُ اللهِ وَرَسُولِهِ أَبَدًا مَا أَصْلَحُوا وَنَصَحُوا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُبْتَلَيْنَ بِظُلْمٍ وَلا ظَالِمِينَ»[2].

وفي هذا العهد من التسامح والإنصاف ما فيه، كما طلب وفد نجران من النبي ﷺ أن يبعث معهم رجلاً أمينًا ليأخذ منهم الجزية، فقال ﷺ: «لأَبْعَثَنَّ معكم رجلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ». فاستشرف لهذه المكانة أصحاب الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ». فلما قام، قال ﷺ: «هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[3]. وفي ذلك دلالة على أن النبي ﷺ قد وضع المعاهدة موضع التنفيذ، وأنه لا يكتب المعاهدات لينقضها على عكس الكثيرين من الأمم القوية غير المسلمة، ولقد ظلَّ ذلك العهد قائمًا، لم ينقضه أحد، وظلَّت العلاقات طيبة بين أهل نجران والمدينة المنورة حتى وفاة الرسول ﷺ.

كما عاهد رسول الله ﷺ نصارى جرباء وأَذْرُح[4]؛ فقد جاء في كتابه ﷺ لهم: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ لأَهْلِ أَذْرُح؛ أَنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ وَمُحَمَّدٍ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةُ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ وَافِيَةً طَيِّبَةً، وَاللهُ كَفِيلٌ عَلَيْهِمْ بِالنُّصْحِ وَالإِحْسَانِ لِلْمُسْلِمِينَ»[5].

إن رسول الله ﷺ يتحمَّل هنا مسئوليات ضخمة في توفير الأمان لقبائل ضعيفة، قليلة العَدَد، هزيلة الغَنَاء عن المسلمين مقابل مبلغ زهيد لا يساوي شيئًا؛ وذلك من أَجْلِ ضمان السلام مع كل من يحيط بالمسلمين.

أمَّا معاهدته مع نصارى أيْلة فجاءت بعد عفوه ﷺ ومعاملته الكريمة لنصارى دومة

---

(١) وَرَدَ بروايات مختلفة منها هذه الرواية.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١٠٦، والبداية والنهاية ٥/ ٥٥، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٥٤٩.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران (٣٧٤٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سيدنا أبي عبيدة بن الجراح (٢٤١٩).

(٤) الجرباء وأذرح: موضعان من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، وبينهما ميل واحد. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ١٢٩، ٢/ ١١٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٩٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٣٠.

الجندل؛ حيث قدم (يُحَنَّة بن رؤبة) ملك أَيْلة[1] وما حولها - وكان نصرانيًّا - على رسول الله ﷺ وهو في تبوك، وهو ما رواه جابر ﷺ: رأيت يُحَنَّة بن رؤبة يوم أتى النبيَّ ﷺ وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية، فلمّا رأى النبيَّ ﷺ كفَّر، وأومأ برأسه (أي: طأطأ رأسه خضوعًا ووضع يده على صدره)، فأومأ إليه النبي ﷺ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ». وصالحه يومئذٍ، وكساه بُردًا يمانيًّا[2]. ولعلَّ حسن استقبال النبي ﷺ ليُحَنَّة ليؤكِّد على رغبته ﷺ في إبرام الصلح بالشكل الذي يحفظ كرامة الآخر؛ فقد جاء الرجل مرتديًا صليبًا، فلم يعنفه رسول الله ﷺ، وليعلم -أيضًا- أن الصلح مع المسلمين الأقوياء المنتصرين على الروم ليس مذلَّةً، بل هو عهد صادق مع قوم أوفياء يحترمون الآخر.

وقد كان نصُّ الصلح: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ، وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، سُفُنُهُمْ وَسَيَّارَتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لَهُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَهْلِ الْيَمَنِ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا فَإِنَّهُ لاَ يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ.. وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ.. وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، وَلاَ طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ...»[3].

والملاحظ هنا أن الرسول ﷺ أعطى الأمان لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر، والرسول ﷺ والمسلمون هم خير من يوفي بعهده، والمعروف أن أيلة على ساحل البحر الأحمر، ولا بُدَّ أن أهلها أو جزءًا منهم على الأقل يعملون بالصيد، والمسلمون حتى هذا الوقت لم يستخدموا البحر إلاَّ في الهجرة إلى الحبشة؛ فالبحر لديهم مجهول، وهم ليسوا بارعين في الإبحار فيه، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ يُحمِّل نفسه والمسلمين عبئًا خطيرًا ثقيلاً وهو حماية أهل أيلة في البحر، وهذا يقتضي استعداد الرسول ﷺ لبناء أسطول بحري وتجهيزه متى حصل اعتداء على أهل أيلة، وفي ذلك من الجهد والإنفاق الضخم، والمخاطرة ما فيه. لقد تحمَّل الرسول ﷺ كل هذا العبء من أجل أن يعيش المسلمون مع من حولهم في أمان وسلام.

---

(١) أَيْلة: هي قرية أم الرشراش المصرية على ساحل البحر الأحمر، والتي يحتلها اليهود، وسمُّوها: إيلات.

(٢) انظر: البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٨٥، وانظر أيضًا: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٥/ ٤٦٠.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٥٨، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٤٦٦.

كما نلاحظ أن الرسول ﷺ تكفَّل بالسماح لهم بوُرُودِ كل ماءٍ تَعَوَّدُوا على وروده، وهذا يقتضي ليس فقط عدم منع المسلمين لهم بل محاربة أي عدو آخر يحاول منعهم عن مصادر المياه، وهذا جهد ضخم، وحِمْل جسيم يتحمَّله ﷺ والمسلمون من أجل إقرار السلام في هذه المنطقة مع قومٍ لا يؤمنون بالإسلام وبِنَبِيه ﷺ.

هكذا سادت روح المحبة والتقدير والتكريم منه ﷺ للآخر وهذه أبرز سمة اتَّسمت بها معاهداته مع النصارى.

المبحث الثالث:

معاهداته ﷺ مع المشركين

عقد الرسول ﷺ عدَّة معاهدات مع المشركين؛ سواء منهم من كان حول المدينة أو في مكة ذاتها (خريطة رقم ٧)، أما القبائل حول المدينة فمنها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع بني ضمرة[١]، وكان على رأسهم آنذاك مخشي بن عمرو الضمري، وفيها - كما تقول الرواية[٢] - وادعهم[٣] رسول الله ﷺ، وكانت هذه الموادعة في صفر سنة (٢هـ)[٤]، أي بعد أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ؛ ممَّا يُوَضِّح وجود هذا الفكر التعايشي من بداية نشأة الدولة الإسلامية، وكذلك وادع رسول الله ﷺ بني مدلج، والذين يعيشون في منطقة ينبع، وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة[٥]، وفعل الشيء نفسه أيضًا مع قبائل جهينة، وهي قبائل كبيرة تسكن في الشمال الغربي للمدينة المنورة[٦].

(١) قبيلة بني ضمرة: من القبائل العربية من بطون عدنان، والتي تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٣٥.

(٣) الموادعة: المصالَحَةُ والمُهَايَلَةُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة ودع ٣/ ٤٣٩، والزبيدي: تاج العروس باب العين فصل الواو مع العين ١/ ٢٣٦٦، والرازي: مختار الصحاح ١/ ٧٤٠.

(٤) ابن حبان: السيرة النبوية ١/ ١٥١، وابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٣٥.

(٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٤٣.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٧٢.



خريطة رقم (٧)

معاهدات الرسول ﷺ مع المشركين



لقد حاول رسول الله ﷺ أن يعيش هو والمسلمون في جوٍّ هادئ مسالم مع من يجاورونهم من القبائل والبطون، ولم يَسْعَ لقتال قط، بل كان دائمًا مؤْثِرًا السلم على الحرب، والوفاق على الشقاق.

كما عاهد النبي ﷺ قريشًا في الحديبية (أواخر العام السادس من الهجرة)(١)، رغم معاناته ﷺ منهم تسعة عشر عامًا كاملة سبقت هذا الصلح، حيث تعرض ﷺ وأصحابه للاضطهاد والتعذيب، ولكنه ﷺ كان حريصًا على إتمام هذه المعاهدة؛ مما يدل على مدى سماحته ﷺ مع أعدائه وحبِّه ﷺ للسلام.

إنه مع كل هذه المعاناة التي شاهدها رسول الله ﷺ نجده يفكِّرُ في الذهاب إلى عقر دار المشركين في سكينة وسلام؛ ليؤدِّي مناسك العمرة التي أُرِيَهَا في الرؤيا، ثم يعود إلى المدينة المنورة دون قتال ولا نِزَالٍ.

هذا ما فكَّرَ فيه حقيقةً، وطبَّقه على أرض الواقع بكل وسيلة ممكنة، فخرج ﷺ من المدينة على رأس ألف وأربعمائة(٢) من الصحابة الكرام ﷺ، ولم يَخْرُج بكل طاقة المدينة المنورة، والتي كانت تزيد على ثلاثة آلاف يوم الأحزاب، ثم إنه لم يخرج إلاَّ بسيف المسافر فقط، وساق أمامه الهَدْيَ(٣) الكثير؛ ليُثبت للجميع أنه ما ذهب إلاَّ للعمرة، وعند ذي الحليفة(٤) أحرم، وأحرم معه كل الصحابة، وانطلقوا في التلبية طوال الطريق(٥).

وأرسل رسول الله ﷺ بشر بن سفيان الخزاعي(٦) ﷺ ليستكشف الطريق، وليعرف

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٧٥.

(٢) مسلم عن جابر: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٨٥٦).

(٣) الهدي: ما تهدى إلى الحرم من النعم وغيرها، انظر: محمد بن أبي الفتح الحنبلي: المطلع ١/ ٢٠٤.

(٤) ذُو الْحُلَيْفَةِ: موضع على مقدار ستة أميال من المدينة مما يلي مكة، وهو ميقات للمدينة والشام، كان منزل رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة. انظر: أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١/ ٤٦٤، وياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٩٥، والفيومي: المصباح المنير: ص ١٤٦.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٩٥.

(٦) بشر بن سفيان الخزاعي: هو الذي بعثه النبي ﷺ إلى بني كعب ليستنفرهم لغزو مكة هو وبديل بن أم أصرم، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني كعب من خزاعة، وكان عين النبي ﷺ في الحديبية. انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة ١/ ٢٢٦.

هل ستفهم قريش موقف المسلمين السلمي، ورغبتهم الشرعية والطبيعية في زيارة البيت الحرام، أم أنها ستتكبر وتطغى، ولكنه عاد إلى رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، خرجت على العوذ المطافيل[١]، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبدًا، وهذا خالد بن الوليد[٢] في خيلهم قدموا إلى «كُرَاع الغميم[٣]»، لكن رسول الله ﷺ لم يُسْتَفَزَّ بذلك، إنما قال في هدوء: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ؛ فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ»[٤].

ومع كل هذه الرغبة القرشية في الحرب واستمرار العداء إلاَّ أن الرسول ﷺ لم تغب عنه الرؤية السلمية، لقد اكتشف مكان خالد بن الوليد ﷺ، ومِنَّ ثم أشار على المسلمين باتخاذ طريق آخر وعر أشار عليه به رجل من أسلم[٥]، وبذلك تجنَّبَ - ولو مؤقتًا - الصدام مع المشركين، ولم يكن هذا من خوف أَلَمَّ به ﷺ؛ إنما كان ذلك ليتفادى الحرب قدر استطاعته[٦].

ووصل رسول الله ﷺ بالمعتمرين إلى الحديبية، وأسرع خالد بن الوليد بفرقته إلى أهل مكة ليحذِّرهم، وعند الحديبية حدث أمر عجيب؛ لقد وقفت ناقة رسول الله ﷺ، وامتنعت عن السير، فحاول الناس زجرها بقولهم: حَلْ حَلْ[٧]. إلاَّ أنها أصرَّت على الوقوف، فقال الناس: خلأت القصواء[٨]. فقال رسول الله ﷺ: «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا

---

(١) العوذ المطافيل: يريد النساء والصبيان، والعُوذُ: في الأصل جمع عائذ، وفي الحديث: سارت قريش بالعُوذ المطافِيل أي الإبل مع أولادها والعُوذ: الإبل التي وَضَعَت أولادها حَدِيثًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة عوذ ٣/ ٤٩٨.

(٢) وكان آنذاك مشركًا.

(٣) كُراعُ الغَمِيم: موضع معروف بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، والغميم وادٍ، والكُرَاعُ جبل. انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة كرع ٨/ ٣٠٦، البكري: معجم ما استعجم ٣/ ٩٥٦.

(٤) أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩٣٠) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن...

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٧٦.

(٦) محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص١٨٦، ١٨٧.

(٧) حل حل: كلمة تُقال عند زجر الدابة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حلل ١١/ ١٦٣.

(٨) خلأت: أي امتنعت عن المشي، والقصواء هي ناقة رسول الله ﷺ.

ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»(١).

لقد أعلن رسول الله ﷺ نهجه السلمي، فأقسم أنه سيقبل بأي خطة تحفظ البلد الحرام، وتحفظ الدماء، وتحفظ الأعراض، حتى لو كان فيها شيء من التنازل؛ فبعثت قريش الرسل إلى رسول الله ﷺ تترى، وهدفهم جميعًا هو التخويف والإرهاب، ومحاولة الصدِّ عن البيت الحرام دون قيد أو شرط، لكن رسول الله ﷺ أعلن لبديل بن ورقاء الخزاعي(٢) - وهو أول الرسل الذين جاءوه من قريش - أنه يريد الصلح والمعاهدة، فقال رسول الله ﷺ له: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا(٣)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ»(٤).

ثم توالت الرسل، فقال لهم ﷺ مثلما قال لبديل، ثم قرَّر ﷺ أن يُرسل رسولاً إلى قريش؛ لعرض وجهة النظر الإسلامية، فاختار ﷺ عثمان بن عفان ﷺ ليكون سفيرًا للمسلمين إلى داخل مكة، وبالفعل دخل عثمان ﷺ إلى البلد الحرام، ودارت بينه وبينهم مفاوضات، ولكن هذه المفاوضات طالت دون نتيجة حتى مرَّت عدَّة أيام، وأُشيع أن عثمان ﷺ قد قُتِل، وقَتْل السفراء إعلان حرب رسمي، وهنا اضْطُرَّ رسول الله ﷺ

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والطبراني: المعجم الكبير (١٣)، وعبد الرزاق في مصنفه ٥/ ٣٣٢.

(٢) بديل بن ورقاء الخزاعي، أسلم يوم فتح مكة، وذكر ابن إسحاق أن قريشًا يوم فتح مكة لجئوا إلى داره ودار مولاه رافع، وشهد بديل وابنه عبد الله حنينًا والطائف وتبوك، وكان بديل من كبار مسلمة الفتح، وقيل: أسلم قبل الفتح. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢٣٥، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٢٣٦، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ترجمة رقم (٦١١).

(٣) جَمُّوا: استراحوا من جهد الحرب. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٩٩.

(٤) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والطبراني في الكبير (١٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٨٧).

اضطرارًا إلى القيام ببيعة الرضوان؛ حيث بايع الصحابة على عدم الفرار[١]، ومِنْ ثَمَّ أصبح القتال وشيكًا جدًّا، لولا أن عثمان ظهر في هذه اللحظة، وثبت أن الأمر كان مجرَّد إشاعة، فهدأت النفوس واستراحت، ثم ظهر رسول جديد من قِبَل قريش هو سهيل بن عمرو[٢].

ورغم ذلك أصرَّ رسول الله ﷺ على الصلح بكل طريقة، إلاَّ أن قريشًا تأبى، ولكنها في النهاية بدأت تتراجع، وكانت بداية هذا التراجع هو إرسال سهيل بن عمرو، وهو مشهور بالدبلوماسية والقدرة على التحاور، وليس حادًّا في طباعه كبعض الزعماء الآخرين، حتى إن رسول الله ﷺ عندما رآه قال: «قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[٣]. وبالفعل.. وكما توقَّع ﷺ، فقد أراد سهيل أن يُتم الصلح بين قريش والمسلمين، ولكنه أظهر في أثناء الصلح تشدُّدًا وتعنُّتًا، بينما ظهرت في بنود الصلح وطريقة كتابته مرونة الرسول ﷺ ورغبته الأكيدة في الصلح.

فعندما دعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قال سهيل: أمَّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلاَّ: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثمَّ قال: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». فقال سهيلٌ: والله! لو كنَّا نعلم أنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «وَاللهِ! إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ». (قال

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٨٥٦-١٨٥٨)، ورواه الترمذي (١٥٩١)، والنسائي في السنن (٤١٥٨)، وأحمد في المسند (١٤٨٦٥)، وابن حبان (٤٥٥١)، والحديث عن جابر بن عبد الله، ورواه أيضًا معقل بن يسار.

(٢) سهيل بن عمرو بن لؤي بن غالب: هو خطيب قريش ومن أشرافها في الجاهلية، أُسِرَ يوم بدر كافرًا، فقال عمر: «يا رسول الله، انزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا». فقال ﷺ: «دَعْهُ، فَعَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا تَحْمَدُهُ». وعندما ارتدت بعض الأعراب قام خطيبًا - وكان قد أسلم - فقال: «والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها». انظر: ابن حجر: الإصابة (٣٥٦٩)، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٤٦.

(٣) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٧٢).



الزُّهريُّ: وذلك لقوله ﷺ: لا يسألوني خُطَّةً يعظِّمون فيها حرمات الله إلاَّ أعطيتهم إيَّاها.) فقال له النبي ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ». فقال سهيل: والله لا تتحدَّث العرب أنَّا أخذنا ضغطةً، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل: وعلى أنَّه لا يأتيك منَّا رجلٌ وإن كان على دينك إلاَّ رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف[1] في قيوده، وقد خرج من أسفل مكَّة حتَّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمَّد أوَّل ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ. فقال النبي ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيءٍ أبدًا. قال النبي ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بَلَى فَافْعَلْ». قال: ما أنا بفاعلٍ. قال أبو جندلٍ: أي معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟! ألا ترون ما قد لقيتُ؟! وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله»[2].

فالرسول ﷺ - كما رأينا - يتنازل عن كتابة البسملة كاملة في أول العهد، ويتنازل عن كتابة وصف نفسه بالرسالة، ويَقْبَلُ أن يعود من هذا العام فلا يطوف بالبيت، ويقبل أن يَرُدَّ من جاءه مسلمًا من أهل مكة إذا طلب أولياؤه ذلك؛ بل ويتفاقم الأمر جدًّا عندما يأتي أبو جندل بن سهيل بن عمرو ﷺ، وهو في حالة شديدة من الإعياء والإجهاد والمعاناة يطلب النصرة من المسلمين، فيطلبه رسول الله ﷺ من سهيل بن عمرو - وهو أبو أبي جندل - فيرفض سهيل، ويُعَلِّقُ نجاح المفاوضات بكاملها على أخذه لهذا الفتى المسلم المعذَّب، وأمام مخاطر فشل المعاهدة يوافق رسول الله ﷺ، من أَجْلِ أن يتمَّ الصلح برغم كل ما نراه من أزمات ومعوقات، وبرغم اعتراض كثير من الصحابة، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب ﷺ، ويتحقَّق ما يريده رسول الله ﷺ، وتُوَقَّع المعاهدة من نسختين يحتفظ كل من الطرفين بنسخة عنده.

---

(١) يرسف في قيوده: الرسف هو مشي المقيد. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١٢٣.

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٤).

ثم إن أروع ما في معاهدات رسول الله ﷺ هو الجانب العملي التطبيقي الذي تلا كتابة هذه المعاهدات؛ حيث رفض النبي استقبال أبي بصير[(١)] - وهو رجل من قريش دخل في الإسلام - بعدما فرَّ بدينه من مكة، ولكن قريشًا أرسلوا رجلين في طلبه، فقالا لرسول الله ﷺ: العهد الذي جَعَلْتَ لنا. فدفعه إلى الرجلين.

فمن وفائه ﷺ أنه يردُّ مسلمًا جاءه إلى المدينة المنورة، والمدينة أحوج ما تكون إلى الرجال والجند، والرجل مسلمٌ قد يُفْتَنُ في دينه ويُعَذَّب، ومع ذلك يردُّهُ؛ لأن بنود المعاهدة نصَّت على ذلك، وليس له إلا الوفاء، وقد تعجَّب أبو بصير ﷺ نفسه من ردِّ فعل الرسول ﷺ، فقال متسائلاً: يا رسول الله، أتردُّني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! قال ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»[(٢)].

وبالفعل استطاع أبو بصير أن يعسكر بمنطقة سِيف البحر[(٣)]، وبدأ يقطع الطريق على قوافل قريش، وقريش لا تستطيع أن تفعل له شيئًا، ولا تستطيع أن تلوم رسول الله ﷺ؛ لأنه ليس تحت سيطرته، وسمع بمكانه مسلمون آخرون في مكة، فقرَّروا أن يلتحقوا به؛ ليكونوا له عونًا على قطع الطريق على قوافل مكة، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو، ولحق به سبعون آخرون من المسلمين الذين لا يستطيعون اللحاق بالمدينة لشروط المعاهدة، ولا يستطيعون البقاء في مكة لتعذيب الكفار لهم، وازدادت حدَّة الصدام بشدَّة بين هذه المجموعة المسلمة وبين قوافل قريش، حتى اضطُرَّت قريش أخيرًا إلى أن تذهب إلى رسول الله ﷺ، وترجوه أن يُلْحِقَ هؤلاء به[(٤)]، ولأن الرسول ﷺ يريد حقيقةً أن

---

(١) هو أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي: مشهور بكنيته، هرب من الكفار في هدنة الحديبية إلى رسول الله ﷺ فطلبته قريش ليرده الرسول ﷺ إليهم، ولما علم أن الرسول ﷺ سيرده خرج إلى سيف البحر، واجتمع إليه كل مَن فرَّ مِن المشركين. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٤٥، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٤٥٤، وابن حجر العسقلاني: الإصابة، الترجمة (٥٣٩٨).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٩١.

(٣) سِيف البحر: أي ساحله، وهذا المكان عينه ابن إسحاق فقال: حتى نزل العِيص. قال: وكان طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام. وقال ابن حجر: وهو يحاذي المدينة إلى جهة الساحل. انظر: فتح الباري ٨/ ٢٨٣.

(٤) الحديث السابق.



يتعايش في سلام مع مَنْ حوله من المشركين فإنه قَبِل بذلك، وضمَّهم إليه، ولو شاء لتركهم يُنَغِّصون على قريش حياتها، ويُضعفون قوتها، ويستنْزِفون ثرواتها، ولكنه كان يتعامل مع قريش في صفاء نفس لا يدركه إلاَّ مَنْ عرف رسول الله ﷺ.

هكذا كانت معاهداته ﷺ مع غير المسلمين معاهدات قائمة على الوفاء والعدل وحب السلم، فما أحوج العالم اليوم أن يتعلَّم مثل هذه القيم!

* * *



حروبه ﷺ مع غير المسلمين

المبحث الأول: أخلاقه ﷺ أثناء الحرب وبعدها
المبحث الثاني: أخلاقه ﷺ مع الأسرى

قال أبو هلال العسكري (شاعر سُنّي إيراني):

تَاللّهِ مَا اتَّبَعَ النَّبِيَّ مُحَمَّدٌ ... لَو كانَ فَظًّا أَوْ غَليظًا قَلْبَهُ

الفصل الرابع:

حروبه ﷺ مع غير المسلمين

إن الحرب ظاهرة اجتماعية قديمة، صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض، وتختلف الحرب من عقيدة إلى أخرى؛ فالحرب عند اليهود حرب تدميرية؛ لاعتقادهم أنهم أرقى الشعوب، وعند المسيحيين هي نار تُلقى على الأرض لتشعلها، وهذا ما يقوله الإنجيل المحرَّف: «لا تظنوا أنني جئت أنشر السلام على الأرض، إنني لم آت أحمل السلام، وإنما السيف»[1]. بل إنه يقول: «إنني جئت لأُلقي على الأرض النار، وما أريد من ذلك إلاَّ اشتعالها»[2]، وهذا ما فعله الصليبيون عندما استولوا على بيت المقدس فذبحوا سبعين ألف مسلم!

أما الحرب عند المسلمين فهي دومًا اضطرارية؛ كضرورة لتأمين سُبُل الدعوة، والدفاع عن حرية العقيدة وحرمات المسلمين وأعراضهم، لا مبادأة للقهر والتسلط، فليس الإسلام وحده هو المانع من القتل، وليس الكفر وحده هو الموجب له، وهذا ما قرَّره فقهاء المالكية والحنفية والحنابلة، أن مناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء وليس الكفر؛ فلا يُقتل شخصٌ لمجرَّد مخالفته للإسلام، إنما يُقتل لاعتدائه على الإسلام، وغير المقاتل لا يجوز قتاله، وإنما يُلتزم معه جانب السلم[3].

ولسنا نعني بحتمية الحروب أننا نشتهيها أو نترقَّب حدوثها، بل نحن على العكس من ذلك، فنحن المسلمين لا نجعل الحرب إلاَّ آخر القرارات، ونهاية الحلول، ولا نسعى إليها إلا لردِّ حقٍّ، أو دفعِ شرٍّ، أو تأمينِ حياة.

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح العاشر ٣٤.
(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني عشر.
(٣) الإمام مالك: المدونة الكبرى ٣/ ٦، الشوكاني: فتح القدير ٤/ ٢٩١.



فإذا كانت الحرب ضرورية لا مهرب منها، فإن الإسلام سعى إلى ضبط حروب المسلمين بضوابط أخلاقيَّة تحميها من التدنِّي إلى رذائل الأفعال، ومنكرات الأمور، وهذا الأمر حثَّ عليه الإسلام كثيرًا في كتاب الله الكريم، وفي سُنَّة وسيرة الرسول العظيم ﷺ.

وسنتناول طبيعة حروبه ﷺ مع غير المسلمين من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول: أخلاقه ﷺ أثناء الحرب وبعدها

المبحث الثاني: أخلاقه ﷺ مع الأسرى

❊ ❊ ❊

المبحث الأول:

أخلاقه ﷺ أثناء الحرب وبعدها

إن مشروعية القتال في الإسلام تختلف عن غيرها من الأنظمة والقوانين، ومن شاء أن يدرس طبيعة الحروب الإسلامية؛ فليدرس طبيعة الإسلام ذاته حتى لا يُطَبَّق على هذه الحروب مقاييس غيرها من حروب التوسُّع والعدوان(١).

ورؤية رسول الله ﷺ للدوافع التي ينبغي أن تقوم الحرب من أجلها واضحة؛ وهي دوافع لا يُنكرها منصف، ولا يعترض عليها محايد، وهذه الدوافع تشمل رَدَّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، وكذلك تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبَلَّغ للناس جميعًا، وأخيرًا تأديب ناكثي العهد(٢).

ومع أن أهداف القتال في الإسلام كلها نبيلة إلاَّ أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوِّقًا لحرب الناس؛ وذلك على الرغم من بدايتهم للعدوان، وعداوتهم الظاهرة للمسلمين، لذلك نرى ابن القيم رحمه الله يقول في زاد المعاد تحت عنوان الدعوة قبل القتال: «وكان ﷺ يَأْمُر أمير سريته أن يدعو عدُوَّه قبل القتال إمَّا إلى الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين ليس لهم في الفَيْء نصيب، أو بذل الجزية، فإن هم أجابوا إليه قَبِلَ منهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم»(٣).

وباستقراء سيرة الرسول ﷺ في المعارك الحربية المختلفة - سواء ما فعله بنفسه ﷺ، أو ما كان يُوصِي به صحابته رضي الله عنهم جميعًا في عملياتهم الحربية - تتَّضح لنا ملامح منهج الأخلاق الرائع الذي طبَّقه عمليًّا في حياته.

---

(١) الدكتور عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص٤٦،٤٥.
(٢) أنور الجندي: بماذا انتصر المسلمون؟ ص ٥٧-٦٢ بتصرف.
(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٩٠.



إن المتأمل لحروب النبي ﷺ مع أعدائه سواء من المشركين، أو اليهود، أو النصارى، ليَجِد حُسن خُلق النبي ﷺ مع كل هؤلاء الذين أذاقوه ويلات الظلم والحيف والبطش، إلاَّ أنه كان يعاملهم بعكس معاملاتهم له.

فإذا تأمَّلْنا وصيته ﷺ لأصحابه المجاهدين الذين خرجوا لرد العدوان نجد في جنباتها كمال الأخلاق ونُبل المقصد فها هو ذا رسولُ الله ﷺ يوصي عبدَ الرحمن بن عوف ﷺ عندما أرسله في شعبان سنة (٦ هـ) إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل؛ قائلاً: «اغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ الله، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، لاَ تغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَهَذَا عَهْدُ الله وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ فِيكُمْ»(١).

وكذلك كانت وصيته ﷺ للجيش المتَّجه إلى معركة مؤتة؛ فقد أوصاهم ﷺ قائلاً: «اغْزُوا بِاسْم الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تَمْثُلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، أَوِ امْرَأَةً، وَلا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلاَ مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَةٍ»(٢).

كما كان النبي ﷺ في حروبه عادلاً؛ فلا يتجاوز في عقاب المحاربين أو من أرادوا خيانته (صورة للمقارنة رقم ١١)، تدلُّنا على ذلك مواقف كثيرة في حياته ﷺ؛ منها موقف عجيب مع اليهود الذين دسُّوا له السُّمَّ ليقتلوه بعد فتح خيبر! فقد قال أبو هريرة ﷺ: لما فُتحت خيبر أُهديَتْ للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ». فَجُمِعُوا له فقال: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: فلان. فقال: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ». قالوا: صَدَقْتَ. قال: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفتَه في أبينا. فقال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثُمَّ تخلفونا فيها.

---

(١) الحاكم (٨٦٢٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. والطبراني: المعجم الأوسط (٤٦٧١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥/ ١٤٤.

(٢) أخرج الحديثَ بدون ذكر قصة أهل مؤتة الإمامُ مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير: باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، والبيهقي (١٧٩٣٥).



صورة رقم (١١)

مجزرة صبرا وشاتيلا

في عام ١٤٠٢ هـ/ الموافق ١٥/٩/١٩٨٢م، قامت القوات الإسرائيلية بقيادة أرييل شارون بعملية بشعة، حيث حاصرت مخيمي (صبرا وشاتيلا) في جنوب لبنان، وبداية من يوم ١٦/٩/١٩٨٢م بدأت قوات حزب الكتائب المارونية بمساندة القوات الإسرائيلية بعمليات قتل جماعية لم تذر أحدا من سكان المخيم وذلك على مدار يومين كاملين، وقد راح ضحية هذه العملية الغادرة أكثر من ٣٥٠٠ قتيل: منهم ٨٠٠ من النساء غير الأطفال والشيوخ والعجزة، ولم يكتف المجرمون بذلك بل هجموا على مستشفى عكا، ومستشفى غزة، وتمت عمليات قتل للأطباء والمرضى، وتمت المذبحة بمناسبة السنة العبرية الجديدة[1].

---

(١) فواز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث ص٣٨٠، ٣٨١.

فقال النبي ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثم قال: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» قالوا: نعم. قال: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: أردنا إن كنتَ كاذبًا نستريح، وإن كنتَ نبيًّا لم يضرَّك[1].

لقد قام رسول الله ﷺ بتحقيقٍ هادئ غير منفعل مع اليهود الذين دبَّروا مؤامرةَ اغتياله، وأقام عليهم الحُجَّة حتى اعترفوا بألسنتهم بأنهم دَبَّروا محاولةَ القتل، واكتشف ﷺ أن هذه المجموعة من اليهود قد أَمَرت إحدى نساء اليهود لتضع السُّمَّ بنفسها في الشاة، ثم تُقَدِّمها إلى رسول الله ﷺ، فالرجال هم الذين أمروا، والتي نفَّذت الأمر وباشرت الفعل هي المرأة.

ولقد قال الصحابة ﷺ لرسولنا ﷺ: ألا تقتلها؟! فرفض ﷺ؛ لأنها محاولةُ قتلٍ، وليست قتلاً فعلاً، فلا يجوز قتلها! ثم إنه ﷺ لم يعاقبها، ولا مَنْ أمرها من اليهود بأي عقابٍ؛ لأنه قَبِلَ حُجَّتَهُمْ: لو كان كاذبًا استراحوا، ولو كان نبيًّا لم يضرّه! لقد قَبِلَ ﷺ حُجَّتهم مع أنَّ أحدًا منهم لم يُؤْمن؛ ممَّا يُوَضِّح أنهم لم يفعلوا ذلك أملاً في ظهور الحقيقة، ولكن فعلوا ذلك حَسَدًا من عند أنفسهم، وبُغْضًا لرسول الله ﷺ، ومع كل ذلك لم يعاقبهم.

إلاَّ أن أحد الصحابة وهو بشر بن البراء بن معرور[2] ﷺ كان قد أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة فمات مقتولاً بسُمِّهَا، فهنا أمر رسولُ الله ﷺ بقتل المرأة قِصاصًا، ولم يُقْتَل معها أحدٌ من أهل خيبر، يقول القاضي عياض ﷺ: «لم يقتلها رسول الله ﷺ أولاً حين اطَّلع على سُمِّهَا، وقيل له: اقتُلْها. فقال: «لا». فلمَّا مات بشر بن البراء من ذلك

(١) البخاري: كتاب الطب، باب ما يُذكر في سَمِّ النبي ﷺ (٥٧٧٧)، وأبو داود (٤٥٠٨)، وأحمد (٩٨٢٦).
(٢) هو بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق، ومات بخيبر حين افتتاحها من تلك الأكلة التي أكلها مع رسول الله ﷺ، قيل: إنه لم يبرح من مكانه حين أكل منها حتى مات. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ١١٥، ١١٦، وابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٥١، وابن حجر العسقلاني: الإصابة الترجمة (٦٥٤).

سلَّمها لأوليائه، فقتَلوها قِصاصًا»[١].

ولعلَّ من أبرز أخلاق النبي ﷺ في حروبه خُلق الرحمة؛ فلقد كان النبي ﷺ رحيمًا بالطفل الصغير، والشيخ الكبير، والنساء والمرضى والعواجز، وكان رسول الله ﷺ يوصي قادة الجند بالتقوى ومراقبة الله ﷻ؛ ليدفعه إلى الالتزام بأخلاق الحروب، وبالرحمة في المعاملات حتى في غياب الرقابة البشرية عليه، ولم يكن يكتفي بذلك بل كان يأمر أوامر مباشرة بتجنُّب قتل الولدان[٢].

يقول بريدة ﷺ: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيشٍ أو سريَّةٍ أوصاه في خاصَّته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، وكان مما يقوله: «.. وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا..»[٣].

وكان إذا أخطأ المسلمون في حروبهم مع عدُوِّهم، وقتلوا أطفالاً صغارًا، كان ذلك يُغضب رسول الله ﷺ أشدَّ الغضب، ومثال ذلك ما رواه الأسود بن سريع ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ بعث سريَّةً يوم حنين فقاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الذُّرِّيَّة[٤] فلمَّا جاءوا قال رسول الله ﷺ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذُّرِّيَّةِ؟» قالوا: يا رسول الله، إنَّما كانوا أولاد المشركين. قال: «أَوَهَلْ خِيَارُكُمْ إِلاَّ أَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ؟! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلاَّ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا»[٥].

و كان رسول الله ﷺ ينهى عن قتل النساء؛ فعن رباح بن ربيعٍ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في غزوةٍ، فرأى النَّاس مجتمعين على شيءٍ؛ فبعث رجلاً فقال: «انْظُرْ: عَلاَمَ اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ؟» فجاء؛ فقال: على امرأةٍ قتيلٍ. فقال: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ». قال: وعلى المقدِّمة

---

(١) النووي: المنهاج ١٤/ ١٧٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٣٣٧، وابن حبان: السيرة النبوية ١/ ٣٤٦، وابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ١٢٧، والسهيلي: الروض الأنف ١/ ٣٩٥.

(٣) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيره (١٧٣١).

(٤) أي الأطفال.

(٥) أحمد (١٥٦٢٦)، والحاكم (٢٥٦٦)، وعبد الرزاق (٢٠٠٩١)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨١١٤)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٠٢).

خالد بن الوليد؛ فبعث رجلاً فقال: «قُلْ لِخَالِدٍ: لاَ يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلا عَسِيفًا[١]»[٢].

ومن أخلاقه في الحروب أيضًا أنه كان يعذر أولئك الذين أُكرهوا على القتال، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأصحابه قُبَيْل غزوة بدر: «إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالاً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا، لاَ حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، عَمَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلاَ يَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا»[٣].

كما كان النبي ﷺ حريصًا على أن يغرس في نفوس الصحابة خُلق الوفاء في الحرب؛ فقد كان يودِّع السرايا موصِيًا إيَّاهم: «.. وَلا تَغْدِرُوا. »[٤]. وقد وصلت أهمية الأمر عند رسول الله ﷺ أن يتبرَّأ من الغادرين ولو كانوا مسلمين، ولو كان المغدورُ به كافرًا؛ فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ القَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ المَقْتُولُ كَافِرًا»[٥].

وكان ﷺ حريصًا كل الحرص على حقن الدماء، فيقبل إسلام الشخص مهما كان تاريخه العدائي؛ ومن أمثلة ذلك ما رأيناه منه ﷺ عندما أنكر على أسامة بن زيد رضي الله عنه قتله لمشرك محارب بعد أن أعلن إسلامه، مع أن كل الظروف كانت تشير إلى أن المشرك لم يعلن إسلامه إلاَّ تَقِيَّة! فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ بعث بَعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين[٦]، وأنهم التقوا، فكان رجل[٧] من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من

---

(١) العسيف: الأجير. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٧/ ٢٣٦.

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٦٩)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وأحمد (١٧٦٤٧)، وابن حبان (٤٧٨٩)، والحاكم (٢٥٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (٧٠١).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦٢٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٣٦.

(٤) مسلم عن بريدة بن الحصيب: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث (١٧٣١)، والموطأ (٩٦٦)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٨٥٧).

(٥) البخاري: التاريخ الكبير ٣/ ٣٢٢، واللفظ له، وابن حبان (٥٩٨٢)، والبزار (٢٣٠٨)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٤)، والمعجم الصغير (٣٨)، والطيالسي في مسنده (١٢٨٥)، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٤ من طرق عن السدي عن رفاعة بن شداد به. وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع (٦١٠٣).

(٦) تذكر الروايات أن ذلك كان في سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة (٧هـ) إلى بني عُوَال، وبني عبد ابن ثعلبة بالمِيفعة. وقيل: إلى الحُرُقَات من جهينة، في مائة وثلاثين رجلاً. انظر: عيون الأثر ٢/ ١٥٦.

(٧) قيل هو: نُهيك بن مرداس.

المسلمين قصد له فقتله، وأن رجلاً من المسلمين قصد غفلته قال - أي الراوي: وكنا نُحَدَّث أنه أسامة بن زيد ﷺ، فلمّا رفع عليه السيف، قال: لا إله إلا الله. فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ، فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «لِمَ قَتَلْتَه؟!» قال: يا رسول الله، أَوْجَعَ في المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا. وسمَّى له نفرًا، وإني حملت عليه، فلمّا رأى السيف؛ قال: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟!» قال: نعم. قال: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!» قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»[1].

لقد كان هذا تعليمًا منه ﷺ للأُمَّة كلها، وتحذيرًا شديدًا من القتل في غير محلِّه، بل هو في الوقت نفسه حِرْص شديد من النبي ﷺ على تفادي القتل عند أول فرصة تسنح بذلك؛ ممَّا يؤكد لنا أن القتال في الإسلام إنما هو أمر لا يكون إلاَّ عند الحاجة الماسَّة إليه، ومتى وُجِدَت أَيَّةُ فرصة للخروج من القتال وحفظ الدماء؛ كان الأخذ بها هو منهج الإسلام ومنهج الرسول ﷺ.

فلم يكن النبي ﷺ من هواة الحرب، بل كان ينأى عنها ما وجد إلى ذلك سبيلاً؛ ولذا كان النبي ﷺ يعرض الإسلام أو الجزية أولاً، فإن أصرَّ العدُوُّ على القتال، حارب الرسول ﷺ، ولكنه لا يغلق باب المسالمة؛ فإن رغب العدُوُّ في الصلح حتى بعدما تظهر بشائر النصر للمسلمين، كان الرسول ﷺ يقبل الصلح، ويُقِرُّه، ومن ذلك ما حدث في غزوة خيبر؛ حيث يقول ابن كثير: فلما أيقنوا[2] بالهلكة، وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعةَ عشرَ يومًا نزل إليه ابن أبي الحقيق؛ فصالحه على حقن دمائهم ويُسَيِّرُهم، ويُخَلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكِرَاع والحلقة وعلى البَزِّ، إلا ما كان على ظهر إنسان[3]، فقال رسول الله ﷺ: «وَبَرِئَتْ مِنْكُمْ ذِمَّةُ

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٧).
(٢) أي اليهود.
(٣) يعني: لباسهم.



اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمْ شَيْئًا». فصالحوه على ذلك[(١)].

ومن عظمة أخلاقه في الحروب أيضًا أنه لم يفكِّر - ولو لمرة واحدة - في حياته على إكراه أحد على الإسلام، وقد ظهر ذلك في كل مواقف حياته؛ منها على سبيل المثال موقفه ﷺ مع أعرابي خطَّط لقتله؛ فقد روى جابر بن عبد الله ﷺ، يقول: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة[(٢)] بنخل، فرأوا من المسلمين غِرَّةً، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «اللهَ». فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟!» قال: كن كخير آخذ، قال: «أَتَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟» قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله!! قال: فذهب إلى أصحابه[(٣)] قال: قد جئتكم من عند خير الناس[(٤)]. فهذا رجل أمسك السيف، ووقف به على رأس رسول الله ﷺ يتهدَّده بالقتل، ثم نجَّى الله ﷻ رسوله، وانقلبت الآية، فأصبح السيف في يد رسول الله ﷺ، ومع ذلك فالحقد والغلُّ لا يعرفان طريقهما أبدًا إلى قلبه ﷺ؛ فإنه يعرض عليه الإسلام، فيرفض الرجل، ولكن يعاهده على عدم قتاله، فيقبل منه رسول الله ﷺ ببساطة، ويعفو عنه، ويطلقه آمنًا إلى قومه!

ولأن المعارك التي خاضها الرسول ﷺ والمسلمون لم تكن بهدف الانتقام؛ لذلك كان تعامله ﷺ مع المهزومين تعاملاً يتَّسم بالحسنى والعفو والصفح، بل وينكر وبقوَّة على من يخالف هذا الأمر؛ ومن نماذج هذا العفو ما رواه مسلم في صحيحه في أحداث الحديبية عن سلمة بن الأكوع[(٥)] ﷺ قال: «ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٧٦.

(٢) محارب خصفة بن قيس بن عيلان من بطون عدنان.

(٣) ذكر ابن حجر أن قومه أسلموا. انظر: فتح الباري ٧/ ٤٢٨.

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٤١٢٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس (٨٤٣).

(٥) سلمة بن الأكوع: هكذا يقول جماعة أهل الحديث، ينسبونه إلى جده، وهو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي. كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان شجاعًا راميًا سخيًّا خيرًا فاضلاً. توفي بالمدينة سنة ٧٤هـ عن ٨٠ سنة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٢٩٨، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ترجمة رقم (٣٣٨٥).

بعض واصطلحنا... قال: فلمّا اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة؛ فكسحت شوكها؛ فاضطجعت في أصلها. قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ؛ فأبغضتهم، فتحوَّلتُ إلى شجرة أخرى، وعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا لَلْـمُهاجرين! قُتِلَ ابنُ زُنَيْم. قال: فاخترطت سيفي، ثم شدَّدت على أولئك الأربعة وهم رُقُود؛ فأخذت سلاحهم؛ فجعلته ضِغثًا[1] في يدي، قال: ثم قلت: والذي كَرَّمَ وجهَ محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلاَّ ضربت الذي فيه عيناه. (يعني: رأسه)، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، وجاء عمِّي عامر[2] برجل من العَبَلات[3] يقال له: مِكْرَزٌ يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّف[4] في سبعين من المشركين؛ فنظر إليهم رسول الله ﷺ؛ فقال: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ»[5]. فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ[6]﴾، الآية كلها... قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة[7].

هكذا في بساطة من الأمر ويسر، لم ينتقم النبي ﷺ، فيسفك الدماء، وينتهك الأعراض، وينهب الدُّور، بل العفو هو شيمته ﷺ في كل وقتٍ، وفي مواجهة كل عدُوٍّ، ثم إنه ﷺ لم يكن يعفو عن الأفراد الذين لا يُقَدِّمون كثيرًا ولا يُؤَخِّرون في سير الأحداث فقط، بل كان يعفو عن شعوب كاملة، ومن أشهر مواقفه في هذا الصدد عفوه عن أهل

---

(١) الضِّغْث: الحُزْمة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ضغث ٢/ ١٦٣.

(٢) هو عامر بن سنان الأنصاري، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، استشهد يوم خيبر، وهو الذي جعل يرتجز حين خرج يومها ويقول: بالله لولا الله ما اهتدينا... ولا تصدقنا ولا صلينا. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ١٩، وابن حجر: الإصابة، الترجمة (٤٣٩١).

(٣) العبلات: بفتح العين والباء من قريش وهم أمية الصغرى والنسبة إليهم عبليّ؛ لأن اسم أمهم عبلة. انظر: النووي: المنهاج ١٢/ ١٧٧.

(٤) مجفف: أي عليه تجفاف بكسر التاء، وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس؛ ليقيه من السلاح. انظر: النووي: المنهاج ١٢/ ١٧٧.

(٥) البدء: أي ابتداءه، وثناه: أي عوده ثانية. انظر: النووي: المنهاج ١٢/ ١٧٧.

(٦) (الفتح: ٢٤).

(٧) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها (١٨٠٧)، وأحمد (١٦٥٦٦).



مكة؛ حيث قال ﷺ لهم: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ». ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[1] ﴾، ثم قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟» قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ. قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[2].

وكان من عفو رسول الله ﷺ وكرمه أنه كان يُعيد زعماء القبائل الذين حاربوه وصدُّوا دعوته إلى مناصبهم عند انتصاره عليهم؛ فقد أعاد عيينة بن حصن إلى زعامة بني فزارة[3]، مع العلم أنه كان من المحاصِرين للمدينة المنورة يوم الأحزاب، وذلك تحت راية غطفان، وأعاد كذلك العباس بن مرداس إلى زعامة بني سليم[4]، وأعاد الأقرع بن حابس إلى زعامة بني تميم[5]، وأعاد جيفرًا وعبَّادًا إلى زعامة عُمان[6]، وأعاد باذان إلى زعامة اليمن[7]، وأعاد المنذر بن ساوى إلى زعامة البحرين[8]، وغيرهم وغيرهم، وحصرُ ذلك يصعب لشدَّة تكراره، وهذا دليل على سموِّ نفس النبي ﷺ، وحُسن خلقه وعفوه.

وهكذا كانت أخلاق النبي ﷺ في حروبه وبعد حروبه، فما أروعها من أخلاق تدلُّ دلالة واضحة على صلته بربه الذي أدبه فأحسن تأديبه ﷺ!

***

(١) (الحجرات: ١٣).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٦، السهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٠، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٧٠، وابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٥٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق ١/ ٢٦٣.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٧٠.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٣.

المبحث الثاني:
أخلاقه ﷺ مع الأسرى

تعدَّدت أساليب التعامل مع الأسرى من ديانة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، وإن كان الذي يغلب على الجميع - قبل ظهور الإسلام - هو القسوة والبطش والظلم، ورغم شيوع تلك الأساليب في التعامل مع الأسرى إلاَّ أن رسول الله ﷺ لم يَحِدْ عن طبيعته الأخلاقية في التعامل معهم (صورة للمقارنة رقم ١٢)، فلم ينظر إليهم مطلقًا على أنهم كانوا يريدون القضاء على الكيان الإسلامي بكل جوانبه بداية من قتلهم للرسول ﷺ وانتهاء بإبادة المسلمين.

ولننظر إلى حياته لندرك عظمة أخلاقه في التعامل مع الأسرى فمن مواقفه ﷺ الخالدة، ما فعله الرسول ﷺ مع أسرى بدر؛ فمن المعلوم أن معركة بدر كانت المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين، وقد تمَّ النصر فيها للمسلمين مع قلَّة عددهم وعُدَّتهم؛ بل إنهم مع هذا النصر أسروا من المشركين سبعين، وفيهم استشار الرسول ﷺ أصحابه ﷺ في شأنهم، وماذا يفعل معهم؟ وهذا الأمر يرويه عمر بن الخطاب ﷺ إذ يقول: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، هؤلاء بنو العمِّ والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا. فقال رسول الله: «مَا تَرَى يَابْنَ الخَطَّابِ؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تُمَكِّنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتُمكِّن عليًّا من عقيل[1] فيضرب عنقه، وتُمكِّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوي الرسول ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ - أي عمر ﷺ - وأخذ منهم الفداء[2].

---

(١) عقيل بن أبي طالب ﷺ، وهو أخو علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عقيل آنذاك مشركًا في جيش الكفار.
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٥٧.



الأسرى المصريون

١٩٦٧

الأسرى العراقيون

الأسرى الأفغان

صورة للمقارنة رقم (١٢) التعامل مع الأسرى في واقعنا المعاصر

وعلى الرغم من نزول الآيات بعد هذا الموقف تعاتب النبي ﷺ أنه أخذ بالرفق واللين مع هؤلاء الأسرى في هذا الموقف ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١]﴾ رغم ذلك؛ لم يكن هذا دافعًا لأن يُسِيء الرسول ﷺ معاملة هؤلاء الأسرى، أو يُغَيِّر من تعامله معهم بعد أن أخذ قرارًا بإعفائهم من القتل، وقبول الفدية ممن يستطيع منهم، وقد تفاوت مقدار هذه الفدية ونوعها بحسب حالة كل أسير.

فقد أطلق الرسول ﷺ بعض الأسرى كعمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلق المشركون سراح سعد بن النعمان بن أكال ﷺ، الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر[٢].

ومن الأسرى من كان يفدي نفسه بالمال، وكان رسول الله ﷺ يراعي الحالة المادية لكل أسير، فمنهم من دفع أربعة آلاف درهم كأبي وداعة، وأبي عزيز واسمه زرارة بن عمير - وهو أخٌ لمصعب بن عمير ﷺ - دفعتها أُمُّه، وكانت صاحبة مال وفير، ومنهم من دفع مائة أوقية كالعباس بن عبد المطلب، ومنهم من دفع ثمانين أوقية كعقيل بن أبي طالب، وقد دفعها له العباس، ودفع بعض الأسرى أربعين أوقية فقط[٣].

أما من لم يكن معه مال، وكان يعرف القراءة والكتابة فكان فداؤه أن يُعَلِّم بعض المسلمين القراءة والكتابة؛ فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ناسٌ من الأسرى يوم بدرٍ لم يكن لهم فداءٌ فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار[٤].

ومن هؤلاء الأسرى مَنْ مَنَّ الرسولُ ﷺ عليه بغير فداء مثل: المطلب بن حنطب، وأبي عزة الشاعر، وصيفي بن أبي رفاعة[٥].

وقد أَحسَنَ رسول الله ﷺ أيضًا إلى سهيل بن عمرو صاحب المكانة والزعامة في قريش، ولم يشأ أن يهينه أو يُمثِّل به وإن كان قادرًا على ذلك، وقد أراد عمر بن الخطاب

---

(١) (الأنفال: ٦٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣١١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ١٤.

(٤) أحمد عن ابن عباس (٢٢١٦)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. وقال الهيثمي: رواه أحمد عن علي بن عاصم، وهو كثير الغلط والخطأ، وقد وثَّقه أحمد. مجمع الزوائد ٤/ ١٧٢.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٥٢.

ﷺ نَزْعَ ثنيتي سهيل بن عمرو حتى لا يقوم خطيبًا على الرسول ﷺ في موطن أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: «لاَ أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا»[١].

وكان في الأسرى أيضًا أبو العاص بن الربيع ختن[٢] رسول الله ﷺ على ابنته زينب فبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها عليه حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّة شديدة، وقال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدّوا إِلَيْهَا مَتَاعَهَا فَعَلْتُمْ». قالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه، وردوا عليها الذي لها[٣]. فكان هذا أيضًا ممن أُطلِقَ بغير فداء.

وكان ﷺ على استعداد لإطلاق الجميع من دون فداء لو شفع فيهم المطعم بن عدي الزعيم المشرك المعروف، غير أنه كان قد مات، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ كما في البخاري عن جبير بن مطعم ﷺ: أن النبي قال في أسارى بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[٤]؛ وذلك لأنه اشترك في نقض الصحيفة التي قاطعت بها قريش بني هاشم، وكذلك أجار النبي ﷺ في مكة عند عودته من الطائف.

ومن الواضح أنه تمَّ إطلاق سراح جميع من بقي من أسرى بدر خلال أقل من عامٍ من غزوة بدر، ومما يؤكِّد هذا الأمر أن المشركين في أُحد لم يتفاوضوا على أيٍّ من أسراهم.

ومن المواقف الخالدة لرسول الله ﷺ في تعامله مع الأسرى ذلك الموقف النادر مع ثمامة بن أثال؛ فقد كان ثمامة بن أثال زعيمًا مشهورًا من زعماء بني حنيفة، وكان قد قرَّر أن يأتي للمدينة المنورة ليقتل رسول الله ﷺ[٥]، فأسره أصحاب النبي ﷺ، وجاءوا به إلى المسجد النبوي، فما كان من ردِّ فعل رسول الله ﷺ إلاَّ أن قال ﷺ لأصحابه: «أَحْسِنُوا

---

(١) الحاكم ٣/ ٣١٨، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٠.

(٢) خَتَنُ الرجلِ: المُتزوِّجُ بابنته. انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة ختن ١٣/ ١٣٧.

(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٥١-٣٥٢.

(٤) البخاري عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه: كتاب الخمس، باب ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يُخمِّس (٣١٣٩)، وأبو داود (٢٦٨٩)، والطبراني في الكبير (١٥٠٤)، ورواه عبد الرزاق في مصنفه (٩٤٠٠)، ورواه البيهقي في سننه الكبرى (١٢٦١٦).

(٥) البيهقي: السنن الكبرى (١٧٨١٠)، ابن حجر: الإصابة ١/ ٣٠٢، ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٣٧.

إِسَارَهُ»(١). وقال أيضًا: «اجْمَعُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ»(٢). فكانوا يُقَدِّمُون إليه لبن لقحة(٣) الرسول ﷺ

لقد عامل الرسول ﷺ الرجل معاملة غاية في الاحترام والتأدب والعفو، فقد قال رسول الله ﷺ «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قال: عندي يا محمد خيرٌ؛ إن تقتل تقتل ذا دمٍ، وإن تُنْعِمْ تنعم على شاكرٍ، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد فقال: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قال: ما قلتُ لك: إن تنعم تنعم على شاكرٍ، وإن تقتل تقتل ذا دمٍ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد فقال: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فقال: عندي ما قلتُ لك: إن تنعم تنعم على شاكرٍ، وإن تقتل تقتل ذا دمٍ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلِّها إليَّ، والله! ما كان من دينٍ أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين كلِّه إليَّ، والله! ما كان من بلدٍ أبغض إليَّ من بلدك فأصبح بلدك أحبَّ البلاد كلِّها إليَّ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟

فبشَّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلمَّا قدم مكَّة قال له قائلٌ: أصبوت؟ فقال: لا ولكنِّي أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطةٍ حتَّى يأذن فيها رسول الله ﷺ(٤).

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ٦/ ٥١.

(٢) انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٨٨.

(٣) لقحة: الناقة الحلوب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لقح ٢/ ٥٧٩.

(٤) البخاري: كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضًا في المسجد (٤٣٧٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، واللفظ له (١٧٦٤). والحنطة: القمح.

فهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ تركت في نفس ثمامة أثرًا طَيِّبًا إلى درجة أنه غَيَّر دينه، وأسلم لله رب العالمين، دون ضغط أو إكراه، بل إن إسلامه وُلِدَ قويًّا إلى الدرجة التي دفعته إلى مقاطعة قريش من أجل أنها تحارب رسول الله ﷺ؛ مضحيًا بذلك بثروة هائلة كانت تأتيه من تجارته معها، ومضحيًا بعلاقات اجتماعية مهمة مع أشراف قريش.

ولقد كانت القاعدة العامة التي حَثَّ عليها الرسول ﷺ في أول غزوة غنم فيها المسلمون أسرى هي: «اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْرًا»[(١)]. وهذه المعاملة الحسنة التي أمر بها رسول الله ﷺ للأسرى لم تكن مجرَّد قوانين نظرية ليس لها تطبيق في واقع الحياة، ولكنَّها تمثلت في مظاهر كثيرة تنبئ عن قلوب ملأتها الرحمة.

لذلك أنكر الرسول ﷺ ضرب غلامي قريش في أحداث بدر، إذ قال لأصحابه: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُم تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ..»[(٢)]. فرغم كون هذين الغلامين من الجيش المعادي، وضربهما قد يكشف للمسلمين مناطق الضعف في الجيش القرشي، إلاَّ أن النبي ﷺ استنكر ضربهما وتعذيبهما، وهذا الأمر ما عبّر عنه الإمام مالك رحمه الله؛ إذ سُئل: أَيُعذَّبُ الأسيرُ إن رُجِيَ أن يدلَّ على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك[(٣)].

بل كان الرسول ﷺ حريصًا أيضًا على راحة الأسير البدنية والصحية ليُدرك - بما لا يدع مجالاً للشكِّ - أن هذا المنهج إلهيٌّ، وليس من صُنع البشر! إنه ليس من أحد أرحم بالعباد من الله ﷻ، ومن رحمته أنه أوصى برعاية الأسير حتى لو كان هذا الأسير كافرًا به ﷻ وقد حرص رسول الله ﷺ كل الحرص على تطبيق هذا المنهج الإلهي الرحيم؛ فخرجت لنا عدة مواقف نجزم أنها لا توجد في تاريخ أمة غير أمة الإسلام.

وقد تجلَّى حرص رسول الله ﷺ في تعاملاته مع الأسرى في الاهتمام بمأكلهم؛ فقد

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٧٧)، وفي الصغير (٤٠٩)، وقال الهيثمي: إسناده حسن من حديث أبي عزيز بن عمير. مجمع الزوائد ٦/ ١١٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦١٦، ٦١٧. وانظر الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٧، والسهيلي: الروض الأنف ٣/ ٥٨.

(٣) محمد بن يوسف المواق: التاج والإكليل ٣/ ٣٥٣.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أمر رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر أن يُكرموا الأسارى، فكانوا يُقَدِّمُونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة[1].

ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يُقدِّمون للأسرى ما بقي من طعامهم، بل كانوا ينتقون لهم أجود ما لديهم من طعام، ويجعلونهم يأكلونه عملاً بوصية رسول الله ﷺ بهم، وها هو أبو عزيز - شقيق مصعب بن عمير رضي الله عنه - يروي ما حدث بقوله: كنتُ في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خَصُّوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إيَّاهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاَّ نفحني بها؛ فأستحي فأردها فيردّها عَلَيَّ ما يمسُّها! قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث[2]. فالرجل لم يكن شخصية عادية، بل كان من أشدِّ المشركين على المسلمين، فلا يحمل اللواء إلاَّ شجعان القوم وسادتهم! ولكن هذا لم يُغَيِّر من الأمر شيئًا؛ لأن الرحمة بالأسير أصل من أصول التعامل لا يجوز التخلِّي عنه تحت أي ظرف من الظروف.

ولم يقتصر المسلمون على إطعام أسراهم من المشركين؛ بل كانوا يُقَدِّمون لهم الملابس أيضًا، وهذا ثابت في الصحيح، فقد جعل البخاري رحمه الله بابًا في الصحيح سمَّاه: باب الكسوة للأُسارى ذكر فيه أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لَمَّا كان يوم بدرٍ أُتِيَ بأسارى، وأُتِيَ بالعبَّاس، ولم يكن عليه ثوبٌ فنظر النبي ﷺ له قميصًا فوجدوا قميص عبد الله بن أبيٍّ يَقْدُرُ عليه[3]، فكساه النبي ﷺ إيَّاه...»[4].

وورد أيضًا أن رسول الله ﷺ أمر لأسرى هوازن بالكساء فقد أمر رجلاً أن يَقدم

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٨٤.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٧٥.
(٣) يقدر عليه: بضم الدال، وإنما كان ذلك لأن العباس كان بَيِّنَ الطول، وكذلك كان عبد الله بن أبي، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ١٤٤.
(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كسوة الأسرى (٢٨٤٦)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٧٠).

مكة فيشتري للسبي - الأسرى - ثياب المُعَقَّد[١]، فلا يخرج الحرُّ منهم إلاَّ كاسيًا[٢].

ومن وصاياه ﷺ البارزة في التعامل مع الأسرى الرفقُ ولين الجانب، حتى يشعروا بالأمن والطمأنينة، وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان يردُّ على استفسارات الأسرى، ولا يسأم أو يَمَلُّ من أسئلتهم؛ ممَّا يُوحِي بسعة صدره، وعمق رحمته ﷺ التي شملت البشر جميعًا؛ ففي صحيح مسلم عن عمران بن حصين ﷺ قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيلٍ، فأَسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيلٍ، وأصابوا معه العضباء[٣]، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق قال: يا محمد. فأتاه فقال: «مَا شَأْنُكَ؟» فقال: بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاجِّ[٤]؟ فقال: «إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ».

ثمَّ انصرف عنه فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد. وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رقيقًا فرجع إليه، فقال: «مَا شَأْنُكَ؟» قال: إنِّي مسلمٌ. قال: «لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلاَحِ».

ثمَّ انصرف فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد. فأتاه فقال: «مَا شَأْنُكَ؟» قال: إنِّي جائعٌ فأطعمني، وظمآن فاسقني. قال: «هَذِهِ حَاجَتُكَ»[٥].

فهذه الاستفسارات المتكرِّرة من الرجل لرسول الله ﷺ - وهو القائد الأول للدولة الإسلامية - ومناداته باسمه ﷺ مجرَّدًا يدلُّ على مدى الرحمة والإنسانية التي يحملها الرسول ﷺ في قلبه لكل البشر.

ولعلَّ الأعظم من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يهتمُّ بالنواحي النفسية للأسرى

---

(١) ثياب المعقد: المُعَقَّدُ: ضَرْبٌ من بُرُودِ هَجَر. انظر: الزبيدي: تاج العروس باب الدال فصل العين مع القاف ٩/ ٦٢.

(٢) البيهقي: دلائل النبوة ٥/ ٢٦٤.

(٣) أصبحت بعد ذلك ناقة رسول الله ﷺ.

(٤) سابقة الحاج: أراد بها العضباء؛ فإنها كانت لا تُسبق أو لا تكاد تسبق، معروفة بذلك.

(٥) مسلم: كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله (١٦٤١)، وأبو داود (٣٣١٦)، وابن حبان (٤٨٥٩)، والشافعي (١٤٩٠)، والدارقطني (٣٧)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٧٨٤٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٦٥١.

ويحترمها كل الاحترام، ويظهر هذا الأمر بوضوح في أوقات الشدائد وبعد الحروب خاصَّة، فنجد النبي ﷺ يوجِّه أصحابه الكرام توجيهات إنسانية راقية في شأن التعامل مع الأسرى من النساء والأطفال؛ فينهى عن التفريق بين الأُمِّ وطفلها؛ فعن أبي أيوب ﷺ قال: «سمعت رسول الله يقول: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

ولعلَّ القصة التالية تكون خاتمة جميلة لهذا المبحث؛ حيث تظهر فيها أخلاقه ﷺ في التعامل مع الأسرى في أبهى صورها، فقد أتى أبو أُسَيْدٍ الأنصاري[(٢)] ﷺ بسبي من البحرين فَصُفُّوا، فقام رسول الله ﷺ، فنظر إليهم؛ فإذا امرأة تبكي؛ فقال: «ما يُبْكِيكِ؟» فقالت: بِيعَ ابني في بني عبس؛ فقال رسول الله ﷺ لأبي أُسيد: «لَتَرْكَبَنَّ فَلَتَجِيئَنَّ بِهِ». فركب أبو أسيد فجاء به[(٣)]!

لقد رقَّ قلب رسول الله ﷺ للمرأة الأسيرة فأرسل أحد جنوده إلى بلد بعيد ليأتي لها بابنها، حتى يهدأ بالها، وتجفَّ دموعها!

ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نستقصي جميع تعاملات النبي ﷺ التي تُظهر حقيقة سريرته، وحسن خُلقه في سلمه وحربه وتعاملاته كلها ﷺ ولكننا اكتفينا ببعض هذه المواقف، والتي تدلُّ دلالة واضحة على كمال أخلاقه، وعظمة رسالته التي أوحى الله ﷻ به إليه.

* * *

(١) الترمذي: كتاب السير، باب في كراهية التفريق بين السبي (١٥٦٦)، وقال: حديث حَسَنٌ غريب. وأحمد (٢٣٥٤٦) وقال شعيب الأرناءوط: حسن بمجموع طرقه وشواهده. والحاكم (٢٣٣٤) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه، والطبراني في الكبير (٤٠٨٠)، والبيهقي في الكبرى (١٨٠٨٩)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٤١٢).

(٢) هو عبد الله بن ثابت الأنصاري، وكنيته أبو أسيد، وهو غير أبي أسيد الساعدي، كان يخدم النبي ﷺ، وروى عنه «كلوا الزيت وادهنوا به». انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٥/ ١٣، وابن حجر العسقلاني: الإصابة ترجمة رقم (٩٥٧٣).

(٣) الحاكم (٦١٩٣)، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه، ورواه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٥٤).

شبهات وردود

قال أبو زيد الفازازي (شاعر مغربي):

هُوَ الْمُصْطَفَى حَقًّا وَخَابَ مَنِ افْتَرَى ... ظِلاَلُ هُدَاهُ وَالنَّدَى عَمَّتِ الْـوَرَى

الفصل الخامس:

شـــــــبهات وردود

رغم تبجيل وتوقير الإسلام ونَبِيِّه ﷺ لكل الأنبياء إلاَّ أن بعض الذين طُمِس على قلوبهم - فلم يعودوا يُبصرون النور - ما زالوا يُثِيرون بعض الشبهات حول النبي ﷺ، فقلبوا الحقائق أباطيل، وبدَّلوا المحامد مثالب؛ يُريدون بذلك الوصول إلى مأربهم في تشويه صورة الإسلام وتزييف حقائقه، والنيل من النبي ﷺ، فتناولوا سيرته ﷺ بالثَّلْب والتجريح تارة، وبالكذب والتدليس تارة أخرى! وفي بحثنا هذا لم نُورد كلَّ ما أثاره هؤلاء المغرضون؛ ولكننا اكتفينا ببعض الشبهات المشهورة، والتي إن أثبتنا عدم صحَّتها فإن باقي الشبهات ستتهاوى هي الأخرى، وفي المباحث التالية -بمشيئة الله- نتناول أبرز هذه الشبهات المثارة والردّ عليها:

المبحث الأول: شبهة شهوانية الرسول ﷺ وتعدُّد زوجاته

المبحث الثاني: شبهة انتشار الإسلام بالعنف

المبحث الثالث: شبهة أن النبي ﷺ يقر العبودية

المبحث الرابع: شبهة نَقْل النبي ﷺ القرآن عن اليهود والنصارى

المبحث الخامس: تعرُّض النبي ﷺ لقافلة تجارية في غزوة بدر

المبحث السادس: شبهة ظلم النبي ﷺ لليهود



المبحث الأول:
شبهة شهوانية الرسول ﷺ وتعدُّد زوجاته

من الشبهات التي أثارها بعض المغرضين أن النبي ﷺ كان شهوانيًّا محبًّا للنساء، ساعٍ في قضاء شهوته ونيل رغباته منهن؛ وذلك استنادًا إلى تعدُّد زوجاته، كما أنه ﷺ تزوَّج من عائشة رضي الله عنها وهي فتاة في التاسعة من عمرها.

ولكن الحقيقة التي لا مِراء فيها أن الرسول ﷺ لم يكن رجلاً شهوانيًّا، وإنما كان بشرًا نبيًّا، تزوَّج كما يتزوَّج بنو الإنسان، وعدَّد كما عدَّد غيرُه من الأنبياء، ولم يكن ﷺ بِدْعًا من الرسل حتى يُخَالِفَ سُنَّتهم أو يَنْقُض طريقتهم، وليس أوضح في ذلك ممَّا جاء في التوراة من أن سليمان عليه السلام -على سبيل المثال- تزوَّج مئات من النساء.

ويمكننا الرد على هذه الشبهة في عدة نقاط:

أولاً: كانت وظيفته ﷺ الأولى في حياته هي دعوة الناس إلى الإسلام والإيمان وتركيز دعائم الدين الجديد قبل أن يموت ﷺ، ومن ثم فالوقت أمامه محدود؛ ولذلك سلك أسرع الطرق إلى دعوة الناس إلى الخير، وكان من هذه الطرق الزواج السياسي الذي يكسر هذه العداوة بينه وبين أعدائه، وكان هذا عُرفًا في جزيرة العرب، بل وفي العالم أجمع، وما أكثر ما تمت الزيجات والمصاهرات بين الأمراء والملوك المتصارعين لكي يتمَّ إنهاء حرب أو عقد معاهدة سلام، ويصبح الزواج كنوع من التوثيق لهذه المعاهدات.

ودليل أن هذا الزواج كان عرفًا عامًّا أن أحدًا من معاصريه الذين حاربوه لم يعترض على هذا الزواج الكثير، ولم يطعن به في شرف الرسول ﷺ.

ومن هذا النوع من الزواج: زواجه من أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها المهاجرة إلى الحبشة؛ إنه لم يرها منذ هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، بَيْد أنه يعرف إسلامها برغم أنف أبيها زعيم المشركين يومئذٍ، ويعرف بقاءها على الإسلام برغم أنف زوجها الذي ارتدَّ عن الإسلام إلى النصرانيَّة، وتأليفًا لوالدها أبي سفيان سيِّد قريش وزعيمها، وترغيبًا له في

الدخول في الإسلام.

وكذلك فإن زواجه ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود، وجويرية بنت الحارث سيِّد بني المصطلق، والتي أعتق المسلمون بزواجها من رسول الله ﷺ جميع الأسرى والسبايا من بني المصطلق، كما أسلم أبوها وأسلم معه قومه.

ثانيًا: كان رسول الله ﷺ يريد -أيضًا- تثبيت دعائم دولته سياسيًّا، فوثَّق علاقته كذلك بكبار رجال دولته، والذين كان يعلم بالوحي أنهم سيخلفونه في حكمه للمسلمين بدليل أنه جمعهم في أحاديث كثيرة، وحضَّ الناس على اتِّباع سنتهم: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ»[1]. فكان يرى ﷺ أن الزواج سيضيف بُعْدًا جديدًا لتوثيق العلاقة، ومن ثم يقرب هؤلاء الذين صاهروه من المسلمين أكثر؛ فتزوَّج ﷺ من عائشة بنت أبي بكر ﷺ الذي قال فيه رسول الله: «مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَيْنَاهُ، مَا خَلا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيهِ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

كما تزوَّج من حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ، فكان ذلك قرَّة عين لأبيها عمر على صدقه وإخلاصه، وتفانيه في سبيل هذا الدين.

وكذلك زَوَّجَ بناته من عثمان وعلي ﷺ، وهكذا وثَّق رسول الله صِلاته الاجتماعية عن طريق المصاهرة بأكرم طبقة من الصحابة وأعظمهم دورًا في خدمة الدعوة.

ثالثًا: كان لزواجه ﷺ دور كبير في نقل السُّنَّة؛ حيث كان لهُنَّ الفضل في نقل سُنَّتِهِ ﷺ في كل صغيرة وكبيرة من أمر حياته ﷺ، فهو القدوة والأسوة لكل المسلمين، كما أن السُّنَّة النبويَّة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وأُمَّهات المؤمنين مِنْ ألصق الناس وأقربهن لرسول الله ﷺ، فكُنَّ نَقَلَةً لكل قول أو فعل سمعْنَهُ أو رأيْنَهُ من رسول الله ﷺ؛ فوصل بذلك كثير من السُّنَّة لكافَّة المسلمين؛ وقد ذكر الرواة أن عدد الأحاديث التي

---

(١) أبو داود عن العرباض بن سارية: كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: هذا حديث صحيح. وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٨٤)، والدارمي (٩٥)، والحاكم (٣٢٩) وقال: هذا حديث صحيح ليس له علة... ووافقه الذهبي.

(٢) الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق (٣٦٦١) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٦٦١).

روتها نساء النبي ﷺ جاوزت ثلاثة آلاف حديث، وأن صاحبة السهم الأكبر في رواية الحديث هي السيدة عائشة رضي الله عنها فقد روت ألفًا ومائتين وعشرة أحاديث، ثم تأتي بعدها أمُّ سلمة رضي الله عنها التي روت ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثًا، وباقي زوجات النبي ﷺ تتراوح أحاديثهن ما بين حديث إلى ستة وسبعين حديثًا، وقد امتدَّ عمرهن فترة طويلة بعد وفاة رسول الله ﷺ(١).

رابعًا: ولم يأخذ الزواج وقتًا كبيرًا من حياته ﷺ، ولم ينشغل به عن أمور دولته، ولكم رأينا من ينشغل بزوجةٍ واحدة أو عشيقة عن أمور الدنيا والدين! ولكنه ﷺ لم يتأخَّر عن صلاة، ولم يتخلَّف عن جهاد، ولم يمتنع عن قضاء بين الناس، ولم يترك دعوة، ولا خطبة، ولا جنازة، ولا عيادة مريض.

خامسًا: نهاه الله ﷻ عن الزواج بعد نسائه الأُوَل، فقال تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا(٢)﴾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نُهِيَ رسول الله ﷺ أن يتزوَّج بعد نسائه الأُوَل شيئًا(٣).

سادسًا: أنه ﷺ لم يكن يتزوَّج باختياره، بل كان يُزوِّجه ربُّه ﷻ لحكمةٍ قد يبدو لنا منها طَرَف، وقد لا يبدو منها أطراف أخرى، والقضية عند المسلمين قضية إيمان بأنه رسول لا ينبغي له أن يعارض ربه.

سابعًا: طبيعة حياته ﷺ معهن، والتي كانت تتَّسم بالبساطة والفقر؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً(٤)﴾. وقد نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ من أجل أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ شيئًا من عَرَض الدنيا؛ إمَّا زيادة في النفقة، أو غير ذلك، فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهرًا - فيما ذُكر - ثم أمره الله أن يخيرهنَّ بين الصبر عليه، والرضا

---

(١) انظر في أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد، ابن حزم: جوامع السيرة ١/ ٢٧٥ وما بعدها.
(٢) (الأحزاب: ٥٢).
(٣) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٢٠/ ٢٩٧.
(٤) (الأحزاب: ٢٨).

بما قسم لهنَّ، والعمل بطاعة الله، وبين أن يمتِّعهنَّ ويفارقهنَّ إن لم يرضين بالذي يقسم لهن، وقيل: كان سبب ذلك غيرة كانت عائشة رضي الله عنها قد غارتها(١).

ثامنًا: أننا لو أمعنَّا النظر في سيرته ﷺ وخاصة في مرحلة ما قبل زواجه ﷺ لوجدنا أنه كان مثالاً في العفَّة والطهارة في شبابه، وأمَّا بعد زواجه فنجد أنه ﷺ لم يُعَدِّد زوجاته إلاَّ بعد أن تجاوز خمسين عامًا من عمره، فقد تزوَّج ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي امرأة في الأربعين من عمرها، وظلَّ معها وحدها قريبًا من خمس وعشرين سنة، لم يتزوَّج غيرها حتى ماتت.

وبعد موت زوجته الأولى تزوَّج من امرأة تقاربها في السنِّ هي سَوْدَة بنت زمعة رضي الله عنها، وهي التي هاجرت معه إلى المدينة، وصحيح أنه في السنوات العشر الأخيرة من حياته اجتمعت لديه نسوة أخريات! لكن علينا أن ننظر لماذا تزوجهنَّ ﷺ؟

وفي الجواب عن الشقِّ الثاني من الشبهة؛ وهو أنه ﷺ تزوَّج من عائشة رضي الله عنها وهي فتاة في التاسعة من عمرها، فنردُّ بالنقاط التالية:

أوَّلاً: إنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما خطبها الرسول ﷺ لم يكن هو أوَّل المتقدِّمين لخطبتها، بل سبقه لخطبتها جبير بن المطعِم بن عدي، وعلى هذا فالسيدة عائشة رضي الله عنها كانت في عمر الزواج وكانت تطيقه، ولا غرو إذن أن يخطبها النبي ﷺ.

ثانيًا: إنَّ هذا الزواج كان أصلاً باقتراح من السيدة خولة بنت حكيم رضي الله عنها على الرسول ﷺ وذلك لتوكيد الصلة مع أحبِّ الناس إليه، وهو أبوها أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وهو دليل ثانٍ على أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت في سنِّ الزواج.

ثالثًا: إنَّ قريشًا - التي كانت تتربَّص بالرسول ﷺ الدوائر لتأليب الناس عليه، والتي لم تترك مجالاً للطعن فيه إلاَّ سلكوه ولو كان زُورًا وافتراءً - لم تُدْهَش حين أُعلِنَ نبأ المصاهرة بين أعزِّ صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أيَّ أمر طبيعي.

رابعًا: أثبت التاريخ بعد ذلك أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت ناضجة تمام النضج؛

---

(١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٢٠/ ٢٥١.

حيث استوعبت سيرة الرسول ﷺ بذكاء، وكانت سريعة التعلم جدًّا، بل صارت من أكثر المسلمين والمسلمات علمًا، وكانت ردودها على رسول الله ﷺ واستفساراتها تدلُّ على كمال عقلها، وسعة إطلاعها، وقوة ذكائها، ولا يكون ذلك لطفلة ليس لها في أمور الزواج.

على أنه يجب الانتباه إلى فروق العصر وظروف الإقليم، وكيف أنَّ نضوج الفتاة في المناطق الحارَّة يكون مبكِّرًا جدًّا عنه في المناطق الباردة.

المبحث الثاني:
شبهة انتشار الإسلام بالعنف

انتشار الإسلام بالعنف من الشبهات التي يردِّدُها كثيرًا بعضُ المغرضين؛ حيث يدَّعُون أن الرسول ﷺ كان رجلاً عنيفًا يحبُّ إراقة الدماء، وأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن معتنقي الإسلام لم يدخلوا فيه طواعية ولا اختيارًا، وإنما دخلوا فيه بالقهر والإكراه.

والحقيقة أن جوهر الإسلام وخبر التاريخ يكذِّبان هذه الفرية، ويستأصلونها من جذورها، وقد شهد أبو سفيان زعيم قريش -وهو رجل حارب رسول الله ﷺ سنوات عديدة، ولم يؤمن إلاَّ بعد أكثر من عشرين سنة من الإعراض والصَّدِّ- شهد لرسول الله ﷺ بقوله: «لقد حاربتُك فنِعْمَ المحارب كُنتَ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت»[1].

وفي قاعدة أساسيَّة صريحة بالنسبة للحريَّة الدينيَّة يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ[2]﴾، فلم يأمر الرسول ﷺ -والمسلمون من بعده- أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا، كما لم يُلجئوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكْرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ٢٢٤٠.
(٢) (البقرة: ٢٥٦).

وقد جاء في سبب نزول الآية السابقة: أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصِّران قبل مبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما، وقال: لا أدعكما حتى تُسْلِمَا. فأبيا أن يُسلما؛ فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟! فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ الآية، فخلَّى سبيلهما[1].

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ[2]﴾، ولفت القرآنُ نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبيَّن له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام، فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[3]﴾، وقال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ[4]﴾، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ[5]﴾، ومن ذلك يتَّضح أن دستور المسلمين يرفض رفضًا قاطعًا إكراه أحد على اعتناق الإسلام[6].

وتطبيقًا لهذه الحقيقة فقد ثبت أن المسلمين أَسَرُوا في سرية من السرايا سيِّدَ بني حنيفة: ثمامة بن أُثال الحنفي، وهم لا يعرفونه، فأَتَوْا به إلى رسول الله ﷺ فأبقاه عنده ثلاثة أيَّام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضًا كريمًا، فيأبى ويقول: إن تسأل مالاً تُعطه، وإن تَقْتُل تَقْتُل ذا دمٍ، وإن تُنْعِم تُنْعِم على شاكر. فما كان من النبي ﷺ إلاَّ أن أطلق سراحه، فانطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد؛ فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أنْ لا إله إلا اللهُ، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، يا محمد: والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض

(١) انظر: الواحدي: أسباب نزول القرآن ص ٥٢، ٥٣، والسيوطي: لباب النزول ص ٣٧.
(٢) (الكهف: ٢٩).
(٣) (يونس: ٩٩).
(٤) (الغاشية: ٢٢).
(٥) (الشورى: ٤٨).
(٦) انظر: محمود حمدي زقزوق: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك ص ٣٣.

إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد كلها إليَّ، وإنَّ خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلمَّا قدم مكة قال له قائل: أصبوتَ؟! فقال: لا، ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا -والله- لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حِنْطَة حتى يأذن فيها رسول الله"[1].

فقد أسلم ثمامة دون ضغط أو إكراه، بل إن إسلامه وُلِدَ قويًّا إلى الدرجة التي دفعته إلى مقاطعة قريش من أجل أنها تحارب رسول الله ﷺ مُضحِّيًا بذلك بثروة هائلة كانت تأتيه من تجارته معها، ومُضحِّيًا كذلك بعَلاقات اجتماعيَّة مهمَّة مع أشراف قريش.

وعقلاً فإنَّ مَنْ أُكرِه على شيء لا يلبث أن يتحلَّل منه إذا وجد الفرصة سانحة لذلك، بل ويُصْبِح حربًا على هذا الذي أُكره عليه.. إلاَّ أنَّ التاريخ لم يُثبت مثل هذا؛ وإنما ثبت أن من كان يُسلم لم يتوانَ للحظة واحدة في الدفاع عن هذا الدين الذي أَسَرَ لُبَّه بكل ما يملك، وأقرب منه أن الإحصائيات الرسميَّة لَتَدُلُّ على أن عدد المسلمين في ازدياد، على الرغم من كل ما ينالهم من اضطهاد وما يتعرَّضون له من عوامل الإغراء!

ولو قمنا بإحصاء عدد الذين ماتوا في كل الحروب النبويَّة -سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء- ثم قمنا بتحليل لهذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، لوجدنا عجبًا! لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله ﷺ -وذلك على مدار عشر سنوات كاملة- ٢٦٢ شهيدًا تقريبًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه ﷺ حوالي ١٠٢٢ قتيلاً[2]، وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلاً فقط!

وحتى لا يتعلَّل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة؛ ولذا جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمتُ بإحصاء عدد الجنود المشتركين في المعارك، ثم قمتُ بحساب نسبة

---

(١) البخاري عن أبي هريرة: كتاب أبواب المساجد باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضًا في المسجد (٤٣٧٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المَنِّ عليه (١٧٦٤) والحنطة: القمح.

(٢) اعتمدتُ في حصر الأرقام على ما ورد أوَّلاً في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، ثم على روايات كتب السيرة بعد توثيقها، كسيرة ابن هشام، وعيون الأثر، وزاد المعاد، والسيرة النبوية لابن كثير، وتاريخ الطبري، وغيرهم.

القتلى بالنسبة إلى عدد المقاتلين، فوجدتُ ما أذهلني! أن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١٪ فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢٪! وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ٥ , ١٪ فقط!

إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة -بلغت خمسًا وعشرين أو سبعًا وعشرين غزوة، وثمان وثلاثين سريَّة[1]، أي أكثر من ثلاث وستِّين معركة- لَمِنْ أصدق الأدلَّة على عدم دمويَّة الحروب في عهده ﷺ .

ولكي تتَّضح الصورة بشكل أكبر وأظهر فقد قمتُ بإحصاء عدد القتلى في الحرب العالميَّة الثانية -كمثال لحروب (الحضارات) الحديثة- فوجدتُ أن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضاريَّة بلغت ٣٥١٪!!! فالأرقام لا تكذب؛ فقد شارك في الحرب العالمية الثانية ٠٠٠ , ٦٠٠ , ١٥ جندي (خمسة عشر مليونًا وستمائة ألف)، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٠٠٠ , ٨٠٠ , ٥٤ قتيل (أربعة وخمسين مليونًا وثمانمائة ألف)!! أي أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا -وبلا استثناء- كانت تقوم بحروب إبادة للمدنيين، وكانت تُسْقِطُ الآلاف من الأطنان من المتفجِّرات على المدن والقرى الآمنة؛ فتُبيد البشر، وتُفني النوع الإنساني، فضلاً عن تدمير البِنَى التحتيَّة، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب! لقد كانت كارثة إنسانيَّة بكل المقاييس!

وأيسر مِن أن نستقصي الحروب وأسبابها في صدر الإسلام لِنَعِيَ تلك الحقيقة، أن نُلْقِيَ نظرة عامَّة على خريطة العالم في الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل في انتشار هذا الدين؛ فإن البلاد التي قَلَّتْ فيها حروب الإسلام هي البلاد التي يُقِيم فيها اليوم أكثر مسلمي العالم، وهي بلاد إندونيسيا والهند والصين، وسواحل القارة الإفريقية، وما يليها من سهول الصحارى الواسعة؛ فإن عدد المسلمين فيها قريب من ثلاثمائة مليون، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلاَّ القليل الذي لا يُجْدِي في تحويل الآلاف عن دينهم بالملايين، ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التي اتَّجَهَتْ إليها غزوات

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٤٣٢، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ١/ ١٢٥، وابن حزم: جوامع السيرة ١/ ١٦.

المسلمين لأوَّل مرَّة في صدر الدعوة الإسلاميَّة، وهي بلاد العراق والشام، فإن عدد المسلمين فيها اليوم قلَّما يَزيد على عشرة ملايين، يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين وأشباه الوثنيين(١)!!

يقول المؤرِّخ الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) وهو يتحدَّث عن سرِّ انتشار الإسلام في عهده ﷺ وفي عصور الفتوحات من بعده: «قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفْرَض بالقوَّة، ولم ينتشر الإسلام -إذن- بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العربَ مؤخَّرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند -التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل- ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليونَ نفس فيها(٢)، ولم يكن الإسلام أقلَّ انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أيَّ جزء منها قطُّ...»(٣).

فالإسلام إذن إنما غزا القلوب وأسر النفوس.. وإن كان بإمكان السيف أن يفتح أرضًا.. فليس بإمكانه أن يفتح قلبًا!

***

---

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٦٩، ١٧٠.

(٢) كان هذا في وقت كتابة غوستاف لوبون كتابه، أمَّا في عام ٢٠٠٨م فبلغ المسلمون في الهند ٢٣٨ مليون نسمة.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٢٨، ١٢٩.

المبحث الثالث:
شبهة أن النبي ﷺ يقر العبودية

يُثير البعض شبهة أن النبي ﷺ يُرَغِّبُ في مِلْكِ اليمين، وقد أقرَّه ﷺ عندما سمح لجنوده باسترقاق مَنْ يُؤْسَرَ في الحرب.

والحقيقة التي لا جدال فيها أنَّ النبي ﷺ يُعْتَبَر المحرِّر الأوَّل للعبيد؛ وقبل الحديث عن جهده ﷺ في تحرير العبيد لا بُدَّ أن نعرف مدى ترسخ هذا الأمر في الجزيرة العربية وفي العالم قبل مبعثه ﷺ، لنعلم أنه لم يكن من الممكن أبدًا أن يصدر رسول الله ﷺ قانونًا مفاجئًا يمنع به شيئًا انتشر لهذه الدرجة ولعدة قرون.

ففي الجزيرة العربية: ما فَتِئَت الحرب تشتعل بين حين وآخر بين القبائل العربية بدافع العصبية والقَبَلِيَّة، ومما لا شَكَّ فيه أنّه كان لهذه الحروب المستمرَّة نتائج وَبِيلَة على الفريق المنهزم؛ وذلك لما يترتّب على الهزيمة من سبي النساء والذريَّة والرجال إن قُدِر عليهم، وقد يتم قتلهم، أو استرقاقهم وبيعهم عبيدًا، ولم يكن هناك ما يُسَمَّى بالمنِّ عليهم أو إطلاق سراحهم دون مقابل، وكانت الحروب تمثل أَحَدَ الروافد الأساسيَّة لتجارة العبيد التي كانت إحدى دعامات الاقتصاد في الجزيرة العربية.

أمَّا الدولة الرومانية فلم يكن العبيد فيها بأفضل حال لدرجة أن الفيلسوف أفلاطون نفسه صاحب فكرة المدينة الفاضلة كان يرى أنه يجب ألا يُعطَى العبيدُ حقَّ المواطنة، أما الدولة الفارسية فكان المجتمع مقسمًا إلى سبع طبقات أدناهم عامة الشعب، وهم أكثر من ٩٠٪ من مجموع سكان فارس، ومنهم العمال والفلاحين والجنود والعبيد، وهؤلاء ليس لهم حقوق بالمرة، لدرجة أنهم كانوا يربطون في المعارك بالسلاسل؛ كما فعلوا في موقعة الأُبُلَّة[1] أولى المواقع الإسلامية في فارس بقيادة خالد بن الوليد ﷺ.

---

(١) الأُبُلَّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة، وقد سار إليها خالد بن الوليد، والتقى بالفرس في موقعة تسمى ذات السلاسل وانتصر المسلمون وكان عددهم ١٨ ألف مجاهد على ستين ألف فارسي. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٣.

هكذا كانت مشكلة العبودية قبل الإسلام، وعندما جاء الرسول ﷺ برسالته الخاتمة وضع مبدأين مهمَّيْن لإلغاء العبوديَّة والرقِّ، هما: تضييق الروافد التي كانت تمدُّه وتُغَذِّيه وتضمن له البقاء، وتوسيع المنافذ التي تؤدِّي إلى العتق والتحرُّر.

وكانت سيرته ﷺ خير تطبيق لهذين المبدأين؛ حيث بدأ ﷺ حثَّ المجتمع الإسلامي الناشئ على تحرير العبيد واعدًا إيَّاهم بالجزاء العظيم في الآخرة، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ»[1].

كما حثَّ النبي ﷺ على عتق العبيد تكفيرًا عن أي ذنب يأتيه الإنسان؛ وذلك للعمل على تحرير أكبر عدد ممكن منهم، فالذنوب لا تنقطع، وكل ابن آدم خطَّاء، فيقول ﷺ: «أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتَا فَكَاكَهُ مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُمَا عُضْوًا مِنْهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتِ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فَكَاكَهَا مِنَ النَّارِ؛ يُجْزِئُ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهَا»[2]. وكان الرسول ﷺ القدوة في ذلك؛ حين أعتق مَنْ عنده من العبيد.

بل وكانت وصاياه الإنسانيَّة بالعبيد مِفتاحًا من مفاتيح تأهيل المجتمع لتقبُّل تحريرهم وعتقهم، فحضَّ أوَّلاً ﷺ على المعاملة الحسنة لهم، حتى لو كان ذلك في الألفاظ والتعبيرات، فتراه يقول ﷺ: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي. كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلاَمِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»[3]. بل وأوجب ﷺ إطعامهم وإلباسهم من نفس طعام ولباس أهل البيت، وألاَّ يُكَلَّفوا ما لا يطيقون، فيَرْوِي جابرُ بن عبد الله ﷺ فيقول: كان النبي ﷺ يوصي بالمملوكين خيرًا، ويقول: «... أَطْعِمُوهُمْ

---

(١) البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]... (٢٥١٧)، ومسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩).

(٢) مسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق (١٥٠٩)، والترمذي عن أبي أمامة (١٥٤٧) واللفظ له، وابن ماجه (٢٥٢٢).

(٣) البخاري عن أبي هريرة: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي وأَمَتي (٢٥٥٢)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأَمَة (٢٢٤٩).



مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِنْ لَبُوسِكُمْ، وَلا تُعَذِّبُوا خَلْقَ الله ﷻ...»[(١)]. وغير ذلك من الحقوق التي جَعَلَتْ من العبد كائنًا إنسانيًّا له كرامة لا يجوز الاعتداء عليها.

ثم ترتقي وصاياه لتنقل المجتمع إلى مرحلة التحرُّر الواقعي، فجعل ﷺ عقوبة تعذيبهم وضربهم العتق والتحرُّر، فيُرْوَى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان قد ضرب غلامًا له، فدعاه فرأى بظهره أثرًا، فقال له: أوجعتُك؟ قال: لا. قال: فأنت عتيق. قال: ثمَّ أخذ شيئًا من الأرض، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا، إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ضَرَبَ غُلامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ؛ فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»[(٢)].

وجعل ﷺ أيضًا التلفُّظ بالعتق من العبارات التي لا تحتمل إلاَّ التنفيذ الفوري، فقال ﷺ: «ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: الطَّلاقُ وَالنِّكَاحُ وَالْعِتَاقُ»[(٣)].

كما جعله الشرعُ وسيلة من وسائل التكفير عن الخطايا والآثام، مثل وجوب العتق بسبب القتل الخطأ، وكذلك الحنث في اليمين، والظِّهَار، والإفطار في رمضان عمدًا، وغير ذلك، ثم جاءت سيرته خير تطبيق لهدي الشرع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: هلكتُ يا رسول الله. قال: «وَمَا أَهْلَكَكَ؟». قال: وقعتُ على امرأتي في رمضان. قال: «هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً؟». قال: لا. قال: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟». قال: لا. قال: «فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟». قال: لا. قال: ثمَّ جلس، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ[(٤)] فِيهِ تَمْرٌ. فقال: «تَصَدَّقْ بِهَذَا». قَالَ: أَفْقَرَ مِنَّا؟! فَمَا بَيْنَ لابَتَيْهَا[(٥)] أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنَّا.

---

(١) مسلم: كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل... (١٦٦١)، وأحمد (٢١٥٢١)، والبخاري: الأدب المفرد ١/ ٧٦ واللفظ له.

(٢) مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (١٦٥٧)، وأحمد (٥٠٥١).

(٣) مسند الحارث (٥٠٣)، رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب موقوفًا ٧/ ٣٤١، وذكر ابن الملقن أنه بهذا اللفظ غريب، ابن الملقن: خلاصة البدر المنير ٢/ ٢٢٠، وقال ابن حجر العسقلاني: باللفظ المذكور... وهو رواية عبد الرحمن بن حبيب بن أردك وهو مختلف فيه، قال النسائي: منكر الحديث، ووثقه غيره، فهو على هذا حسن. انظر: التلخيص الحبير ٣/ ٢٠٩، ٢١٠.

(٤) العَرَق: المكتل والجراب والوعاء المنسوج من الخوص، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرق ١٠/ ٢٤٠.

(٥) لابتيها: أي المدينة، ويعني حرَّتَيْها من جانبيها وهي الأرض التي قد ألبستها حجارةٌ سود، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لوب ١/ ٧٤٥.

فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[1].

بل وأكثر من ذلك؛ حيث جعل عتقهم من مصارف الزكاة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾[2]، ولننظر ماذا فعل ﷺ مع سلمان الفارسي ﷺ؛ لندرك عظمة تطبيقه لهذا المبدأ الإسلامي، فها هو ذا سلمان الفارسي ﷺ يُعْلِنُ إسلامه أمام النبي ﷺ، فيقول له ﷺ: «.. اذْهَبْ فَاشْتَرِ نَفْسَكَ».

فيقول سلمان الفارسي ﷺ: فَانْطَلَقْتُ إلى سيِّدي، فقلتُ: بِعْنِي نَفْسِي؟ قال: نعم، على أن تُنْبِتَ لي مائةَ نخلةٍ، فإذا أنبَتَتْ جئني بوزن نواةٍ من ذَهَبٍ.

فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ، فأخبرتُه، فقال لي رسول الله ﷺ: «اشْتَرِ نَفْسَكَ بِالَّذِي سَأَلَكَ، وَائْتِنِي بِدَلْوٍ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ الَّذِي كُنْتَ تَسْقِي مِنْهَا ذَلِكَ النَّخْلَ».

قال: فدعا لي رسول الله ﷺ فيها، ثُمَّ سَقَيْتُهَا، فَوَاللهِ لَقَدْ غَرَسْتُ مِائَةَ نَخْلَةٍ، فَمَا غادَرَتْ مِنْهَا نَخْلَةٌ إِلاَّ نَبَتَتْ، فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ، فأخبرتُه أَنَّ النَّخل قَدْ نَبَتْنَ، فَأَعْطَانِي قِطْعَةً مِنْ ذَهَبٍ، فَانْطَلَقْتُ بِهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوَضَعَ فِي الْجَانِبِ الآخَرِ نَوَاةً، فَوَاللهِ مَا اسْتَقَلَّتِ قِطْعَةُ الذَّهَبِ مِنَ الأَرْضِ، قال: وجئت رسول الله ﷺ فَأَعْتَقَنِي[3].

ومكَّن الإسلامُ العبيد من استعادة حُرِّيَّتهم بالمكاتبة، وهي أن يُمْنَح العبدُ حُرِّيَّته مقابل مبلغ من المال يتَّفق عليه مع سيِّده، وأوجب أيضًا إعانته؛ لأن الأصل هو الحرِّيَّة، أمَّا العبوديَّة فطارئة، فكان الرسول ﷺ القدوة في ذلك؛ حيث أدَّى عن جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها ما كُوتبت عليه وتزوَّجها، فلمَّا سمع المسلمون بزواجه منها أعتقوا ما بأيديهم من السبي، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ.

---

(١) البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب من أعان المعسر في الكفارة (١٩٣٦)، (٢٦٠٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان... (١١١١) واللفظ له.

(٢) (التوبة: ٦٠).

(٣) الحاكم: (٦٥٤٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد والمعاني قريبة من الإسناد الأول. والطبراني: المعجم الكبير (٦٠٧٣) واللفظ له، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الله بن عبد القدوس التميمي ضعفه أحمد والجمهور ووثقه ابن حبان وقال: ربما أغرب، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩/ ٣١٦.

فأُعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[١].

ورغَّب النبي ﷺ في عِتق الأَمَةِ وتزوُّجها، فيُروى عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ...»[٢]. لذلك نجده ﷺ يعتق السيدة صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب ﵂، ويجعل عتقها صداقها[٣].

أمَّا الاسترقاق عن طريق الحرب التي يثيرها أعداء الإسلام فقد ضيَّق النبي ﷺ مدخل الاسترقاق عن طريق الحرب فوضع نظامًا للأسرى لم يُعرف من قبل إلاَّ في الإسلام؛ فاشترط لاعتبار الأسرى أرقَّاء أن يَضْرِب الإمامُ عليهم الرقَّ، وقبل أن يضرب الإمام عليهم الرقَّ يمكن أن تتمَّ نحوهم التصرُّفات التالية: تبادل الأسرى؛ وذلك بِرَدِّ عدد من الأسرى مقابل عدد من أسرى المسلمين، أو قَبُول الفداء؛ وذلك بإطلاقهم نظير مقابل ماديٍّ أو أدبي كما فعل ﷺ في أسرى (بدر)؛ فأطلق بعضهم مقابل مال، وجعل إطلاق بعضهم نظير تعليمهم لبعض المسلمين القراءة والكتابة.

رغم أن الاسترقاق في الحرب كان عرفًا عامًا في كل الحروب، فكان الأعداء يسترقون المسلمين إذا وقعوا في أسرهم، لقد حدث ذلك مثلاً مع زيد بن الدثنة وكذلك مع خبيب بن عدي ﷺ[٤]، ولو لم يقابل الإسلام أعدائه بمثل ما يفعلوه لاجترءوا عليه، ومع ذلك فالإسلام يقبل أن تتفق كل الأطراف المتصارعة على عدم الاسترقاق، فلا تفعله في نظير ألا يفعلوهم كذلك.

وهكذا كان الإسلام في قضية تحرير العبيد حكيمًا ومتوازنًا في تشريعه، فبقدر ما ضيَّق منافذ الاسترقاق بقدر ما وسَّع منافذ التحرير بأسلوب متدرِّج يناسب الواقع الذي ظهر فيه الإسلام.

---

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ١١/ ٢١٠، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٠٣.

(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري... (٥٠٨٣).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥).

(٤) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٦٣.

المبحث الرابع:

شبهة نَقْل النبي ﷺ القرآن عن اليهود والنصارى

يُثير البعض شبهةَ أن النبي ﷺ لم يُوحَ له بشيء، وإنما أخذ هذا القرآن عن اليهود والنصارى، وإن ما يستدلُّون به على هذا الكلام ليس إلا مجرَّد افتراضات لا تستند إلى أي شيء مما يرقى إلى مستوى الدليل، وأشهر هذه الأقوال تتلخَّص في لقائه ﷺ - حين كان غلامًا- بالراهب سرجيوس أو جرجيس أو بحيرا[1] -على اختلاف المصادر في الاسم- والقول الثاني يُثير احتمال أخذه العلم عن ورقة بن نوفل، إلى جانب العديد من الأقوال الأخرى الأضعف من هذا، والتي تقول بأن انتشار اليهود في بعض مناطق الجزيرة العربية، ووجود كثير من الموالي الأحباش الذين ترجع أصولهم إلى أرض الحبشة النصرانية في ذلك الوقت، وخروج النبي ﷺ في تجارته حين كان شابًّا يسافر بتجارة خديجة رضي الله عنها إلى بلاد الشام، وقد كانت أرضًا نصرانية -أيضًا- ولقد بذل إميل درمنجم في كتابه (حياة محمد) جهدًا عظيمًا في التقاط كل احتمال وكل تفصيلة تُشير إلى وجود يهود ونصارى في مكة، بل وتثير الغبار حول ضرورة التقاء محمد ﷺ وتأثُّره بهم، ومثله ما فعله مونتجمري وات في كتابه (محمد في مكة)[2].

والواقع أن هذه الشبهة مليئة بالثغرات، التي نرى أنه لا يجوز لصاحب العقل أن

---

(١) اسم الراهب «بحيرا» لم يَردْ إلا في روايتين ضعيفتين من الروايات التي نَقَلَت الواقعة في كتب السنة والسيرة؛ الرواية الأولى فيها محمد بن عمر الواقدي وهو متروك عند أهل الحديث، والثانية من رواية محمد بن إسحاق وقد رواها بلا إسناد فلا يُعتد بها، أما الروايات الصحيحة وما في حكمها فلم تُشِرْ لاسم الراهب. انظر: الألباني: مقال بعنوان «حادثة الراهب المسمى «بحيرا» حقيقة لا خرافة»، مجلة التمدن الإسلامي (المجلد ٢٥، صفحة ١٦٧-١٧٥).

(٢) من الإنصاف هنا أن نذكر أن بعض المستشرقين كان همه أن يجد سبيلاً للتعايش والتعاون والحب بين الإسلام والمسيحية، ومن هؤلاء إميل درمنجم ومونتجمري وات، فكتبهما تُعَدُّ من أفضل الكتب التي حاولت إزالة الصورة السلبية عن المسلمين في الأذهان الغربية، غير أنهما وقعا في أخطاء حينما حاولا تقريب كل شيء، وتبسيط كل شيء، والتهوين من شأن كل الخلافات؛ مثل القول بأن الإسلام تطوَّرَ عن المسيحية، وهو مقتبس منها بالأساس، فهو بالتالي ليس الدين العدو، وليس الدين الشيطاني، وأن محمدًا كان يرى المسيح أخًا له، والمسلمون يؤمنون به كنبي مثل محمد ﷺ، ويُوقِّرونه وأمه... إلخ.

يقبلها؛ لكثير من الأسباب منها:

أولاً: أن سيرة النبي ﷺ وتاريخ حياته معروف أكثر من أي شخصية أخرى في الزمن القديم، وأن أخباره تَعَرَّضت لتدقيق وتوثيق كبيرين؛ جعل من الميسور على أي أحد أن يعرف مدى صحة أو ضعف الاحتمال القائل بوقوع الرواية، وإذا كان الحال هكذا فلا يصحُّ ترك الأخبار الصحيحة؛ بل والضعيفة، والجري وراء افتراضات، وهي مجرد افتراضات تقول بأن وجود بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب واحتمال التقاء النبي ببعضهم في رحلة تجارية إلى الشام، قد يكون الطريق الذي وصلت به تعاليم اليهودية والنصرانية إليه.

ثانيًا: الصحيح الثابت من سيرته ﷺ أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب منذ وُلِدَ وحتى توفي، وهي من ضرورات التعلُّم والأخذ، لا سيما إذا كان هذا في تعاليم دينية، ومن ضرورات التعلُّم والأخذ -أيضًا- أن يتردَّد الطالب على المعلم، ولا نرى في سيرة النبي ﷺ أخبارًا صحيحة ولا حتى ضعيفة تُفيد بأنه كان يتردَّد على أي مكان، ولا على أي شخص على وجه العادة، خاصة وأنه لم ينفرد في رحلته التجارية الأولى عن عمه، ولم ينفرد كذلك عن ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها الذي ذهب معه إلى بُصرى، ولقد كان ميسرة كرقيب عليه؛ لأنه يعمل في مال سيدته خديجة رضي الله عنها، وإن غاية ما يمكن أن يُحَصِّله أحد في مثل هذه الرحلات هو -كما قالت كارين أرمسترونج[1]- «معرفة بالغة الضآلة»[2].

ثالثًا: الرحلة التي قام بها ﷺ حين كان غلامًا مع عمه، فقابل فيها الراهب النسطوري، لم يكن عمره يتجاوز اثني عشر عامًا، فكيف لغلام في هذه السنِّ، ومع اختلاف اللغة -فإنه ﷺ لم يتكلم بغير العربية وقد كان الراهب نسطوريًّا سريانيًّا- وفي هذا اللقاء الوحيد أن يأخذ عنه شيئًا؟! ثم ما تفسير بقائه كل هذه السنين لم يتغير له حال حتى يجهر بها بعد ثمانية وعشرين عامًا -أكثر من ربع قرن- ويتحمل في سبيلها كل ذلك العذاب؟

(١) كارين أرمسترونج: (١٤ نوفمبر ١٩٤٤م -...) بريطانية، باحثة شهيرة في مقارنة الأديان.
(٢) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص١٥١.

يقول المفكر الإنجليزي الكبير توماس كارليل: «وإني لستُ أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمدًا -ﷺ- سكنا معه في الدار، ولا ماذا عساه أن يَتَعَلَّمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما؛ فإن محمدًا -ﷺ- لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر، ولم يكن يعرف إلا لغته، ولا شكَّ أن كثيرًا من أحوال الشام ومشاهدها لم يكُ في نظره إلا خليطًا مشوَّشًا من أشياء يُنكرها ولا يفهمها»[(١)].

رابعًا: ثم ما تفسير أن يكون الكلام المنطوق بهذا القدر من البلاغة والفصاحة التي يتحدى بها العرب وهم المبرَّزُون فيها؟ هذا والراهب لا يعرف العربية أصلاً؟ ومع ذلك فقد شهد لبلاغة القرآن حتى مَنْ لا يتقن العربية ولا يحبُّ الإسلام؛ فمثلاً يذكر توماس أرنولد: «ونجد بين المسيحيين مثل ألفار (Alvar) -الذي عُرِفَ بتعصُّبِه ضد الإسلام- يُقَرِّر أن القرآن قد صِيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل؛ حتى إن المسيحيين لا يسعهم إلا قراءته والإعجاب به»[(٢)]. ومن هنا جاءت الآية التي تَرُدُّ على أمثال القائلين بهذه الشبهة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ[(٣)]﴾.

خامسًا: لم يطرح أحد من المشركين في سياق مواجهة النبي ﷺ مثل هذه الأمور، وهي لو كانت ذات قيمة وقدر، أو لو كان ثمة شبهة في التقائه بأحد أهل العلم بالكتاب، أو أمثالها من تصرفات قد تُثير الشبهة لذكروها وهاجموه بها، والواقع أنهم لم يفعلوا، إلاَّ مرَّة يتيمة -وهم في مرحلة التخبط ومحاولة إيجاد أي تهمة- طُرِحَت هذه الفكرة طرحًا خجولاً فقالها بعضهم وغلب عليها التجهيل بالشخص الذي يقوم بدور المعلم، ثم إن المادة كانت في رأيهم أكاذيب وأساطير، فلم يكن ثمة احتمال لأن يكون المعلم من أهل الكتاب العلماء، أو أن يكون ما يقوله هو ما لدى أهل الكتاب من علم؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

(١) توماس كارليل: الأبطال ص٦١، ٦٢.
(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص١٦٢.
(٣) (النحل: ١٠٣).

كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ[1]﴾، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا[2]﴾، بل إنهم لجئوا إلى أهل الكتاب؛ لكي يُقَيِّموا لهم هذا الذي أتى به محمد ﷺ.

سادسًا: لم يزعم أحد أن النبي ﷺ قد أخذ منه شيئًا، لا بحيرا ولا غيره من أهل الكتاب المنتشرين في الجزيرة العربية، بل لقد عمل أهل الكتاب على إحراجه ونصرة قومه المشركين عليه؛ فيستغلون ما عُرِفَ عنهم من العلم بالكتاب ثم يقولون: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً[3]﴾، وأحيانًا كان يلجأ إليهم المشركون فيعطونهم أسئلة لا يعرفها إلا نبيٌّ، مثلما ذهب النضر بن حارث وعقبة بن أبي معيط إلى يهود المدينة، فقصَّا عليهم نبأ محمد ﷺ، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؛ فإن أخبركم بهنَّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول -أي: أهل الكهف- ما كان من أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها -أي: ذي القرنين- ما كان نبؤه، وسلوه عن الرُّوح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك -أي: بحقيقة الأَوَّلَيْنِ وبعارض من عوارض الثالث وهو كونها من أمر الله- فاتبعوه فإنه نبي[4].

بل إن يهود المدينة كانوا على قناعة بأنه ﷺ لا يعرف كتبهم، فلقد حدث -بعد ذلك وهو في المدينة- أن سألوه: كيف يزعم أنه على دين إبراهيم ويأكل لحوم الإبل وألبانها؛ وهي محرمة في دين إبراهيم؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[5]﴾.

وحاولوا مرَّة أخرى أن يُنقذوا اثنين منهما زنيا من عقوبة الرجم، فأتوا بهما إلى النبي ﷺ فقال لهم: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فقالوا: نفضحهم ويُجْلَدُون. قال عبد

(١) (الفرقان: ٤).
(٢) (الفرقان: ٥).
(٣) (النساء: ٥١).
(٤) السيرة الحلبية ١/ ٤٩٩، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٤٨٣، ٤٨٤.
(٥) (آل عمران: ٩٣).



الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم. فأَتَوْا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صَدَقَ يا محمدُ فيها آية الرجم»[١].

فأهل الكتاب أنفسهم لم يقولوا بهذا الاحتمال، ولم يتوقَّعُوا أن يكون قد عَرَفَ ما في كتبهم.

سابعًا: أليس يبدو زعمًا سخيفًا وسَاذَجًا وجود رجل عالم متبحِّرٍ قادر على ابتكار مثل هذه التعاليم الرائعة والسابقة لعصرها، ثم يكون على هذا القدر من الخفاء والزهد في الدنيا مع الحرص على توصيل ما عنده للناس، ولو عبر رجل عربي، ثم يستمرُّ هذا الأخذ زمنًا - فلا شَكَّ أنه لم يكن لقاءً عابرًا هذا الذي أنتج كل هذه النصوص القرآنية والنبوية- مع حرصهما على الإخفاء فينجحان!

ثم أليس الأغرب أن يُوجد رجل يتمتَّع بكل هذه القدرات والمواهب الإدارية والقيادية، وهو في الذروة من شرف النسب والحب والتقدير، ثم يَدَّعِي النبوة فتُحصى عليه حركاته وسكناته ويُتربص به، ثم يستطيع أن يُواصل الأخذ والتلقِّي؟ ثم بعدئذٍ لا يعترف بالفضل فلا يُرجع الأمر إلى أهله؟

ثامنًا: لقد كان القرآن ينزل مفرقًا منجَّمًا بحسب الحوادث الجارية، وقد استمرَّ نزوله عبر ثلاثة وعشرين عامًا، ثم جُمِعَ بعد وفاة النبي ﷺ في كتاب واحد؛ أي: إن القرآن لم يكن كتابًا خرج بعد فترة من التأليف، بل كان واقعًا حيًّا، وآياتٍ تزداد في كل يوم، وهذا في حدِّ ذاته ينفي مسألة التلقِّي من أحد.

تاسعًا: ما ثبت عنه بطرق عديدة صحيحة من أن الوحي كان أحيانًا يأتيه ﷺ «مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ؛ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ»[٢]. حتى إن السيدة

---

(١) البخاري: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام (٦٨٤١) عن عبد الله بن عمر، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٦٩٩).

(٢) البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢) عن عائشة أم المؤمنين، ومسلم: كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

عائشة رضي الله عنها تروى أنها كانت تراه في اليوم شديد البرد وجبينه يتفصَّد عرقًا[(١)]، وهذه حالات لا يمكن اصطناعها أو تمثيلها؛ وهي حالات دعت كثيرًا من المتحاملين أن يقولوا بأنه ﷺ مصاب بالصرع أو بغيره من الأمراض، ويكفي في هذا أن نذكر لهم قول رونالد بودلي[(٢)] الذي قال: «وسواء أكان صَرَعًا أم ملاريا أم غيبوبة روحية، فلن يُؤَثِّر ذلك في الأمر شيئًا على الرغم من كل ما قيل في هذا الموضوع، فما كان الصَّرَع ليجعل من أحدٍ نبيًّا أو مُشَرِّعًا، وما رَفَع الصرعُ أحدًا إلى مراكز التقدير والسلطان يومًا، وكان مَنْ تنتابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يُعْتَبَر مجنونًا أو به مسٌّ من الجنِّ، ولو كان هناك مَنْ يُوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد ﷺ»[(٣)].

عاشرًا : لقد أدان القرآن الكريم بوضوح ما فعله أهل الكتاب من قسوة قلوبهم، وتحريفهم لكتبهم، وعدم اتباعهم للنبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ونفى عقائد محورية فيما انتهت إليه الديانتان اليهودية والنصرانية؛ مثل القول ببنوة عزير والمسيح لله -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- ومثل عقيدة الصلب عند النصارى، ومثل عقيدة التفوق على البشر عند اليهود، وكثير من الاختلافات الأساسية الأخرى، فهنا افتراق واضح ودليل على تجاوز ما انتهت إليه الديانات من قناعات وعقائد وأفكار.

ثم إن القرآن الكريم نفسه يدعو للاقتراب من أهل الكتاب واعتبارهم أقرب إلى المؤمنين من المشركين والكفار، وأحلَّ الزواج منهم وأَكْل ذبائحهم، واعترف بنبوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان واليسع وموسى وعيسى، وتحدَّث عنهم بكل إجلال، كما تحدث عن معجزة المسيح وعن براءة أمه العذراء البتول، فهنا التقاء كبير

(١) البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي (٩٣٤)، وأحمد (٢٦٢٤١).

(٢) رونالد فيكتور بودلي: رائد التحق بالجيش البريطاني عام (١٩٠٨م)، عمل بالعراق والأردن، ثم مستشارًا لسلطنة مسقط، كان أول من عَبَر الربع الخالي، وعندما ترك الخدمة الحكومية ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، وكتب كثيرًا عن الصحراء وعن الشرق، وأشهر كتبه: (الرسول.. حياة محمد = The messenger; the life of Mohammed).

(٣) ر. ف. بودلي: الرسول.. حياة محمد ص٥٨، ٥٩.

ودعوة للتقارب؛ إنَّ هذا ليس سلوك ناقل أو متبع لشيء كان موجودًا أو تم تلقينه له، ولكنها مواقف واعية وواضحة وصلبة، ومتجاوزة للزمان والمكان، وفي هذا السياق نذكر قول المفكر الإنجليزي لايتنر[1]: «بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول بأن ما عَلِمَه محمد ﷺ ليس اقتباسًا؛ بل قد أُوحِيَ إليه به»[2].

حادي عشر: ما أثبته الدكتور موريس بوكاي -وهو الفرنسي غير العربي الذي لم يكن مسلمًا ولم يحاول أن يكون- حين درس معارف العلم الحديث في ضوء المعطيات التي تُقَدِّمُها الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، ففوجئ بأن الرواية القرآنية هي الوحيدة التي لا تذكر أي شيء يتعارض مع المعارف العلمية الحديثة، بعد ألف وأربعمائة عام من نزوله، بشكل لا يمكن أن يكون من عمل البشر، فحتى إذا كان محمد ﷺ قد اطلع على هذه الكتب السابقة، فإنه لا مجال للقول بأنه قادر في هذا الزمن على إجراء هذه العملية الانتقائية للمعلومات، وإبقاء الصحيح منها ورفض المغلوط[3].

* * *

(١) لايتنر: باحث إنجليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام (١٨٥٤م)، كما طوَّف بعددٍ من البلاد الإسلامية، والتَقى برجالاتها وعلمائها.

(٢) لايتنر: دين الإسلام، ص٤، ٥.

(٣) انظر: كتاب الدكتور موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة في ضوء المعارف الحديثة.

المبحث الخامس:
تعرض النبي ﷺ لقافلة تجارية في غزوة بدر

ومن الشبهات المثارة حول النبي ﷺ ما قيل بأنه كان يتعرَّض للقوافل التجارية، وهو عمل لا يختلف عن أعمال اللصوصية وقطع الطريق -حاشا لرسولنا الكريم ما يقولون- ويذكرون في هذا خروجه إلى قافلة قريش في الموقعة المشهورة التي انتهت إلى غزوة بدر الكبرى.

والواقع أن القائلين بهذا لا يعرفون أن حالة الحرب كانت قائمة بالفعل بين المدينة ومكة، وأن المواجهات بدأت منذ أن وُلِدَت الدولة الإسلامية، ولقد كان من المنطقي والمتوقَّع أن لا تسكت قريش على قيام كيان للإسلام في المدينة، وهم الذين لم يَدَّخِرُوا جهدًا في منع النبي ﷺ من الوصول إليها حتى اللحظات الأخيرة بإعلانهم جائزة لمن يقتله وهو في الطريق.

ولقد أظهر أبو جهل هذه العداوة التي نشأت بين الطرفين؛ وذلك عندما ذهب سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى مكة ليعتمر، وكان هو وأمية بن خلف صديقين، سعد ينزل عند أمية إذا ذهب إلى مكة، كما ينزل أمية عند سعد إذا ذهب إلى المدينة، فلمَّا قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق (سعد) معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلِّي أن أطوف بالبيت. فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان مَنْ هذا معك؟ فقال: هذا سعد. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد آويتم الصُّبَاة[1] وزعمتم أنكم تنصرونهم وتُعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا. فقال له (سعد) ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة[2]. فهذا إعلان صريح لحالة الحرب،

(١) الصباة جمع صابئ: أي الخارج عن دينه، يقصد المسلمين. ابن منظور: لسان العرب، مادة صبأ ١/١٠٧.
(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر (٣٩٥٠) عن سعد بن معاذ، وأحمد (٣٧٩٤).



ولم ينجُ سعد إلا لأنه نازلٌ في أمان أحد سادات قريش.

ولكن حتى إذا افترضنا أن هذه الواقعة لم تحدث، فإنه مما لا شكَّ فيه أن كيانًا يقوم بالرغم من مكة وهي قلب بلاد العرب وأوسعها نفوذًا، وهو يقوم إلى جوارها في المدينة الذي تمرُّ عليها قوافلها إلى الشام، فلقد أصبح كل طرف يُمَثِّل خطرًا على الطرف الآخر، فلا بُدَّ لمكة أن تستردَّ هيبتها وتُؤَمِّن طريقها، وتمنع انتشار هذه الدعوة التي تهزمها منذ بدأت في أرضها وحتى خرجت عن سيطرتها الآن في أرض جديدة، ولا بُدَّ لدولة المدينة أن تُدَافِع عن وجودها في مراحل بنائها الأولى.

ولكن هذه الواقعة تُشير إلى حدث مهم بالنسبة لسياقنا الآن، وذلك هو أن الدولة الإسلامية بالمدينة لم تكن تتعرَّض لقوافل مكة حتى هذه اللحظة برغم إمكانية ذلك، ولهذا هدَّد سعدٌ أبا جهل بأن يستعمل هذه الورقة فيمنعه طريقَ التجارة إلى الشام؛ أي: إن البداية في إعلان حالة الحرب هذه كانت من طرف قريش وفي مكة.

ولقد جاءت واقعة أخرى فيها إعلان حرب صريح من قِبَلِ قريش، وكاد أن يتسبَّب في أول فتنة داخلية بالمدينة؛ فقد أرسلت قريش إلى ابن أُبَيٍّ ومَنْ كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة- تقول:

«إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نُقسم بالله لتقاتلُنَّه، أو لتخرجُنَّه، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم».

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبَيٍّ ومَنْ كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلمَّا بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «**لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمُ المَبَالِغَ**[1] **مَا كَانَتْ**[2] **تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ؛ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ**». فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تَفَرَّقُوا... ثم عاودت قريش مثل ذلك مع اليهود[3].

---

(١) المبالغ: جمع مبلغ هو حد الشيء ونهايته والمبالغ أي الغايات. العظيم آبادي: عون المعبود ٨/ ١٦٣.

(٢) ما كانت؛ أي: قريش. وما نافية. السابق الصفحة نفسها.

(٣) أبو داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في خبر النضير (٣٠٠٤)، وقال الألباني: صحيح الإسناد. انظر: صحيح أبي داود (٢٥٩٥).

إذًا فكما تقول كارين أرمسترونج: «وصل محمد -ﷺ- إلى المدينة كلاجئ نجا من الموت بأعجوبة، واستمرَّ ذلك الخطر على حياته لخمس سنوات قادمة، واجهت فيها الأمة احتمال الإبادة، وفي الغرب غالبًا ما نتخيَّل محمدًا قائد حرب ماضيًا يلوح بسيفه، ليفرض الإسلام على مجتمع كارهٍ له بقوة السلاح، أمَّا الحقيقة فكانت جدُّ مختلفة؛ فقد كان محمد -ﷺ- والمسلمون الأوائل يُكَافِحون في سبيل الإبقاء على حياتهم»(١).

إذًا فما كان من الطبيعي أن يقف النبي ﷺ مكتوف الأيدي أمام هذه التحديات، فكان أن سَيَّر سرايا استكشافية في المنطقة المحيطة بالمدينة، كما تمت غزوات صغيرة لم يحدث فيها قتال إلا نادرًا، ولكن تمَّ عقد معاهدات مع قبائل المناطق، فمن أهم هذه الغزوات غزوة الأبواء، ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل تمت موادعة بني ضمرة، وسرية عبيدة بن الحارث، ووقعت فيها مناوشات صغيرة مع المشركين، وكانوا بقيادة أبي سفيان بن حرب، وسرية حمزة بن عبد المطلب كادت تقاتل سرية عليها أبو جهل، لولا أن تدخَّل الزعيم المحايد مجدي بن عمرو الجهني.

ومع هذه التطورات بدأت قريش تعي أن الأمر ليس سهلاً، وأن محمدًا ﷺ لن يسكت على كل ما سبق من تهديدات، فحينها فقط تتغير الحسابات، ونجد أبا جهل يقول: «يا معشر قريش؛ إن محمدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا، فاحذروا أن تمرُّوا طريقه وأن تقاربوه؛ فإنه كالأسد الضاري، إنه حنق عليكم»(٢).

أليس من المثير للدهشة أن يُنسى كل هذا التاريخ، الذي يُثْبِتُ وجود العداوة وابتداء قريش بها وانتباهها لوجود الخطر على الطريق إلى الشام، ثم يتحدَّث البعض وكأن تاريخ الحرب بدأ فقط حين خرج النبي ﷺ يعترض عيرًا لقريش؟ ثم تصاغ الاتهامات بحيث يشعر القارئ غير المطلع بأن الجزيرة العربية كانت سلامًا وأمانًا وأن قريشًا وكأنها فوجئت بأن عيرًا لها تتعرَّض للخطر؟

---

(١) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص٢٥٢.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٣٣)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١٢٣.

إن كل ما جرى من وقائع يقول: إن حالة الحرب كانت قائمة، وإن استعداد الطرفين لها كان موجودًا، ولقد استطاع أبو سفيان في ظلِّ هذه الأجواء أن يعرف ويرصد حركة المسلمين؛ فيبعث نذيرًا لقريش ثم يسلك طريقًا آخر، كما استطاعت قريش أن تتجهَّز على عجل وتنطلق إلى بدر، وكل هذا في وقت بسيط لم يُدرك المسلمون فيه أن يرجعوا إلى المدينة، أو أن يستدعوا مددًا، بل خرجوا إلى العير فإذا أمامهم النفير، فكل هذا دليل على أن قريشًا كانت تعيش حالة الحرب، وأن المفاجأة لم تأخذها حين وصلها نذير أبي سفيان.

وإضافة إلى ما سبق ينبغي أن يتذكَّر القارئ أن أموال المسلمين وديارهم في مكة كانت منهوبة بالفعل، وأن بدرًا كانت المحاولة الأولى لاسترداد شيء مما سُلب منهم.

لقد خرج المسلمون من ديارهم مهاجرين إلى مكة، وخرجوا خفية، فما استطاعوا أن يحملوا معهم أموالهم، ولا أن يبيعوا ما يملكون من أرض أو ديار أو غير ذلك، وكل هذه الأملاك التي تُرِكَتْ نهبتها قريش واستعملتها.

وقد تولى الزعيم المكي أبو سفيان بن حرب -وهو نفسه زعيم العير التي خرج لها المسلمون- الاستيلاء على دور المهاجرين وبيعها؛ ومن أبْلَغ ما فعل استيلاؤه على كل ديار بني جحش بعد هجرتهم، وقد رأى نفسه الأحق بها لأن إحدى بناته -واسمها الفارعة- كانت متزوجة منهم -من أبي أحمد بن جحش- فعدا أبو سفيان على دارهم فتملَّكها ثم باعها، وقد شكا عبد الله بن جحش لما بلغه ما حدث إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلا تَرْضَى يَا عَبْدَ اللهِ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ بِهَا دَارًا فِي الجَنَّةِ خَيْرًا مِنْهَا؟» قال: بلى. قال: فذلك لك[1].

وحتى النبي ﷺ حين دخل مكة في الفتح سأله أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: يا رسول الله؛ أتنزل في دارك بمكة؟ فقال ﷺ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ[2] أَوْ دُورٍ؟»[3].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٢٨، والفاكهي: أخبار مكة ٣/ ٢٩٢ (٢١٢١)، وابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسير ١/ ٢٢٨، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٣/ ٢٢٥.

(٢) الرباع جمع ربع: وهو المنزل المشتمل على أبيات.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ لليهود: «أسلموا تسلموا» (١٥٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب النزول بمكة للحاج وتوريث دورها (١٣٥١) واللفظ له.

وعَقِيلٌ هذا هو ابن أبي طالب عم النبي ﷺ، وقد استولى هو وأخوه طالب على أملاك أبي طالب ولم يُعطيا لا جعفرًا ولا عليًا -ابني أبي طالب- نصيبهما؛ لأنهما كانا مسلِمَيْنِ، ثم إنه باع
هذه الدار وتصرَّف فيها، فهذا نموذج من استيلاء الأقارب المشركين على أموال من أسلم منهم.

ومن المهم أن نذكر أن النبي ﷺ بعد فتح مكة لم يُبطل شيئًا من تصرفات المشركين في هذه الأملاك، وقد كان قادرًا أن يفعل ﷺ، وإنما أمضاها تأليفًا للقلوب، ومنعًا من فتح جراحات وإقامة حزازات جديدة، وحمل المهاجرين على أن يتركوا ما أُخِذَ منهم في سبيل الله[1].

ولم يتوقف الأمر على الاستيلاء على ما تركه المهاجرون في مكة، بل لقد طارد المشركون مَنْ كان ذا مال، كما حدث مع صهيب ﷺ، فعن أبي عثمان النهدي ﷺ قال: أن صهيبًا حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت ثم تريد أن تخرج بنفسك ومالك، والله! لا يكون ذلك. فقال لهم: أرأيتم إن أعطيتكم مالي أتخلون سبيلي؟ فقالوا: نعم. فقال: أُشهدكم أني قد جعلتُ لهم مالي. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «رَبِحَ صُهَيْبٌ، رَبِحَ صُهَيْبٌ»[2].

فكل هذه أموال أُخذت بالظلم والقهر، وهي أموال ما كان أشد احتياج المسلمين إليها؛ خاصة في حال الهجرة، ثم في حال بناء الدولة الإسلامية الوليدة، فمن الغريب أن تعتبر محاولات استرجاعها شيئًا مستنكرًا، أو هجومًا يُصاغ وكأنه هجوم على قوم مسالمين آمنين لم يكن لهم ذات يوم مظلمة، فكيف وهو يوم قريب.

ومن أهم ما يمكن أن يُساق في ردِّ هذه الشبهة أن أهل مكة أنفسهم لم يطعنوا في شرف النبي ﷺ وأخلاقه، ولم يعتبروا أن ما فعله المسلمون نوعًا من الغدر؛ فالصورة

(١) انظر: ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والسير ١/ ٢٢٨.
(٢) ابن حبان (٧٠٨٢)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الشيخين. وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص١٥٧.



واضحة للجميع، وهم قد نظروا إلى الأمر باعتباراته الحربية المشار إليها آنفًا، كما أنهم يعرفون أنهم البادئون بالظلم ونهب المال، والبادئون بالعداوة وإعلان الحرب، فهل حملت العداوة نحو الإسلام بعض الناس لأن يكونوا أقوم على قريش من أنفسهم، وأبصر بالحال أكثر ممن عاشوه وعانوه؟!

المبحث السادس:

شبهة ظلم النبي ﷺ لليهود

وهذه الشبهة لا تُثار الآن إلا من قِبَلِ الصهيونية العالمية، أو القطاعات التي تأثَّرت بآلاتها الإعلامية الجبارة؛ لأن اليهود تحديدًا وعلى وجه الخصوص لم يعرفوا طعمًا للأمان فعلاً إلا في ظلِّ المسلمين، منذ عهد النبي ﷺ وحتى إنقاذ الدولة العثمانية لهم من الاضطهادات، التي تعرَّضوا لها على يد الإسبان الكاثوليك، حينما استولوا على إسبانيا وأنهوا الوجود الإسلامي، ومنذ ذلك الحين والتاريخ اليهودي في أوربا هو تاريخ من العزل والقهر، وقد كان هذا القهر في غالب الأحيان نابعًا من التمييز الديني، غير أنه كان متأثرًا -أيضًا- بما يَتَّصف به اليهود من الصفات التي تؤدِّي إلى مواجهات؛ مثل: الربا والاحتكار وغيرهما.

أما في ظلال العهد الإسلامي؛ فلقد كانت الصورة جدُّ مختلفة، مختلفة من حيث التعامل الإسلامي مع اليهود، ومختلفة من حيث التعامل اليهودي مع الإسلام في دولة المدينة، وسنعرف بعد انتهائنا من تفنيد هذه الشبهة أن الأوربيين هم آخر مَنْ يجب أن يتحدَّث عن اضطهاد اليهود بالتحديد.

التسامح هو المبدأ العام:

من المهم في البداية أن نؤكِّد على أن مبدأ التسامح مع أهل الكتاب كان هو المبدأ العام الذي يُظَلِّل العلاقة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى، ومنذ عهد النبي محمد ﷺ

وطوال فترة السيادة الإسلامية كان أهل الذمة يعيشون أفضل حالاتهم من حرية في العيش والتنقل والعقيدة والعبادة، ويساهمون في نهضة المجتمع كله.

وهذه من الحقائق التي لا يُنْكِرُها ذو الحدِّ الأدنى من الإنصاف والموضوعية، ويكفينا أن ننقل هنا بعض الفقرات وقد تعمدنا أن تكون لمستشرقين غربيين غير مسلمين، يقول جوستاف لوبون: «رأينا من آي القرآن... أن مسامحة محمد ﷺ لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يَقُلْ بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سُنَّتِه، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون، الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تُثبت أن رَأْيَنا في هذه المسألة ليس خاصًّا بنا. قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية.

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): إن القرآن -الذي أمر بالجهاد- متسامحٌ نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحَرَّم محمد -ﷺ- قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب ﷺ النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين، وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها.

وقال -أيضًا- في كتابه (رحلة دينية في الشرق): ومن المؤسف أن لا تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح، الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»[1].

وتقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه: «وبينما عاشت النصرانية في ظلِّ الحكم

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب هامش١، ص١٢٨.

الإسلامي قرونًا طوالاً -في الأندلس وصقلية والبلقان- فإن انتصار النصرانية على الإسلام -في الأندلس سنة (١٤٩٢م)- لم يَعْنِ سوى طرد المسلمين واليهود، واضطهادهم وإكراههم على التنصُّر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش، التي قامت بتعقُّبِ كلِّ مَنْ يَتَّخِذُ سوى الكاثوليكية دينًا، والحرقِ العلني -في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنسية- لكل مَنِ اعتنق الإسلام أو اليهودية»[١].

وتقول أيضًا:

«ولقد كتب بطريرك القدس (تيودوسيوس) -في أوائل القرن الحادي عشر- إلى الأسقف (أجنايتوس) في بيزنطة يقول: إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويُوَقِّرُون قساوستنا ورهباننا، ويُجِلُّوَن قِدِّيسِينَا»[٢].

ونختم بشهادة توماس أرنولد الذي قال: «لم نسمع عن أية محاولة مُدَبَّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد مُنظَّم قُصِد منه استئصالُ الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخُطَّتَيْنِ لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها (لويس الرابع عشر) المذهب البروتستانتي مذهبًا يُعاقَبُ عليه مُتَّبِعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظلَّ بها اليهود مُبعَدين عن إنجلترا مدَّة ثلاثمائة وخمسين سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًّا عن سائر العالم المسيحي، الذي لم يُوجد في جميع أنحائه أحدٌ يقف إلى جانبهم؛ باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين؛ ولهذا فإن مجرَّد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طَيَّاته الدليل القوي على ما أَقْدَمَتْ عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عامٍّ من تسامحٍ نحوهم»[٣].

كانت هذه المقدمة -على هذا النحو- ضرورية قبل الدخول في تفاصيل الردِّ على

---

(١) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ص٤٥.
(٢) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ص٢٠.
(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٩٨، ٩٩.

شبهة القسوة على اليهود، ونُجمِل الردَّ عليها في هذه النقاط:

أولاً: وثيقة المدينة:

في ذلك الوقت البعيد من تاريخ البشرية، وبمجرَّد نزول النبي ﷺ أرض المدينة فإنه أبرم مع اليهود اتفاقية يمكن أن نُسَمِّيَها اتفاقية التعايش المشترك، أو هي في أقلِّ أحوالها اتفاقية الدفاع المشترك عن الوطن، باعتبار الوطن هو المدينة في ذلك الوقت.

وهذه الاتفاقية كانت إطارًا اعترف فيه اليهود بأن النبي ﷺ هو قائد هذه الدولة الجديدة، وبأنهم جزء من مُكَوِّناتها الطبيعية، وكان مما ورد في هذه الاتفاقية من نصوص ما يلي، ونحن ننتقي هنا بعض النصوص التي تهمنا في الموضوع:

- وإنه لا يحُلُّ لمؤمن أقرَّ بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يُئويه[1]، وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.
- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.
- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم، فإنه لا يُوتغ[2] إلا نفسه وأهل بيته. (ثم بنود أخرى تقول بأن ليهود القبائل جميعًا مثل ما ليهود بني عوف).
- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ.
- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبرَّ دون الإثم.

---

(١) المحدث: يُروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: مَن نصر جانيًا وآواه وأجاره من خَصْمه وحال بينه وبين أن يُقتَصَّ منه. وبالفتح هو الأمر المُبْتَدَعُ نَفْسُه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضا به والصبر عليه؛ فإنه إذا رضي بالبدعة وأقرَّ فاعلها ولم يُنكرها عليه فقد آواه. ابن منظور: لسان العرب، مادة حدث ٢/ ١٣١.

(٢) يوتغ: يُهلك. ابن منظور: لسان العرب، مادة وتغ ٨/ ٤٥٨.

- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة
- وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها
- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه.
- وإن بينهم النصر على مَنْ دهم يثرب.
- وإنه لا تُجار قريش ولا مَنْ نصرها(١).

غير أن الأيام حملت من الأحداث ما أظهر كيف أن هذه الأقلية اليهودية سعت دائمًا في إيذاء وحرب هذه الدولة الوليدة، وأنها كانت إمَّا مسببة لاضطرابات داخلية، أو ساعية في تأليب القبائل المشركة على الحرب، أو أنها قامت بخيانة كبرى في أحرج لحظة مرَّت على تاريخ هذه الدولة، وكل هذا غير كثير من المناوشات الفردية الأخرى، التي كادت -ذات مرَّة- تشعل حربًا أهلية داخلية.

ثانيًا: إثارة الاضطرابات والمناوشات:

برغم هذه النصوص الواردة في المعاهدة التي تُلزم اليهود، إلا أنهم لم يتأخَّروا عن إثارة المشكلات منذ اليوم الأول لنزول المهاجرين إلى المدينة، فكان أول ما فعلوه أن أشاعوا أنهم سحروا للمسلمين فلا يُولد لهم بالمدينة وَلَد ذَكَر(٢).

وكان بعضهم إذا جاءوا إلى النبي ﷺ قالوا له: السام عليك يا محمد(٣). أي: الموت لك يا محمد. واستفزَّ كبيرٌ منهم أبا بكر ﷺ حين قال له: «ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا

---

(١) تم تجميع نصوص الوثيقة من مصادر متعددة وردت فيها؛ منها: ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٣٤، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٦١، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٦، وغيرها، وانظر التجميع والترجيح في: د. محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ص٥٧ وما بعدها، ود. إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية ص١٤٠ وما بعدها، ود. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) فتح الباري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه (ص٦٧١) ط. دار الحديث، عن أسماء بنت أبي بكر، والحاكم (٦٣٣٠).

(٣) الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن إسحاق (٤٩١٠)، وابن خزيمة في صحيحه من حديث عائشة (٥٧٤).

لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا الربا»(١).

وكانوا يطعنون فيمن يُسلم من اليهود، ويقولون: «ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم»(٢). كما لم يُفَوِّتوا فرصة لإثارة الشبهات حول الإسلام إلا واستغلُّوهَا، وقد كان من أبرز هذه المواقف مواقفهم في تحويل القبلة.

وكذلك من أخطر هذه المحاولات ما قام به شاس بن قيس، الذي كاد عمله يُشعل حربًا أهلية في المدينة، عندما وجد الأوس والخزرج بعد الإسلام وقد جلسوا متآلفين فأرسل غلامًا يُحدِّثهم بذكرى الحروب التي وقعت بينهم؛ حتى أثار نفوس القوم وتواعدوا على الحرب، إلاَّ أن النبي ﷺ أدركهم في جمعهم هذا، وقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللهُ لِلإِسْلامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!» فعرف القوم أنها نزغة شيطان(٣).

وعلى طول فترة المدينة كان المنافقون واليهود حِلْفًا واحدًا ضد المسلمين؛ حتى إن القرآن الكريم ليُسَمِّيهم إخوانًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ(٤)﴾.

فهذه بعض الأمثلة التي وردت في كُتب السيرة، ولكن ما يهمنا من ذكرها شيئان: إثبات كيف كانت الأقلية اليهودية في المدينة تمثِّل خطرًا متزايدًا، وإثبات أن النبي ﷺ لم يأخذ أحدًا منهم بجريرة أحد آخر، وإلى مدَّة عامين لم يقع شيء مما يمكن له أن يفعله

---

(١) رواه ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ٣/ ٨٢٩، وابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٩٦، وابن كثير ٢/ ١٧٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٩٥، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ٢٥٣، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢٩/ ١١٥، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٧٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٩٤.

(٤) (الحشر: ١١).



باعتباره قائد هذه الدولة، وقد كان يملك القوة الكافية لحربهم.

ثالثًا: ماذا فعل بنو قينقاع؟

فأما يهود بني قينقاع فلم يستطيعوا الإمساك بأعصابهم بعد انتصار المسلمين في بدر، فصاروا يُجاهرون بالعداوة والبغضاء للمسلمين، حتى جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، وحَذَّرهمَ أن يصيبهم ما أصاب قريشًا في بدر (وهذا دليل على أن نصيحته هذه كانت تتوخَّى نزع فتيل حرب توشك على الاندلاع)، غير أنهم قالوا بتحدٍ وإساءة وبلهجة المتحفز للحرب: يا محمد؛ لا يغرنَّك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا[1] لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وإنك لم تلقَ مثلنا[2].

ولم تلبث أن انطلقت شرارة الحرب منهم؛ فقد حدث أن جاءت امرأة من العرب قدمت بجَلَب[3] لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًّا، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشرُّ[4].

والحقيقة أنه يلفت النظر بشدَّة تعبير المؤرخ المسلم عن هذا بكلمة «الشرّ»، رغم أن نتائج ما حصل لم يكن إلا خيرًا، ولكن الوجدان الإسلامي يُعَبِّر عن نفسه في هذه التعبيرات التي تحتاج إلى مَنْ ينتبه لها بين سطور كتب السيرة والفقه والأصول.

وعند هذه النتيجة، وبعدما وصل تعدِّي الأقلية إلى هذا الحد سار إليهم النبي ﷺ على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، ونبذ إليهم العهد كما أمر تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ

---

(١) الأغمار: جمع غُمْر؛ وهو الجاهل الغِرُّ الذي لم يُجَرِّب الأمور. أبو عبيد القاسم بن سلام: غريب الحديث ١/ ٢٤٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٨٩.

(٣) الجلب: ما يُجْلَب ليباع من إبل وغنم وغيرها.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٧.

مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ[1]﴾، وحاصرهم خمسة عشر يومًا، ثم انتهى الأمر بإجلائهم من المدينة.. فهل إجلاء مثل هؤلاء مما يؤخذ على النبي ﷺ؟! وهو الفعل الذي يُواجَه بأشدِّ العقوبات في المجتمعات الحديثة، بل قد تُسَنُّ لأجله حالات الطوارئ والقوانين الاستثنائية للحفاظ على أمن المجتمع.

رابعًا: ماذا فعل يهود بني النضير؟

وأما يهود بني النضير فقد ارتكبوا جريمة هي أقسى مما فعل إخوانهم بنو قينقاع من قبلُ، وفي وقت أسوأ منه، فلئن كانت بنو قينقاع قد اعتدت على امرأة مسلمة وقتلوا مسلمًا، فإن بني النضير حاولوا اغتيال النبي ﷺ نفسه، ولئن كانت بنو قينقاع برزت بعد انتصار المسلمين في بدر، فإن بني النضير برزوا بعد سلسلة من الحوادث السيئة، التي تَعَرَّضت لها الدولة الإسلامية، ابتدأت بالهزيمة في معركة أحد، وهي الهزيمة التي جَرَّأت بعض القبائل على تهديد الدولة الإسلامية مثل أسد وهذيل، ومثلما غُدر بالمسلمين في حوادث الرجيع وبئر معونة.

ومثلما كان الحال في بني قينقاع فإن الأمر كان مجموعة من الأفعال الخيانية، التي انتهت إلى فعل واحد أشعل الحرب؛ فبرغم أن وثيقة المعاهدة تُلزم اليهود بألا يكونوا عونًا لأحد من المشركين المحاربين على المسلمين، إلا أن سلام بن مِشْكَم وهو سيد بني النضير أضاف أبا سفيان في إحدى غاراته الفاشلة على المدينة، كما قامت بنو النضير بتحريض قريش على القتال وتسريب معلومات عن أحوال المدينة[2].. ويبدو أنهم رأوا أنها اللحظات الأخيرة في حياة هذه الدولة فحاولوا أن يُسقطوها.

لكن لم يأخذهم أحد بهذا، وإنما الذي تم هو أن النبي ﷺ ذهب إليهم طالبًا منهم المشاركة في دية رجلين قتلهما واحد من المسلمين بالخطأ، وهذا مما نُصَّ عليه في الوثيقة، فاستقبلوه بالبشاشة والترحاب، واستمهلوه أن يأتوا بالمال، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نُطعمك ونُعطيك الذي تسألنا. فجلس النبي

(١) (الأنفال: ٥٨).
(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ٣٣٢.



ﷺ إلى جدار في منازلهم، فلما رأوه هكذا تشاوروا في اغتياله، فقال رأس القوم: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولا ترون شرًّا أبدًا. فجاءوا إلى رحى (أي حجر) لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم، حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه من ثَمَّ[1].

ثم أرسل إليهم النبي ﷺ بأن يخرجوا من المدينة بما نقضوا من العهد، وما نَوَوْهُ من الغدر، وأمهلهم عشرة أيام، ولقد سُقط في أيديهم، وهمُّوا بالرحيل إلاَّ أن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول -زعيم المنافقين- أرسل إليهم يُحَرِّضهم على البقاء، وبأنه لن يسمح بخروجهم حتى لو اضطر لأن يجمع حلفاءه من العرب فيحارب دونهم، وهنا أرسل حيي بن أخطب -من زعماء اليهود- أنهم لن يرحلوا، وبهذا الرفض بدأت الحرب.

وحاصرهم النبي ﷺ خمسة عشر يومًا حتى يئسوا، وأخلف لهم ابن أُبَيٍّ ابن سلول ما وعدهم، فعادوا يطلبون أن يخرجوا، فوافقهم النبي ﷺ إلى ذلك، فخرجوا يحملون كل ما استطاعوا حمله، بل وقاموا بإحراق ما لم يستطيعوا لئلاَّ ينتفع بها المسلمون من بعدهم[2].

ولمرة أخرى نرى أن هذا أخفَّ العقوبات التي يُمكن أن تنزل بأمثال هؤلاء، الذين ارتكبوا الخيانة أكثر من مرة: إيواء أبي سفيان، تسريب معلومات عن المدينة إلى قريش، غدرهم بالعهد والوثيقة، ثم محاولة اغتيال النبي ﷺ.

فهل في هذا قسوة أو شبه قسوة، أو مسٌّ من الظلم؟! بإمكاننا أن نتخيَّل هذه المحاولة في عصرنا الحديث، وكيف يمكن أن تتصرف الدولة حيال أقلية قامت بكل هذه الأفعال؟!

خامسًا: ماذا فعل يهود بني قريظة؟

في أصعب لحظة من حياة الدولة الإسلامية ظهرت خيانة اليهود من بني قريظة، ففي العام الخامس للهجرة تجمَّع عشرة آلاف مقاتل من قبائل العرب بزعامة قريش وغطفان، وليس لهم من هدف إلا إنهاء دولة الإسلام في المدينة، وتعرَّضت الدولة الإسلامية لأول

(١) الطبري: تفسير الطبري ١٠/١٠٢.
(٢) السيرة الحلبية ٢/٦٦٣.

مرَّة إلى مثل هذا الخطر، والتهديد بالاجتياح، ولم يكن من سبيل أمام هذه القوات الكبيرة التي تفوق عدد كل الرجال في المدينة إلا أن يُحْفر الخندق، وهي الفكرة التي جاء بها سلمان الفارسي ﷺ فقد كان يفعلها الفرس ولم يعرفها العرب.

وبُنِيَ الخندق في الجانب الشمالي من المدينة، وهو الجانب المكشوف أمام العدو، والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء؛ فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرة واقم من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول ﷺ وبني قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحدًا، ولا يناصروا عدوًّا ضده[1].

وعاشت المدينة أصعب أيامها مع الحصار المضروب عليها من هذه القوَّات الغفيرة؛ في شدَّة من الجوع والخوف والبرد، حتى لقد سماه القرآن الكريم «الزلزال الشديد» وقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا[2]﴾.

وفي هذه اللحظات وحيث بني قريظة هم المؤتمنون على الجهة الجنوبية للمدينة؛ إذ ببني قريظة وقد خانت العهد وانضمت لأعداء المدينة، وصارت الجهة الجنوبية مفتوحة أمام الجيوش الغفيرة لاجتياح المدينة، بل وساعدت في المجهود الحربي للأحزاب؛ فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيرًا، كانت محملة تمرًا وشعيرًا وتينًا[3].

ولولا أن الله ألقى الرعب في قلوب الأحزاب، وأفشل تدبيرهم، وعادوا دون أن يحصلوا على غاياتهم، لكان الحال غير الحال؛ ومن ثَمَّ فلم يكد النبي ﷺ ينتهي من غزوة الأحزاب حتى جاءه أمر الله بحرب بني قريظة، فحاصرهم ثم أنزل فيهم حكم الخيانة

---

(١) محمد فرج: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤٤٢.
(٢) (الأحزاب: ١٠، ١١).
(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٦٤٧.

المستحَقّ، الذي لا تُنكره الشرائع السماوية ولا الأعراف الأرضية.

فهذه هي قصة اليهود في المدينة، فهل فيها شبهة اضطهاد أو عنف أو قسوة؟!

وحتى نحصل على صورة أوضح دعونا نتخيل أن يفعل اليهود هذا في دولة أوربية، ونتوقع ما الذي كان يمكن أن يتمَّ؟ وكيف يمكن لأي دولة أن تتعامل مع طائفة تُعَاوِن أعداء الدولة في اقتحام الحصون، والتمهيد لاستباحة الدولة وقتل سكانها؟ وحينئذ نصل إلى الحقيقة التاريخية والموضوعية، وهو أن اليهود كانوا في أحسن أحوالهم أيام كانوا في ظلال الحكم الإسلامي.

***

الخاتمة

قال ابن نباتة المصري (شاعر مصري) :

نبيٌّ أتمَّ اللهُ صُورةَ فخرِه ... وآدمُ في فخارِه يتصوَّرْ



الخاتمة

أكرم الله ﷻ البشرية جميعًا بالرسالة الخاتمة التي بعث بها نبيَّه محمد ﷺ بشيرًا ونذيرًا للناس كافة، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[1]﴾؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

أما بعد؛ ففي ختام كتابنا -الذي أثبتنا فيه بما لا يدع مجالاً للشكِّ صدق نبوة الرسول محمد ﷺ -يجب أن نقف وقفة متأنية مع أنفسنا، وأن يقف المخلصون في العالم معنا، ونتساءل جميعًا قائلين: لماذا يحارب البعض من غير المسلمين الإسلامَ؟ رغم قِيَمه الرائعة وإنسانيته العظيمة، ورغم الأدلَّة الباهرة على صدق نبوة محمد ﷺ، وهؤلاء لا يكتفون بمجرَّد التكذيب والإنكار بل يتجاوزونها إلى مرحلة سبٍّ وقذفٍ وطعنٍ وتجريح!

ويقف العاقلون أحيانًا حائرين مدهوشين أمام هذه التيارات المهاجمة للإسلام، والطاعنة في خير البشر، وسيد ولد آدم ﷺ، ويتساءل متعجبًا: كيف لم تَرَ أعينهم النور الساطع؟! وكيف لم تدرك عقولهم الحقَّ المبين؟!

وإن هذه الحيرة وتلك الدهشة لتزول، ويتلاشى معها العجب والاستغراب عندما ننظر في أحوال هؤلاء المنكرين المكذبين الطاعنين..

إنهم ما بين حاقد وجاهل..

أمَّا الأول: فلا ينقصه علم ولا دراية؛ إنه رَأَى الحقَّ بوضوح، ولكنه آثر -طواعيةً- أن يتَّبع غيره، أمَّا لماذا خالف وأنكر فلأسباب كثيرة: فهذا محبٌّ لدنياه، وذاك مُؤْثِرٌ لمصالحه، وهؤلاء يتبعون أهواءهم، وأولئك يغارون ويحسدون. إنها طوائف منحرفة من

(١) (سبأ: ٢٨).

البشر لا ينقصها دليل، ولا تحتاج إلى حُجة، وفيهم قال ربنا ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(١)﴾.

وهذه الطائفة -التي تقاتل الدين عن رغبةٍ وقصد، وتحارب الفضيلة والأخلاق عن عمدٍ ودراية- قليلة بالقياس إلى الفريق الثاني (عموم الناس)، الذين لم يعرفوا الدين من مصادره الصحيحة، إنما صُوِّر لهم على أنه بدعٌ مُنْكرة، أو تقاليد بالية، إنهم فريق الجُهَّال الذين ينقصهم العلم، أو البسطاء الذين يفتقرون إلى شرحٍ وتوضيح، أو حتى العقلاء الذين يحتاجون إلى دليلٍ وبرهان.

إن هذا الفريق الثاني يحتاج ببساطة إلى (العلم)؛ ليعرف حقيقة الإسلام كما عرفه شعب فارس وشعوب الشام ومصر وشمال إفريقيا، بل نصارى الأندلس والأناضول وشرق أوربا، وشرق وغرب إفريقيا، وإندونيسيا وأرض الملايو والهند وغيرها، ويحتاج أن نعرض عليه رسالة الإسلام التي أنزلها الله ﷻ على محمد ﷺ، وأن نشرح أحوال وأخلاق وطبائع النبي العظيم رسول الله ﷺ فيكون هذا سبيلاً لهداية السواد الأعظم من الناس.

فما أحوج العالم في ظلِّ ما يعانيه من مشكلات رهيبة وضلال مبين إلى هديه ﷺ الرباني، وخاصة أن عالمنا اليوم شبيه كل الشبه بما كان عليه العالم وقت بعثته ﷺ، وإنه ما من شكٍّ أن منهجه ﷺ سيُخْرِجنا من ظلمات الجهل والغفلة إلى نور الإسلام، كما أخرج العالم من قَبْلُ ممَّا يعانيه، كما أن الإنسان في عصرنا الحاضر فَقَدَ القدوة والمَثَل، بل وفقد إنسانيته وأصبح يعيش لاهيًا عابثًا بلا هدف؛ لذلك فهو دائم البحث عن المَثَل الأعلى والقدوة الحسنة، ولن يجد ذلك إلاَّ في رسولنا ﷺ، وليس عجيبًا أن يدرك ذلك عظماء الغرب، فها هو ذا برنارد شو وجوته.. وغيرهما يتَّخذون من النبي ﷺ القدوة والمثل؛ لأنه ﷺ كان كذلك.

ولكن العالم لن يفهم ويدرك عظمة الإسلام إلاَّ إذا قام المخلصون -الذين يرجون

---

(١) (النمل: ١٤).

الخير للعالم- بالدعوة إلى قراءة سيرة خير البرية، قراءة متأنية فاحصة؛ ليعلم العالم أن محمدًا -ﷺ- قدَّم للإنسانية مفاهيم وقيمًا ساعدت على رقيِّها وتحضُّرها

وهذا ما اعترف به علماء ومفكرو الغرب المنصفون؛ فها هو المفكر الأمريكي ول ديورانت يقول عن رسول الله ﷺ: «إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إن محمدًا -ﷺ- كان من أعظم عظماء التاريخ؛ فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعبٍ ألقت به في دياجير[1] الهمجية حرارةُ الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يُدَانِه فيه أي مُصْلح آخر في التاريخ كله»[2].

وختامًا..

لا أشكُّ في أن الكثير والكثير ممَّا يجب أن يُضَمَّ إلى هذا الكتاب لم أُفْلِح في ضمِّه، إمَّا لضيق الوقت، أو خوفًا من التَّكرار، أو سهوًا عن حادثة، أو جهلاً بأخرى.. وعذري أنني بشر، ومن طبيعة البشر النقصان.. وما أجمل ما قاله الشافعي[3] رحمه الله - وأُحِبُّ أن أختم به بحثي - وذلك عندما راجع كتابه الرسالة[4] ثمانين مرَّة، ثم قال لتلميذه المزني[5] في النهاية: «هيه.. أبى الله أن يكون كتابٌ صحيحٌ غيرَ كتابه»[6].

وَصَلِّ اللهم وسَلِّم وبارك على المبعوثِ رحمةً للعالمين..

أ. د/ راغب السرجاني

---

(١) دياجير: جمعُ دَيْجُور وهو الظلام. ابن منظور: لسان العرب، مادة دجر ٤/ ٢٧٧، والمعجم الوسيط ص٢٧١.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٣/ ٤٧.
(٣) الإمام الشافعي هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي، ولد عام ١٥٠هـ، وهو ثالث المجتهدين، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، وهو أول من دوَّن علم أصول الفقه، قال أحمد بن حنبل: كان الشافعي كالشمس للنهار، وكالعافية للناس، وإني لأدعو له في إثر صلاتي، وقد مات بمصر سنة ٢٠٦هـ.
(٤) كتاب الرسالة: هو كتاب أصول الفقه الشافعي، وهو أول كتاب ألف في أصول الفقه، بل وأول كتاب أُلِّف في أصول الحديث أيضًا. ورغم كونه كتاب فقه إلاَّ أنه كتاب لغة وأدب وثقافة أيضًا؛ وذلك لأن الشافعي اشتهر بأدبه وبلاغته، وتعتبر كتب أصول الفقه والحديث عالة على هذا الكتاب.
(٥) المزني هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني: كان فقيهًا، عالمًا، عابدًا، عارفًا بوجوه الجدل، حسن البيان، قال عنه الشافعي، وهو في سن الحداثة: «لو ناظر المزني الشيطان لقطعه». كما قال فيه الشافعي: «ناصر مذهبي». له في مذهب الشافعي كتب كثيرة منها: المختصر، والمختصر الصغير.
(٦) حاشية ابن عابدين: ٢/ ٢٧.

الملاحق

لقد أنصف كثير من الغربيين محمدًا ﷺ، وكان هذا الإنصاف ناتجا عن دراسة موضوعية مستفيضة لسيرته وحياته ﷺ، وقد اكتملت في هذه الدراسة عناصر المنهج العلمي الحديث القائم على الملاحظة والتجربة والاستقصاء، فخرجت نتائجهم إيجابية تجاه رسول الله ﷺ، وأصبحت شهاداتهم نورًا يهتدي به الباحثون عن الحقيقة في الغرب. وما نقدمه في هذا الملحق من شهادات للمنصفين إنما هو غيض من فيض، وقليل من كثير كتب عن النبي ﷺ وسيرته العطرة، ولكنها في مجملها تدل دلالة واضحة على عظم أخلاقه ﷺ في تعامله مع غير المسلمين.

قال محمود سامي البارودي (شاعر مصري):

هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي لَوْلَا هِدَايَتُهُ ... لَكَانَ أَعْلَمُ مَنْ فِي الأَرْضِ كَالهَمَجِ



شهادة المستشرق الإنجليزي أرنولد توينبي[1]





لقد أخذت سيرة الرسول العربي بألباب أتباعه، وسَمَتْ شخصيته لديهم إلى أعلى عِلِّيِّينَ، فآمنوا برسالته إيمانًا جعلهم يتقبلون ما أُوحي به إليه، وأفعاله- كما سجَّلتها السنة مصدر للقانون- ، لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها، بل يرتِّب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم غير المسلمين [2].

Arnold Tynbee



(١) - مؤرخ ومستشرق إنجليزي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م).

(٢) - توينبي: مختصر دراسة للتاريخ ٣/ ٩٨.



شهادة الكاتب الفرنسي هنري دي كاستري[1]



يتتشر الإسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد، بدون أدنى إكراه، ولا تعيين رسل، أو مبشرين، ويتعسر بيان اللحظة التي يسير فيها الشخص مسلمًا حقيقيًّا؛ لأن إسلامه يأتيه تدريجيًّا [2].

Henry de Castry



(١) - كاتب فرنسي مسيحي، وكان مقدمًا في الجيش الفرنسي.

(٢) - هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح ص ٥.



شهادة الروائي الروسي تولستوي[١]



من فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى خيرًا بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قسوس[٢] الأولين، فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج من المسيحيات واليهوديات، مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن، ولا يخفى على أصحاب البصائر النيرة ما في هذا من التساهل العظيم[٣].

Leo Tolstoy



(١) – روائي وكاتب روسي (١٨٢٨–١٩١٠)، ويعد من أشهر الكتاب في مجال الأدب، ومصلح اجتماعي، وداعية سلام، ومفكر عميق التفكير.

(٢) – جمع قس وهو رجل الدين.

(٣) – تولستوي: حكم النبي محمد ص٤٤.



شهادة المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد[١]



إن مجرد وجود كثير جدًّا من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قرونًا في ظل الحكم الإسلامي لدليلٌ ثابت على ذلك التسامح الذي نَعِم به هؤلاء المسيحيون[٢] . إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق... إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى[٣] .

Arnold Walker Thomas



(١) - من كبار المستشرقين البريطانيين. (٢) -أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام ص ٨٨.

(٣) - المرجع السابق ص١٠٢.



شهادة الزعيم الهندي المهاتما غاندي[١]



أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر... لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته، هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي آسفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة [٢].



Gandhi



(١) – هو الزعيم الروحي للهند، والزعيم الروحي للثورة السلمية التي أدت إلى استقلال الهند عن بريطانيا.

(٢) – المهاتما غاندي في حديث لجريدة (ينج إنديا).



شهادة المستشرق الإنجليزي مونتجمري وات[1]





ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم... إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيدًا وقائدًا لهم، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل ذلك يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه[2].

William Montogmery Watt



(١) - مونتجمري وات مستشرق إنجليزي معاصر، محاضر في اللغة العربية وآدابها، عمل عميدًا لقسم الدراسات العربية في جامعة «أدنبره»، ومن أشهر مؤلفاته: (محمد في مكة) عام ١٩٥٨م، و(محمد النبي ورجل الدولة)، و(الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) عام ١٩٦٩م.

(٢) - مونتجمري وات: محمد في مكة ص٥٢، ٥٢١. (بتصرف).



شهادة المستشرق الإنجليزي بوسورث سميث[1]





لقد كان محمد قائدًا سياسيًّا وزعيمًا دينيًّا في آن واحد؛ لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة، ولم يكن لديه جيوش مجيشة، أو حرس خاص، أو قصر مشيد، أو عائد ثابت. إذا كان لأحد أن يقول: إنه حكم بالقدرة الإلهية. فإنه محمدٌ؛ لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها، ودون أن يسانده أهلها[2].

Bosworth Smith



(١) - بوسورث سميث أديب إنجليزي كبير، وُلد في عام ١٨٣٩م، وله بحوث مهمة في التربية، وكذلك في التاريخ، ومن أهم مؤلفاته كتاب «محمد والمحمدية»، توفي عام ١٩٠٨م.

(٢) - بوسورث سميث: محمد والمحمدية ص٩٢.



شهادة المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاغليري[(١)]





كان محمد ﷺ المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة، لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا؛ اعتقادًا منه بأن الزمن سوف يُتِمُّ عَمَلَه الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيدًا أن الله لا بُدَّ أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري[(٢)].

Laura Veccia Vaglieri



(١) - مستشرقة إيطالية.

(٢) - لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام ص٧٣.



شهادة المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون[1]





كان محمد يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر[2] ...فعامل محمد قريشًا - الذين ظلوا أعداءً له عشرين سنة - بلطف وحِلم[3].

Gustave Le Bon



(١) - جوستاف لوبون: مستشرق فرنسي وُلد في عام ١٨٤١م، ومن أشهر كتبه «حضارة العرب»، الذي يُعدُّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. تُوفِّي في عام ١٩٢١م.

(٢) - جوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٠٤، ١٠٥

(٣) - المصدر السابق ص ١٠٨



شهادة المؤرخ الأمريكي الشهير «ويل ديورانت»[1]





«إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ»[2].

Will Durant



(١) – ول ديورانت: مؤرخ أمريكي شهير. ولد في عام ١٨٨٥م. ومن أعظم كتبه «قصة الحضارة» في ٤٢ مجلدًا، وقد عكف على تأليفه لمدة خمسة عقود كاملة. وتوفي في عام ١٩٨١م.

(٢) – ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٥٩.



شهادة الشاعر الفرنسي المشهور «لامارتين»[1]



«من ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيًا من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة وسَنّوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجادًا بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانيّهم... لكن هذا الرجل محمدًا لم يَقُدِ الجيوش، ويَسِنّ التشريعات، ويُقم الإمبراطوريات، ويحكم الشعوب، ويُرَوِّض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس فيما كان يُعَدُّ ثلث العالم حينئذٍ. ليس هذا فقط، بل إنه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة... بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أود أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد ؟!»[2]

Alphonse de Lamartine



(١) - لامارتين: الشاعر والكاتب الفرنسي الكبير، ولد في عام ١٧٩٠م، وتوفي في عام ١٨٦٩م.

(٢) - لامارتين: «تاريخ تركيا»، ٢٧٦، ٢٧٧ بتصرف.



الكاتب الإنجليزي الشهير «توماس كارليل»[1]





« ويزعم المتعصبون والملحدون أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وايم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القِفَار والفلوات، المتوقد المقلتين العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًّا وحكمةً وحِجًى وإِرْبَةً ونُهًى أفكارٌ غيرُ الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه»[2].

«أرى في محمد آيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال، وأتبين فيه عقلاً راجحًا وعينًا بصيرة ورجلاً قوياً عبقرياً، لو شاء لكان شاعرًا فحلاً أو فارسًا بطلاً أو ملكًا جليلاً، أو أي صنف من أصناف البطل»[3].

Thomas Carlyl



(١) - توماس كارليل: (١٧٩٥ - ١٨٨١م) كاتب إنجليزي معروف، من مؤلفاته كتاب «الأبطال» حيث عقد فيه فصلاً رائعا عن النبي ﷺ

(٢) - توماس كارليل : الأبطال ص ٦٨، ٦٩

(٣) - المرجع السابق ص٨٢



شهادة المستشرق الإنجليزي الكبير «وليم موير» [١]





ومن صفات محمد الجديرة بالذِّكر، والحَرِيَّة بالتنويه: الرقة والاحترام اللتان كان يعامل بهما أصحابه؛ فالسماحة والتواضع والرأفة والرقة تغلغلت في نفسه، ورسَّخت محبته عند كل من حوله، وقد عامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طويلة، وامتنعوا من الدخول في طاعته، كما ظهر حِلمُه وصفحه حتى في حالتي الظفر والانتصار[٢] .

William Muir



(١) – وليم موير: مستشرق بريطاني إسكتلندي الأصل ولد في عام ١٨١٩م، كان مديرًا لجامعة إيدنبرج. من مؤلفاته: شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن. وصنف بالإنجليزية كتبًا في السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الإسلامية، وتاريخ دولة المماليك في مصر. وله مقالات في شعراء العرب. توفي في عام ١٩٠٥م.

(٢) – وليم موير: حياة محمد (نقلاً عن كتاب «بطل الأبطال» لعبد الرحمن عزام ص ٤٤،٤٥).



شهادة العالم الأمريكي المعاصر(مايكل هارت) [١]







«إن اختياري محمدًا ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيرًا من القراء إلى حَدٍّ قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقادي أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي» [٢].

Hart. Michael H



(١) – مايكل هارت: هو عالم الفلك والرياضيات والمؤرخ الأمريكي المعاصر، يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية، حصل على الدكتوراه في علم الفلك من جامعة برنستون عام ١٩٧٢م. من أشهر كتبه «الخالدون المائة»، وفيه قام بالبحث في التاريخ عن الرجال الذين كان لهم أعظم تأثير على البشر.

(٢) – مايكل هارت: المائة الأوائل، ص ٢٩



شهادة الأديب الألماني الشهير «جوته» [1]





بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان،
فوجدته في النبي محمد [2] .

Johann Wolfgang Goethe



(١) - جوته أديب ألماني شهير ولد في فرانكفورت عام ١٧٤٩ توفي عام ١٨٣٢م، تأثر بالفكر العربي وترجم مسرحية محمد لفولتير، ومن مؤلفاته الشهيرة «الديـــوان الشرقي للشاعر العربي».

(٢) - جوته: الديوان الشرقي للشاعر العربي.

المصادر والمراجع

قال شرف الدين البوصيري (شاعر مصري) :

وما محمدٌ إلا رحمةٌ بعثتْ　　للعالمين وفضلُ اللهِ مبذولُ



المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب تفاسير القرآن وعلومه

- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي: **تفسير ابن أبى حاتم**، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ): **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- الألوسي، محمود أبو الفضل: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن القاسم: **إعجاز القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف - القاهرة.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ): **معالم التنزيل**، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- سيد قطب: **في ظلال القرآن**، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق سعيد المندوب، دار الفكر، الطبعة الأولى – لبنان، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **لباب النقول في أسباب النزول**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الشوكاني، محمد بن علي: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، تصحيح وضبط أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ): **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ): **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الواحدي النيسابوري: **أسباب النزول**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ٢٠٠٠م.

ثالثًا: كتب السنن والآثار

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تحقيق غنيم عباس غنيم، وياسر إبراهيم محمد، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨هـ.

- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني: **المسند**، مؤسسة قرطبة – القاهرة.
- ابن خزيمة، أبو بكر السلمي محمد بن إسحاق النيسابوري: **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.
- ابن راهويه إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي: **مسند إسحاق بن راهويه**، تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.
- ابن رجب الحنبلي: **جامع العلوم والحكم**، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجه**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- أبو داود، سليمان بن داود الطيالسي: **مسند أبي داود الطيالسي**، دار المعرفة – بيروت.
- أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي: **مسند أبي يعلى**، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
- أحمد عبد الرحمن البنا (الساعاتي): **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد**، مطبعة الإخوان المسلمين، ١٣٥٣هـ.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي: **الأدب المفرد**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي: **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- البزار، أبو بكر بن العتكي: **البحر الزخار المسمى بمسند البزار**، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، دار الكتب العلمية - بيروت.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **دلائل النبوة**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي: **الجامع الصحيح**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي: **سنن الدارقطني**، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن: **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- السندي، أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي: **حاشية السندي على النسائي**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- الشافعي، محمد بن إدريس أبو عبد الله: **مسند الشافعي**، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الشيباني، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك: **الآحاد والمثاني**، تحقيق باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **الروض الداني - المعجم الصغير**، تحقيق محمد شكور محمود، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تهذيب الآثار**، تحقيق علي رضا، دار المأمون للتراث، دمشق – سوريا، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.
- عبد الرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني: **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي: **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: **رياض الصالحين**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت.

رابعًا: كتب التخريج وشروح الحديث

- ابن الملقن، أبو حفص عمر بن علي: **خلاصة البدر المنير في تخريج كتاب الشرح الكبير**، تحقيق حمدي عبد المجيد إسماعيل، دار ابن رشد، الطبعة الأولى- الرياض، ١٤١٠هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير**، تحقيق السيد عبد الله هاشم اليماني، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: **غريب الحديث**، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني - بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
- أبو المعاطي النوري: **المسند الجامع**، دار الجيل، الطبعة الأولى - بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح الترغيب والترهيب**، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الخامسة.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**، المكتب الإسلامي.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح وضعيف سنن أبي داود**، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية المجاني، إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

- التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب: **مشكاة المصابيح**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- الحربي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق: **غريب الحديث**، تحقيق سليمان بن إبراهيم، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى – جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الزيلعي، أبو محمد عبد الله بن يوسف الحنفي: **نصب الراية لأحاديث الهداية**، تحقيق محمد يوسف البنوري، دار الحديث - مصر، ١٣٥٧هـ.
- السيوطي وآخرون: **شرح سنن ابن ماجه**، قديمي كتب خانة – كراتشي.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي: **كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- العظيم آبادي، محمد شمس الحق أبو الطيب: **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم: **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، دار الكتب العلمية – بيروت.
- المتقى الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين: **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ضبط وتصحيح بكري حياني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- المناوي، عبد الرءوف: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

• الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الفكر – بيروت، ١٤١٢هـ.

خامسًا: كتب الفقه وأصوله

• البعلي، أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الحنبلي: **المطلع على أبواب الفقه**، تحقيق محمد بشير الأدلبي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

• الحطاب الرعيني، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي: **مواهب الجليل لشرح مختصر أبي الضياء سيدي خليل**، تحقيق زكريا عميرات، دار عالم الكتب، طبعة ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

• الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

• الصنعاني، محمد بن إسماعيل: **سبل السلام**، مكتبة البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م.

• القرضاوي: **مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى – بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

• مالك بن أنس: **المدونة الكبرى**، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

• محمد الغزالي: **فقه السيرة**، خرج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الألباني، مكتبة الشروق، القاهرة.

• المواق، أبو عبد الله سيدي محمد بن يوسف (ت٨٩٧هـ): **التاج والإكليل لمختصر خليل**، مطبوع على حاشية مواهب الجليل للحطاب.

سادسًا: كتب السيرة والشمائل

• ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي: **السيرة النبوية**، تحقيق عبد السلام علوش، المكتب الإسلامي - بيروت.

• ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد: **جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم**، تحقيق إحسان عباس، دار المعارف - مصر، الطبعة الأولى، ١٩٠٠م.

• ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحي (ت ٧٣٤هـ): **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ.

• ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (٦٩١ - ٧٥١هـ): **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.

• ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، دار الكتب العلمية - بيروت.

• ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٦هـ = ١٩٧١م.

• ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري (ت٢١٣هـ): **السيرة النبوية**، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.

• الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح السيرة النبوية**، المكتبة الإسلامية، عمان - الأردن، الطبعة الأولى.

• البغوي، الحسين بن مسعود: **الأنوار في شمائل النبي المختار**، تحقيق إبراهيم اليعقوبي، دار المكتبي للطباعة والنشر، دمشق - سوريا، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

• الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**، تحقيق سيد عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

• الحلبي، علي بن برهان الدين: **السيرة الحلبية**، طبعة بيروت.

• سعيد حوَّى: **الرسول ﷺ**، دار السلام - القاهرة، ٢٠٠٢م.

- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن: **الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الصالحي الشامي، محمد بن يوسف (ت ٩٤٢هـ): **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- صفي الرحمن المباركفوري: **وإنك لعلى خلق عظيم**، كندة للإعلام والنشر، الطبعة الأولى - القاهرة، ١٤٢٧هـ.
- العمري، أكرم ضياء: **السيرة النبوية الصحيحة**، مكتبة العبيكان - الرياض.
- القاضي عياض، أبو الفضل عياض اليحصبي: **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- محمد حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م.
- محمد الصادق عرجون: **محمد رسول الله**، دار القلم - دمشق.
- محمد رشيد رضا: **الوحي المحمدي**، مكتبة القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٦٠م.
- محمود شيت خطاب: **الرسول القائد**، دار الفكر - بيروت، ٢٠٠٢م.

سابعًا: كتب التاريخ والتراجم

- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار الفكر - بيروت.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **تهذيب التهذيب**، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع البصري الزهري (ت ٢٣٠هـ): **الطبقات الكبرى**، تحقق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ): **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، طبع مع الإصابة، دار الكتاب العربي – بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني: **معرفة الصحابة**، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- جواهر لال نهرو: **لمحات من تاريخ العالم**، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- حسين مؤنس: **الإسلام الفاتح**، مكتبة الأسرة، الطبعة الأولى – القاهرة.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر محمد: **تاريخ بغداد**، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين: **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق أوتغريد فايترت، المعهد الألماني، ١٩٩٧م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، ١٩٩٣م.
- العصامي، عبد الملك بن حسن بن عبد الملك المكى: **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، المطبعة السلفية – القاهرة.
- فواز الطرابلسي: **تاريخ لبنان الحديث**، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى – بيروت، ٢٠٠٨م.
- القنوجي، صديق بن حسن: **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.
- محمد رجب البيومي: **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق – سوريا، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
- المزي، أبو الحجاج يوسف بن الزكي: **تهذيب الكمال**، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
- نجيب العقيقي: **المستشرقون**، دار المعارف، الطبعة الخامسة- القاهرة، ٢٠٠٦م.
- النووي، أبو زكريا محيى الدين بن شرف: **تهذيب الأسماء واللغات**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ثامنًا: كتب اللغة والمعاجم والأخلاق

- إبراهيم مصطفى وآخرون: **المعجم الوسيط**، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة – مصر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: **لسان العرب**، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله: **معجم البلدان**، دار الفكر - بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصحاح**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الزَّبيدي، أبو الفيض، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار ابن حزم - بيروت.
- الضبي، أبو عكرمة عامر بن عمران: **الأمثال**، تحقيق رمضان عبد التواب - دمشق، ١٩٧٤م.
- العقاد: **اللغة الشاعرة**، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة - مصر ١٩٩٥م.
- فتحي جمعة: **اللغة الباسلة**، دار الهاني، الطابعة السادسة - القاهرة.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي: **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، تحقيق مصطفى السقا، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.
- محمد المبارك: **فقه اللغة وخصائص العربية**، دار الفكر الحديث - بيروت، ١٩٦٠م.

تاسعًا: كتب حديثة حول القرآن

- تمام حسان: **البيان في روائع القرآن**، مكتبة الأسرة - القاهرة، ٢٠٠٢م.
- سيد قطب: **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، الطبعة السادسة عشر - القاهرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): **إعجاز القرآن البياني**، دار المعارف - مصر، ١٣٩١هـ = ١٩٧١م.
- محمد أبو زهرة: **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي، ١٩٧٠م.
- محمد السيد شيخون: **إعجاز النظم في القرآن الكريم**، دار الهداية، ١٩٩٥م.



- محمـد الغـزالي: **نظـرات في القـرآن**، نهضـة مصر للطباعـة والـنشر والتوزيـع، الطبعـة السادسة- القاهرة، ٢٠٠٥م.
- محمـد عبـد الله دراز: **النبـأ العظـيم**، دار القلـم للـنشر والتوزيـع، الطبعـة العـاشرة – القاهرة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- محمـد فـؤاد عبـد البـاقي: **المعجـم المفهـرس لألفـاظ القـرآن الكـريم**، دار الحـديث – القاهرة، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.
- محمد فياض: **إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان**، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- المحمدي عبد العزيز الحناوي: **دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن**، دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٤م.
- مروان التفتنازي: **الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث**، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.
- هارون يحيى: **المعجزات القرآنية**، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- يعقوب يوسف: **لفتات علمية من القرآن**، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الرياض، ١٩٩٧م.

عاشرًا: كتب أجنبية

- Sato Tsugitaka, Muslim Societies, Routledge,UK, 2004.
- أرنولد- سير. توماس: **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.
- إميل درمنجم: **حياة محمد**، ترجمة عادل زعيتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى.

- توماس كارليل: **الأبطال**، ترجمة محمد السباعي، كتاب الهلال، العدد ٣٢٦، ١٩٧٨م.
- جورج سارتون: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**، ترجمة عمر فروخ، مكتبة المعارف – بيروت، ١٩٥٢م.
- جوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ١٩٦٩م.
- ر. ف. بودلي: **الرسول (حياة محمد)**، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، مصر.
- زيجريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة: فروق بيضون وكمال دسوقي، دار صادر – بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- زيجريد هونكه: **الله ليس كذلك**، ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق، الطبعة الثانية – القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ=١٩٩٦م.
- عبد الأحد داود: **محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، ترجمة محمد فاروق الزين، مكتبة العبيكان – الرياض، ١٤١٧هـ.
- كارين أرمسترونج: **سيرة النبي محمد**، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، دار سطور، الطبعة الثانية – القاهرة، مصر، ١٩٩٧م.
- لامارتين: **السفر إلى الشرق**، ترجمة فاطمة عابدين، دار الطليعة الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- لايتنر: **دين الإسلام**، ترجمة عبد الوهاب سليم، المكتبة السلفية، دمشق، سوريا، ١٤٢٣هـ.
- موريس بوكاي: **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم**، دراسة في ضوء المعارف الحديثة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.
- واشنجتون إيرفنج: **حياة محمد**، ترجمة على حسنى الخربوطلى، دار المعارف – القاهرة.



- وحيد الدين خان: **الإسلام يتحدى**، ترجمة ظفر الدين خان، دار البحوث العلمية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
- وليم موير: **حياة محمد**، صدر في لندن، ١٨٥٦-١٨٦١م.

حادي عشر: كتب عامة ومعاصرة

- إبراهيم غوري: **الشمس**، دار الشرق العربي – بيروت.
- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم: **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، تحقيق علي حسن ناصر، وعبد العزيز إبراهيم العسكر، وحمدان محمد، دار العاصمة، الطبعة الأولى – الرياض، ١٤١٤هـ.
- أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد: **أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية – بيروت، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.
- أحمد حامد: **الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء**، دار الشعب للطباعة والنشر – القاهرة، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- **إنجيل برنابا، دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد ﷺ**، تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- أنور الجندي: **بماذا انتصر المسلمون**، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- الحسيني الحسيني معدّي: **الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة**، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى – القاهرة، ٢٠٠٦م.
- خديجة النبراوي: **موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام**، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى – القاهرة، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٧م.
- خليل بدوي: **الموسوعة الفلكية**، عالم الثقافة، الطبعة الأولى – عمّان، ١٩٩٩م.
- زغلول النجار: **الإعجاز العلمي في السُّنة النبوية**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الثامنة – القاهرة، ٢٠٠٦م.

- عباس محمود العقاد: **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، دار نهضة مصر - ١٩٩٨م.
- عبد اللطيف عامر: **أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية**، دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة.
- عبد المجيد الزنداني: **كتاب التوحيد**، دار الخير، الطبعة الأولى، دمشق - سوريا، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- عرفات كامل العيشي: **رجال ونساء أسلموا**، دار القلم، الطبعة الثانية - الكويت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨.
- عفيف عبد الفتاح طبارة: **روح الدين الإسلامي**، دار العلم للملايين - بيروت، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.
- عمر بن عبد العزيز: **سماحة الإسلام**، الذهبية للنشر والترجمة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
- فاروق حمادة: **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- فاضل صالح السامرائي: **نبوة محمد من الشك إلى اليقين**، دار عمار، الطبعة الثانية، عمّان - الأردن، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٨م.
- القرطبي، محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري: **التذكرة في أحوال الموتى والآخرة**، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمود حمدي زقزوق: **حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك**، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
- محمود شلتوت: **الإسلام عقيدة وشريعة**، دار الشروق - القاهرة.
- مصطفى سويف: **المخدرات والمجتمع**، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٦م.
- نصر الله عبد الرحمن أبو طالب: **تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ**،



دار الوفاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

ثاني عشر: جرائد ومواقع إنترنت

- جريدة الرياض: www.alriyadh.com.
- جريدة الشرق الأوسط: www.asharqalawsat.com.
- مجلة التمدن الإسلامي.
- موقع إسلام تايم: www.islamtime.net.
- موقع لواء الشريعة: www.shareah.com.
- موقع مجلة ألمانيا: www.magazine-deutschland.de.
- موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الرابط: www.55a.net/firas/arabic.
- موقع وكالة الأخبار الإسلامية (نبأ): www.islamicnews.net.
- موقع وكالة الروسية نوفوستي: http://ar.rian.ru/analytics.

الفهارس

قال أبو الهدى الصيادي (شاعر سوري):

رَسُــولٌ كُلُّهُ كَرَمٌ وَجُودٌ وَعَزمٌ عَلاهُ يَنْهضُ بِالخُمُولِ

الفهـــــارس

فهرس الآيات

* * *

فهرس الأحاديث

***



فهرس الأعلام

* * *



فهرس الأعلام المترجم لها

***

فهرس الأماكن



فهرس الغزوات والمعارك

* * *

فهرس الصور

❊ ❊ ❊



فهرس الأشكال

فهرس الخرائط

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

قال ابن الجنان (شاعر أندلسي) :

ابْدأْ مَقالكَ بالثّناءِ على النّبيِّ   جَلَّتْ مَحامِدُهُ عنِ الإِحْصَـــاءِ

فهرس الموضوعات

* * *

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني: وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.
- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.
- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.
- ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

  - استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.
  - بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.
  - تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.
- صَدَرَ له حتى الآن ٣٩ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

أسوة للعالمين (من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.

(ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة الدولة التقديرية (جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) عام ٢٠٠٩م.

(الرحمة في حياة الرسول ﷺ): الحائز على جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.

المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب

فن التعامل النبوي مع غير المسلمين

قصة الأندلس من البداية إلى السقوط

قصة تونس من البداية إلى ثورة ٢٠١١م

قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

الشيعة.. نضال أم ضلال؟!

قصة التتار من البداية إلى عين جالوت

قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي

العلم وبناء الأمم – دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها

روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية

أخلاق الحروب في السنة النبوية

قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية

فلسطين.. واجبات الأمة

وشهد شاهد من أهلها

رحماء بينهم – قصة التكافل والإغاثة في الحضارة

بين التاريخ والواقع – أربعة أجزاء

وخُلق الإنسان ضعيفًا

نقطة ومن أول السطر

رمضان ونصر الأمة

أمة لن تموت

رسالة إلى شباب الأمة

كيف تحافظ على صلاة الفجر

كيف تحفظ القرآن الكريم

القراءة منهج حياة

المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية

أخي الطبيب قاطع

أنت وفلسطين

فلسطين لن تضيع.. كيف؟

لسنا في زمان أبرهة

إلا تنصروه ﷺ

التعذيب في سجون الحرية

رمضان وبناء الأمة

الحج ليس للحجاج فقط

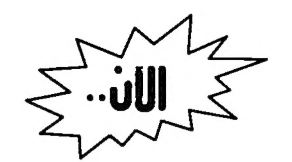
من يشتري الجنة

أسلاك شائكة

الفتنة الطائفية

- يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القيوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.



اشتر إصدارات المؤلف عبر شركة أقلام

١) أسوة للعالمين (من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.

٢) (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة الدولة التقديرية (جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) عام ٢٠٠٩م.

٣) المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب

٤) قصة الأندلس من البداية إلى السقوط

٥) قصة تونس من البداية إلى ثورة ٢٠١١م

٦) قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

٧) فن التعامل النبوي مع غير المسلمين

٨) الشيعة.. نضال أم ضلال؟!

٩) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت

١٠) قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي

١١) العلم وبناء الأمم.. دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها

١٢) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية

١٣) أخلاق الحروب في السنة النبوية

١٤) قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية

١٥) فلسطين.. واجبات الأمة

١٦) وشهد شاهد من أهلها

١٧) رحماء بينهم.. قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
١٨) بين التاريخ والواقع – أربعة أجزاء
١٩) وخُلق الإنسان ضعيفًا
٢٠) نقطة ومن أول السطر
٢١) رمضان ونصر الأمة
٢٢) رسالة إلى شباب الأمة
٢٣) كيف تحافظ على صلاة الفجر
٢٤) كيف تحفظ القرآن الكريم
٢٥) القراءة منهج حياة
٢٦) لسنا في زمان أبرهة
٢٧) إلا تنصروه ﷺ
٢٨) التعذيب في سجون الحرية
٢٩) الحج ليس للحجاج فقط
٣٠) من يشتري الجنة
٣١) أسلاك شائكة
٣٢) الفتنة الطائفية



للنشر والتوزيع والترجمة (ش.م.م)





هذا الكتاب

تعريفًا برسول الله ﷺ وتقديرًا لدوره في هداية البشرية جمعاء، ورغبةً في نشر نوره وهديه على العالمين، وإنقاذ الغرب مما وقع فيه من الإساءة لأعظم إنسان جاء إلى الكون رسول الله ﷺ، قام المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسُّنَّة بمسجد العزيز بالله بإقامة المسابقة العالمية للتعريف برسول الله ﷺ تحت عنوان: (فلتعرف هذا النبي)، وقد تم الإعلان عن المسابقة والدعوة لها في جميع أنحاء العالم.

وقد بلغ عدد البحوث التي وصلت إلى مرحلة التصفيات النهائية لهذه المسابقة مائة وثمانين بحثًا بمختلف اللغات، وكان البحث الفائز بالمركز الأول، هو هذا البحث الذي بين أيديكم "أسوة للعالمين" (من هو محمد ﷺ؟)، وقد حجبت الهيئة المنظمة للمسابقة الجائزة الثانية والثالثة؛ لأنها لم تجد بحثًا يرقى إلى مستوى بحثنا هذا ويكون تاليًا له.

إن هذا الكتاب هو محاولة من مؤلفه الدكتور راغب السرجاني للتعريف برسول الله ﷺ كما يستحق، وأن يجعل الناس جميعًا من المسلمين وغير المسلمين الشرقيين والغربيين يقتربون من شخصيته، ويطلعون على عظمته ورحمته.

المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة

Design by : Ali Mansour



www.aqlamonline.net



www.IslamStory.com